لـي بـاردوغـو

ترجمة: عمر إبراهيم

LEIGH BARDUGO



الظلال والعظام

SHADOW AND BONE



الكاتبة الأكثر مبيعاً - نيويورك تايمز



الظلال والعظام

باردوغو، لي
الظلال والعظام: رواية / لي باردوغو.
ترجمة: عمر إبراهيم.
القاهرة: كيان للنشر والتوزيع، 2022.
416 صفحة، 20 سم.



رقم الإيداع: 28070 / 2021
الطبعة الأولى: يناير 2022.

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

28 7 2022

رواية

الظلال والعظام

لي باردوغو

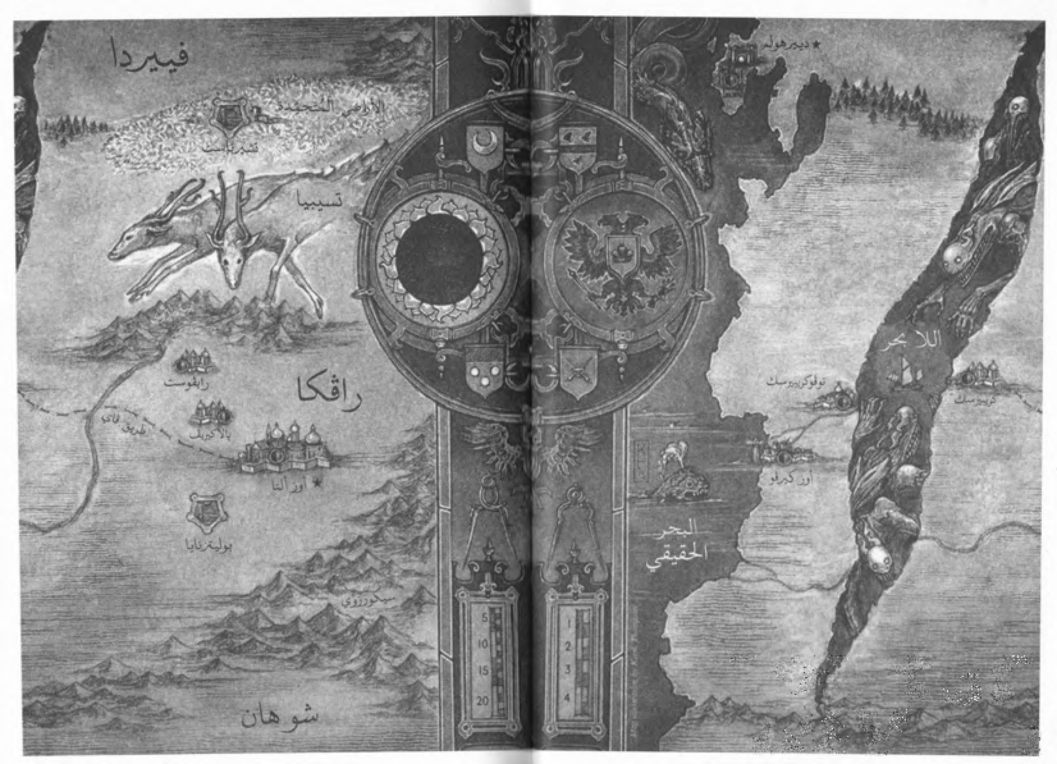
ترجمة : عمر إبراهيم



الإهداء

إلى جدي.. اقصص عليّ بعض الأكاذيب.


تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية



فيردا
الأراضي المتجمدة
تسيبيا
راڤكا
رايفوست
أوز ألتا
بوليزنايا
شوهان
ديرهولم
اللابحر
نوفوكريبيرسك
أوز كيرڤو
البحر
الحقيقي
5
10
15
20
1
2
3
4



تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

الغريشا

جنود الجيش الثاني
سادة العلم الصغير

الكوربورالكي
(جماعة الموتى والأحياء)
المتلاعبون بالقلوب
المُعالجون

الإثيريالكي
(جماعة المُستحضرين)
مُستحضرو الرياح
مُستحضرو النار
خالقو الأمواج

الماتيريالكي
(جماعة المُصنّعين)
الحدّادون
الخيمائيون

آراء عن «الظل والعظام»

«الفانتازيا كما يجب أن تكون».

صحيفة نيويورك تايمز.

«إحدى أفضل روايات الفانتازيا».

موقع هافينغتون بوست.

«يستحيل على القارئ أن يتركها قبل أن يتمّها في جلسة واحدة».

صحيفة يو إس إيه توداي.

«تلك رواية لم أقرأ مثلها من قبل».

الكاتبة الأمريكيّة الأكثر مبيعًا «ڤيرونيكا روث»،

مُؤلفة رباعيّة «الجامحة».

«لقـد أتقنـت باردوغـو بنـاء مُغامـرة شـيّقة, وحكايـةً رومانسـيّة مُؤثّـرة, وأضفَـت عـلى حبكتهـا غموضًـا مُثـيراً».

الكاتب الأمريكي الأكثر مبيعًا «ريك ريوردان»

, مُؤلّف سلسلة «پرسي چاكسون».

«ليـس بوسـعي وصـف مـدى عشـقي لهـذه الروايـة... هـذه أفضـل روايـة فانتازيّـة لليافعـين قرأتهـا منـذ سـابريل والبوصلـة الذهبيّـة»

الكاتبة الأمريكيّة الأكثر مبيعًا «سارة چانيت ماس»,

مُؤلّفة سلسلة «عرش الزجاج».

تمهيد

أسماهما الخدم «مالنشكي» -أو الشبحيْن الصغيرين- وهذا لأنهما صغيرا الحجم والسن. كما أنهما سكنا منزل الدوق مثل الأشباح الضاحكة؛ يخرجان من الغرف ويدخلانها مرة أخرى، ويختبئان في الخزائن كي يسترقا السمع، ويتسللان إلى المطبخ كي يسرقا ما تبقى من الخوخ الصيفي.

أسابيع كانت تفصل بين وصول الصبي والصبية. هما يتيمان شُرِّدا بسبب حروب الحدود، لاجئيْن مُتسخَي الوجه انتُزِعا من أنقاض البلدان الخربة البعيدة، وجاءا إلى عزبة الدوق كي يتعلما القراءة والكتابة والتجارة.

كان الصبي بدينًا قصير القامة، خجولًا ولكن الابتسامة لا تفارق وجهه. أما الفتاة فكانت مختلفة تمامًا.. وكانت مدركة لهذه الحقيقة.

وبينما هما مختبئان في إحدى خزانات المطبخ، يستمعان إلى الكبار وهم منخرطون في النميمة، سَمِعَت الصبيّة مدبرة منزل الدوق (آنا كونيا) وهي تقول: «تلك الصبيّة الصغيرة في غاية القبح. لا ينبغي لطفلة أن تبدو بهذا المظهر! قبيحة وشاحبة الوجه، تشبه زجاجة لبن مقلوبة!».

أضافت الطبّاخة: «وجسدها نحيف للغاية؛ فهي لا تكمل عشاءها أبدًا».

التفت الصبي الذي كان يجلس بجانبها في الخزانة، وهمس في

أذنها قائلا: «لماذا لا تأكلين عشاءك؟».

«لأن كل ما تطهوه يكون طعمه كالطين في فمي!».

«طعامها جيد بالنسبة لي».

«أنت تأكل أي شيء».

عادا يسترقان السمع مرة أخرى واضعين آذانهم على شقٍ عريض بباب الخزانة. وبعد مرور لحظة، همس الفتى في أذنها قائلا: «لا أظنكِ قبيحة».

أمرته الفتاة أن يسكت، ولكن الظلام الدامس داخل الخزانة أخفى ابتسامتها.

***

في فترة الصيف، تحمّل كلاهما مشقة إنجاز الأعمال المنزلية التي دامت لساعاتٍ طويلة، والتي تتبعها ساعات طويلة أخرى من حضور دروسٍ في فصولٍ ضيقة خانقة. وعندما يزداد القيظ لدرجة لا تحتمل، يهرب كلاهما إلى الغابة ليبحثا عن أعشاش الطيور، أو يسبحا في الجدول الطيني الضيق، أو يجلسا في الحديقة لساعاتٍ يراقبان الشمس وهي تمر فوق رأسيهما ببطءٍ، ويفكران في مكان ليبنيا فيه مزرعة ألبان ويتساءلان إذا ما سيحتاجان بقرتين أم ثلاثًا.

وفي الشتاء، سافر الدوق إلى منزله في مدينة (أوز ألتا). صارت الأيام سريعة الانقضاء، شديدة البرودة، وازداد المعلمون تراخيًا وأصبحوا يفضّلون الجلوس بجانب الموقد يلعبون بأوراق اللعب أو يشربون مشروب «الكڤاس». وفي هذه الأجواء المملة حيث يصعب الخروج، صار الفتية الأكبر سنًا يتشاجرون بين

الحين والآخر، ولذا فقد بات الصبي والصبية يختبئان في الغرف المهجورة، يلعبان مع الفئران ويحاولان تدفئة جسديهما.

وفي اليوم الذي حضر فيه «مُختبرو الغريشا»، كان الصبي والصبية جالسين بجانب بعضهما على مقعدٍ بجوار النافذة في إحدى الغرف المُتربة بالطابق العلوي، يحاولان رؤية عربة البريد، ولكنهما لم يريا سوى عربة «ترويكا» تجرُّها ثلاثة أحصنة سوداء تمُر من البوابات الحجرية البيضاء لتدخل العزبة. شاهدا الأحصنة تمضي فوق الثلج دون أن تُحدِث أي صوت، متجهة نحو الباب الأمامي لمنزل الدوق. وفور وقوف العربة، نزل منها ثلاثة أشخاص يرتدون قبعاتٍ من الفرو باهظ الثمن وأزياء من الصوف الثقيل يسمونها «كِفتا»، الأول قرمزي اللون، والثاني أزرق داكن، والثالث أرجواني ينبض بالحياة.

همست الفتاة: «إنّهم من الغريشا!».

صاح الفتى: «أسرعي!».

وفي لمح البصر، نفضا أحذيتهما وأسْرعا على غير هدى إلى الرواق بالأسفل، ومنه إلى غرفة الموسيقى، ثم اختبآ خلف عمود بمعرض الرسومات الذي يطل على غرفة الجلوس حيث تُفضِّل (آنا كونيا) استقبال الضيوف.

كانت (آنا كونيا) بالفعل جالسة هناك، تبدو كطائر في فستانها الأسود، تصب الشاي من إبريق السماور، ومفتاحها الكبير المتدلي من خصرها يُحدث صريرًا يكسر الصمت المُخيِّم على الغرفة.

قالت امرأة من الضيوف بصوتٍ خفيض: «إذن ليس ثمة

غيرهما هذه السنة، أليس كذلك؟».

راقب الصبي والصبية الضيوف من الثغرات التي بين قضبان سور الشرفة المُطلة على الغرفة من تحتهما. كان ثمة اثنان من الغريشا يجلسان بالقرب من الموقد: رجل وسيم يرتدي زيًّا أزرق، وامرأة ترتدي زيًّا أحمر وتبدو عليها علامات الغطرسة والتعالي. أما الثالث فكان شابًا أشقر الشعر، يجوب الغرفة ببطءٍ ليُريح رجليه.

قالت (آنا كونيا): «نعم. صبي وصبية.. ربما هما أصغر اثنين هنا، نعتقد أنهما يبلغان من العمر ثمانية أعوام».

قال الرجل ذو الزي الأزرق: «تعتقدون؟».

أردفت (آنا كونيا): «عندما يموت الوالدان...».

قاطعتها المرأة التي ترتدي الزّي الأحمر قائلة: «نفهم مقصدكِ. وبالطبع نحن من أشد المعجبين بمؤسستكم، بل ونأمل أن يهتم عدد أكبر من النبلاء بالعامّة».

قالت (آنا كونيا): «إن الدوق رجل عظيم حقًا».

وفي الشرفة من فوقهم، أومأ الصبي والصبية رأسيهما بهدوءٍ وهما يتبادلان النظرات.

كان الدوق (كيرامزوف) بطل حرب مشهورًا، وعلاوة على ذلك كان صديقًا للجميع. وعندما عاد من الحرب، قرّر أن يُحوّل عزبته إلى ملجأ للأيتام، وللسيدات اللائي ترمّلن بسبب الحرب. قيل للجميع أن يدعوا له كل ليلة.

سألت السيدة: «وكيف يبدوان؟».

«لدى الفتاة موهبة في الرسم، أمّا الفتى فيقضي معظم وقته

في محيط المنزل، إما في الحديقة أو الغابة».

كررت السيدة سؤالها: «ولكن كيف يبدوان؟».

زمّت (آنا كونيا) شفتيها الذابلتين ثم قالت: «كيف يبدوان؟ إنهما غير منضبطين، متضادان لكنهما متعلقان ببعضهما لأبعد الحدود. كما أنهما...».

«يستمعان إلى كل كلمة نقولها». قال الرجل ذو الزي الأرجواني.

قفز الصبي والصبية في فزع. كان مصوبًا نظره مباشرة نحو مكان اختبائهما. تراجعا ليختبئا خلف أحد الأعمدة، ولكن فات الأوان.

شق صوت (آنا كونيا) الهواء كسوطٍ وهي تصيح: «ألينا ستاركوف! ماليان أوريتسف! تعاليا إلى هنا حالًا!».

مضى الاثنان نحو السلم الحلزوني الذي يقع في نهاية المعرض، ونزلاه على مضض، وما إن وصلا إلى الطابق السفلي حتى نهضت المرأة ذات الزّي الأحمر من مقعدها وأشارت لهما أن يُقبلا نحوها. بدا شعرها رماديًا كالصلب، وكانت ثمّة بعض التجاعيد في وجهها، لكنه ظَلّ جميلا.



سألَتهما: «أتعلمان من نحن؟».

صاح (مال): «أنتم سحَرة!».

«سحَرة؟».

زمجرت المرأة، ثم صاحت في وجه (آنا كونيا) قائلة: «أهذا ما تعلّمونه للأطفال هنا؟ الخرافات والأكاذيب؟».

احمرّ وجه (آنا كونيا) من فرط الإحراج. التفتت المرأة ذات الثوب الأحمر مرة أخرى إلى (مال) و(ألينا)، وقالت لهما بعينين تحترقان رغم دكانتهما: «نحن لسنا سحرةً. نحن ممارسو العلم الصغير.. نحن من نحافظ على أمن هذه المدينة، بل وأمن المملكة بأكملها».

قالت (آنا كونيا) بنبرةٍ هادئة لا تخلو من الحدّة: «تمامًا مثلما يفعل الجيش الأول».

عبست المرأة ذات الثوب الأحمر، ولكن سرعان ما أقرّت قائلة: «مثلما يفعل جيش الملك».

ابتسم الشاب الذي يرتدي الزي الأرجواني وانحنى أمام الصبي والصبية ثم قال بلطفٍ: «عندما يتبدّل لون أوراق الشجر، هل تسميان ذلك سحرًا؟ وماذا لو جرحتما يديكما ثم التأم الجرح؟ وعندما تضعان وعاء به ماء فوق موقدٍ، فيغلي الماء، هل تسميان هذا سحرًا أيضًا؟».

هز (مال) رأسه بعينين مفتوحتين عن آخرهما من فرط الدهشة.

أما (ألينا)، فقالت بوجهٍ عابس: «يمكن لأي أحد أن يغلي الماء».

تنهّدت (آنا كونيا) بسخط، في حين أن المرأة ذات الزي الأحمر أصدرت ضحكة عالية ثم قالت: «أنتِ محقة تمامًا؛ بإمكان أي أحد أن يغلي الماء، ولكن لا يستطيع إتقان العلم الصغير إلا القليل من الناس، ولهذا فقد جئنا نختبركما». التفتت المرأة إلى (آنا كونيا) وقالت: «دعينا وحدنا الآن».

صاح (مال): «انتظري! ماذا سيحدث إذا صرنا من الغريشا؟ ماذا سيحدث لنا؟».

نظرت إليهما المرأة وقالت: «إذا اتضح أن أحدكما من الغريشا، وهذه احتمالية ضعيفة، سيذهب سعيد الحظ إلى مدرسة خاصّة حيث يتعلّم الغريشا كيف يستخدمون مواهبهم بالطريقة الصحيحة».

أضاف الرجل ذو الزي الأرجواني: «سترتديان أغلى الثياب، وتأكلان أشهى الطعام، وستحظيان بكل ما يشتهيه قلباكما. أتريدان كل ذلك؟».

قالت (آنا كونيا) التي لم تزل واقفة بجوار الباب: «هذه أفضل طريقة تخدمان بها الملك».

قالت ذات الزي الأحمر بهدوء وقد بدا على وجهها السرور: «إنها محقة تمامًا».

نظر الفتى والفتاة لبعضهما. لم يلحظ الحاضرون أن الفتاة قد مدّت يدها لتمسك بيد الفتى، ولم يلمح أحدهم تلك النظرات التي تبادلاها، وهذا لأنهم لم يُعيروهما انتباههم. لو كان الدوق معهم لكان سيلاحظ حتمًا تلك النظرات. إنه رجل قضى سنواتٍ طويلة في الحدود الشمالية المدمّرة، حيث القرى في حالة حرب متواصلة. هناك كان الفلاحون يخوضون حروبهم وحدهم، ولم يقدّم لهم الملك -أو غيره- سوى القليل من الدعم الذي يحتاجونه.

هناك رأى الدوق امرأة حافية، تقف أمام مدخل بيتها بثباتٍ ملحوظ وتنظر إلى صفٍ من الحراب الموجّهة صوبها.

وقتها علم الدوق تلك النظرة.. نظرة إنسان يدافع عن بيته وليس بحوزته سوى صخرة في يده، لا أكثر.

الفصل الأول

وقفتُ عند حافة طريق مزدحم، وألقيت نظرة على حقول وادي «تولا» الممتدّة، ومزارعها المهجورة. وقتها لمحت للمرّة الأولى «طيّة الظل». كنت قد غادرت معسكر الجيش في (بوليتزنايا) مع كتيبتي، وقد قطعنا مسيرة أسبوعين. كانت شمس الخريف دافئة من فوقنا، ورغم ذلك فقد ارتعش جسدي حينما تراءى لي ذلك الضباب الكثيف في الأفق كما بقعة الوسَخ على الملابس البيضاء.

اصطدمت بي كتف ثقيلة من الخلف، فتعثرت وكدت أقع فينغمس وجهي في الوحل.

صاح الجندي: «لماذا لا تنتبهين؟!».

رددت بسرعة البرق: «ولماذا لا تنتبه أنت لقدميك السمينتين؟!».

شعرت بالرضا حينما رأيت ملامح الدهشة قد اعتلت وجهه العريض. فعادةً لا يتوقّع الناس مثل هذه الردود الحادة من كائن هزيل مثلي، وخاصة الرجال ضخام الحجم الذين يحملون بنادق كبيرة، وعندما يحدث ذلك، تصيبهم دائمًا حالة أشبه بالدُوار. ولكن الجندي استطاع التخلص من صدمته سريعًا، ورمقني بنظرة خبيثة، ثم أعاد حقيبة ظهره إلى مكانها واختفى بين الأحصنة وحشود الرجال والعربات التي تتدفّق كالنهر من فوق قمّة التل، وحتى الوادي بالأسفل.

أسرعتُ الخطى محاولةً أن أخترق ببصري الحشود. لم أرَ العلم الأصفر لعربة «المسّاحين» منذ ساعات، فعلمت أنني متأخرة جدًّا. انبعثت من حولنا رائحة خشب الخريف الطبيعية، وشعرت بنسيم عليل يدغدغ ظهري.

كنا نمشي في طريق (ڤاي)، وهو ذلك الطريق الواسع الذي كان يصل يومًا بين مدينة (أوز ألتا) ومدن الموانئ الغنية على الساحل الغربي لمملكة (رافكا). ولكن هذا كان قبل وجود «طيّة الظل».

كان ثمّة شخص يغنّي بين الحشد..

ترى من هذا الأبله الذي يُغني وهو في طريقه إلى طيّة الظل؟

نظرتُ مرّة أخرى نحو تلك البقعة في الأفق وجاهدتُ شعورًا بالخوف ظل يتزايد بداخلي. لقد رأيت طيّة الظل في كثير من الخرائط.. رأيتها كجرح أسود يفصل مملكة (رافكا) عن ساحلها الوحيد حتى باتت أرضًا بلا ساحل. وأحيانًا تبدو الطيّة كبقعة أو سحابة كئيبة مشوّهة. وفي بعض الخرائط تبدو كبُحيرة طويلة وضيّقة، أسموها «اللا بحر»، وهو اسم مثير لجنود الجيش والتجار، ويحرّض الكل على عبورها.

نخرتُ.. فقد يُخدع بهذا تاجر سمين، لكن بالنسبة لي، فلم يكن الأمر مريحًا على الإطلاق.

قطعتُ انتباهي عن بؤرة الضباب الخبيثة تلك التي تحوم في الأفق، ونظرتُ إلى مزارع وادي (تولا) الخرِبة. ذلك الوادي كان يومًا يحتضن بعضًا من أغنى العزب في مملكة (رافكا)

بأكملهـا، كان ممتلئًـا بمزارعـين يعتنـون بالمحاصيـل ويرعـون الغنـم في حقـولٍ خـضراء زاهيـة. وفي أحـد الأيـام، ظهـر ذلـك الشـق المُظلـم ليشـوّه كل المناظـر الطبيعيـة.. نطـاق هائـل مـن الظـلام الـذي يصعُـب اختراقـه، الـذي أخـذ يتـمادى ويكبُر مـع كل سـنة جديـدة، وبداخلـه تقطـن كل أشـكال الرعـب.

لا يعلـم أحـد أيـن ذهـب المزارعـون، وماشـيتهم، ومحاصيلهـم، وبيوتهـم وعائلاتهـم..

حدّثـتُ نفـسي بجِـدّة: «توقفـي! أنـتِ تزيديـن الأمـور سـوءًا. لقـد عـبر النـاس الطيّـة عـلى مـدار السـنوات الماضيـة. بالطبـع وقـع عـدد هائـل مـن الضحايـا، ولكـن هـذا لا يهـم».

أخذتُ نفسًا عميقًا محاولةً أن أتماسك.

«لا يجب أن يُغشى عليكِ في منتصف الطريق».

كان الصـوت قريبًـا جـدًا مـن أذني. شـعرتُ بـذراعٍ ثقيلـة تقـع عـلى كتفـي وتديـرني للخلـف. وجـدت وجـه (مـال) المألـوف قبالتي، عينـاه الزرقـاوان اللامعتـان تبتسـمان لي. مـضى بمحـاذاتي وهـو يقول: «هيّـا.. قـدم أمـام الأخـرى، بالطبـع تعلمـين كيـف تفعلـين ذلـك».

«أنت تتدّخل في خطّتي».

«حقًا؟».

«نعـم. سـيُغشى عـليّ، فيمـرّ الجميـع عـليّ، وينتـج عـن ذلـك إصابـات في كل مـكان بجسـمي».

«تبدو حقًا خطّة في منتهى الذكاء!».

«أجل، فإذا تشوّه جسدي، لن أستطيع عبور الطيّة».

أومـأ (مـال) برأسـه ثـم قـال بهـدوء: «أفهـم ذلـك. ويمكننـي أيضًـا

أن ألقي بكِ تحت عربة إذا كان هذا سيُساعدك».

أخبرته بتذمُّر: «دعني أفكِّر في الأمر».

ورغم ذلك شعرتُ بمزاجي يتحسّن. لطالما كان لـ(مال) هذا التأثير عليّ، ويبدو أنني لم أكن الوحيدة؛ فكانت ثمّة فتاة شقراء جميلة تمُر أمامنا. لوّحت لـ(مال) وألقت نظرة غزل خاطفة نحوه.

صاح (مال): «مرحبًا، روبي. هل سأراكِ لاحقًا؟».

ضحكت (روبي) وهرعت نحو الحشد، بينما أخذ ثغر (مال) يتّسع بابتسامة حتّى رآني أشيح بنظري بعيدًا.

«ماذا بكِ؟ لقد ظننتكِ مُعجبة بروبي».

قلتُ بنبرة حادّة: «كل ما في الأمر أننا ليس لدينا الكثير كي نتحدّث فيه معًا».

بالفعل كنتُ مُعجبة بـ(روبي) في البدء..

عندما غادرتُ الميتم مع (مال) كي نؤدّي خدمتنا العسكريّة في (بوليتزنايا)، كنت أشعر بالتوتر بشأن مقابلة أناس جدد. ولكن كان ثمّة الكثير من الفتيات اللائي أرَدن اتّخاذي صديقة لهن. وكانت (روبي) من بين أكثرهن حماسةً لمُصادقتي. واستمرّت تلك الصداقات إلى أن اكتشفتُ أن سبب اهتمامهن بي يكمن في قربي من (مال).

أراه الآن يمُدّ ذراعيه عن آخرهما، ويرفع وجهه نحو سماء الخريف وقد ارتسمت على وجهه ملامح السرور البالغ. لاحظتُ -بشيء من الاشمئزاز- أنّه يسير بحماسة لافتة.

همستُ له بغضبٍ: «ماذا دهاك؟».

أجاب مُتعجّبًا: «لا شيء. أشعر فقط بالسعادة».

«ولكن كيف لك أن تكون.. أنيقًا لهذه الدرجة؟».

«أنيق؟ لم أكن أنيقًا أبدًا.. وأتمنّى ألّا أكون».

قلتُ وأنا أشير إليه: «ما كُل هذا إذًا؟ إنّك تبدو وكأنّك في طريقك لتناول وجبة عشاءٍ لذيذة في حين أنّك من المُحتمل أن تكون في طريقك للموت، وأن تُقطع أوصالك!».

ضحك (مال) ثم قال: «ينتابكِ القلق كثيرًا. لقد أرسل الملك مجموعة كاملة من الغريشا، تحديدًا مُستحضري النار، كي يوفّروا التغطية اللازمة للسفن، وأرسل أيضًا بعضًا من المُتلاعبين بالقلوب المُخيفين».

أضاف (مال): «كما أننا نحمل بنادقنا». ربت على البندقيّة التي يحملها على ظهره وقال: «سنكون بخير».

«ولكن البندقيّة لن تجدي نفعًا إذا حدث هجوم شرس علينا».

نظر إليّ (مال) نظرة تشي بارتباكه ثم قال: «ماذا بكِ هذه الفترة؟ إنّك أكثر غضبًا من المعتاد.. بل وتبدين في حالة مزرية!».

قلت بتذمُّر: «أشكرك.. كل ما في الأمر.. أنّني لا أنام جيدًا هذه الأيّام».

«وما الجديد في ذلك؟».

كان بالطبع على حق، فأنا لم أنم جيدًا في حياتي. ولكن ازداد الأمر سوءًا خلال الأيّام القليلة الماضية.

لقد علِمَ القديسون أن لدي الكثير من الأسباب الوجيهة

التـي تجعلنـي أخـشى الذهـاب إلى الطيّـة. وكل التعسـاء في هـذه الكتيبـة، الذيـن اختـيروا لعبـور الطيّـة، يشـاركونني الأسـباب ذاتها.

ولكـن كان ثمّـة شيء آخـر.. إحسـاس عميـق بالضيـق وعـدم الارتيـاح لا يسـعني وصفـه.

ألقيتُ نظرة على (مال).

يومًا ما، كنت أحكي له كل شيء.

قلتُ: «إنني فقط.. قلقة».

«كُفّـي عـن القلـق.. فربمـا يضعـون ميخائيـل معنـا عـلى السـفينة، وعندمـا تلمـح الڤولكـرا بطنـه الكبـير السـمين، سـتدعنا وشـأننا».

وفجـأة، وبـدون سـابق إنـذار، اسـتدعت ذاكـرتي هـذا المشـهد: كنـت جالسـة بجانـب (مـال) في الكـرسي ذاتـه في مكتبـة الـدوق، وكنّـا نقلّـب صفحـات كتـاب غلافـه مصنـوع مـن الجلـد، ثـم اسـتوقفتنا رسـومات توضيحيّـة لكائنـات الڤولكـرا، وهـي كائنات لها مخالـب طويلـة بشـعة المظهـر، وأجنحـة مكسـوّة بالجلـد، وصفـوف مـن الأسـنان التـي لا تقـل حـدّة عـن الشـفرات، والتـي تسـاعد عـلى التغـذّي عـلى لحـم البـشر. أصيبـت تلـك الكائنـات بالعمـى بسـبب السـنوات الطويلـة التـي قضوهـا داخـل الطيّـة، حيـث يعيشـون ويصطـادون. وكـما تقـول الأسـطورة، فإنهـم يشـمّون رائحـة دم البـشر عـلى بعـد أميـال. أشرتُ إلى الصفحـة وسـألت (مـال): «تُـرى مـا الـذي تمسـكه؟».

مـا زلـت أسـمع صـوت همـس (مـال) في أذني وهـو يقـول: «أظـن.. أظـن أنّهـا قـدم».

أغلقنـا الكتـاب، وركضنـا صارخـين إلى الخـارج كي يغمرنـا ضـوء

الشـمس ويمـلأ قلبينـا بالأمـان.

لم أدرك بعـد ذلـك أننـي توقّفـت عـن المـشي.. تجمّـدت في مـكاني، غـير قـادرة عـلى طـرد تلـك الذكـرى خـارج عقـلي. وعندمـا لاحـظ (مـال) أننـي لسـتُ معـه، تنهّـد تنهيـدةً طويلـة تنـم عـن ضيقـه، ثـم عـاد إليّ، ووضـع يديـه عـلى كتفـيّ وهـزّني هـزّة خفيفـة.

قال أخيراً: «كنت أمزح معكِ.. لن يأكل أحدهم ميخائيل».

قلـت وأنـا أحـدّق بحـذائي: «أعلـم ذلـك.. فلديـك حـس فكاهـة عـالٍ».

«سنكون بخير يا ألينا».

«ليس بوسعك التأكّد من هذا».

«انظري في عينيّ».

اعتدلتُ ورفعت عينيّ لتواجها عينيه.

قـال: «أعلـم أنّـكِ خائفـة.. أنـا أيضًـا خائـف. ولكـن علينـا أن نقـوم بهـذا، وسـنكون بخـير، مثلـما كنّـا دائمًـا. حسـنًا؟».

ابتسَـم، وشـعرت بقلبـي يُصـدر نبضـة تـدوّي في كل ركـن مـن أركان صـدري.

تحسّسـت بإبهامـي تلـك الندبـة المُمتـدّة بطـول راحـة يـدي اليمنـى، ثـم أخـذتُ نفَسًـا عميقًـا هـزّ جسـدي كلّـه وقلـت عـلى مضـض: «حسـنًا».

وفي الواقع، شعرتُ بثغري يتّسع بابتسامة..

صـاح (مـال): «وهـا هـي الأمـيرة قـد اسـتعادت قواهـا.. بإمـكان الشـمس أن تـشرق مجـدّدًا!».

«لماذا لا تصمت؟».

التفتُّ كي ألكمه، ولكن قبل أن تصل يدي إليه، كان قد أمسك بي بقوّة، ورفعني إلى الهواء حتّى لم تعد قدماي تلامسان الأرض. سمعنا قعقعة حوافر وصيحات تشق ثنايا الهواء. جذبني (مال) بعنف إلى أحد جانبي الطريق. كانت ثمّة عربة سوداء ضخمة تمُر بسرعة وتزأر كأسد مُفترس، ومن حولها تَفَرّق الناس، فارّين من حوافر الأحصنة الأربعة السوداء التي قد تدعسهم. وبجانب السائق المُمسك بالسوط، جلس جنديان يرتديان معطفين لونهما مثل لون الفحم الداكن.

إنه حتمًا «مُستحضر الظلام»، فلا يمكن لأحد أن يغفل عن عربته السوداء، أو الزّي الموحّد لحرّاسه الشخصيين.

ثم مرّت عربة أخرى حمراء اللون كانت تمشي بسرعة أقل.

نظرتُ إلى (مال) وقلبي ينبض بشدّة، فقد نجوت لتوّي من خطر مميت.

همستُ قائلة: «شكرًا».

بدا أن (مال) قد لاحظ لتوّه أنّ ذراعيه كانتا مُلتفّتين حولي، ففكّهما وتراجع خطوة للوراء. نفضتُ الغبار عن معطفي، وحاولتُ أن أواري حُمرة وجنتيّ.

مرّت عربة ثالثة، لونها أزرق هذه المرّة، وكانت ثمّة فتاة تطل من نافذتها، شعرها أسود وترتدي قبّعةً فضّية اللون مصنوعة من فراء الثعلب. نظرَت في وجوه كل من في الحشد، وكما هو مُتوقّع، تعلّق نظرها بـ(مال).

وبّخت نفسي قائلة: لقد كنتِ تُحدّقين في عينيه لتوّكِ..

فلـماذا لا تفعـل مثلـك إحـدى حسـناوات الغريشـا؟

ظلّـت مُصوّبـة نظرهـا نحـو (مـال) وقـد ارتسـمت عـلى شـفتيها ابتسـامة خافتـة. لم ينفـك نظرهـا عنـه إلى أن اختفـت العربـة عـن الأنظـار. وحملـق (مـال) فيهـا مثـل الأبلـه وقـد انفتـح ثغـره بعـض الـشيء.

أخبرتـه بسرعـة: «لمـاذا لا تقفـل فمـك قبـل أن تقتحمـه حـشرة طائـرة؟».

رمشت عيْنا (مال)، وملامح الدّهشة لم تبرح وجهه.

علا صوتٌ من خلفنا يقول: «هل رأيت ذلك؟».

التفتـتُ فرأيـت (ميخائيـل) يخطـو نحونـا وعـلى وجهـه ملامـح الذهـول والضّحـك. (ميخائيـل) ضخـم البنيـة، ذو شـعر أشـهب، لـه وجـه عريـض ورقبـة أعـرض. ومـن خلفـه جـاء (دوبـروف) مُسرعًـا ليلحـق بـه، وهـو شـاب طويـل القامـة، رفيـع البـدن، ذو بـشرة داكنـة. كلاهـما مُتعقّبـان ينتميـان إلى وحـدة (مـال)، وثلاثتهـما لا يفترقـون عـن بعضهـم البعـض.

«بالطبـع رأيتهـا». رد (مـال) وقـد اسـتحالت نظـرة الدهشـة التـي اعتلـت وجهـه إلى ابتسـامة بهـا شيء مـن التعـالي.

أشحتُ بنظري عنهم..

صـاح (ميخائيـل) وهـو يـضرب (مـال) عـلى ظهـره: «لقـد كانـت تنظـر إليـك مبـاشرة!».

هـز (مـال) كتفيـه وابتسـم ابتسـامة عريضـة ثـم قـال بتعجـرف: «نعـم قـد فعَلَـت».

التفـت (دوبـروف) وقـد بـدا عليـه القلـق، وقـال: «يقـول البعـض

أن بإمكان فتيات الغريشا أن يسحرنك إذا ألقين عليك بعض التعاويذ».

نخرتُ..

نظر إليّ (ميخائيل) وكأنّه لم يلحظ وجودي بينهم منذ البداية وقال: «كيف حالك أيّتها العصا؟». ثم وخز ذراعي بكوعه وخزة خفيفة. تبدّلت ملامحي حينما نعتني بال«عصا»، ولكنّه لم يلحظ ذلك لأنّه التفت مباشرة لـ(مال).

قال (ميخائيل) وهو ينظر بخبثٍ نحو (مال): «لا شك أنّك تعلم أنّها ستسكن في المُعسكر».

أضاف (دوبروف): «سمعتُ أن خيم الغريشا ضخمة مثل الكاتدرائيات!».

قال (ميخائيل) وهو يهز حاجبيه: «وبها العديد من الأركان المُظلمة».

صاح (مال) فرحًا.. ودون أن ينظر أحدهم إليّ ثانيةً، مضوا في طريقهم بعيدًا، يصيحون، ويدفع كل منهم الآخر.

تمتمتُ وأنا حابسةٌ أنفاسي: «سررتُ لرؤيتكم يا رفاق!».

ضبطتُ حامل حقيبتي الذي يمُر بين كتفيّ، وواصلتُ المشي في طريقي، لاحقةً بالمُتأخّرين من الصف، مُتّجهين جميعًا أسفل التل ثم إلى مدينة (كريبرسك). لم يكن ثمّة داعٍ للإسراع؛ ففي الغالب سيصرخ أحدهم في وجهي عندما أصل إلى «خيمة الوثائق»، ولكن ليس لديّ ما أفعله حيال هذا.

تحسّستُ ذراعي حيث وخَزني (ميخائيل).

لقد نعتني بالعصا.. وكم أكره هذا النعت!

قلـت في قـرارة نفـسي بغِلظـة: إنّـك لم تنعتنـي بالعصـا عندمـا كنـتَ مخمـورًا بالـ«كڤـاس» وحاولـت التحـرُّش بي في عيـد الربيـع وقتـما أشـعلنا النـيران أيهـا الأبلـه البائـس!

***

لم يكـن ثمّـة شيء لافـت في مدينـة (كريبرسـك).. فوفقًـا لكبـير رسّامي الخرائـط، كانـت هـذه المدينـة سـوقًا راكـدة لا يـتردد عليهـا الكثـيرون. لكـن هـذا كان في فـترة مـا قبـل طيّـة الظـل. ولم يكـن بالمدينـة أي معـالم سـوى ميـدان رئيـسي مُغـبر، وحانـة للمسـافرين المُتعبين تقـع عـلى طريـق «ڤـاي». أمّـا الآن، فقـد أصبحـت المدينـة مينـاءً مُتداعيًـا، وأُنشـئ حولهـا مُعسـكر دائـم، وثمّـة أكـثر مـن حـوض جـاف تنتظـر عنـده السـفن الرمليّـة ثـم تمُـر بِرُكّابهـا عـبر الطيّـة مُتّهجـة إلى (راڤـكا الغربيّـة).

مـررتُ بحانـاتٍ وأماكـن أكادُ أجـزم أنّهـا مواخِـر مُخصصـة لخدمة كتائـب جيـش الملـك. وكانـت ثمّـة متاجـر لبيـع البنـادق، والقِسيّ، والمصابيـح، والمشـاعل، وكل المُعـدّات اللازمـة لرحلـة عبـور الطيّـة. أمّـا عـن الكنيسـة الصغـيرة، بحوائطهـا ناصعـة البيـاض وقبابهـا اللامعـة، فكانـت في حالـة مُدهشـة. أو ربمـا لم تكُـن مُدهشـة للدرجـة.. أظـن أنّـه مـن الـذكاء أن يتوقّـف المـرء ليُصلّي في الكنيسـة أولًا قبـل عبـور الطيّـة.

مضيـتُ في طريقـي إلى نُـزُل المسّـاحين. وعندمـا وصلـتُ، وضعـتُ حقيبتـي عـلى أحـد الأسرّة، وأسرعـتُ إلى خيمـة الوثائـق. والحـق أننـي شـعرتُ براحـةٍ كبـيرة لأننـي لم ألمـح كبـير رسّـامي الخرائـط في أي مـكان حـول الخيمـة، ولهـذا اسـتطعتُ أن أدلـف إلى الداخـل دون أن يـراني أحـد.



عندما دخلتُ تلك الخيمة المصنوعة من القماش الأبيض، أحسستُ بالراحة تتملّكني لأوّل مرّة مذ أن وقعت عيناي على الطيّة. كانت خيمة الوثائق مثل خيم المعسكرات الأخرى التي ذهبتُ إليها: دائمًا ما يغمرها ضوء قوي، ودائمًا ما تكون بداخلها صفوف مُتراصّة من طاولات الرسم حيث ينحني الفنّانون والمسّاحون أمام اللوحات، وينهمكون في عملهم.

وبعد تلك الرحلة المليئة بالضجيج والصّخب، أحسستُ بالسَّكينة تتسلل إلى قلبي عندما سمعتُ أحدهم يطوي ورقًا، وعندما فاحت رائحة الحبر حتّى غمرَت المكان بأكمله، وعندما اهتزّت أذناي من أثر صرير الأقلام وخشخشة فُرَش التلوين.

أخرجتُ دفتر الرّسم من جيب معطفي، وجلستُ على منضدة بجانب (أليكسي) الذي التفت نحوي وهمَس بانفعال قائلًا: «أين كنتِ؟».

«كادت عربة مُستحضر الظلام تدعسني». أجبته وأنا أمسك بورقة نظيفة، وأبحث في دفتري عن رسمة مناسبة كي أنسخها.

كنّا نعمل -كلانا- مساعديْن لرسّامي الخرائط المُبتدئين، وكجزء من تدريبنا، كان علينا أن نُسلِّم رسمتين (أو تصوُّرين) في نهاية كل يوم.

أخذ (أليكسي) نفسًا عميقًا ثم قال: «حقًّا؟ هل رأيتِه بالفعل؟».

«في الواقع، كنت أحاول ألّا أموت».

«ثمّة ما هو أصعب من ذلك».

لمح (أليكسي) رسمة لوادٍ مليء بالصخور كنت على وشك

البدء في نسخها. أوقفني قائلا: «لا، لا تنسخي هذه». ثم أخذ يُقلّب في دفتري حتّى وقعت عيناه على رسمة لسلسلة من الجبال الشاهقة الارتفاع، فأشار إليها بإصبعه وقال: «انسخي تلك الرّسمة».

لم أكد أضع قلمي على الورقة حتّى دخل كبير رسّامي الخرائط الخيمة، ومشى بسرعة في الممر بينما يلقي نظرة على أعمالنا.

«ألينا ستاركوف، أتمنّى أن تكون هذه الرسمة الثانية التي ستبدأين فيها».

كذبتُ وقلتُ: «أجل، هذه بالفعل الرسمة الثانية».

همس لي (أليكسي) عندما ابتعد كبير رسّامي الخرائط عنّا قائلا: «أخبريني بأمر العربة».

«عليّ أولًا أن أنتهي من رسوماتي».

قال ساخطًا: «خذي هذه». ومرّر لي إحدى رسوماته.

«بالطبع سيعلم أن هذه الرسمة لك».

«ليست جيدة لهذه الدرجة. تستطيعين أن تنسبيها لنفسك ولن يشعر باختلاف».

تمتمتُ لنفسي قائلةً: «وأخيرًا، هذا هو (أليكسي) الذي أعرفه وأستطيع تحمّله». ولم أرجِع إليه رسمته.

كان (أليكسي) أحد أكثر المساعدين موهبةً، وكان مُدركًا لهذه الحقيقة.

استطاع (أليكسي) أن يعرف -وكأنّه ينتزع منّي المعلومات انتزاعًا- كل تفصيلة حول عربات الغريشا الثلاث. كنتُ ممتنّة

لأنّه أعطاني رسمته، ولذلك فعلتُ ما بوسعي كي أُرضي فضوله. قصصتُ عليه ما حدث بينما كنت أنهي تظليل ارتفاعات بعض القمم الجبليّة، وقياس أعلى سفوحها بإبهامي.

انتهينا من عملنا قبيل الغسق. سلّمنا الرسومات وذهبنا إلى خيمة الطعام حيث وقفنا في طابور طويل كي يحصل كل منّا على وعاء به حساء يشبه الوحل، يقوم بغَرفه لنا طاهٍ يتصبّب العرق من جبينه. تمكّنّا في النّهاية من أن نجد مقاعد بجانب مسّاحين آخرين، فجلسنا معهم.

أنهيتُ وجبتي دون أن أنبس بكلمة. ظللت فقط أستمع إلى (أليكسي) وهو يتجاذب أطراف الحديث مع الجالسين. وفجأة ازداد انفعال الجميع عندما ورد ذكر مُهمّة الغد، وهي عبور الطيّة.

أصرّ (أليكسي) أن أقصص عليهم أمر عربات الغريشا، وكأي مرّة يُذكر فيها مُستحضِر الظلام، اعتلت وجوه الحاضرين ملامح الدّهشة والخوف في الوقت ذاته.

قالت (إيڤا): «إنّه ليس طبيعيًا».

(إيڤا) هي أيضًا إحدى مساعدات رسّامي الخرائط المُبتدئين، لها عينان خضراوان لن يلحظ المرءُ لونهما لكِبَر أنفها الذي يُشبه أنف الخنزير.

ثم ما لبثت أن أضافت: «بل جميعهم ليسوا طبيعيين».

قال (أليكسي) مُنفعلًا: «أرجوكِ دعينا من خرافاتك يا إيڤا».

«إن مَن أوجد طيّة الظل كان مُستحضر ظلام!».

قال (أليكسي) مُعترضًا: «ولكن هذا كان منذ مئات السنوات!

ومُستحضر الظلام الذي فعل هذا وقتها كان مجنونًا لأبعد الحدود».

«ومستحضر الظلام الذي نتحدّث عنه لا يقل عنه سوءًا».

قال (أليكسي): «بالطبع، ماذا عسى قرويّة مثلك أن تقول!». ثم أشار لها أن تنصرف، فنظرت له (إيڤا) نظرة تحدٍّ، وأشاحت بوجهها عنه كي تستأنف حديثها مع أصدقائها.

بقيتُ صامتةً..

في الواقع كنتُ أشعر أنني أقل مستوًى من (إيڤا)، بغض النظر عن خرافاتها. فلقد تعلّمتُ القراءة والكتابة بفضل مؤسّسة الدوق الخيريّة. ولكنني اتّفقتُ مع (مال) يومًا ما ألّا نذكر اسم قرية (كيرامزين) أمام أحد.

دوّت نوبات ضحك صاخبة قطعت حبل أفكاري، وكأنّها إشارة كي أطرد تلك الأفكار من رأسي. التفتُّ لأجد (مال) جالسًا على رأس طاولة «المُتعقّبين»، وقد أعاره الكل انتباههم.

نظر (أليكسي) حيث أنظر، ثم قال: «كيف أصبحتما صديقين إذن؟».

«لقد تربّينا معًا».

«ولكن يبدو أنّه ليس بينكما أشياء مشتركة».

هززتُ كتفيّ وقلت: «أعتقد أنّه من السهل في مرحلة الطفولة أن نجد العديد من الأشياء المُشتركة بيننا».

أكملتُ في نفسي قائلةً: كحبّنا للوحدة مثلًا، أو ذكرياتنا مع آبائنا التي أُرغمنا على نسيانها، أو سعادتنا عندما نهرب من تأدية المهام المنزليّة كي نلعب الغمّيضة في الحديقة.

بدت على وجه (أليكسي) ملامح الشك، مما جعلني أضحك.

«لم يكن (مال) دائمًا مُذهلًا.. ولكنّه الآن مُتعقّب خبير، وشاب قادر على إغواء فتيات الغريشا».

انفتح ثغر (أليكسي) عن آخره من فرط الدّهشة ثم سألني قائلًا: «هل أغوى إحدى فتيات الغريشا حقًا؟».

تمتمتُ قائلةً: «لا، ولكنني مُتأكّدة أنّه سيفعل هذا قريبًا».

«إذًا كيف كان (مال) في السابق؟».

قلتُ وفي نبرتي شيء من الثقة: «كان قصيرًا، بدينًا، ويهابُ الاستحمام».

نظر (أليكسي) نحو (مال) ثم قال: «لا شيء يبقى على حاله».

تحسّستُ تلك الندبة في باطن يدي بإبهامي، وقلت: «أظن ذلك».

أنهينا صحوننا ثم خرجنا من خيمة الطعام لتُحيّينا برودة الليل. وفي طريق عودتنا إلى مقر الجند، أخذنا منعطفًا كي نمُر بجانب مُعسكر الغريشا. كانت خيامهم ضخمة مثل الكاتدرائيّات بالفعل؛ مُغطّاة من الخارج بأقمشة من الحرير الأسود، وراياتهم ذات الألوان الثلاثة: الأزرق والأحمر والبنفسجي، تتطاير عاليًا حتّى تكادُ تلامس السحاب. ومن خلفها، في مكان ما، تقبع خِيَم مُستحضر الظلام، التي يحرسها أفرادٌ من الكوربورالكي، تحديدًا «المُتلاعبين بالقلوب»، بالإضافة إلى حرسه الشخصي.

وعندما نالت عينا (ألكيسي) كفايتهما من تأمّل معسكر الغريشا، عُدنا في طريقنا إلى مُعسكرنا. التزم (أليكسي) الصمت

وبدأ يطقطق أصابعه إصبعًا إصبعًا. علمتُ وقتها أنّه يفكّر مثلي تمامًا في أمر عبورنا الطيّة غدًا. والحق أننا لم نكن الخائفيْن الوحيديْن، فقد خيّم جوٌ من الكآبة على المُعسكر بأكمله؛ فخلَد البعض إلى النّوم مُبكّرًا، ظانّين أنّهم سيهربون بذلك من الخوف الذي سَكن قلوبهم، والبعض حاول مُقاومة الأرق ليحظوا بقسطٍ من الراحة قبل حدث الغد، وآخرون تجمّعوا حول ضوء قنديل، يتجاذبون أطراف الحديث بنبراتٍ مكتومة. وكانت ثمّة فئة قليلة أخرى يجلسون في هدوءٍ، يُمسكون في أيديهم رسومات لقدّيسيهم، مُنغمسين في الصلاة لهم.

فرَدتُ غطائي فوق سريرٍ ضيّق، وخلعتُ حذائي العسكري، وعلّقت معطفي، ثم انزلقتُ تحت بطّانيّتي الصوفيّة، وظللت أحدّق في السّقف محاولةً أن أنام. بقيتُ هكذا لفترة طويلة، حتى أُطفِئَت جميع القناديل، واستُبدِلَت شَخراتٌ رقيقة بهمساتِ المُتحدّثين، وخفخفة الثياب فوق الأسرّة.

إذا سارت الأمور غدًا كما خُطِّط لها، سنعبُر الطيّة إلى (راڤكا الغربيّة) بسلام، وسأرى «البحر الحقيقيّ» لأوّل مرّة في حياتي. وهناك سيقوم المُتعقّبون -ومن بينهم (مال) بالتأكيد- باصطياد الذئاب الحمراء، وثعالب البحر، وغيرها من الكائنات النادرة التي لا وجود لها في أي مكان آخر سوى (راڤكا الغربيّة).

أمّا أنا فسأبقى مع رسّامي الخرائط في مدينة (أوز كيرڤو) كي أُنهي تدريبي، وأُدوِّن أي ملاحظة عن الطيّة قد تكون ذات نفع. ثم بعد ذلك سيتعيّن عليّ عبور الطيّة مُجددًا كي أعود لبلدي. لكنّني أظن أنّه من الصّعب أن أفكّر في أمر العودة من الآن.

كنتُ لم أزل مُستيقظة حينما سمعتُ صوت دقات على الباب.

دقّتان ثم يتوقّف الصوت..

ثم يدق الباب دقّة واحدة.

ثـم يـدق البـاب مرّتـين، ثـم يتوقّـف، ثـم يـدق مـرّة واحـدة يعُـم بعدها السـكون.

سألني (أليكسي) بصوت يغمره النعاس: «ماذا يجري؟».

أجبـتُ هامسـةً: «لا شيء». ثـم أزلـتُ عنّـي الغطـاء وارتديـتُ حـذائي ومعطفـي عـلى وجـه السرعـة، وتسـلّلت إلى الخـارج بهـدوءٍ قـدر اسـتطاعتي. وعندمـا فتحـتُ البـاب، سـمعتُ ضحكـة عاليـة، ثـم مـا لبثـتُ أن سـمعتُ صوتًـا نسـائيًا ينبعـث مـن مـكان مـا داخـل الحجـرة المُظلمـة ويقـول: «إذا كان هـذا المُتعقّـب، فأخبريـه أن يـأتي إلى غرفتـي كي يُدفئنـي».

قلـتُ بلُطـفٍ: «إذا أراد أن يُصـاب بمـرض التسـيفيل ، فسـتكونين حتـمًا أوّل امـرأة يزورهـا». ثـم ألقيـتُ بنفـسي في أحضـان الليـل المُظلـم بالخـارج.

صفَعـت خـدّيّ لسـعة بـردٍ قويّـة، فخبّـأتُ ذقنـي بـين ياقتـي، وتمنّيـتُ لـو كان لـديّ وقـتٌ كافٍ كي أرتـدي وشـاحي وقفّـازيّ.

وجـدتُ (مـال) جالسًـا عـلى سُـلّم مُتـداعٍ، مُولّيًـا ظهـره لي، وكان (ميخائيـل) و(دوبـروف) جالسـين أسـفله بدرجـة أو اثنتـين، يمُـرران زجاجـة بينهـما ذهابًـا وإيابًـا بعدمـا يأخـذ كل منهـما رشـفة مـما بداخلهـا، ومـن فوقهـما تتوهّـج أضـواء قناديـل الممـر مُخترقـة حلـك الليـل.

صحـتُ بغضـبٍ قائلـة: «أرجـوك لا تقـل أنّـك أيقظتنـي كي تُخبرني أنّـك ذاهـب لخيمـة الغريشـا. مـاذا تريـد منّـي؟ نصيحـة مثـلًا؟».

«لم تكوني نائمةً، بل بقيتِ مُستيقظة من فرط القلق».

«كلا، بل كنت أخطط للتسلل إلى خيمة الغريشا كي أقضي الليلة مع فتاة حسناء من الكوربورالكي».

انفجر (مال) ضاحكًا، بينما وقفتُ مُترددة لا أدري ماذا عساني أن أفعل. هذا هو أصعب شعور ينتابني عندما أكون معه. كما أن قلبي يقفز ويقوم بحركاتٍ بهلوانيّة خرقاء أينما حضَر (مال). كم أكره إخفاء ما أشعر به من ألم عندما يتصرّف بتلك السّخافة، وعلى الرغم من ذلك لا أطيق أن يكشف أمري.

فكّرتُ أن أوليه ظهري وأعود إلى خيمتي، ولكنّني تجرّعتُ كأس غِيرتي كاملة وجلستُ بجانبه.

قلتُ: «أتمنّى أن يكون في جعبتك شيء ذو قيمة.. أتعلم؟ لقد ألّفتُ لك كتابًا أسميته «أسرار الإغواء»، وسيكون بالطبع باهظ الثمن».

ضحك ثم قال: «هل يمكنكِ أن تضعيه على حسابي؟».

«أظن ذلك.. وهذا فقط لأنني أعلم أنّه سينفعك».

حدّقت في الظلام الذي يحفّنا. رأيتُ (دوبروف) يأخذ رشفة من الزجاجة ويترنّح للأمام، وسرعان ما وضع (ميخائيل) يده على كتف (دوبروف) كي يساعده على الاتّزان. وفجأة، علَت ضحكاتهما حتّى شقّت ثنايا هواء الليل، وعبَرت إلى آذاننا.

هزّ (مال) رأسه ثم تنهّد وقال: «إنّه يحاول دائمًا أن يسكر مثل (ميخائيل)، وعلى الأرجح سينتهي به الأمر بالتقيؤ على حذائي».

قلتُ: «سيكون هذا عادلًا إذا حدث. والآن أخبرني، ماذا تفعل

هنا؟».

عندما التحقنا بالخدمة العسكريّة العام الماضي، كان (مال) يزورني كل ليلة تقريبًا. ولكنّه لم يأتِ لزيارتي منذ شهور.

هزّ (مال) كتفيه وقال: «لا أعلم». ثم أضاف: «لقد بدا على وجهكِ البؤس وقت العشاء ليلة البارحة».

تفاجأتُ أنّه لاحظ ذلك..

قلتُ بحذر: «كنتُ فقط أفكّر في أمر عبور الطيّة». وهذه ليست كذبة، فقد كنت بالفعل خائفة من دخول الطيّة. وبالطبع ليس ثمّة داعٍ لإخبار (مال) أنني كنت أتحدّث مع (أليكسي) عنه.

قلتُ له بعد ذلك: «إنني مُمتنّة لقلقك عليّ».

ابتسم وقال: «ولكنني.. أقلق عليكِ دائمًا».

«إذا ابتسم لك الحظ، فسأكون وجبة فطور شهيّة للڤلوكرا غدًا، وبهذا فلن يكون هناك داعٍ للقلق».

«أنتِ تعلمين أنني سأضيع إذا فقدتكِ».

قلتُ بنبرةٍ ساخرة: «إنّك لم تضِع طوال حياتك أبدًا».

وهذا صحيح.. فإنّني مُجرّد رسّامة خرائط عاديّة، أمّا (مال) فبوِسعه أن يعرف اتجاه الشمال وهو معصوب العينين، أو وهو واقف على رأسه!

صدمَ كتفي بكتفه وقال: «تعلمين مقصدي جيدًا».

قلت وأنا أتظاهر بالفهم: «بالطبع».

صمتنا برهة راقبنا فيها أنفاسنا وهي تتحوّل لغيوم صغيرة

تتبدّد سريعًا في صقيع الليل.

ظل (مال) مُصوِّبًا نظره نحو حذائه إلى أن قطع الصّمت أخيرًا وقال: «أعتقد أنّني مُتوتّر أيضًا».

ضربته بمرفقي وأنا أقول بثقةٍ لم أتحلّ بها: «لقد تحمّلنا (آنا كونيا) كثيرًا، ولذلك سنستطيع التعامُل مع الڤولكرا بسهولة».

«إذا كنتُ أتذكّر جيّدًا، ففي المرّة الأخيرة التي قابلنا فيها (آنا كونيا)، ضَرَبَتكِ على جانب رأسك، وانتهى الأمر بتنظيفنا إسطبلات الخيل».

قلتُ بنبرةٍ تنم عن ضيقي: «إنّني أحاول تهدئتك! ليتك تظاهرت أنّني نجحتُ في ذلك!».

«أتدرين ما المُضحك؟ أنّني أشتاق إليها أحيانًا».

فعلتُ ما بوسعي كي أواري دهشتي. لقد قضينا أكثر من عشر سنوات من حياتنا في (كيرامزين)، خلالها انتابني شعور بأن (مال) يود أن ينسى كل شيء له علاقة بهذا المكان، حتّى أنا. هُناك لم يكن (مال) سوى لاجئٍ ضائع يرغب في ملاذ آمن، ويتيم آخر عليه أن يشعر بالامتنان مع كل قطعة خبز تدخل فمه، وكل حذاءٍ مُستعمل ترتديه قدمه. أمّا في الجيش، فقد رسم (مال) لنفسه مكانةً حقيقيّة بحيث لن يهتم أحد بمعرفة أصوله، وأنّه كان يومًا صبيًّا غير مرغوب فيه.

أخبرته مُعترفةً: «وأنا أيضًا أشتاق إليها.. يمكننا أن نكاتبها إذا أردت».

«ربما».

وفجأة مد يده وأمسك بيدي. حاولتُ جاهدةً أن أقاوم تلك

الرجفـة العنيفـة التـي كادت تُحطِّـم جسـدي.

أردف قائـلًا: «غـدًا في مثـل هـذه السـاعة، سـنكون جالسـيْن في مرفـأ (أوز كيرفـو)، نتأمّـلُ المُحيـط بينـما نـشرب الكفـاس».

نظـرتُ إلى (دوبـروف) الـذي كان يترنّـح إلى الأمـام والخلـف ثـم قلـت: «هـل سـيجلبه لنـا (دوبـروف)؟».

«سنكون بمفردنا. أنا وأنتِ فقط».

«حقًّا؟».

«لطالما كنّا بمفردنا يا ألينا».

شـعرتُ للحظـة أن هـذه هـي الحقيقـة. بـدا لي وقتهـا أن العـالم بـأسره اجتمـع عنـد هـذا الـدّرَج، حـول ضـوء القنديـل، وأنّنـا، في تلـك الليلـة المُظلمـة، صعدنـا إلى الهـواء وظللنـا مُعلّقـين بـه إلى الأبـد.

صاح (ميخائيل) من مكانه في الممر: «هيّا بنا».

هـزّ (مـال) رأسـه وكأنّـه يسـتيقظ مـن حلـم عميـق، وضغـط عـلى يـدي ضغطـةً أخـيرة قبـل أن يُفلتهـا، ثـم قـال بعدمـا تلاشـت ابتسـامته العريضـة: «عـليّ أن أذهـب. حـاولي أن تنامـي».

قفَـز (مـال) الـدّرج بخفّـة ثـم مـضى سريعًـا كي يلحـق بصاحبيْـه. التفـت لي قبـل أن يبتعـد وصـاح: «تمنّـي لي التوفيـق!».

قلـت بتلقائيّـة: «أتمنّـى لـك حظًّـا سـعيدًا!». ثـم شـعرتُ أنّنـي أريـد ركْل نفسـي..

أي حظٍ سعيدٍ هذا الذي أتمنّاه له؟!

بـدا الأمـر وكأنّنـي أقـول: أتمنّـى لـك وقتًـا سـعيدًا يـا (مـال). أتمنّى

أن تجد فتاةً حسناء من الغريشا، وتقع أسيرًا في حبّها، ثم تنجبان الكثير من الأطفال الحِسان الذين سيحظون بقدرات خارقة بشكل مُثير للاشمئزاز.

جلستُ مُتجمّدةً على الدّرج، أراقبهم بينما يبتعدون، ولمسة يد (مال) الدافئة لم تفارق يدي. وقفتُ بعد ذلك وقلتُ في ذهني: «حسنًا.. ربما سيقع في حفرة وهو في طريقه إلى هناك».

عدتُ إلى الثكنة وأحكمتُ غلق الباب خلفي، ثم انزلقتُ مُجدّدًا تحت غطائي.

تُرى هل ستتسلّل فتاة الغريشا ذات الشعر الأسود إلى خارج الخيمة كي تُقابل (مال)؟

طردتُ هذه الفكرة خارج رأسي.. ففي النهاية، هذا أمر ليس لي علاقة به، وفي الواقع، لا أريد أن أعرف إذا ما كان هذا صحيحًا أم لا.

لم يحدث يومًا أن رأيت (مال) ينظر إليّ مثلما ينظر لتلك الفتاة، أو حتّى مثلما ينظر لـ(روبي)، ولن يفعل. ولكن ما يهم بالنسبة لي هو أنّنا ما زلنا أصدقاء.

سمعتُ صوتًا داخل عقلي يسألني: «منذ متى؟».

كان (أليكسي) على حق عندما قال أن لا شيء يبقى على حاله. لقد تغيّر (مال) للأفضل: صار أكثر جمالًا وشجاعةً وغرورًا. أمّا أنا، فصِرتُ أطوّل فقط. تنهّدتُ وانقلبت على جنبي. كنت أودّ أن أصدّق أنّنا سنبقى أصدقاء إلى الأبد، ولكن عليّ أن أواجه حقيقة أن طرقنا مُختلفة.

بقيتُ كما أنا في الظلام، أحاول أن أنام. تساءلتُ إذا كانت

طرقنا ستُباعد بيننا أكثر وأكثر حتّى يأتي يومٌ ونصير غرباء مرّة أخرى.

الفصل الثاني

مرّ النهار في غمضة عين..

تناولتُ فطوري، ثم ذهبتُ سريعًا إلى خيمة الوثائق كي أحضر المزيد من الحبر والأوراق الإضافيّة. وبعد ذلك مضيتُ إلى المرفأ الجاف الذي كان يعج بالجنود. وقفتُ مع بقيّة المسّاحين، وانتظرتُ أن يأتي دورنا كي نصعد على متن سفينة رمليّة ضمن سفن الأسطول الصغير.

بدت من خلفنا مدينة (كريبيرسك) وقد استيقظ أهلها وانشغلوا في أعمالهم. ومن أمامنا، امتدّ ظلام الطيّة الهائل والغريب حتّى سد الأفق بأكمله.

وفجأة، علا صخب الحيوانات وازداد خوفهم من عبورنا ذلك «اللا بحر».

يتم عبور الطيّة على سفن شراعيّة، تمشي على الرمال مثل الزلّاجات، وتدفعها أشرعة ضخمة تُمكّنها من التزلُّج على الرّمال الرماديّة السّاكنة دون أن تُحدث بالكاد أي صوتٍ. تُحمّلُ عليها -في رحلة الذهاب- أخشاب، وقمح، وقطن خام. أمّا في رحلة الإياب، تُخّزن فيها البنادق، والسُّكّر، وجميع أنواع البضائع الجاهزة التي توجد في موانئ (رافكا الغربيّة).

نظرتُ إلى سطح السفينة فوجدتُ شراعها قد شغل حيّزًا كبيرًا. جال في ذهني وقتها أمرٌ وحيد، وهو أنّه ليس ثمّة مكان للاختباء. لاحظتُ أيضًا وجود جنود مدججين بالسلاح عند

كل صارٍ، يرافق كل مجموعة اثنان من الغريشا، تحديدًا من الإثيريالكي أو جماعة المُستحضرين، يرتدون زي الـ»كيفتا» باللون الأزرق الداكن. كما أن التطاريز الفضيّة التي تزيّن أكمامهم وحوافّ أرديتهم تُشير إلى كونهم «مُستحضري رياح»، وهم مجموعة من أفراد الغريشا الذين باستطاعتهم رفع أو خفض ضغط الهواء، وبهذا يمكنهم تحريك أشرعة السفينة بحيث تمضي بنا عبر الطيّة لأميال طويلة.

اصطف جنود مسلّحون بالبنادق، يُشرف عليهم ضابط عابس الوجه، بمحاذاة حاجز السفينة. وبينهم كان ثمّة العديد من أفراد الإثيريالكي، ولكن الأكمام الحمراء لأرديتهم الزرقاء تشير إلى أنّهم يستحضرون النيران.

أعطى رُبّان السفينة إشارة لكبير رسّامي الخرائط، فقادني مع (أليكسي) وبقيّة المُساعدين إلى متن السفينة كي ننضم إلى الركّاب الآخرين. ثم اتّخذ موقعه بجانب مُستحضري الرياح عند صاري السفينة كي يساعدهم في التنقُّل عبر الظلام. كان يحمل بوصلة في يده، ولكنّها لن تجدي نفعًا عندما نشق ثنايا الطيّة.

احتشدنا على سطح السفينة.. لمحتُ (مال) واقفًا بين المُتعقّبين على الجانب الآخر من السفينة، كلّ منهم يحمل بندقيّة في يده. ومن خلفهم اصطف الرماة، يحملون على ظهورهم جعبات مليئة بسهامٍ رؤوسها مصنوعة من فولاذ الغريشا. تحسّستُ مقبض خنجري المُستقر في غمده، ولكنّه لم يمنحني الثقة التي أردتها.

صاح كبير العاملين بالميناء، فشَرع عددٌ من الرجال الغلاظ في

دفع السفينة فوق رمالٍ لا لون لها، التي تُشير إلى أن السفينة قد اقتربت من حدود الطيّة. تراجع الرجال فجأة وكأن تلك الرمال المُنطفئة الساكنة ستحرق أقدامهم.

ثم جاء دورنا.. اندفعت سفينتنا بقوّة إلى الأمام، تصارع الأرض بينما يدفعها عمّال الميناء. أمسكتُ بحاجز السفينة لئلّا يختل توازني. شعرتُ بقلبي ينبض بعنفٍ وكأنّه سجين يطرق على قضبان قفصي الصدري. رفع مستحضرو الرياح أذرعهم فانفتحت الأشرعة صافعةً وجه الهواء. وفي غضون لحظات، اقتحمت السفينة طيّة الظل.

في البداية كان الأمر أشبه باختراق سحابة دخان لا تنبعث منها حرارة أو رائحة نيران. بدأت جميع الأصوات تتلاشى وصار كل ما حولنا ساكن. شاهدتُ السفن التي سبقتنا تنزلق في الظلام، وتختفي من حيّز الرؤية واحدةً تلو الأخرى. لاحظتُ أنّني لم أعد أرى مُقدّمة السفينة، ثم بعد لحظات لم أعد أرى كف يدي.

تلاشى العالم الذي نعرفه من حولنا. استُبدِل بظلام حالِك، وكثيف، ومُقبِض. ففي النهاية، صرنا داخل طيّة الظل.

بدا الأمر وكأننا نقترب من نهاية كل شيء.. تمسّكت جيدًا بحاجز السفينة حتّى شعرتُ وكأن الخشب قد صار جزءًا من يدي، ولكنّني اطمأننت لصلابته. أمّا أصابع قدميّ فكانت تضغطُ على حذائي بشكلٍ لا إراديّ وكأنّها تلتصق بأرضيّة السفينة.

سمعتُ (أليكسي) يتنفّس على يساري.

حاولتُ التفكير في الجنود الذين يحملون البنادق، ومستحضري النار ذوي الأزياء الزرقاء، كي أهدّئ من روعي. كنّا نأمل أن نعبر الطيّة بهدوءٍ دون أن يُلحظ لنا وجود، أي دون أن يُطلق أحدٌ رصاصة، أو يستحضر أحدهم نارًا. والحق أن وجودهم حولي أدخل السكينة إلى قلبي بالفعل.

لا أدري كم تُقدّر المسافة التي قطعناها، ولكن السفينة كانت تمضي بهدوء، ولم يكن ثمّة أي صوت سوى احتكاك هيكلها بالرمال. ربما استغرق عبورنا ساعات ولكنّها مضت كدقائق سريعة.

حدّثتُ نفسي قائلةً: «كل شيء سيكون على ما يرام.. لا تقلقي.. كل شيء سيكون على ما يُرام».

شعرتُ بعد ذلك بيَدِ (أليكسي) وهي تتحسّس يدي، ثم تتشبّث بمعصمي.

همس لي بصوتٍ يتملّكه الذعر: «أنصتي!».

كل ما سمعته لحظتها كان أصوات أنفاسه المُتقطّعة، وفحيح السفينة التي تزحف على الرمال كالأفعى. ولكن سرعان ما فاجأني صوت آخر، ينبعث من مكان ما في الظلام، صوتٌ خافتٌ مُتكرّر. اتضح لي بعد ذلك أنّه صوت رفرفة أجنحة.

أمسكتُ بيَد (أليكسي)، ووضعتُ يدي الأخرى على خنجري. تسارعت ضربات قلبي، وعيناي ظلّتا تحومان في الأرجاء محاولتين رؤية أي شيء في غياهب الظلمات. سمعتُ قعقعات أسلحة وسهام تُشَد، ثم همس أحدهم قائلًا: «استعدّوا».

انتظرنا كما نحن، نسمع فقط خفقات الأجنحة وهي تشق

الهواء، وكلّما اقتربت يعلو صوتها ويتّضح، وكأنّها طبول عدو على وشك الهجوم علينا. شعرتُ بخدّيّ وكأن الرياح تصفعهما بلا هوادة.

دوّت صيحة آمرة: «أحرقوهم!». تبعتها زمزمة اللهيب الذي استحضره النّاريّون.

أغمضت عينيّ نصف إغماضة من أثر شدّة الضوء المُفاجئ، وانتظرتُ كي يستعيد بصري اتّزانه. رأيتُ كائنات الڤولكرا في ضوء اللهب.. كان من المُفترض أن يطيروا في أسراب صغيرة، لكنّني لم أرَ منهم عشرات، بل كانوا مئات يحومون حول السفينة. كانوا أكثر رعبًا من أي شيء آخر رأيته في كتاب، وأسوأ من أي وحشٍ تخيّلته يومًا ما.

علا دويّ الرصاص. وضرب الرماة سهامهم. ولكن صرخات الڤولكرا ظلّت تعلو ببشاعة، مُخترقة ثنايا الهواء.

سمعتُ صرخات تدوي في الأرجاء، وشاهدتُ بجسدٍ مُرتعد جنديًّا يرتفع إلى الهواء، ينتفض جسده مُقاومًا بلا فائدة. احتميتُ أنا و(أليكسي) بحاجز السفينة، وأبقينا جسدينا مُنحنيين، وأمسك كل منّا بخنجره الواهن، وتمتمنا بعض الصلوات بينما استحال العالم حولنا إلى كابوس مرير. لم يتوقّف الجميع عن الصراخ، رجالًا ونساءً. واستمرّ الجنود في مصارعة تلك الوحوش المُجنّحة الضخمة، بينما كانت نيران الغريشا الذّهبيّة تومض وسط ذلك الظلام الذي لا يتبدّد.

وفجأة انبعثت صرخة من جانبي. شهقتُ عندما انتُزعت ذراع (أليكسي) التي كانت تتشبّث بي. رأيته في ضوء اللهب يحاول الإمساك بحاجز السفينة. رأيت فمه وقد انفرج عن

آخـره، وعينيـه وقـد اتّسـعتا مـن فـرط الذعـر. لقـد التقطـه ذلـك الكائـن الوحـشي بذراعيـه الرماديـين اللامعـين، ثـم أخـذ يخفـق بجناحيـه رافعًـا (أليكـسي) مـن الأرض، ومخالبـه الغليظـة تطعنـه في ظهـره مثـل الخناجـر حتّـى تلطّخـت بدمائـه.

أفلتت أصابع (أليكسي) الحاجز فأسرعت وأمسكت يده.

صحتُ قائلةً: «تمسّك جيدًا!».

توقّفـت ومضـات اللهيـب حولنـا، وفي هـذه الأثنـاء، وسـط هـذه الظلمـة، شـعرتُ بأصابـع (أليكـسي) تنفلـت مـن أصابعـي.

«أليكسي!».

حملتـه الڤولكـرا بعيـدًا في غياهـب الظلـمات، بينـما أخـذت أصـوات المعركـة تعلـو وتعلـو حتّـى ابتلعـت صرخـات (أليكـسي).

أنـارت الجـو ومضـة لهيـب أخـرى، ولكـن (أليكـسي) لم يُـر لـه أثـر.

أليكسي! أليكسي!».»

ظللـتُ أصيـح ولا أسـمع إجابـة، وقـد اتّـكأتُ عـلى حاجـز السّـفينة مـن شـدّة حـسرتي.

ولكـن سرعـان مـا سـمُعت الإجابـة.. كان صـوت رفرفـة أجنحـة ڤولكـرا تُحلّـق باتّجاهـي.

تراجعـتُ للخلـف سريعًـا. كادت تُمسـك بي. أشـهَرتُ خنجـري بيديـن ترتجفـان. اندفعـت الڤولكـرا للأمـام وقـد بـدت عيناهـا -في ضـوء النـيران- بيضـاء كلـوْن اللـبن، وبـلا ضيـاء. أمّـا فمهـا الفاغـر فمُمتلـئ بصفـوف مـن الأسـنان الحـادّة المُتأهّبـة للفتـك بي.

وفجـأة لمحـتُ ميـض طلقـة بندقيّـة بطـرف عينـي، وسـمعتُ دويهـا العـالي.. أُصيبـت الڤولكـرا فأخـذت تترنّـح غاضبـةً مـن شـدّة

الألم.

«تحرّكي!».

كان هـذا (مـال)، يقـف مُمسـكًا ببندقيتـه، ووجهـه مُلطّـخ بالدّمـاء. جذبنـي مـن ذراعـي فاحتميـتُ خلـف ظهـره.

عـادت الڤولكـرا مـرّة أخـرى، تمـضي إلينـا فـوق سـطح السـفينة بجنـاح يتـدلّى بزاويـة مُلتويـة. حـاول (مـال) أن يُعيد تعبئـة بندقيته قبـل أن يختفـي ضـوء النـيران، ولكـن الڤولكـرا كانـت سريعـة جـدًا، فهَجمـت علينـا مُشـهرةً مخالبهـا، ثـم انقضّـت عـلى (مـال) فأحدثـت جروحًـا غائـرة في صـدره، فـصرخ بقـوّة مـن شـدّة الألم.

بسرعـة أمسـكتُ بجنـاح الڤولكـرا المكسـور وطعنتهـا بخنجـري بقـوّة بـين كتفيهـا. شـعرتُ بعضلاتهـا المفتولـة تصـير رخـوةً بـين يـديّ. صرخَـت وانفكّـت مـن قبضتـي، فوقعـتُ عـلى ظهـري واصطـدم جسـدي بقـوّة بسـطح السـفينة. هجمـت عـليّ وقـد تملّـك منهـا الغضـب، ولكنّهـا هـذه المـرّة أشـهَرت فكوكهـا.

رنّ في أذنيّ دويُّ طلقـة أخـرى. سـقطت الڤولكـرا سـقطةً مُروّعـة، وأخـذَت تنـزف دمًـا أسـود مـن فمهـا. شـاهدت (مـال)، في ذلـك الضـوء الخافـت مـن حـولي، وهـو يُخفـض بندقيتـه، وقميصـه المُمـزّق مُلطّـخ بـدمٍ داكـن السّـواد. انزلقـت البندقيّـة مـن يـده وترنّـح جسـده ثـم سـقط عـلى ركبتيـه وانهـار في النّهايـة فـوق سـطح السـفينة.

(مال!). صرختُ فزِعةً.

كنـتُ بجانبـه في لحظـة، أضغـطُ بيـديّ عـلى صـدره في محاولـة يائسـة منّـي لإيقـاف النّزيـف.

(مال!). قلت والدموع تنهمر من عينيّ.

رائحة الدم المخلوط بالبارود أثقلت الجو، واختلطت أصوات النيران أيضًا بأصوات بكاء ركّاب السفينة، وبصوتٍ شنيع آخر لأجسادٍ تؤكل. ضعُفَت نيران الغريشا وصارت مُشتّتة. والأسوأ من ذلك أنّني لاحظتُ أن السفينة قد توقّفت.

قلتُ لنفسي بعدما فقدتُ آخر بريق أمل: «يبدو أنها النهاية».

انحنيتُ فوق جسد (مال)، واستمررتُ في الضّغط على الجرح.

قال وهو يتنفّس بصعوبة: «إنّهم.. قادمون».

نظرتُ فوقي فرأيت تحت ضوء نيران الغريشا الخافتة، اثنتين من الڤولكرا تُحلّقان باتّجاهنا. تمسّكتُ جيّدًا بـ(مال)، وجعلتُ من جسدي درعًا ليحميه. كنتُ أعلم أن هذا لن يفيد، لكن لم يكن بوسعي فعل شيء آخر. شممتُ رائحة الڤولكرا النتنة، وشعرتُ بالهواء يعصف من أثر تحليقهم. ضغطتُ بجبيني على جبين (مال). سمعته يقول لي: «سأقابلك في المرْج».

اندفع شيء ما بداخلي.. ربما بدافع الغضب، أو اليأس، أو لأن موتي حتميّ لا جدال فيه. شعرتُ بتدفُّق دم (مال) أسفل كفّي، ورأيت ملامح الألم تعتلي وجهه الذي أحبّه. صاحت إحدى الڤولكرا صيحة انتصار عندما انغرست مخالبها في كتفي. اهتزّ جسدي من شدّة الألم.

وفجأة، صار العالم أبيض من حولي.

أغمضتُ عينيّ عندما انفجر الضّوء منهما كالفيضان. بدا وكأن الضّوء يملأ رأسي، يعميني، يُغرقني فيه. سمعتُ صرخةً تنبعث من مكانٍ ما من فوقي. أحسستُ بمخالب الڤولكرا تنفك عنّي، ترنّحتُ للأمام حتى ارتطم جسدي بسطح السفينة، ثم لم أشعر بشيء بعدها على الإطلاق.

الفصل الثالث

انتفضتُ من سُباتي فجأة.

شعرتُ باندفاع الهواء على جلدي. وعندما فتحتُ عيني رأيتُ غيومًا سوداء من الدخان. كنتُ مُستلقيةً على ظهري فوق سطح السفينة. استغرقتُ لحظة كي أُدرك أن تلك الغيوم كانت تتبدّد تدريجيًّا، حتّى استحالت إلى خيوط رفيعة داكنة، ثم من بينها بزغت شمس الخريف السّاطعة. أغلقتُ عيني مرّة أخرى، مانحة السّكينة فرصة كي تطرق باب قلبي أخيرًا.

حدّثتُ نفسي قائلةً: نحن في طريقنا إلى خارج الطيّة. يبدو أنّنا نجحنا في عبورها أخيرًا. أو ربما لا.

استعادت ذاكرتي منظر الفولكرا المُرعب وهي تهاجمنا.

تُرى أين ذهب (مال)؟

حاولتُ النّهوض ولكنّني شعرتُ بصاعقة ألم تجري بين كتفيّ. تجاهلتها وقاومتُ الألم لأقف على قدميّ، فوجدتُ فُوّهة بندقيّة مُصوّبة نحوي.

«أبعد هذا الشيء عنّي!». قلت وأنا أمسك بالبندقيّة وأبعدها عن وجهي.

وجّه الجندي بندقيّته نحوي مُجدّدًا، وهزّها بتوعُّدٍ وهو يأمرني قائلًا: «ابقي حيث أنتِ!»

حملقتُ فيه مذهولةً ممّا يفعله ثم قلت: «ماذا دهاك؟».

التفَـتَ وصـاح: «لقـد اسـتيقظَت!». وفي غضـون لحظـات جـاء إلينـا جنديّـان مُسـلّحان آخـران، ورُبّـان السـفينة، وواحـدةٌ مـن الكوربورالـكي. انتابنـي الذعـر عندمـا لاحظـتُ أن كُـم زيّهـا مُطـرّز باللـون الأسـود. تُـرى مـاذا تريـد «متلاعبـة بالقلـوب» منّـي؟

نظـرتُ حـولي فوجـدتُ «مسـتحضر ريـاح» يقـف عنـد أحـد الصـواري، رافعًـا يـده إلى السـماء ويُحـرّك السـفينة بريـحٍ قويّـة، وبجانبـه جنـدي يحمـل سـلاحه. كانـت ثمّـة بِـرك مـن الدمـاء تغمُـر سـطح السـفينة. شـعرتُ بـألمٍ في معـدتي عندمـا تذكّـرتُ هـول المعركـة.

رأيـتُ «مُعالجًـا» مـن الكوربورالـكي يعتنـي بالجرحـى، فتسـاءلتُ: أيـن (مـال)؟

كان ثمّـة مجموعـة مـن الجنـود، وأفـراد مـن الغريشـا، يقفـون عنـد حاجـز السـفينة، مِـن بينهـم مَـن جُـرِح ومـن حُـرِق أثنـاء القتـال. وفي تقديـري، كان عددهـم أقـل مـن العـدد الـذي كان عـلى السـفينة قبـل دخـول الطيّـة. نظـر الجميـع نحـوي بحـذر، فتملّـك الخـوف منّـي، وخفـتُ أكـثر عندمـا أدركـتُ أن الجنديّـين والكوربورالـكي كانـوا -في الواقـع- يحرسـونني، تمامًـا وكأنّنـي سـجينة.

«ثمّـة مُتعقّـب اسـمه (مـال أوريتسـف) أُصيـب أثنـاء الهجـوم، هـل يعلـم أحدكـم أيـن هـو؟».

لم يُجب أحد، فقلتُ: «أرجوكم، أخبروني أين هو!».

اهتـزّت السـفينة بقـوّة عنـد رسـوّها. أشـار لي الرُّبّـان ببندقيّتـه قائـلًا: «قفـي». فكّـرتُ ببسـاطة أن أرفـض النّهـوض حتّـى يخـبرني

أحدهـم مـا حـدث لـ(مـال)، ولكـن نظـرة واحـدة إلى المتلاعبـة بالقلـوب كانـت كفيلـة بتغيير رأيـي. وقفـت عـلى قدمـيّ، جسـدي ينتفـض مـن شـدّة الألم في كتفـي، وعندمـا تحرّكـت السـفينة بفعـل جـذب عـمّال المرفأ لهـا، تعـثّرت وكـدتُ أقـع، فأمسـكتُ بيـد جندي كي لا أفقـد تـوازني ولكنّـه تراجـع وكأنّنـي أحرقتـه. اسـتطعتُ في النهايـة أن أقـف بثبـات، ولكـن الأفـكار في عقـلي لم تثبـت لحظـة.

توقّفت السفينة مرّة أخرى.

صاح الرُّبّان آمرًا: «تحرّكوا!».

قـادني الجنـود إلى خـارج السـفينة وهـم مصوّبـون بنادقهـم نحـوي. مـررتُ بباقـي الناجـين الذيـن ظلّـوا يحدّقـون بي بأعـين يملؤهـا الفضـول والخـوف أيضًـا، ولمحـتُ كبـير رسّـامي الخرائـط وهـو يتحـدّث بحـماسٍ مـع أحـد الجنـود. أردتُ لـو أقـف لأخـبره بمـا حـدث لـ(أليكـسي) ولكنّنـي لم أجـرؤ عـلى ذلـك.

عندمـا وطـأت قدمـي رصيـف الميـناء، تفاجـأتُ أنّنـي قـد عـدتُ إلى (كريبيرسـك) مُجـدّدًا. بـدا أنّنـا لم نتمكّـن مـن عبـور الطيّـة. ارتجفـتُ خوفًـا، ولكـن عندمـا أمعنـتُ التفكـير، وجـدتُ أنّـه مـن الأفضـل أن أمـضي في معسـكرٍ وخلفـي بنـادق مُصوّبـة تجاهـي، عـلى أن أعـود إلى «الـلا بحـر».

أعدتُ التفكير مرّة أخرى.. ربما هذا ليس أفضل كما أعتقد.

قـادني الجنـود إلى الطريـق الرئيـسي، ولمّـا رآني البعـض تركـوا أشـغالهم وحدّقـوا بي. كان رأسي يعُـج بالتسـاؤلات التـي لا توجـد لها إجابـات. تسـاؤلات مـن قبيـل: تُـرى هـل ارتكبـتُ خطـأً مـا داخـل الطيّـة؟ هـل كـسرتُ بروتوكـولًا عسـكريًا مثـلًا؟ وكيـف اسـتطعنا

الخـروج مـن الطيّـة مـن الأسـاس؟

لم تـزل جـروح كتفـي تؤلمنـي.. وهـذا طبيعـي، فآخـر حـدث أتذكّـره هـو لحظـة غـرز الفولكـرا لمخالبهـا في ظهـري، ثـم ذلـك الانفجـار الهائـل للضـوء.

تُرى كيف نجونا من الهلاك الحتمي؟

تلاشـت تلـك الأفـكار مـن عقـلي فـور وصولنـا إلى «خيمـة الضبّـاط». أمـر الرُّبّـان الجنـود أن يقفـوا، ومـضى نحـو المدخـل.

مـدّت الغريشـا يدهـا لتوقفـه ثـم قالـت: «هـذه مضيعـة للوقت، علينـا أن نذهـب فـورًا إلى...».

قـال الرُّبّـان بحِـدّة: «ابعـدي يديـكِ عنّـي أيّتهـا القاتلـة». ثـم أبعـد يدهـا.

حدّقَـت فيـه لوهلـة بعينـين يملؤهـما الـشر ثم ابتسـمت ابتسـامة بـاردة وانحنـت وهـي تقـول: «أمرك أيهـا الرّبّان».

اقشعرّ بدني..

اختفـى الرُّبّـان داخـل الخيمـة بينـما وقفنـا نحـن في انتظـاره بالخـارج. نظـرتُ نحـو الغريشـا التـي بـدت وكأنّهـا قـد نسـيت نزاعهـا مـع الرُّبّـان وأضحَـت تُحـدّق بي مـرّة أُخـرى. كانـت شـابّة ربمـا تصغـرني سـنًا، ولكـن هـذا لم يمنعهـا مـن مواجهـة شـخص بمكانـة الرُّبّان. ولمـاذا قـد يمنعهـا شيء كهـذا؟ فهـي تسـتطيع قتـل الرُّبّـان حيـث يقـف دون أن ترفـع في وجهـه سـلاحًا. حككـتُ ذراعـي مُحاولـة التخلّـص مـن الـبرد الـذي اسـتقر فـوق جسـدي.

انتابنـي الخـوف عندمـا خـرج الرُّبّـان مـن الخيمـة ويتبعـه الكولونيـل (رايفسـكي) بوجـهٍ عابـس.

تُرى أي خطأ ارتكبته يستدعي تدخّل كولونيل؟

حدّق فيّ الكولونيل بوجهٍ مُتجهّم قاتم، ثم قال: «ماذا تكونين؟».

«ألينا ستاركوف، رسّامة خرائط تحت التدريب، الهيئة الملكيّة للمسّاحين...».

قاطعني مُكررًا سؤاله: «ماذا تكونين؟».

اندهشتُ من إصراره على هذا السؤال الغريب. أجبته: «أنا.. أنا مُصمّمة خرائط يا سيدي».

قطّب (رايڤسكي) جبينه.

رأيته ينسحب إلى جنبٍ كي يتحدّث مع أحد الجنود. همس الكولونيل للجندي بشيء جعله يركض إلى المرفأ.

صاح الكولونيل بعد ذلك قائلًا: «هيّا بنا».

وخَزني جندي بطرف بندقيّته في ظهري لأتحرّك. انتابني شعورٌ غير مُطمئن بالمرّة بشأن المكان الذي سيأخذونني إليه. قلتُ في نفسي: «لا بد أنّه حلم.. كل ما أمُرّ به ليس منطقيًّا!». ولكن عندما رأيتُ تلك الخيمة السوداء مُنتصبة أمامي كجبلٍ شاهق، تأكّدتُ أنّه ليس حُلمًا.

كان يحرس مدخل خيمة الغريشا العديد من المتلاعبين بالقلوب من الكوربورالكي، ونفرٌ من الأوبرتشنيكي بأزيائهم الفاحمة. الأوبرتشنيكي هم صفوة الجنود الذين اختيروا ليكونوا الحرّاس الشخصيين لمُستحضر الظلام. ورغم أنّهم ليسوا من الغريشا، فإنّهم لا يقلّون عنهم رعبًا.

راحَت فتاة الكوربورالكي تتشاور مع الحرّاس الواقفين عند

مدخل الخيمة، ثم ما لبثت أن دخلت الخيمة مع الكولونيل (رايفسكي) واختفى الاثنان بالدّاخل وكأن الخيمة قد ابتلعتهما. بقيتُ منتظرة، وقلبي لا يكف عن النّبض بقوّة لا تحتمَل. أحسستُ أن الكل ينظر نحوي.. سمعتُ همساتهم تتكاثر من حولي، فازداد قلقي.

رأيتُ أربعة أعلام ترقص فوق الخيمة على نغمات النسيم؛ علمٌ أزرق، وآخر أحمر، وآخر بنفسجي، وينتصب فوقهم جميعًا علَم أسود. لا أدري لِمَ تذكّرتُ (مال) وأصدقاءه حينما كانوا يمزحون ليلة البارحة ويتخيّلون ماذا سيجدون إذا دخلوا هذه الخيمة. يبدو الآن أنّني سأعرف ما بالدّاخل بدلًا منهم.

تُرى أين (مال)؟

ظل السؤال يتردّد داخل عقلي. بيد أنّه الأمر الوحيد الواضح الذي يشغل تفكيري.

مضى دهرٌ إلى أن عادت فتاة الكوربورالكي إلى الرُّبّان وأومأت له برأسها، ثم قادني إلى داخل الخيمة.

للحظةٍ تلاشى خوفي، أطاح به الجمال الذي أحاطني من كل جانب. سحرتني تطاريز الحرير البرونزيّة التي تُزيّن الخيمة من الداخل، والتي تومض تحت ضوء الثريّات المُعلّقة عاليًا. أمّا الأرضيّة فكانت مُغطّاة ببُسُطٍ باهظة وفراء لم أرَ مثله من قبل. وكانت ثمّة فواصل من حريرٍ مُشِع تُقسِّم الخيمة إلى حجرات صغيرة حيث يتجمّع أفراد الغريشا بأزيائهم النّابضة بالحياة. رأيت البعض يتجاذبون أطراف الحديث، وآخرون استراحوا على أرائك يشربون الشاي، ولمحتُ اثنين مُنهمكين في لعب الشطرنج. سمعتُ أحدهم يعزف لحنًا عذبًا على البلالايكا، ولكنّني لم أدرِ

مـن أيـن انبعـث الصـوت.

تذكّـرتُ عزبـة الـدوق. كانـت جميلـة.. ولكـن جمالهـا مخلـوط بالحـزن. غرفهـا المُتربـة، وجدرانهـا المُقـشّرة، كانـت توحـي بـأن هـذا المـكان العتيـق كان سـاحرًا يومًـا مـا. أمّـا خيمـة الغريشـا فلَـم أرَ مثلهـا في حيـاتي، مُتّقـدة بنـيران القـوّة والـثراء.

قـادني الجنـود إلى ممـر مفـروش ببسـاط طويـل رأيـتُ في آخـره سرادقًـا أسـود مُشـيّدًا عـلى منصّـة عاليـة. رمقنـي الجميـع بنظـراتٍ تـشي بفضولهـم، حتّـى أن رجـال ونسـاء الغريشـا قطعـوا محادثاتهم كي يُحدّقـوا بي، وبعـض الجالسـين همّـوا بالوقـوف كي يـروني عـن قـرب.

وضـع السـكون رحالـه عـلى السـرادق فـور وصـولي إليـه، ولم يبـقَ سـوى صـوت دقّـات قلبـي التـي سـمعها الـكل. وقـع نظـري عـلى مجموعـة مـن الـوزراء يقفـون أمـام السـرادق، يرتـدون أزيـاء باهظـة مُطـرّز عليهـا شـعار الملـك وهـو «العُقـاب المُـزدوج». ورأيـتُ مجموعـة أخـرى مـن الكوربورالـكي مُجتمعـين عـلى طاولـة طويلـة سـطحها مُغطّـى بالخرائـط، وعـلى رأس الطاولـة ثمّـة كـرسي مُزخـرف، ظهـره مرتفـع، مصنـوع مـن خشـب الأبنـوس ولونه أسـود داكـن، ويجلـس عليـه شـخص يرتـدي زي الـ«كِفتـا» الـذي لا يقـل سـوادًا عـن الكـرسي، مُسـندًا ذقنـه فـوق يـده.

ثمّـة شـخص وحيـد مـن الغريشـا يرتـدي الـزيّ الأسـود، ولا يُسـمح لغـيره بارتدائه.

وقـف الكولونيـل (رايفسـكي) بجانبـه وهمـس في أذنـه بنـبراتٍ لم أسـتطع تمييزهـا.

بقيت مُصوّبةً نظري نحوه.. انتابني شعور بالخوف مخلوط بالذهول. قلتُ في نفسي: «إنّه أصغر سنًّا مّما ظننت!». لقد تولّى مُستحضر الظلام قيادة الغريشا قبل أن أولد، ولكن هذا الرجل الذي رأيته وقتها لم يبدُ أكبر منّي بكثير. بدت ملامحه حادّة ولكن جمال وجهه لا شك طاغٍ، شعره أسود كثيف، وعيناه الرماديتان تلمعان كالبلّور.

يُقال أن أقوى أفراد الغريشا يعيشون طويلًا، ولطالما كان مستحضرو الظلام هم الأقوى. لا أعلم لماذا شككتُ في صحّة هذه الجملة ووجدتني أتذكّر ما قالته (إيڤا): إنّه ليس طبيعيًّا.. بل جميعهم ليسوا طبيعيين.

علَت ضحكة انبعثت من وسط الحشد الذي تجمّع أمام المنصّة، رأيت من بينهم فتاة جميلة ترتدي زيًّا أزرق، تذكّرتها، كانت تلك فتاة الإثيريالكي التي ظلّت تُحدّق طويلًا في (مال) عندما مرّت أمامنا بعربتها. همست في أذن صديقتها ذات الشعر الكستنائي ثم ضحكتا مُجددًا. احترق خدّاي من فرط الخجل؛ ففي النهاية كنتُ أرتدي معطفًا رثًّا تمزّق أثناء معركتي مع سربٍ من كائنات الڤولكرا الجائعة.

تخلّصت من خجلي ونظرتُ في عين الفتاة مُباشرة وقلتُ في نفسي: «اضحكي كما تشائين.. ومهما كان ما تهمسين به، فلا يهم، لقد سمعت ما هو أسوأ». بقِيَت ناظرة نحوي لبرهة ثم أشاحت بوجهها عنّي، مّما بعث الرضا في نفسي للحظة، ثم علا صوتُ الكولونيل (رايڤسكي) مُعيدًا إيّاي إلى الواقع مرّة أخرى.

سمعته يقول: «أحضروهم إلى هنا».

التفتُّ لأرى المزيد من الجنود يقودون مجموعة من المُصابين إلى الخيمة ويعبرون بهم الممر. اعتلت وجوههم جميعًا ملامح الدهشة. رأيت من بينهم ذلك الجندي الذي كان يقف بجانبي عندما بدأ هجوم الڤولكرا علينا، ولمحتُ كبير رسّامي الخرائط أيضًا، معطفه مُمزّق على غير العادة، وتعبيرات وجهه تشي بخوفه الشديد. ازداد ضيقي عندما أدركتُ أنّهم النّاجون الوحيدون من الهجوم، وأنّهم أُحضِروا إلى مُستحضر الظلام ليدلوا بشهاداتهم.

تُرى ماذا حدث في الطيّة لستُ على علمٍ به؟ وأي خطأ يظنّون أنّني ارتكبته؟

كادت أنفاسي تنقطع عندما تعرّفت على أفرادٍ من المُتعقّبين ضمن المجموعة. رأيتُ (ميخائيل) أولًا، شعره الأشهب الأشعث يتمايل على كتفيه ورقبته الغليظة، ثم رأيت (مال) مُتّكئًا عليه، جسده ملفوف بالضمّادات التي تُطل من قميصه المُمزّق المُلطّخ بالدماء، ووجهه شاحب يبدو عليه الإعياء الشديد. أحسستُ برجليّ تفقدان توازنهما، ووضعتُ يدي على فمي كي أمنع نفسي من البكاء.

لم يزل (مال) حيًّا! وددتُ لو اخترقتُ الحشد ولُذتُ بحضنه، ولكن لم يسعني سوى البقاء حيث أنا، بينما تتدفّق السكينة إلى قلبي الواهن. لا يهم ماذا سيحدث الآن، فسنكون حتمًا بخير. لقد نجونا من الطيّة، ولا شك سننجو من هذا الجنون أيضًا.

نظرتُ مرّة أخرى إلى المنصّة. هربت السّكينة من قلبي مُجدّدًا عندما وجدتُ مُستحضر الظلام مُصوّبًا نظره تجاهي.

كان يستمع إلى حديث الكولونيل (رايفسكي). لم تتبدّل ملامحه ولكنّني لمحتُ في عينيه التركيز الشديد. انفكّت نظرته عنّي وأعار الكولونيل انتباهه الكامل، لاحظتُ وقتها أنّني كنت حابسةً أنفاسي طيلة هذه المُدّة.

عندما وصل الناجون المُنهكون أمام المنصّة، صاح الكولونيل (رايفسكي) بنبرةٍ آمرة: «أيُّها الرُّبّان، اقصص ما حدث».

انتبه الرُّبّان وبدأ يحكي بنبرةٍ رتيبة: «بعد حوالي نصف ساعة من دخولنا الطيّة، هاجمنا سرب من كائنات الڤولكرا الضّخمة. حوصرنا وتكبّدنا خسائر فادحة. وقتها كنتُ أقاتل على الجانب الأيمن من السفينة، ثم رأيتُ...»

تردّد لحظة، وعندما استكمل حديثه، تبيّن من نبرته أنّه مُتوتّر قليلًا: «لا أعلم ماذا رأيتُ بالضبط.. ربما كانت شعلة ضوء.. واضحة كالنّهار، أو ربما أكثر وضوحًا.. بدا الأمر وكأنّني أنظر إلى الشمس».

ارتفعت همهمات الحشد. رأيتُ الناجين يومئون برؤوسهم، فوجدتُ نفسي أومئ برأسي معهم. أنا أيضًا رأيتُ ذلك الضوء.

استعاد الرُّبّان انتباهه ثانيةً ثم أردف: «وحينما تفرّقت الڤولكرا من حول السفينة واختفى الضوء، أمرتُ أن نعود إلى المرفأ على الفور».

سأله مُستحضر الظلام: «وماذا عن الفتاة؟».

طعنني الخوف بخنجره في قلبي عندما أدركتُ أنّه يتحدّث عنّي.

«لم أرها يا سيدي».

رفع مُستحضر الظلام حاجبه، ثم التفت إلى باقي الناجين وقال بنبرةٍ باردة وكأنه لا يهتم حقًا بالأمر: «من منكم شاهد ما حدث؟».

تهامس الناجون مع بعضهم البعض، ثم تقدّم كبير رسّامي الخرائط للأمام ببطءٍ وخجل. أشفقتُ عليه من الحالة التي بدا فيها، فإنّني لم أره هكذا من قبل. كانت خصلات شعره البُنيّ مُنتصبة كالحِراب، وأصابعه تتشبّث بأطراف معطفه المُهترئ بعصبيّة.

قال (رايفسكي): «أخبرنا ما شاهدته».

لعق الرجل شفتيه ثم قال بصوتٍ واضح: «لقد تعرّضنا.. لهجومٍ عنيف. كنّا نقاتل على كل جانب.. زادت الصرخات، وزادت بِرك الدماء.. و.. اختطفت الفولكرا أحد الصبية، يُدعى (أليكسي). كان الأمر فظيعًا بشكلٍ لا يُحتمَل».

ارتجفت يداه بقوّة..

غضبتُ مما قاله.. فإذا كان قد رأى الفولكرا وهي تهاجم (أليكسي)، فلماذا لم يساعده؟

تنحنح العجوز ثم أردف: «لقد كانوا يحاوطوننا من كل اتّجاه. رأيت فولكرا تنقضُّ عليها...».

قاطعه (رايفسكي): «على من؟».

«ألينا.. ألينا ستاركوف، إحدى المُتدرّبات عندي».

ابتسمت الفتاة الجميلة ذات الزي الأزرق وهمست في أذن صديقتها بشيء لم أتبيّنه، ولكنّني تأكّدتُ أن بوسع الغريشا الحفاظ على كبريائهم حتّى إذا كانوا يستمعون إلى قصص عن

هجوم الڤولكرا.

قال (رايڤسكي) بحِدّة: «أكمِل».

«رأيت واحدةً من الڤولكرا تهجم عليها وعلى هذا المُتعقّب».
قال كبير رسّامي الخرائط مُشيرًا نحو (مال).

«وأين كنتَ أنت؟».

خرج السؤال من فمي بغضبٍ وكأنّ عقلي قد أمر فمي بلفظه على الفور. نظر الجميع نحوي ولكنّني لم ألقِ بالًا لأحد، وأكملتُ قائلةً: «لقد رأيتَ ڤولكرا تهاجمنا، ورأيتَ أخرى تهاجم (أليكسي)، فلماذا لم تساعدنا إذًا؟!».

ردّ مُدافعًا عن نفسه: «لم يكن في يدي شيء أفعله.. لقد أحاطوا بنا.. كانت فوضى عارمة!».

«لو أنّك حرّكت مؤخّرتك الثقيلة هذه لنجا أليكسي!».

سمعتُ شهقات وضحكات تنبعث من وسط الحشد. احمرّ وجه العجوز غضبًا، فشعرتُ بالأسف نحوه.

حتمًا إذا خرجتُ من هذه المشكلة سالمةً، فسأكون في مأزق كبير آخر.

صاح (رايڤسكي) بغضب: «كفى! أخبرنا ما رأيته».

خيّم السكون على المكان، لعق رسّام الخرائط شفتيه ثم قال: «سقط المُتعقّب على سطح السفينة، وسقطت هي بجانبه، ثم انقضّت عليهما الڤولكرا، رأيتها فوق الفتاة، ثم.. انفجر الضوء منها».

دوت صيحات الاستهزاء والسخرية، وضحك البعض ممّا قيل. لو أنّني لم أكُن خائفة وفي حيرة من أمري لكنتُ سأشاركهم

الضحك. قلتُ في نفسي وأنا أنظر إلى تجاعيد وجه العجوز: ربما لم يجدر بي أن أكون قاسية عليه هكذا. لا بد أن هذا الرجل المسكين قد أصيب بضربة في رأسه أثناء الهجوم.

ارتفع صوته فوق صوت الضجّة وهو يقول: «لقد رأيتها.. رأيت الضوء ينبعث منها!».

سمعتُ بعض الغريشا يسخرون مما قاله، والبعض الآخر صاحوا قائلين: «دعوه يُكمل حديثه!». نظر كبير رسّامي الخرائط إلى الناجين بيأسٍ آملًا أن يدعموه، والحق أنّني اندهشتُ عندما رأيتُ بعضهم يومئون برؤوسهم. تُرى هل فقد الجميع عقولهم؟ هل يظنّون حقًّا أنّني من أنقذتهم من الفولكرا؟

علا صوت الفتاة ذات الزي الأزرق: «يا لسخافة هذا الأمر! بماذا تريد أن تقنعنا أيها العجوز؟ أنّك وجدت مُستحضرة نور؟».

رد مُعترضًا: «لا أود إقناعكم بشيء! إنّني فقط أقُص عليكم ما رأيته!».

قاطعه رجل مفتول العضلات من الغريشا، تحديدًا من «الماتيريالكي» أو «جماعة المُصنّعين»، يرتدي زي الكِفتا بلونه البنفسجي، وقال: «ما تقوله ليس مُستحيلًا.. ثمّة قصص تحكي...».

ضحكت الفتاة وقالت مُقاطعةً إيّاه: «لا تكن سخيفًا! لا شك أن الفولكرا قد أطاحت برأس هذا العجوز!».

اندلع جدال صاخب بين الحشد.

شعرتُ فجأة بألم شديد يَسري في كتفي حيث طعنتني الڤولكرا بمخالبها.

لا أدري ماذا رأى كبير رسّامي الخرائط وباقي ركّاب السفينة.. ولكنّني على يقين أن كل ما يحدث ما هو إلّا خطأ فادح، وفي نهاية هذه المسرحيّة الهزليّة، سأكون أنا المُهرّجة التي ستختمها بموعظة. انقبض قلبي عندما تخيّلت حجم المضايقات التي سأتعرّض لها عندما ينتهي كل هذا. وأتمنّى أن ينتهي كل هذا سريعًا.

«هدوء». قالها مُستحضر الظلام بنبرةٍ لا تكاد تكون عالية، ولكنّها كفيلة بإسكات الجميع.

قاومتُ رجفةً قويّة كادت تُردي بي.

ربما لم تكن المزحة مُضحكة بالنسبة له. تمنّيت فقط ألّا يلومني على ذلك.

لا يُعرف عن مُستحضر الظلام أنّه رحيم. وربما عليّ الآن ألّا أنشغل بالتفكير في المُضايقات التي قد أتعرّض لها، بل عليّ أن أفكّر في احتماليّة نفيي إلى غابة (تسيبيا)، أو قد أعاني ممّا هو أسوأ، ففي يومٍ من الأيّام أخبرتني (إيڤا) أن مُستحضر الظلام قد أمر أحد «المعالجين» من الكوربورالكي أن يغلق فم خائنٍ للأبد. التصقت شفتا الرجل وتضوّر جوعًا لفترة حتّى لقي حتفه. وقتها، ضحكتُ أنا و(أليكسي) ظانّين أنّها إحدى خرافات (إيڤا) المُعتادة، ولكنّني الآن أعتقد أنّها قد تكون على صواب.

قال مُستحضر الظلام بهدوء: «أيّها المُتعقّب، أخبرنا بما رأيته».

التفــت الجميــع إلى (مــال) الــذي نظــر نحــوي بقلــق ثــم إلى مُســتحضر الظــلام، وقــال: «لا شيء.. لم أرَ أي شيء».

«لقد كانت الفتاة بجانبي وقتها».

أومأ (مال) برأسه.

«لا بد أنّك رأيت شيئًا».

نظـر لي (مـال) مـرّة أخـرى بعـينٍ يُثقلها القلـق والإرهـاق. لا أتذكّر أنّنـي رأيـتُ وجهـه شـاحبًا لهـذه الدرجـة مـن قبـل. تسـاءلت كـم نـزف مـن الدمـاء إثـر جرحـه الغائـر. تولّـد شـعور غضـب بداخـلي ناتـج عـن عجـزي.. عجـزي عـن مسـاعدته ورعايتـه. كان لا بـد أن يرتـاح بـدلًا مـن وقوفـه هنـا ليُجيـب عـن تلـك الأسـئلة السـخيفة.

أمره (رايڤسكي) قائلًا: «أيّها المُتعقّب، أخبرنا فقط ما تتذكّره».

قـال (مـال) وجسـده ينتفـض مـن شـدّة الألم: «كنـتُ مُسـتلقيًا عـلى ظهـري عـلى سـطح السـفينة، وكانـت (ألينـا) بجانبـي، رأيـتُ الڤولكـرا تطـير باتّجاهنـا، فقلـتُ شـيئًا و...».

«ماذا قلت؟». سأله مُستحضر الظلام بنبرته الباردة.

رد (مال): «لا أتذكّر».

كنتُ أعلم أنّه يكذب.

اتضـح أنّــه تذكّــر بعــد ذلــك، فــأردف قائــلًا: «فاحــت رائحــة الڤولكـرا. رأيتهـا تهجـم علينـا. صرخـت (ألينـا) ثـم.. ثـم لم أعُـد أرى شــيئًا. كان العــالم مــن حــولي.. يــضيء».

سأله (رايڤسكي): «إذًا هل رأيت مصدر الضوء؟».

هــزّ (مــال) رأســه وقــال: «ألينــا ليســت.. ليــس بإمكانهــا.. لقــد

تربّينـا في نفـس.. القريـة». لاحظـتُ وقفاتـه، لا شـك أنّـه تذكّـر كونـه يتيـمًا.

أردف: «إذا كانـت تسـتطيع القيـام بـشيء كهـذا كنـتُ حتـمًا سـأعرف».

أطـال مُسـتحضر الظـلام النظـر إلى (مـال) ثـم صـوّب نظـره نحـوي، وقـال: «كلٌّ منّـا لديـه سر يُخفيـه عـن الجميـع».

فتـح (مـال) فمـه وكان عـلى وشـك إضافـة شيء ولكـن مُسـتحضر الظـلام رفـع يـده وأشـار لـه أن يصمـت، فابتلـع (مـال) الكلـمات التـي كان عـلى وشـك لفظهـا. اتّقـدت عينـا (مـال) مـن فـرط الغضـب ولكنّـه أغلـق فمـه.

نهـض مُسـتحضر الظـلام مـن مقعـده وأشـار للجنـود بالتراجـع حتّـى لم يعُـد أمامـه أحـد غـيري. سـاد صمـت غريـب في أرجـاء الخيمـة. وهـدوء تـام نـزل سـلالم المنصّـة.

قاومتُ رغبة بالتراجع عندما وقف في مواجهتي.

قال بلطفٍ: «والآن، ما قولكِ، ألينا ستاركوف؟».

ابتلعـتُ ريقـي ولكـن حلقـي كان جافًّـا كصحـراء بـلا مـاء، وقلبـي ينتفـض بـين النّبضـة والأخـرى. لم يكـن لـدي خيـار سـوى التحـدّث، كان عـليّ إخبـاره أنّنـي لسـتُ مُذنبـةً.

قلـتُ: «ثمّـة خطـأ مـا. إنّنـي لم أفعـل أي شيء، ولا أعلـم كيـف نجونـا مـن الأسـاس».

أطـرق يُفكّـر للحظـة في مـا قلتـه، عقـد ذراعيـه وانحنـى برأسـه قليـلًا لليمـين، ثـم قال بنـبرةٍ مُرتبكـة: «في الواقع.. أود دائمًـا أن أعرف كل مـا يحـدث داخـل رافـكا. ولذلـك، فـإذا كان ثمّـة مُسـتحضرة نـور

تعيـش في مدينتـي، فعَـليّ أن أكـون عـلى علـمٍ بهـذا».

علَـت همهـمات مـن يوافقونـه الـرأي، ولكنّـه لم يُلـقِ لهـم بـالًا وظـلّ ناظـرًا في عينـيّ. أضـاف أخـيرًا: «ولكـن ثمّـة شـيئًا هائـل القـوّة وضـع حـدًّا للڤولكـرا وأنقـذ سُـفُن الملـك».

سكت وكأنّه ينتظرني أن أحل له هذا اللغز..

رفعتُ ذقني عاليًا وقلتُ بعِناد: «إنّني لم أفعل أي شيء».

ارتعـش جانـب فمـه كـما لـو كان يُقـاوم الابتسـام، وعينـاه لا تنفـكّان عنّـي، تدقّقـان فيّ مـن أعـلى نقطـة بـرأسي وحتّـى أخمـص قدمـيّ. شـعرتُ أنّنـي شيء غريـب المظهـر ولكنّـه لامـع، وكأنّنـي قنّينـة وجدهـا عـلى شـاطئ بحـيرة أُعجـب بشـكلها ثـم ركلهـا جانبًـا بحذائـه.

نظَـر إليّ (مـال) مـرّة أخـرى ثـم سـألني: «هـل ذاكرتـكِ معيبـة مثـل صديقـك؟».

«أنا لستُ...» قلتُ ثم انعقد لساني.

لا أتذكّـر سـوى الذعـر، والظـلام، والألم، ومنظـر (مـال) وهـو ينـزف، وهـو يخـسر حياتـه بـين ذراعـيّ. لا أتذكّـر سـوى الغضـب الـذي كاد يحـرق قلبـي عندمـا أدركـتُ عجـزي.

قال مُستحضر الظلام: «امددي يدكِ».

«ماذا؟».

«لقد أضعنا من الوقت ما يكفي. امددي يدكِ».

ارتعـد جسـدي خوفًـا. نظـرتُ حـولي ولكـن لم يكـن ثمّـة مـن يسـتطيع مسـاعدتي. حـدّق بي الجنـود بوجـوهٍ كالصخـور بـلا ملامـح، وبـدا الخـوف والتعـب عـلى الناجـين. رمقنـي الغريشـا

بعين الفضول، ورأيتُ الفتاة ذات الزي الأزرق تبتسم. أمّا (مال) فصار وجهه أكثر شحوبًا من ذي قبل، وعلى غير العادة، لم أقرأ في عينيه أي رسالة لي.

مددتُ يدي اليسرى رغم أنّها كانت ترتجف.

«ارفعي كُمّكِ».

«صدّقني لم أفعل شيئًا». وددتُ قولها بصوتٍ جهوريّ، وكأنني أعلنها، ولكن الخوف قمع نبرتي.

ظلّ مُستحضر الظلام مُنتظرًا إلى أن فعلتُ كما أمرني.

شاهدته يفرد ذراعيه في الهواء. انتابني الذعر عندما رأيتُ شيئًا أسود لم أتبيّنه يتكوّن بين راحتيه ثم ينتشر مثل الحبر في الماء.

«والآن، لنرَ ما تستطيعين فعله». قالها بنفس النّبرة الباردة وكأنّنا نجلس معًا نحتسي الشاي، مُتجاهلًا أمر جسدي الذي يرتعش أمامه.

أطبَق يده اليمنى على يده اليسرى فأصدر صوتًا قويًا أشبه بدويّ الرعد. ذُهلتُ عندما رأيتُ الظلام يتدفق على هيئة أمواجٍ سوداء من بين كفّيه ليبتلع كل شيء حولنا. لم أرَ شيئًا بعدها، وكأن الغرفة قد اختفت تمامًا. تلاشى كل شيء من حولي وكأنّه لم يكُن.

صرختُ فزِعةً عندما لفّ مُستحضر الظلام أصابعه حول معصم يدي العاري. ولكن سرعان ما قمعتُ ذلك الخوف، حتّى بات كحيوان زاحف بداخلي. ثمّة شيء ما خلّصني من ذلك الخوف.. شيء ما منحني طمأنينةً وقوّة أظن أنّني عهدتها

مـن قبـل.

سـمعتُ نـداءً يـتردّد بداخـلي، تفاجـأتُ عندمـا سـمعتُ صوتًـا آخـر -بداخـلي أيضًـا- يُجيـب ذلـك النـداء، فطردتـه خـارج عقـلي، وهـذا لأنّنـي شـعرتُ أنّـه وحـش مـا إذا أطلقـت سراحـه فسـيفتك بي بـلا أدنى شـك.

سـألني مُسـتحضر الظـلام بصـوتٍ خفيـض قائـلًا: «لا شيء بالدّاخـل؟».

كانـت المسـافة بيننـا في الظـلام أقـل مـن ذراع. تـردّدت كلماتـه داخـل ذهنـي المُشـتّت. قلـتُ في نفـسي: لا شيء بالداخـل، هـذا صحيـح، لا يوجـد أي شيء. والآن دعنـي وشـأني!

انبعثـت الراحـة في نفـسي عندمـا هـدأ الـصراع بداخـلي تـاركًا نـداء مُسـتحضر الظـلام بـلا إجابـة.

همَس قائلًا: «ليس بهذه السرعة».

شـعرتُ بـشيء بـاردٍ يخـترق سـاعدي، وفي تلـك اللحظـة أدركـتُ أنّهـا سـكّين قـد غُـرِزَت شـفرتها في جلـدي. تألّمـتُ وامتـلأ قلبـي بالخـوف. صرخـتُ عاليًـا، شـعرتُ بذلـك الـشيء الغريـب يـردّد صرخـاتي ويحثّنـي عـلى إجابـة نـداء مُسـتحضر الظـلام. لم أسـتطع إيقـاف نفـسي ولبّيـتُ النـداء، فاسـتحال العـالم مـن حـولي إلى كُتلـة هائلـة مـن الضّـوء الأبيـض المُتوهّـج.

تفتّت الظلام حولنا كشذرات الزجاج.

للحظـةٍ نظـرتُ في وجـوه الحاضريـن، فوجـدتُ ثغورهـم مُنفتحـة عـن آخرهـا مـن فـرط الصدمـة، وغمـر الخيمـة ضـوء الشـمس السّـاطع، بينـما امتـلأ الجـو بحـرارة شـديدة.

أفلَت مُستحضر الظلام معصمي. انتابني شعور غريبٌ أنّه قد امتلكني وصار يتحكّمُ بي. تلاشى البريق الشمسيّ وحلّ محلّه ضوء الشموع، ولكنّني لم أزل أشعر بذاك الوهج الدافئ غير المفهوم على سطح جلدي.

كدتُ أسقط لولا أن مُستحضر الظلام أمسك بي بذراعٍ واحدة فاجأتني قوّتها.

همس في أذني قائلًا: «أظنّكِ تبدين كالفأر». ثم أمر أحد حرّاسه الشخصيين بأن يأخذني، فمدّ الحارس يده كي يساعدني على المشي. شعرتُ بشيءٍ من الإهانة لكوني أُمرّر من يدٍ لأخرى كزكيبة بطاطس، ولكن جسدي كان يرتجف فلَم أستطع الاعتراض.

لم ينقطع سيل الدم من ذراعي بفعل الجرح الذي أحدثه مُستحضر الظلام.

صاح مُستحضر الظلام مُناديًا: «أيڤان!». حضر رجل طويل القامة ووقف بجانبه، تبيّنتُ من هيئته أنّه من المُتلاعبين بالقلوب.

أمره مُستحضر الظلام قائلًا: «خذها إلى عرَبتي. أريد أن يرافقها دائمًا حرّاس مسلّحون. اتّجهوا مُباشرة إلى القصر الصغير ولا تقفوا في الطريق لأي سبب. وأحضر مُعالجًا كي يشفي جروحها».

أومأ (أيڤان) برأسه مُطيعًا.

«انتظر!». صحتُ مُعترضة، ولكن مُستحضر الظلام كان قد التفت. أمسكتُ بذراعه مُتجاهلة شهقات المُتفرّجين من الغريشا.

«ثمّة خطأ ما! أنا لا... أنا لستُ...».

وقفت الكلمات في حلقي. التفت لي مُستحضر الظلام ببطءٍ، وعيناه الرماديّتان تنظران إلى يدي المُتشبّثة بكُمّه. أفلتُّه، ولكنني لم أستسلم بهذه السهولة فهمستُ قائلةً: «أنا لستُ كما تعتقد».

اقترَب منّي وهمس لي بنبرةٍ لم يسمعها أحد غيري: «لا أظن أنّكِ تعرفين من تكونين». ثم أومأ برأسه إلى (أيڤان) قائلًا: «هيّا خذها».

أولاني مُستحضر الظلام ظهره ثم مضى بخفّة نحو المنصّة، واحتشد من حوله مُستشارون ووزراء، يتكلّمون جميعهم بسرعةٍ وبصوتٍ عالٍ.

جذب (أيڤان) ذراعي بغلظة وقال لي: «هيّا».

لاحظ مُستحضر الظلام ما حدث فصاح: «أيڤان! انتبه لنبرتك أثناء التحدّث معها، فهي الآن من الغريشا».

احمرّ وجه (أيڤان) قليلًا، وانحنى برأسه مُطيعًا، ولكنّه لم يُرخِ قبضته الغليظة على ذراعي بينما كان يقودني إلى الممر.

قلتُ وأنا أحاول اللحاق بخطواته السريعة: «عليك أن تسمعني! أنا لستُ من الغريشا. أنا مُجرّد رسّامة خرائط عاديّة!».

اكتفى (أيڤان) بتجاهلي.

التفتُّ خلفي باحثة بعينيّ عن (مال) بين الحشد. وجدته يخوض جدالًا مع ربّان السفينة. نظر لي فجأة، وكأنّه أحسّ أنّني أنظر إليه. رأيتُ خوفي وقلقي منعكسين على وجهه

الأبيض. أردتُ أن أنادي عليه، وأن أهرب إلى حضنه الدافئ، ولكنّه اختفى بعد لحظة وكأن الحشد قد ابتلعه.

الفصل الرابع

غمرت عينيّ دموع الإحباط عندما قادني (أيفان) إلى خارج الخيمة كي تُقابلني شمس بعد الظهيرة الخافتة بلا ترحيب. نزلنا لأسفل تلّة مُنخفضة مُتجهيْن إلى الطريق الرئيسي حيث كانت عربة مُستحضر الظلام السوداء في انتظارنا. رأيتُ أفرادًا من الإثيريالكي يلتفّون حول العربة في شكل حلقة، ويتخلّل تلك الحلقة فرسان مُسلّحون. وجدتُ حارسيْن من حرّاس مُستحضر الظلام، في زيّهما الرماديّ، يقفان بجانب باب العربة، وبجانبهما رجل أبيض الشعر وامرأة، يرتديان زي الكوربورالكي الأحمر.

قال (أيفان) بلهجةٍ آمرة: «اصعدي إلى العربة». ثم صمت بُرهة بدا فيها أنّه يتذكّر ما أمره به مُستحضر الظلام، فأضاف سريعًا: «إذا سمحتِ».

«لا».

قال (أيفان) مُندهشًا: «ماذا؟». وبدَت الصدمة على وجهي الرجل والمرأة.

كررتُ قولي: «لا! لن أذهب إلى أيّ مكان. ثمّة خطأ ما تسبّب في...».

قاطعني (أيفان) وقال وهو يضغط بقوّة أكبر على ذراعي: «إن مُستحضر الظلام لا يُخطئ!». ثم ما لبث أن أضاف وهو يعضّ على أسنانه من الغيظ: «اصعدي إلى العربة الآن».

«لا أريد ذلك».

انحنى (أيڤان) برأسه حتّى كاد أنفه يُلامس أنفي وقال بغضب: «هل تظنّين أنّني آبه بما تريدينه؟ اعلمي أن ما حدث في الطيّة سيصل في غضون ساعاتٍ قليلة لكلّ جاسوسٍ في فيردا، وكل قاتل في شو هان، وسيسعون لاختطافكِ. ولنتفادى حدوث ذلك، علينا أن نرافقكِ إلى أوز ألتا، ونوصلكِ إلى القصر بأمان قبل أن يعلم أحد من تكونين. والآن، اصعدي إلى العربة!».

دفعني إلى الداخل ثم تبعني وألقى بنفسه على المقعد المُقابل لي. تبعه الرجل والمرأة ثم حارسا الأوبرتشنكي اللذان جلسا عن يميني ويساري.

«هل أنا سجينة لدى مُستحضر الظلام إذاً؟»

«بل إنّكِ تحت حمايته».

«وهل ثمّة فرق؟».

لم أستطع تمييز ملامح وجهه وهو يقول: «أجل، تمنّي فقط ألّا تُدركي هذا الفرق بنفسك».

تراجعتُ للوراء في مقعدي المُبطّن، وأخذتُ أتألّم في صمت. كدتُ أنسى أمر جروحي.

قال (أيڤان) لامرأة الكوربورالكي: «اعتني بجروحها». عرفتُ من كُم زيّها الرمادي أنّها مُعالجة.

بدّلت المرأة مكانها مع أحد الحارسين كي تجلس بجانبي.

وفجأة أدخَل جندي رأسه من الباب وقال: «نحن جاهزون».

رد (أيڤان): «جيّد. ابقوا مُنتبهين ولا تتوقّفوا عن التحرك».

«سنتوقّف مرّة واحدة فقط كي نُغيّر الأحصنة. إذا توقّفنا قبل ذلك، فاعلم أن ثمّة مُشكلة ما».

أغلق الجندي الباب واختفى. ولم يلبث الحوذي مليًّا حتّى أصدر صيحة عالية وضرب حصانه بالسوط، فترنّحت العربة إلى الأمام بقوّة وشرَعت في السّير.

تسلّل الخوف إلى قلبي.. وتساءلتُ: تُرى ماذا يحدث لي؟

فكّرتُ أن أفتح باب العربة وألقي بنفسي خارجها وأفرّ هاربةً من هذا الكابوس. ولكن إلى أين سأذهب؟ فنحن مُحاطون بجنود مُسلّحين في وسط مُعسكر للجيش. وحتّى لو لم يكونوا هناك، فإلى أين سأذهب؟

سمعتُ المُعالجة تقول لي: «اخلعي معطفكِ رجاءً».

«أريد أن أتفقّد جروحك».

فكّرت في الرّفض، ولكن هل ثمّة فائدة؟

شعرتُ بشيء من الحرج وأنا أخلع معطفي، وساعدتني المُعالجة على خلع قميصي. تذكّرتُ وقتها أن الكوربورالكي هم جماعة الموتى والأحياء، ورغم أنّني ما زلتُ حيّة إلّا أن كل عضلة بجسمي كانت تنتفض خوفًا، ففي النهاية هذه أوّل مرّة تضع مُعالجة يدها على جسدي.

شاهدتُها تخرج شيئًا ما من حقيبة صغيرة، وفي غضون لحظات امتلأت العربة برائحة مادّة كيميائيّة نفّاذة. شرَعت في تنظيف الجروح، تألّمت لدرجة لا تحتمل وكادت أصابعي تُهشّم ركبتيّ من فرط الضّغط عليهما. وعندما انتهت من التنظيف، أحسستُ وكأن ثمّة ثقبًا بين كتفيّ تنبعث منه الحرارة إلى سائر جسدي. عضضتُ على شفتي السفليّة مُحاولة أن أقاوم رغبة مُلحّة لحك ظهري. ارتديتُ قميصي مرّة أخرى عندما فرغت

المُعالجـة مـن عملهـا. حرّكـتُ كتفـيّ بحـذر فوجـدتُ الألم قـد تـلاشى.

قالت: «والآن امددي ذراعكِ».

كـدتُ أنـسى ذلـك الجـرح الـذي أحدثتـه سـكّين مُسـتحضر الظـلام، مـع أن يـدي ومعصمـي كانتـا غارقتـين في الدمـاء. نظّفـت المُعالجـة الجـرح ثـم رفعـت ذراعـي في مواجهـة الضـوء وقالـت: «حـاولي تثبيـت يـدكِ في هـذا الوضـع، وإلّا سـيترك الجـرح ندبـة بـارزة في ذراعـكِ».

فعلـتُ مـا بوسـعي رغم اهتـزاز العربـة العنيـف. مـرّرت المُعالجة يدهـا ببـطءٍ عـلى الجـرح، فشـعرتُ بحـرارة حارقـة فـوق جلـدي. شـعرتُ برغبـة في حـك ذراعـي هـذه المـرّة، وشـاهدتُ -بذهـول لا يوصـف- جلـد ذراعـي يلمـع بقـوّة، وطـرفي الجـرح التأمـا وكأن خيطًـا غـير مـرئي أوصلهـما ببعـض. ولم أعـد أريـد حـك ذراعـي.

تراجعـت المُعالجـة في مقعدهـا. لمسـتُ مـكان الجـرح فلـم أجـد شـيئًا سـوى ندبـة صغـيرة ربمـا بقيـت كي تُذكّـرني بمـا حـدث.

قلتُ لها بنبرة امتنان وذهول في الوقت ذاته: «شكرًا لكِ».

أومأت المُعالجة برأسها.

قال لها (أيڤان): «أعطيها زي الكِفتا الذي ترتدينه».

عبسـت المـرأة وتـردّدت للحظـة قبـل أن تخلـع زيّهـا الأحمـر وتعطيـه لي.

سألته: «ولماذا أحتاج إليه؟».

رد مُتذمّرًا: «ارتديه فقط».

أخـذتُ الكِفتـا مـن المُعالجـة. لم أرَ في وجههـا أي تعبـيرٍ عـن

الضيق، ولكنّي أحسستُ أنّها تأثرت لفراق زيّها عن جسدها.

وقبل أن أعرض عليها أن ترتدي معطفي المُلطّخ بالدماء، نقر (أيفان) على سطح العربة فبدأت تُبطئ سرعتها تدريجيًا، ولم تنتظر المُعالجة وقوف العربة ففتحت الباب وقفزت للخارج. أقفل (أيفان) الباب خلفها ثم جلس الحارس مكانها. وأكملنا المُضي في طريقنا.

سألته: «إلى أين ستذهب المُعالجة؟».

أجاب: «ستعود إلى كريبرسك.. فكلّما قلّ وزن العربة، ستتحرك أسرع».

قلت: «ولكنّك تبدو أثقل منها».

فقال: «فقط ارتدي الكِفتا».

«لماذا؟».

«لأن جماعة الماتيريالكي صمّموه من قماش خاص لا يتأثر بطلقات البنادق».

حدّقتُ في وجهه مُتعجّبةً.

هل هذا مُمكن؟

لطالما سمعتُ قصصًا عن تحمُّل الغريشا لطلقات نارٍ مُباشرة، ونجاتهم من جروحٍ مُميتة، ولكنّني لم أصدّق أبدًا أيًا منها. من الواضح أن تلك الحكايات الريفيّة كانت تستند على أعمال أولئك «المُصنّعين».

سألتُ وأنا أرتدي الزي: «هل ترتدونه جميعًا؟».

رد أحد الحارسين: «أجل، عندما نمشي في الخلاء».

تفاجأتُ بـردّ أحـد الأوبرتشـنكي، فكانـت هـذه أوّل مـرّة ينبـس فيهـا أحدهـما بكلمـة.

قـال (أيڤـان) وقـد ارتسـمت عـلى وجهـه ابتسـامة مُتعاليـة: «حـاولي فقـط ألّا تتلقّـي إصابـة في رأسـكِ».

تجاهلته..

كان الـزي واسـعًا أكـثر مـن الـلازم، وناعـمًا، وبطانـة الفـراء دافئـة عـلى بـشرتي. لم أرَ أنّـه مـن العـدل أن يرتدي الأوبرتشـنكي والغريشـا وحدهـم ذلـك القـماش الخـاص، بينـما يُقاتـل الجنـود العاديـون بدونـه.

تُرى هل يرتديه ضبّاطنا أيضًا؟

ازدادت سرعة العربة.

عندمـا غادرنـا (كريبيرسـك) وبـدأت المُعالجـة في مـداواة جروحي، كان ذلـك قبيـل الغسـق. انحنيـتُ للأمـام كي أنظـر عـبر النافـذة، ولكنّنـي لم أر أي شيء سـوى غشـاوة المسـاء. كادت الدمـوع تنهمـر مـن عينـيّ مُجـددًا ولكنّنـي قمعتهـا.

منـذ بضـع سـاعات كنـت فتـاة خائفـة تمـضي في طريقهـا إلى المجهـول، لكـن عـلى الأقـل كنـتُ أعلـم مـن أنـا.

انقبـض قلبـي عندمـا تذكّـرتُ خيمـة الوثائـق.. مـن المُحتمـل أن يكـون المسّـاحون قـد عـادوا إلى عملهـم. تُـرى هـل سـيبكون عـلى فـراق أليكـسي؟ هـل سـيتحدّثون عنّـي وعـما حـدث في الطيّـة؟

أمسـكتُ بمعطفـي العسـكري الـذي كان يسـتريح عـلى رجـلي، وتسـاءلتُ وكأنّنـي أحدّثـه: كيـف حـدث كل ذلـك فجـأة؟ لا بـد أنّنـي أحلـم، أو ربمـا هـذه محـض هلوسـات أصابتنـي بعـد مـا

مـررتُ بـه داخـل الطيّـة. فكيـف لي أن أرتـدي زي الغريشـا، وأجلس في عربـة مُسـتحضر الظـلام التـي كادت تدعسـني البارحـة؟!

أشـعل أحدهـم قنديـلًا داخـل العربـة فاسـتطعتُ رؤيتهـا مـن الداخـل بشـكلٍ أوضـح. كانـت المقاعـد سـوداء مخمليّـة بطانتهـا ثقيلـة، ومحفـورٌ عـلى النوافـذ شـعار مُسـتحضر الظـلام، وهـو مُكـوّن مـن دائرتـين مُتداخلتـين، تُشـبهان منظـر القمـر والشـمس وقـت الكسـوف.

كان الرجـل والمـرأة اللـذان يجلسـان أمامـي يحدّقـان بي وفي عينيهـما شرارة فضـول. زيُّهـم الأحمـر مغـزولٌ مـن أجـود أنـواع الصـوف، ومُطـرّز بمهـارة بخيـوط سـوداء مثل لـون البطانـة أيضًـا. كان الرجـل ذو الشـعر الأبيـض نحيفًـا وطويـل القامـة ووجهـه طويـل ويبـدو فيـه الحـزن. أمّـا (أيفـان) فـكان أطـول منـه قامـةً، وأكـثر عُرضًـا، وشـعره بُنّـي مُمـوّج، وبشرتـه صبغتهـا الشـمس بلـون البرونـز.

وبمـا أنّنـي ألقيـتُ نظـرةً عليـه، فعليّ الاعـتراف بأنّـه وسـيم رغـم سخافته.

تقلّبـتُ كثـيرًا في مقعـدي، مُنزعجـةً مـن نظراتهـم غـير المُطمئنـة. نظـرتُ عـبر النافـذة فلـم أرَ شـيئًا غـير الظـلام المُتفاقـم، وانعـكاس وجهـي الشـاحب في المـرآة. نظـرتُ إليهـم مـرّة أخـرى مُحاولـةً كبـح سـخطي، ولكنّهـم لم يزالـوا يفحصـون وجهـي. ذكّـرتُ نفـسي بأنّهـم أنـاس يسـتطيعون تفجـير قلبـي داخـل صـدري، ورغـم ذلـك فلـم أسـتطع التحمُّـل أكـثر مـن هـذا، فقلـتُ: «أتعلمـون؟ أنـا لا أقـوم بـأي شيء قـد يُسـلّيكم، لا أقـوم بخُـدعٍ مثـلًا!».

تبادلوا جميعًا النظرات.

قال (أيڤان): «حقًا؟ مع أنّك قُمتِ بخدعة في الخيمة».

قلتُ باستياء: «حسنًا، إذا خطّطتُ للقيام بأي شيء قد يُثير اهتمامكم، فأعدكم أن أنبّهكم قبلها، والآن.. لماذا لا تأخذون قيلولة مثلًا؟».

بدا أن (أيڤان) قد شعر بالإهانة، فخفتُ أن يغضب. تفاجأتُ بعدها بالرجل ذي الشعر الأبيض وقد انخرط في نوبةٍ من الضحك، ثم قال بعدما انتهى: «أُدعى فيديور، وهذا أيڤان».

أخبرته أنّني أعلم ذلك، ولكن عندما تجلّى لي وجه (آنا كونيا) العابس من غياهب ذاكرتي، أضفتُ: «سررتُ بمعرفتك».

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر بتعجّب، تجاهلتهما واعتدلتُ في مقعدي مُحاولة أن أجلس مُستريحة، والحق أن هذا لم يكن سهلًا أبدًا، فقد أُجبرتُ على الجلوس بين رجلين مُسلّحين يشغلان أكثر من نصف مساحة المقصورة.

اصطدمت العربة بحجرٍ ثم أكملت اندفاعها للأمام.

سألتُ (فيديور): «هل السفر ليلًا آمن؟».

أجابني قائلًا: «لا، ولكن قد نتعرّض للخطر إذا توقّفنا».

قلتُ بسخرية: «وهذا لأن الكل يبحث عنّي الآن، أليس كذلك؟».

«إذا كانوا لا يبحثون عنكِ الآن، فسيبدأون بحثهم عمّا قريب».

نخرتُ لا إراديًا..

رفع (فيديور) حاجبيه وقال: «منذ مئات السنين وتلك الطيّة عدوّة لنا، أغلقت موانئنا، وفرّقت شملنا، وأضعفت قوانا. فإذا كنتِ حقًا مُستحضرة نور، فستكون قوّتكِ بمثابة مفتاح للعبور

داخـل الطيّـة بأمـان، أو ربمـا ستسـتطيعين تدميرهـا إلى الأبـد! ولكـن أهـل فيـيردا وشـو هـان لـن يقفـوا مكتـوفي الأيـدي، ويسـمحوا بحـدوث ذلـك».

اندهشتُ مما قاله..

تُـرى مـاذا يتوقّـع هـؤلاء النـاس منّـي؟ ومـاذا سـيفعلون بي عندمـا يُدركـون أنّنـي بـلا فائدة؟

قلتُ: «إنّه حقًّا لأمرٌ سخيف».

أطال (فيديور) النظر إليّ ثم ابتسم وقال: «ربما».

تبدّلـت ملامحـي رغـم كونـه مُتفقًـا معـي، ففـي النهايـة كنـتُ أشـعر بالإهانـة.

وجّه (أيڤان) لي هذا السؤال فجأة: «كيف أخفيتها؟».

«أخفيتُ ماذا؟».

«قواكِ.. كيف أخفيتِ قواكِ؟».

«لم أخفها، لم أكن أعلم بوجودها من الأساس».

«مُستحيل!».

«لو كان الأمر مُستحيلًا، لما كنت هنا».

«ألَمْ يتم اختباركِ؟».

تـراءى لي وميـض ذكـرى في ركـنٍ مـا مـن أركان ذاكـرتي القاتمـة.. ثلاثـة أشـخاص يلبسـون أرديـة مُختلفـة، مُجتمعـون في غرفـة الجلـوس في (كيرامزيـن)، ومـن بينهـم امـرأة ترفـع حاجبهـا بتعـالٍ.

«بالطبع تم اختباري».

«ومتى كان هذا؟».

«عندما بلغتُ عامي الثامن».

«ولماذا تأخّر اختبارك كل هذا؟ لماذا لم يختبركِ والداكِ مُبكرًا؟».

قلتُ في نفسي: لأنهما ماتا! ولم يهتم أحد من الغريشا بالأيتام الذين يعيشون في كنف الدوق كيرامزوف.

قال (أيڤان) بنبرةٍ تنم عن ضيقه: «إن ما تقولينه غير منطقي!».

قلتُ وأنا أقلّب نظري بيأسٍ بين (أيڤان) و(فيديور): «هذا ما كنتُ أحاول إقناعكم به! أنا لستُ كما تظنون.. لستُ من الغريشا. وما حدث داخل الطيّة... لا أعلم بالضبط ماذا حدث، ولكنّني لم أفعل أي شيء».

قال (فيديور) بهدوء: «وبماذا تُفسّرين ما حدث في خيمة الغريشا؟».

«لا أعلم. لم أقم بأي شيء.. إن مُستحضر الظلام هو من قام بشيء لا أعلمه عندما لمسني».

ضحك (أيڤان) وقال: «مُستحضر الظلام لم يفعل شيئًا. إنه مُضخّم للقوى فقط».

«ماذا؟».

تبادل (أيڤان) و(فيديور) النظرات.

أردفتُ: «انسيا أمره، لستُ مُهتمّة لهذا الحد».

وضع (أيڤان) يده خلف ياقته، وأمسك بقلادة فضيّة رفيعة انتزع منها شيئًا، ومدّ يده ناحيتي كي أفحصه. تملّكني الفضول فاقتربتُ منه كي أراه بشكلٍ أفضل، فوجدتُ أنه صف مخالب

سوداء حادّة.

«ما هذا؟».

قال (أيڤان) بفخر: «هذا مُضخّم القوى الخاص بي. هذه مخالب دب شيربورن قتلته بنفسي بعدما تركتُ الدراسة لأكون في خدمة مُستحضر الظلام». ثم اعتدل في جلسته وأعاد القلادة إلى مكانها.

قال (فيديور): «يزيد المُضخّم من قوى الغريشا، ولكنّه لا يمنح قوّة لمن ليست عندهم أي قوى».

سألتُ: «وهل يمتلك كل أفراد الغريشا مُضخّمات قوى؟».

رد (فيديور) بحِدّة: «كلّا، فمُضخّمات القوى نادرة ويصعب الحصول عليها».

أضاف (أيڤان) بتعجرف: «يحصل عليها فقط أفراد الغريشا ممّن اصطفاهم مُستحضر الظلام».

ندمتُ على سؤالي..

قال (فيديور): «إن مُستحضر الظلام هو نفسه مُضخّم قوى حي. وهذا يُفسّر ما شعرتِ به».

«مثل تلك المخالب التي رأيتها؟ أهذه هي قوّته؟».

قال (أيڤان) مُصحّحًا: «بل هذه إحدى قواه».

شعرتُ بالبرد فشددتُ الثوب على جسدي مُحاولة تدفئة نفسي. تذكّرتُ تلك الثقة التي تملّكت منّي عندما لمسني مُستحضر الظلام، وذلك النداء المألوف الذي تفاجأتُ بصداه يتردّد بداخلي.. ذلك النداء الذي استدعى إجابة. ورغم الخوف الذي بُثَّ في أعماقي وقتها، فإنّني رأيتُ بصيصًا من البهجة

يتسلّل إلى تلك الأعماق المُظلمة ليُضيئها. شعرتُ للحظة أن كل شكوكي ومخاوفي يُستبدل بها نوع من أنواع اليقين المُطلق.

كنتُ يومًا ما لا شيء، مُجرّد لاجئة وُلدت في قرية لا تعرف اسمها. كنتُ فتاة ضعيفة خرقاء تعدو وحدها باتّجاه كُتلة من الظلام. ولكن عندما التفّت أصابع مُستحضر الظلام حول معصمي، انتابني شعور أنّني مُختلفة، أنّني لم أعُد تلك الفتاة الخرقاء.

أغمضتُ عيني وحاولتُ التركيز، حاولتُ تذكّر ذاك الشعور باليقين كي أبث الحياة في تلك القوّة، ولكن شيئًا لم يحدث.

تنهّدتُ وفتحتُ عينيّ لأجد ملامح الغبطة قد اعتلت وجه (أيڤان). ظلّت تلك الرغبة المُلحّة لركله تتفاقم بداخلي إلى ما لا نهاية.

قلتُ أخيرًا: «أظنّني سأخيّب ظنّكم جميعًا».

قال (أيڤان): «آمل أن تكوني مُخطئة.. وهذا لمصلحتكِ».

أضاف (فيديور): «بل لمصلحتنا جميعًا».

***

فقدتُ الإحساس بالوقت..

راقبتُ تعاقب النهار والليل من نافذة العربة. قضيتُ مُعظم الوقت في مشاهدة المناظر الطبيعيّة، مُحاولة العثور على أي مَعْلمٍ مألوفٍ لي. ظننتُ أنّنا سنسلكُ طرقًا فرعيّة، ولكنّنا لم نغادر طريق (ڤاي) قط. أخبرني (فيديور) أن مُستحضر الظلام قد أمر بذلك لأنّه يرى أن السفر السريع في طريقٍ رئيسي خيرٌ من السفر البطيء في طريقٍ خفيّ. كان يأمل أن أصل بأمان

خلف أسوار (أوز ألتا) المُزدوجة قبل أن تنتشر الأقاويل عن قدراتي بين جواسيس الأعداء والقتلة الذين يُنفّذون جرائمهم داخل حدود (رافكا).

مضينا في طريقنا بنفس الاندفاع، وكنّا نقف بين الحين والآخر لتبديل الأحصنة، وسمحوا لي غير مرّة أن أنزل من العربة كي أقف لأريح رجليّ من الجلوس المُتواصل.

وعندما كنتُ أتمكّن من النوم، كانت تغزو أحلامي بعض الوحوش المُخيفة. وفي إحدى المرّات، انتفضتُ من نومي فزِعة، وقلبي ينبض بسرعة شديدة، لأجد (فيديور) يراقبني، وبجانبه (أيڤان) وقد غط في نومٍ عميق.

سألني: «من هو (مال)؟».

أدركتُ أنّني كنتُ أتكلّم أثناء نومي. نظرتُ مُحرَجةً إلى الحارسين اللذين يجلسان عن يميني ويساري، فوجدتُ الأوّل ينظر أمامه غير مُكترث بسؤال (فيديور)، والآخر كان على وشك النوم. أكملنا السير بلا انقطاع.. تراءت لي في الخارج شمس الظهيرة وقد أضاءت غابة كاملة من أشجار البتولا الضخمة.

أجبتُ سؤال (فيديور) قائلة: «إنّه مُجرّد صديق».

«أهو المُتعقّب؟».

أومأتُ برأسي وقلتُ: «كان معي أثناء عبور الطيّة، وقد أنقذ حياتي».

«وأنتِ أيضًا أنقذتِ حياته».

كنتُ على وشك الاعتراض ولكنّني صمتُّ، وتساءلتُ: هل أنقذتُ حياة (مال) حقًّا؟ شغل السؤال تفكيري لبعض الوقت

حتّى قطعه (فيديور) قائلًا: «إنّه لشرفٌ عظيم أن تنقذي حياة إنسان، وقد أنقذتِ الكثيرين».

قلت: «إنّني لم أنقذ ما يكفي ممّن كانوا على السفينة».

تذكّرت نظرة الخوف في عيني (أليكسي) عندما سُحِب عنوة إلى أحضان الظلام الغاشم. إذا كنتُ أمتلك تلك القوّة حقًّا، فلماذا لم أتمكّن من إنقاذه وإنقاذ الآخرين ممّن تغذّى الظلام على أجسادهم؟

نظرتُ إلى (فيديور) وقلت: «إذا كنتَ تعتقد حقًّا أن إنقاذ حياة البشر شرف عظيم، فلماذا إذًا أصبحتَ من المُتلاعبين بالقلوب بدلًا من أن تكون مُعالجًا؟».

نظر (فيديور) إلى المناظر الطبيعيّة خارج النافذة ثم قال: «من بين كل الغريشا، يسلك الكوربورالكي الدّرب الأصعب. جميع أفراد جماعتنا يتلقّون أشقّ التدريبات، ويستذكرون أصعب الدروس. شعرتُ في النهاية أنّني أستطيع كمُتلاعب بالقلوب أن أنقذ حياة أناس أكثر».

«كيف وأنت قاتل؟».

«بل أنا مُقاتل».

هزّ كتفيه ثم ابتسم وأضاف: «تُرى ماذا تعتقدين أنّه أفضل، القتل أم شفاء الجروح؟ أعتقد أن الإجابة المناسبة هي أن لكلٍ منّا موهبته الخاصّة».

تبدّلت ملامحه، اعتدل في جلسته ثم وخز (أيفان) في جنبه وأمره قائلًا: «استيقظ!».

توقّفت العربة فجأة. نظرتُ حولي بقلق وبادرتُ قائلة: «هل

نحن...؟». ولكن أحد الحارسين وضع يده على فمي، ووضع إصبعًا على شفتيه.

انفتح باب العربة فرأينا أمامنا جنديًا أخبرنا سريعًا: «ثمّة جذع شجرة يسُد الطريق، ولكنّه قد يكون فخًا فابقوا حذرين و...».

لم يُكمل جملته.. دوت طلقة أصابته في ظهره فسقط على بطنه على باب العربة. وفي غضون لحظات، امتلأ الجو بالصرخات وبأزيز البنادق بينما تلقّت عربتنا وابلًا من الرصاص في هيكلها.

صاح أحد الحارسيْن: «انخفضوا!». ثم ألقى بجسده عليّ كي يحميني، بينما ركل (أيڤان) جسد الجندي الميّت إلى خارج العربة وأغلق بابها.

نظر الحارس خارج النافذة وقال: «إنّهم الفييردانيون».

التفت (أيڤان) إلى (فيديور) والحارس الذي بجانبه وقال: «اذهبا في هذا الاتجاه، وسنأخذ نحن هذا الاتجاه. مهما كلّفنا الأمر يجب أن نحمي العربة!».

ثم أخرج (فيديور) سكّينًا كبيرة من حزامه وأعطاني إيّاها قائلًا: «ابقي قريبة من أرض العربة وحافظي على هدوئكِ».

انتظر الجميع للحظات، مُنبطحين أسفل النافذتين، ثم أعطاهم (أيڤان) إشارة فقفزوا إلى الخارج من الجهتين، وأغلقوا وراءهم البابين. انبطحتُ على الأرض مُمسكة بتلك السكين الثقيلة، ضممتُ قدميّ إلى صدري، وأسندتُ ظهري إلى أسفل مقعدي. علَت أصوات القتال في الخارج؛ صرخات وصليل سيوف وصهيل خيول. اهتزّت العربة بعنفٍ عندما اصطدم جسد أحدهم

بزجاج النافذة، صُدِمتُ وتملّك الخوف منّي عندما وجدت أنّه أحد الحارسين. أخذ جسده ينزلق تاركًا بقعة دم كبيرة على الزجاج ثم اختفى عن ناظريّ.

انفتح باب العربة وظهَر أمامي رجل غليظ البنية ذو لحية شقراء. تراجعتُ إلى الجانب الآخر من العربة وفي يدي سكّيني المُشهَرة. صرَخ قائلًا شيئًا ما إلى رفقائه بلهجته الفيبرديّة الغريبة، ثم أمسك بقدمي. ركلته ركلة عنيفة انفتح بعدها الباب الآخر من خلفي، كدتُ أقع فوق رجل مُلتحٍ آخر. جذبني من إبطيّ بعنفٍ إلى خارج العربة، صرختُ ولوّحتُ بسكّيني بعشوائيّة حتّى أصبته. أظنّه سبّني، ثم أرخى قبضته التي كانت تتملّكني. نهضتُ بصعوبة وركضتُ بأقصى سرعتي. كُنّا في وادٍ تحفّه الأشجار من كل جانب، حيث ضاق طريق (ڤاي) ليمُر بين تلّتين مُنحدرتين. وجدتُ جميع الغريشا والجنود من حولي يُقاتلون أولئك الرجال المُلتحين. حُرقت الأشجار بفعل نيران الغريشا، ورأيتُ (فيديور) يقوم ببعض الحركات بيديه، وأمامه رجل مُنهار على الأرض، يضع يده على صدره وينزف دمًا من فمه.

ظللتُ أركض بلا وجهة مُحدّدة لبعض الوقت، ثم قرّرت تسلّق أقرب تل. انزلقت قدماي على أوراق الشجر المُتساقطة التي تُغطّي أرض الوادي حتّى كدتُ أقع وكادت أنفاسي تنقطع. قطعتُ نصف المسافة لأعلى التلّة ثم دفعني أحدهم من ظهري، فوقعتُ وطارت السكّين من يدي.

جذبني الرجل ذو اللحية الشقراء من رجلي فقاومته بكُل ما أوتيت من قوّة. نظرتُ بيأسٍ نحو الوادي من تحتنا، فرأيتُ

الغريشا والجنود يُحاربون من أجل حياتهم، بيد أن عددهم أقل من عدد الفيردانيين فلم يستطع أحد أن يأتي لإنقاذي. استمررتُ في المقاومة ولكن قوّته كانت تزيد على قوّتي بأضعاف. جلس فوقي، وضغط بركبتيه على ذراعيّ كي يُثبّت جسدي في الأرض، ثم أمسك بسكّينه.

قال بلهجة فيردانيّة غليظة: «سأقطّع جسدكِ إربًا أيتها الساحرة!».

سمعتُ في تلك اللحظة قرشة حوافر خيول فالتفت الرَّجل ذو اللحية الشقراء ونظر باتّجاه الطريق. كان ثمّة مجموعة من الفرسان، بعضهم يرتدي زي الكِفتا الأحمر والبعض الآخر يرتدي الزي الأزرق، يقتحمون ساحة القتال، أصواتهم كزئير الأُسود وأيديهم تبعث نارًا وصواعق. وكان يقودهم رجل يرتدي زيًّا أسود..

قفز مُستحضر الظلام من فوق جواده وفتح ذراعيه عن آخرهما ثم أطبقهما فَدَوَت صيحة قويّة في أرجاء الوادي. أُطلِقت حبالٌ مُظلمة من بين يدي مُستحضر الظلام المُتشابكتين، فزحفت مثل الثعابين فوق الأرض، مُتّجهةً صوب القتلة الفيردانيين، ثم تسلّقت أجسادهم، والتفّت حول وجوههم حتّى غمرها الظلام. صار القتلة يصرخون وألقى البعض سيوفهم على الأرض، والبعض الآخر أخذوا يلوّحون بها بعشوائيّة بعدما أصيبوا بالعمى.

شاهدتُ بقلبٍ ينبض خوفًا مُقاتلي رافكا وهم يقطعون أوصال أولئك العميان بسهولة، مُستغلّين تلك الفرصة بذكاء.

تمتم الرجل الجاثم فوقي بكلماتٍ لم أفهمها، ربما كانت صلاةً

مـا، كان ينظـر بفـزعٍ نحـو مُسـتحضر الظـلام، حتّـى ظننتـه قـد أصيـب بنـوعٍ مـن الشـلل أو التجمُّـد.

انتهزتُ تلك الفرصة وصِحتُ إليهم قائلةً: «أنا هنا!».

رآنا مُستحضر الظلام وهَمّ برفع يديه..

صـاح الرجـل وقـد رفـع سـكّينه فـوق صـدري: «توقّـف! إنّنـي لـن أحتـاج عينـيّ كي أطعـن قلبها بسـكّيني».

حبستُ أنفاسي.

عـمّ الصمـتُ عـلى أرجـاء الـوادي إلّا مـن أنـين الجرحـى. أخفَـض مُسـتحضر الظـلام يديـه وقـال بصـوتٍ هـادئ يُهدهـدُ أوراق الشـجر مثـل النسـيم: «يجـب أن تُـدرك أنّـك مُحـاصَر».

نظـر القاتـل إلى اليمـين واليسـار، ثـم إلى قمّـة التـل حيـث بـدأ الجنـود في الاحتشـاد، كل واحـد منهـم يُصـوّب بندقيتـه في اتجاهـه. ظـل القاتـل ينظـر حولـه بخـوفٍ شـديد، فصعـد مُسـتحضر الظـلام بضـع خطـواتٍ للأعـلى.

صاح الرجل: «إيّاك أن تقترب أكثر!».

توقّـف مُسـتحضر الظـلام حيـث هـو وقـال: «اتركهـا وسأسـمحُ لـك بالعـودة سريعًـا إلى مِلـكك».

قهقـه القاتـل ضاحـكًا ثـم قـال وهـو يهـز رأسـه: «لا أظـن أنّنـي سـأفعل». ثـم رفـع سـكّينه عاليًـا فـوق قلبـي المُرتجـف، فانعكـس ضـوء الشـمس عـلى شـفرتها الحـادّة، وقـال مُضيفًـا: «إن مُسـتحضر الظـلام لا يعتـق أرواحًـا».

نظـر القاتـل إليّ فلاحظـتُ لـون رمـوش عينيـه الفاتـح الـذي يـكادُ يُخفيهما .

قـال لي بهـدوءٍ مُبالـغ فيـه: «إنّـه لـن يحظـى بـكِ.. إنّـه لـن يحظـى بالسـاحرة ولا بقِواهـا». ثـم رفـع سـكّينه لأعـلى ثـم صـاح: «فلتحيـا فيـيردا!!».

باتـت السـكّين كقـوسٍ لامـعٍ، ورأيـتُ يـده تنـزل ببـطءٍ صـوب صـدري. أدَرتُ وجهـي، تملّـك الذعـر منّـي وقبـل أن أغلـق عينـي لمحـتُ مُسـتحضر الظـلام رافعًـا ذراعيـه ويُحرّكهـما بحـركات حـادّة وسريعـة وكأنّـه يشـق الهـواء. سـمعتُ صوتًـا أشـبه بهزيـم الرعـد، ثـم.. لم أسـمع أو أرَ شـيئًا.

فتحـتُ عينـيّ فرأيـتُ منظـرًا شـنيعًا لم أسـتطع تحمُّلـه.. فتحـتُ فمـي كي أصرخ ولكـن لم يخـرج مـن فمـي أي صـوت. لقـد انشـطر الرجـل الجاثـم فوقـي إلى نصفـين، تدحـرج النصـف الـذي بـه رأسـه وكتفـه اليمنـى وذراعـه إلى أرض الـوادي، وظلّـت يـده البيضـاء تقبـض عـلى سـكّينه، أمّـا مـا تبقّـى مـن جسـده فقـد تمايـل فوقـي للحظـة، وبـدأ الدخّـان المُظلـم -الـذي كان قـد تكـوّن حـول الجـذع المقطـوع- يتـلاشى رويـدًا رويـدًا، ثـم ترنّـح النصـف المُتبقـي للأمـام ثـم سـقط.

استطعتُ الصراخ في النهاية..

زحفـتُ للخلـف، هاربـة بعيـدًا عـن ذلـك الجسـد المُشـوّه. لم أسـتطع الوقـوف عـلى قدمـيّ، ولم أسـتطع غـضّ طـرفي عـن ذلـك المنظـر البشـع، وجسـدي ظـلّ ينتفـض مـن فـرط الصدمـة ولم يسـعني التحكُّـم فيـه.

صعـد مُسـتحضر الظـلام إليّ حيـث كنـتُ سريعًـا، وجثـا عـلى ركبتيـه بجانبـي، حاجبًـا عنّـي منظـر الجثّـة.

قال: «انظري إليّ».

حاولتُ النظر في وجهه، ولكنّني لم أستطع رؤية أي شيء سوى جثّة القاتل المشطورة والدمُ يتدفّق منها ليُكوِّن بركة تُلطِّخ أوراق الشجر الرطبة من حولها.

قلتُ بصوتٍ مُتهدِّج: «ماذا.. ماذا فعلتَ به؟».

«فعلتُ ما كان عليّ القيام به. هل بإمكانكِ النهوض؟».

أومأتُ برأسي وجسدي يرتجف. أمسك بيدي وساعدني على الوقوف. وعندما عاودتُ النظر إلى الجثة أمسك بذقني وحرّك وجهي بحيث يكون في مقابلة وجهه، ثم قال: «لا تنظري لشيء غيري».

أومأتُ برأسي مرّة أخرى وحاولتُ أن أبقى ناظرة إليه بينما كان يقودني إلى أسفل التل، ويُصدر بعض الأوامر لرجاله.

«أزيلوا جذع الشجرة عن الطريق.. وأحضروا لي عشرين فارسًا».

سأله (أيڤان): «وماذا عن الفتاة؟».

«ستُكمل الطريق معي».

تركني بجانب جواده وذهب ليُحدّث (أيڤان) وبعضًا من قادة الجند. شعرتُ بالراحة عندما رأيت (فيديور) واقفًا معهم، كان يُمسك بذراعه ولكن لم تبدُ عليه أي جروح. ربتُّ على جسد الجواد المُتعرّق، وتنفّستُ رائحة جلد سرجه النظيف، وحاولتُ تهدئة ضربات قلبي السريعة، مُتجاهلة أمر تلك الجثة القابعة أسفل التل.

وبعد مرور بضع دقائق، رأيتُ جنودًا وأفرادًا من الغريشا

يمتطون أحصنتهم. أزال جذع الشجرة عددٌ من الرجال، وتحرّك آخرون بالعربة المُدمّرة بعيدًا.

وقف مُستحضر الظلام بجانبي وقال: «لقد نصبوا لنا فخًا. علينا الآن أن نسلك الدروب الجنوبيّة. هذا ما كان يجب من أن نفعله من البداية».

قلتُ دون تفكير: «إذًا فأنت تُخطئ!».

توقّف عن ارتداء قفّازه.

ضغطتُ على شفتي السفليّة بعصبيّة ثم قلتُ: «أنا لم أقصد...».

قاطعني قائلًا: «بالطبع أخطئ». سكت برهة، ثم ابتسم وأضاف: «ولكنّني لا أُخطئ كثيرًا».

ارتدى قلنسوته ومدّ لي يده كي يساعدني على امتطاء الحصان. تردّدتُ للحظة. كان فارسًا مُظلمًا يقف أمامي، يرتدي زيّه الأسود، وملامحه تُخفيها الظلال. تذكّرتُ منظر الرجل المشطور فشعرتُ بألمٍ في معدتي.

قال وكأنّه قد قرأ أفكاري: «لقد فعلتُ ما كان عليّ القيام به يا ألينا».

كنتُ أعلم ذلك. لقد أنقذ حياتي.

لم يكُن لديّ خيار آخر، فأمسكتُ بيديه وسمحتُ له أن يساعدني على الصعود فوق السرج. جلس خلفي وركل الحصان ليُهرول. وبينما كنّا نغادر الوادي، أدركتُ أن ما حدث للتو لم يكن حُلمًا على الإطلاق.

قال مُستحضر الظلام: «إن جسدكِ يرتجف».

«لم أعتد على وجود أناس يريدون قتلي».

«حقًا؟ بالنسبة لي، فأنا لم أعُد ألاحظ وجودهم حولي».

التفتُّ إليه، لمحتُ بقايا ابتسامة على وجهه، ولكنّني لم أتأكّد إذا ما كان يمزح أم لا. عدتُ لأنظر أمامي ثم قلتُ بصوتٍ خفيض: «ولقد رأيت للتو رجلًا ينقسم إلى نصفين أمام ناظريّ».

حاولتُ مواراة ذلك التهدّج في صوتي ولكنّني فشلت.

أمسك مُستحضر الظلام اللجام بيدٍ واحدة، وخلع القفّاز من يده الأخرى. تجمّد جسدي عندما أحسستُ بكَف يده العاري وهو ينزلق أسفل شعري ويستقر على مؤخّرة رقبتي. ورغم أنّني تفاجأتُ فإنّني شعرتُ بالسكينة تتسلّل إلى قلبي من جديد، وتدفّقَت بداخلي نفس تلك القوّة الغريبة التي لا أعرف لها وصفًا. أبقَى مُستحضر الظلام يده كما هي وركل الحصان ركلةً أخرى ليبدأ عدوَه. أغمضتُ عينيّ وحاولتُ ألّا أُفكّر في أي شيء، ورغم سرعة الحصان، والأهوال التي عشتها في الساعات الأخيرة الماضية، فإن النوم تملّك منّي في النهاية، فاستسلمت.

الفصل الخامس

مـرّت الأيّـام التـي تَلَـت تلـك الواقعـة في جـوٍ مـن الإرهـاق وعـدم الراحـة.

انحرفنـا عـن طريـق (ڤـاي) وسـلكنا طرقًـا فرعيّـة ومسـارات ضيّقـة. تحرّكنـا بأقصى سرعـة نسـتطيع التحـرّك بهـا في تلـك المناطق الخطـرة المُحاطـة بالتـلال. وفي الواقـع، لم أعُـد أدري أيـن نحـن وكـم قطعنـا مـن المسـافة.

وبعـد انقضـاء اليـوم الأوّل، صـار كل منّـا يمتطـي جـوادًا، ورغـم ذلـك وجـدتُ نفسـي أبحـث عنـه دائمًـا بـين جميـع الفرسـان. مـرّت سـاعاتٌ وأيـام دون أن ينبـس بكلمـة، فخِفـتُ أن أكـون قـد أسـأتُ إليـه بشـكلٍ مـا دون قصـد. وأظـن أن جهـلي بطريقـة التعامـل المناسـبة معـه يعـود إلى قلّـة تحدّثنـا معًـا.

رأيته بين الحين والآخر يرمقني بنظرات باردة.

لم أحسـب نفسـي فارسـةً يومًـا، وهـذا يُفسّر فشـلي في مواكبـة السرعـة التـي كان يجـري بهـا جـواد مُسـتحضر الظـلام. عدّلـتُ جلسـتي فـوق السرج أكـثر مـن مـرّة ولكـن لم يـزل ثمّـة ألم في منطقـةٍ مـا مـن جسـدي. حدّقـتُ في أذنيّ حصـاني المُرتعشـتين مُحاولـةً تجنّـب التفكـير في رجـليّ المُحترقتـين أو ذلـك الألم القاتـل أسـفل ظهـري.

وفي الليلـة الخامسـة، توقّفنـا لنُخيّـم في إحـدى المـزارع المهجـورة. شـعرتُ وقتهـا أنّنـي أودُّ القفـز مـن فـوق حصـاني مـن شـدّة الفـرح،

ولكنّني قرّرتُ في النهاية أن أنزلق من فوق الحصان إلى الأرض بغرابة. شكرتُ الجندي الذي اعتنى بحصاني بينما نزلتُ ببطءٍ إلى أسفل تلّ صغير حيث سمعتُ خريرًا هادئًا لمجرى ماء. جثوتُ على ركبتيّ، وساقاي ترتعشان، وغسلتُ وجهي بالماء البارد. أحسستُ بتبدّل الهواء خلال الأيّام الماضية، ووجدتُ السماء الزرقاء الزاهية من فوقي قد صُبِغَت بلونٍ رماديّ كئيب.

ظنّ الجنود أنّنا سنصل إلى (أوز ألتا) قبل أن يتغيّر الجو وتظهر ملامح واضحة ثابتة للطقس.

دارت هذه الأسئلة في عقلي: تُرى ماذا سيحدث عندما أصِل إلى هناك؟ وماذا سيفعلون بي عندما أدخل القصر الصغير لأوّل مرّة؟ وإذا لم أستطع القيام بما يريدونه منّي، فماذا سيكون رد فعلهم؟

وجدتُ هذه الجملة تتردّد في ذهني: ليس من الحكمة أن يُخيّب المرء آمال الملوك.. أو مُستحضري الظلام.

ربما سيربتون على ظهري ويُرسلونني مرّة أخرى إلى مُعسكر الجيش، ولكن هل سأجد (مال) في (كريبيرسك)؟ إذا شُفيَت جروحه، فمن المُحتمَل أن يُؤمَر بعبور الطيّة مُجدّدًا، أو سيُكلّف بمُهمّة أخرى. تخيّلت وجهه وهو يختفي وسط الحشد داخل خيمة الغريشا. لم أحظَ بفرصة لتوديعه. كسا الغسق السماء والأرض بالظلمة، أرَحتُ ذراعيّ وظهري وحاولتُ التخلُّص من تلك الكآبة الجاثمة فوق قلبي. قلتُ في نفسي: ربما هذا أفضل لنا، فعلى أي حال كيف كنتُ سأودّعه؟

وجدتني أحدّث (مال) في عقلي قائلةً: أشكرك لكونك

صديقي المُقرّب، ولمُساعدتي على تحمُّل شقاء حياتي، وأعتذر أنّني وقعتُ في حُبّك لوهلةٍ عندما كنّا جالسيْن معًا. وأرجوك، لا تنس أن تُكاتبني!

«علامَ تضحكين؟».

التفتُّ ونظرتُ عبر الظلام، كان صوت مُستحضر الظلام يشق الظلال مارًّا إلى أذنيّ، رأيته ينزل إلى مجرى الماء وينحني على الضفة ليغسل وجهه وشعره الداكن.

رفع رأسه وكرّر سؤاله بصيغة أخرى: «ما الذي يُضحككِ؟».

قلتُ مُعترفة: «أضحك على نفسي».

«هل أنتِ مُضحكة إلى هذه الدرجة؟».

«أكثر ممّا تتخيّل».

احتضن الليل ما تبقّى من الغسق حتّى ذاب فيه. رمقني مُستحضر الظلام بنظرةٍ بعثت في نفسي شعورًا غير مُطمئن بأنّه يُدقّق في تفاصيل مظهري. أظن أن رحلتنا هذه قد أتعبته قليلًا، ولكن لم يبدُ على مظهره أي تغيير إلّا من بعض الغبار الذي استقرّ فوق زيّه. شعرتُ بجلدي يحترق من شدّة الإحراج عندما أدركتُ مدى سوء مظهري مُقارنة به؛ كان زي الكِفتا الذي أرتديه مُمزّقًا وفضفاضًا أكثر من اللازم، وشعري مُتّسخًا ومُقصّفًا، وكانت ثمّة ندبة على خدّي تركها لي الفيردِيّ قبل موته. تُرى هل ندم مُستحضر الظلام على سفره لكل هذه المسافة معي؟ هل كان يظن أنّه بهذا قد ارتكب خطأً آخر من أخطائه النادرة؟

قلتُ باندفاع: «أنا لستُ من الغريشا!».

«لكـن ثمّـة أدلـة تُثبـت عكـس مـا تقولينـه». لبـث مليًّـا ثـم سـألني: «لمـاذا تتحدّثـين بهـذه الثقـة؟».

«فقط انظر إليّ!».

«إنّني بالفعل أنظر إليكِ».

«هل أبدو لك مثل فتيات الغريشا؟».

جميعهـن حسـناوات، وليـس مـن بينهـن مـن لديهـا بقـع عـلى جلدهـا، أو شـعرها بنـيّ باهـت، أو ذراعاهـا ضعيفـان مثـلي.

هـز رأسـه وقـال: «أنـتِ لا تفهمـين الأمـر عـلى الإطـلاق». ثـم مـضى ليتسـلّق التـل مـرّة أخـرى.

«هل ستشرحه لي إذًا؟».

«كلّا، ليس الآن».

أردتُ لـو أصفعـه عـلى مؤخّـرة رأسـه مـن شـدّة غضبـي، لكنّنـي تذكّـرتُ أنّـه شـطر رجـلًا إلى نصفـين أمـام ناظـري، فعدلـتُ عـن قـراري، واكتفيـتُ بالنظـر إلى ذلـك الفـراغ الغامـض المُمتـدّ بعـرضِ كتفيـه بينـما كنـتُ أتبعـه إلى أعـلى التـل.

أفـرغ رجـال مُسـتحضر الظـلام مسـاحة مـن أرض المزرعـة المهجـورة وأشـعلوا نـارًا. كان أحدهـم قـد أمسـك طيهوجًـا وقتلـه، ثـم أخـذ يشـويه عـلى النـار. كانـت وجبـة غـير مُشـبعة لم تكـفِ أحـدًا منّـا، ولكـن مُسـتحضر الظـلام لم يُـرِد أن يخاطـر بإرسـال رجالـه إلى الغابـة للصيـد.

اتّخـذتُ مكانًـا بجانـب النـار وتناولـتُ وجبتـي الصغـيرة دونمـا كلام، وعندمـا فرغـتُ منهـا، تـردّدتُ للحظـة قبـل أن أمسـح أصابعي بِزِيـي المُتسـخ بالفعـل. إن هـذا الـزي هـو أجمـل مـا ارتديـتُ وربمـا

أجمل ما سوف أرتدي في حياتي، ولذلك قد شعرتُ بالخزي عندما وقعت عيناي على البقع التي تملؤه، والثقوب التي تُفسد جماله.

رأيتُ في ضوء النار بعضًا من حرّاس الأوبرتشنيكي يجلسون جنبًا إلى جنب مع أفراد الغريشا، وآخرون ابتعدوا قليلًا كي يناموا، ومجموعة أخرى انسحبت كي تبدأ ورديّة المُراقبة الليليّة، أمّا البقيّة فجلسوا يتجاذبون أطراف الحديث، ويُمرّرون بينهم قارورة ذهابًا وإيابًا. جلس بينهم مُستحضر الظلام الذي لاحظتُ أنّه لم يأكل أكثر من نصيبه من الوجبة. ذاك رجلٌ سلطته تلي سلطة الملك مباشرةً، وها هو يجلس بين جنوده على أرضٍ تكاد تنشق من الصقيع.

أظنّه شَعُر أنّني أنظر إليه، لأنه التفت ونظر لي بعينين كحَجرين من الجرانيت يلمعان في وهَج النار. احمرّ وجهي خجلًا، وانقبض قلبي عندما قام من مكانه ليجلس بجانبي، ومدّ يده لي بالقارورة. تردّدت في البدء ثم تناولتها منه وأخذتُ رشفة واحدة كانت كفيلة ببعث شعور الاشمئزاز في نفسي. لم أحب يومًا مشروب الكفاس، رغم أن مُعلّمينا في (كيرامزين) كانوا يشربونه بكثرة مثلما يشربون الماء.

في يومٍ من الأيام سَرقتُ أنا و(مال) زجاجة كفاس. أتذكّر وقتها أنّ الضرب الذي تعرّضنا له بعدما كُشِف أمرنا، لم يُساوِ شيئًا إذا قورِن بمقدار تعبنا من أثر الشراب.

انزلق الشراب الحارق إلى جوف معدتي فأشعرني بالدفء. أخذتُ رشفة أخرى وأعَدتُ القارورة له مرّة أخرى.

أصابتني نوبة سعال خفيفة، قلتُ بعدما هدأت: «شكرًا

لـك».

أخَـذ رشـفة ثـم قـال وهـو يُحـدّق في النـار: «حسـنًا، سَـليني عـمّا تريدين».

فوجئـتُ بمـا قالـه.. لم أدرِ مـن أيـن أبـدأ، فـرأسي المُتعَـب كان يعـج بالأسـئلة، ومنـذ مغادرتنـا لـ (كيربيرسـك) ظـلّ يتخبّـط بـين الذعـر والإرهـاق وعـدم التصديـق. لم تكـن لـديّ طاقـة للتفكـير في سـؤال، وعندمـا فتحـتُ فمـي لأتكلّـم، تفاجـأتُ بهـذا السـؤال يقفـز منـه: «كـم عمـرك؟».

نظر مُستحضر الظلام لي مُندهشًا، ثم رد: «لا أعلم بالضبط».

«وكيف لك ألّا تعرف؟».

هزّ كتفيه ثم قال: «وكم هو عمركِ بالضبط؟».

راودني شـعورٌ بـالأسى.. فأنـا مثلـه لا أعلـم بالضبـط متـى وُلِـدتُ، وهـذا لأن جميـع الأيتـام في (كيرامزيـن) يُنسـبُ لهـم تاريـخ مـيلاد الـدوق تقديـرًا لكرمـه في رعايتنـا.

قلتُ: «إذن ما هو عمرك بالتقريب؟».

«لماذا تُصرّين على معرفة ذلك؟».

أجبـتُ بصراحـةٍ: «لأنّنـي سـمعتُ الكثـير مـن القصـص عنـك مـذ أن كنـتُ طفلـة، ولكنّـك لا تبـدو أكـبر منّـي بكثـير».

«أي نوعٍ من القصص؟».

شـعرتُ ببعـض الضيـق لكنّنـي لم أتهـرّب مـن الـرد فقلـتُ: «جميعهـا كانـت قصصًـا مُعتـادة، ولكـن إذا كنـت لا تريـد الإجابـة عـن سـؤال، صارحنـي بذلـك».

«إذًا أنا لا أريد الإجابة عن سؤالك».

«حقًّا؟».

تنهّد ثم قال: «صدّقي أو لا تصدّقي: أبلغ من العُمر مائة وعشرين عامًا».

«ماذا؟». صحتُ وقد أصابتني صدمة. التفت الجنود نحوي ورمقوني بنظرات استعجاب.

قلتُ بعدما خفضتُ صوتي: «هذا مُستحيل!».

نظر مُستحضر الظلام نحو النار وقال: «تستهلك النار خشبًا كي تشتعل.. تلتهمها ولا تترك منها في النهاية سوى رماد. لا ينطبق هذا على قوى الغريشا».

«كيف؟».

«إن استخدامنا لقوانا يزيد من قوّتنا ولا يُضعفنا، يُغذّينا ولا يستهلكنا، ولذلك يعيش مُعظم الغريشا سنوات طويلة».

«ولكن لا يعيشون مائة وعشرين عامًا!».

«لا، فعُمر الغريشا يتوقّف على مدى قوّتهم. كلّما عظُمَت قوّتهم، ازداد عمرهم. وعندما تتضاعف هذه القوى باستخدام مُضخِّم، فـ...». صمَت وهزّ كتفيه.

«وأنتَ مُضخِّم قوى حي، مثل دب أيڤان».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة خافتة وهو يقول: «مثل دب أيڤان».

جالت في ذهني فكرة شنيعة.. قلتُ: «ولكن هذا يعني...».

«أن عظامي، أو حتّى بعضٌ من أسناني، يُمكنها مُضاعفة قوى

الغريشـا».

«هذا حقًا مُخيف.. ألا يجعلك هذا قلقًا؟».

«كلّا، والآن جـاوبي عـلى سـؤالي: مـا هـو نـوع القصـص التـي سـمعتها عنّـي؟».

«في الواقـع.. أخبرنـا المُعلّمـون أنّـك عـزّزت قـوّة الجيـش الثـاني بإحضـار مجموعـات مـن الغريشـا مـن خـارج رافـكا».

قـال بجِـدّة: «لم أكُـن مُجـبرًا عـلى جلبهـم إلى رافـكا، فقـد أتـوا إلى هنـا بمحـض إرادتهـم. إن جماعـات الغريشـا خـارج رافـكا لا تحظـى بمُعاملـة حسـنة؛ فالفيردانيـون يحرقونهـم مثـل السّـحَرة، وأهـل كيرتـش يبيعونهـم مثـل العبيـد، وأهـل شـو هـان يُقطّعونهـم إربًـا مُحاولـين التوصّـل إلى مصـدر قوّتهـم. مـاذا بعـد؟».

«قالوا إنّك أقوى مُستحضر ظلام أتى منذ أجيال».

«إنّني لم أسألكِ كي تخبرينني بمثل هذه الإطراءات».

كان ثمّة خيط رفيع يتدلّى من كُم زيي، راقبني وأنا أشدّه.

قلتُ: «كان هناك عبدٌ عجوز يعمل في العزبة...».

«هيّا، تابعي حديثكِ».

«لقـد... قـال إن مُسـتحضري الظـلام يولـدون دون أرواح، وأن طيّـة الظـل قـد خُلِقَـت مـن شيء لا يقـل عنهـا خبثًـا وظلامًـا».

نظـرتُ إلى وجهـه البـارد وأضفـتُ سريعًـا: «ولكـن (آنـا كونيـا) طردتـه وأخبرتنـا أن هـذه محـض خرافـات».

تنهّـد مُسـتحضر الظـلام وقـال: «لا أظـن أن ذلـك العبـد هـو الوحيـد الـذي يؤمـن بهـذا».

التزمتُ الصمت.

لم يُفكّر الجميع مثل (إيفا) وذلك العبد العجوز، ولكنّني أمضيتُ وقتًا كافيًا في الجيش الأول عرفت خلاله أن مُعظم الجنود العاديين لا يثقون بالغريشا ولا يُقدّمون فروض الولاء لمُستحضر الظلام.

قطع مُستحضر الظلام ذلك السكون قائلًا: «كان جدّي الأعظم هو المُهرطق الأسود. إنّه مُستحضر الظلام الذي خلق طيّة الظل. جاء هذا خطأً ترتّب على فشل تجربة قام بها بدافع طمعه، أو ربما الشر، لا أعلم. ولكن كل مُستحضري الظلام ممّن أتوا من بعده حاولوا تدارك الأضرار التي لحقت ببلادنا، وأنا منهم».

احتدّت ملامحه، ورأيتُ ظلال اللهيب تتراقص على تقاطيع وجهه المثاليّة الجمال.

أردف: «لقد قضيتُ حياتي بحثًا عن طريقة لإصلاح الأمور. أنتِ أوّل من يشُق طريقه إليّ منذ وقتٍ طويل».

«أنا؟».

«إن العالم من حولنا يتغيّر يا (ألينا). تلك البنادق التي يحملها الجميع ما هي إلّا بداية. لقد رأيتُ الأسلحة التي يُطوّرونها في كيرتش وفيردا، وبوسعي القول أن عصر الغريشا شارف على الانتهاء».

أخافني ما قاله..

قلتُ: «ولكن.. ولكن ماذا عن الجيش الأول؟ إن لديهم بنادق وأسلحة أخرى».

«ومـن أيـن يأتـون بأسـلحتهم وذخيرتهـم في رأيـك؟ في كل مـرّة نعبر الطيّـة نخسر أرواحًـا. إذا ظلّـت رافـكا مُنقسـمة فلـن تنجـو مـن تقلّبـات هـذا العـصر الجديـد. نحـن بحاجـة إلى موانئنـا، ولـن يسـاعدنا أحـد غـيركِ عـلى اسـتردادها».

«ولكن كيف؟ كيف سأقوم بذلك؟».

«بمُساعدتي على تدمير طيّة الظل».

هـززتُ رأسي وقلـتُ: «لا شـك أنّـك مجنـون! كل مـا أمُـر بـه الآن جنـون!».

نظـرتُ إلى سـماء الليـل فوجدتُهـا مُرصّعـة بالنجـوم، ولكـن تركيزي انصـبّ عـلى تلـك المسـاحات الـلا مُتناهيـة مـن الظـلام المُمتـدّة بينهـا. تخيّلـتُ نفسي واقفـة داخـل الطيّـة حيـث السـكون المُميـت سـائد ولا شيء يُضاهيـه سـوى الظـلام الحالـك. كنتُ خائفـة، ولا أرى شـيئًا، وليـس ثمّـة مـا أحتمـي بـه سـوى قـوّتي المزعومـة. وجدتنـي أفكّـر في المُهرطـق الأسـود، ذلـك الرجـل الـذي أوجـد الطيّـة. إنّـه مُسـتحضر ظـلام أيضًـا، مثـل الـذي يجلـس بجانبـي الآن ويُراقبنـي عـن كثـب في ضـوء النـار.

سـألته قبـل أن أفقـد أعصـابي: «ومـاذا عـما فعلتـه في الرجـل الفيـرديّ؟».

نظـر إلى النـار مُجـدّدًا ثـم قـال: «يُسـمّى هـذا بالقطـع، وهـي مهـارة يسـتطيع القليـل مـن الغريشـا القيـام بهـا، تسـتدعي قـوّة هائلـة وتركيـزًا عاليًـا».

فركتُ يديّ مُحاولةً تدفئة نفسي.

نظـر مُسـتحضر الظـلام لي، ثـم إلى النـار وقـال: «هـل كان مـن

الأفضل أن أقطِّعه إلى نصفين مُستخدمًا سيفًا مثلًا؟».

تساءلتُ: وهل ثمّة فرق بين الطريقتين اللتين تؤدّيان لنفس النتيجة؟

لقد شاهدتُ أهوالًا لا تُحصى خلال الأيّام القليلة الماضية. ورغم الكابوس الذي عشته داخل الطيّة، فإن مشهدًا واحدًا تعلّق بذاكرتي، وظَلّ يُطاردني في أحلامي حتّى كان يُجبرني في كل مرّة على الاستيقاظ، كان منظر الرجل المُلتحي وقد شُطِر إلى نصفين، نصفه يتأرجح تحت ضوء الشمس المُبرقش قبل أن يسقط عليّ.

قلتُ بهدوء: «لا أعلم».

تبدّلت ملامحه.. لم أُميّز إذا كان هذا بفعل الغضب أو حتّى الألم. لم ينبس بكلمة أخرى، وقام ومضى بعيدًا عنّي. راقبته يختفي في الظلام، وأحسستُ فجأة بالذنب تجاهه.

قلتُ في نفسي باستهزاء: «لا تكوني حمقاء.. أتظنّين أنّكِ قد جرحتِ شعور مُستحضر الظلام، ثاني أقوى رجل في رافكا، الذي يبلغ من العمر مائة وعشرين عامًا؟».

لكنّني تذكّرتُ تلك النظرة التي طغت على ملامحه، ونبرة الخزي التي تحدّث بها عن المُهرطق الأسود، فلَم أستطع التخلّص من الشعور بأنّني قد أخفقتُ في اختبارٍ ما.

***

مرّ يومان. عبرنا بوّابة ضخمة ثم أسوار (أوز ألتا) المزدوجة الشهيرة بعد فجر اليوم الثاني مباشرة.

كنتُ أنا و(مال) نتلقّى تدريباتنا في معقل عسكري

بـ(بوليتزنايـا)، لكنّنـا لم ندخـل المدينـة نفسـها قـط. كانـت (أوز ألتـا) مدينـة الأثريـاء، يسـكنها رجـال الجيـش والمسؤولون، بالطبع مـع عائلاتهـم أو عشـيقاتهم، وبهـا جميـع المرافـق التـي تُلبّـي احتياجاتهـم.

تفاجـأتُ وشـعرتُ بخيبـة أمـل كبـيرة عندمـا مررنـا ببعـض المتاجر المُغلقـة، وكان ثمّـة سـوق واسـع حيـث انشـغل عـدد قليـل مـن الباعـة بتجهيـز أكشـاكهم، ورأيـتُ صفوفًـا مـن البيـوت الضيّقـة مُتراصّـة جنبًـا إلى جنـب. يُطلـق عـلى (أوز ألتـا) -التـي هـي عاصمة رافـكا- مدينـة الأحـلام، إنّهـا المدينـة التـي تحتضـن الغريشـا، وبهـا يعيـش الملـك في «القـصر الكبـير». ولكنّنـي أرى أنّهـا ليسـت إلّا نسـخة أكـبر وأقـذر مـن «سـوق المدينـة» في (كيرامزيـن).

تغـيّر كل هـذا فـور وصولنـا إلى الجـسر الـذي يمتـد فـوق قنـاة مائيّـة واسـعة، ومـن تحتـه هدهـد الهـواء بعـض القـوارب الصغـيرة. وعـلى الناحيـة الأخـرى، تـراءى لي، وسـط الضبـاب اللامـع، الجانـب الآخـر مـن (أوز ألتـا). عندمـا كنـا نعـبر الجـسر، وجـدتُ أنّـه يمكـن رفعـه بحيـث تتحـوّل القنـاة إلى خنـدق مـائيّ عمـلاق يفصـل بـين مدينـة الأحـلام التـي أمامنـا، والسـوق الفوضـويّ خلفنـا.

عندمـا وصلنـا إلى الجانـب الآخـر مـن القنـاة، شـعرتُ وكأنّنـا نقـف عـلى مشـارف عـالمٍ آخـر. كلّـما نظـرتُ حـولي رأيـتُ نوافـير، وسـاحاتٍ خـضراء شاسـعة، وبسـاتين مزدانـة بالـورود زاهيـة، وشـوارع عريضـة ترتـصُّ عـلى جانبيهـا بشـكل مثـالي صفـوف مـن الأشـجار الزّاهيـة الأوراق. ولمحـتُ أضـواءً تنبعـث مـن الطوابـق السـفليّة للمنـازل الكبـيرة، حيـث تشـتعل نـيران المطابـخ مُعلنـة عـن بـدء العمـل اليومـي.

بـدأت الشـوارع في الارتفـاع عـن مُسـتواها العـادي، وكلّـما صعدنـا للأعـلى، ازداد حجـم المنـازل الفخمـة مـن حولنـا. وصلنـا في النهايـة إلى سـورٍ آخـر بـه عـدد مـن البوابـات المصنوعـة مـن الذهـب الخالـص، والمُزيّنـة بشـعار الملـك: العُقـاب المـزدوج. وعـلى طـول السـور، كان ثمّـة عـددٌ هائـل مـن الرجـال المُدججـين بالسـلاح، كلٌّ مُتخّـذ موقعـه وعـلى أتـم اسـتعداد. فرغـم جـمال (أوز ألتـا) السـاحر، فهـي لم تـزل عاصمـة بلـدٍ يخـوض الحـروب منـذ زمـنٍ طويـل.

فُتِحت البوّابة على مصراعيها.

مضينـا في ممـرٍ واسـع مرصـوفٍ بحـصًى لامـع، وتحفّـه أشـجار أنيقـة مـن الجانبـين. وعـلى امتـداد الأفـق، كانـت ثمّـة حدائـق مليئـة بالشـجيرات المشـذّبة عـلى اليمـين واليسـار، ومـن فوقهـا سـقف مـن الضبـاب الصباحـي يُغطّيهـا بالكامـل وكأنّـه يحميهـا مـن وُبُـل السـماء التـي قـد تصيبهـا في أيّـة لحظـة. وفـوق كل مـا حولنـا مـن مُدرّجـات رخاميّـة، ونوافـير ذهبيّـة، انتصـب القـصر الكبـير، الـذي يقـضي الملـك فيـه فـترة الشـتاء.

توقّفنـا عنـد النافـورة الضخمـة المُصمّمـة عـلى شـكل العُقـاب المُـزدوج، وقتهـا اقـترب منّـي مُسـتحضر الظـلام بحصانـه، وقـال: «إذًا، مـا رأيـكِ في القـصر؟».

نظـرتُ لـه ثـم إلى واجهـة القـصر المهيبـة. إنّـه لا شـك أكـبر مبنـى رأيتـه في حيـاتي.. سـاحاته مُكتظّـة بالتماثيـل، وطوابقـه الثلاثـة مُزدحمـة بنوافـذ لامعـة زُخرفـت بمـا بـدا لي أنّـه ذهـبٌ خالـص.

قلتُ بحذر: «إنّه.. كبير جدًا».

نظر لي وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خافتة: «أظن أنّه أبشع مبنًى رأيته في حياتي».

ثم اندفع للأمام بحصانه.

سلكنا طريقًا مُنحنيًا خلف القصر، ومررنا بمتاهة من الأشجار، تتخذ شكلًا دائريًا، وفي مركزها ثمّة معبد ذو أعمدة عالية، ورأيتُ دفيئة زراعيّة ضخمة، تكاثف بخار الماء على نوافذها فحجب عنّي رؤية ما بالداخل. ثم وجدنا أنفسنا داخل مساحة خضراء، بدت مثل غابة صغيرة، بها أشجار كثيفة وضخمة، قادتنا إلى ممر طويل ومُظلم حيث كوّنت الأغصان المُضفّرة من فوقنا سقفًا.

اقشعرّ بدني.. فمرّة أخرى انتابني ذلك الشعور بأنّني أعبر الحدود التي تفصل بين عالمٍ وآخر.

طبع ضوء الشمس الخافت قبلة على وجوهنا فور خروجنا من الممر. نظرتُ إلى أسفل مُنحدر قصير لأجد مبنًى لم أر مثله من قبل.

قال مُستحضر الظلام مُعلنًا: «أهلًا بكِ في القصر الصغير».

يا له من اسمٍ غريب! فعلى الرغم من كونه أصغر من قصر الملك، فإنّه ليس «صغيرًا» كما يُرجّح الاسم.

رأيته ينتصب بشموخٍ بين الأشجار التي تحاوطه، وكأنّه بُني من خشب غابة مسحورة، تلتف من حوله أحزمة من الأسوار الخشبيّة الداكنة، وفي أعلاه قباب ذهبيّة كالقبّعات تزيّنه.

عندما اقتربنا أكثر، لاحظتُ أن كل شبرٍ من القصر مُغطًّى بنقوش دقيقة لطيور، وزهور، وأغصان ملتوية، ووحوش سحريّة.

وقفت مجموعة من الخدم، يرتدون ملابس داكنة، في انتظارنا عند المدخل. ترجّلتُ، وأسرع أحدهم باتجاهي كي يأخذ حصاني، بينما قام آخرون بفتح مجموعة من الأبواب المزدوجة لنعبر من خلالها. لم أستطع مقاومة رغبتي في لمس النقوش المُذهلة التي تملأ الجدران. وجدتُ أنّها مُرصّعة بطبقة صدفيّة تجعلها تتلألأ في ضوء الصباح الباكر. تُرى كم يد صنعت هذا الجمال؟ وكم سنة استغرق بناء مثل هذا القصر الفخم؟

مررنا بحجرة استقبال، ثم دخلنا حجرة أخرى سداسيّة الشكل، ارتصفت في منتصفها أربع طاولات مُتراصّة على هيئة مُربّع. تردّد صوت أقدامنا فوق الأرض الحجريّة في أركان الغرفة. نظرتُ للأعلى فرأيتُ قبّة هائلة الحجم تطفو فوق رؤوسنا على ارتفاعٍ يستحيل تخيّله.

تحدّث مُستحضر الظلام مع عجوزٍ ترتدي زيًّا رماديًّا، بدا أنّها إحدى الخدم، ثم أومأ لي برأسه ومضى إلى الرواق وخلفه لفيف من رجاله.

انتابني ضيق شديد.

لم يتحدّث معي مُستحضر الظلام منذ تلك الليلة التي قضيناها في المزرعة المهجورة، ولم يعطني أي فكرة عمّا سيحدث فور وصولنا إلى القصر. ولأن مخزون طاقتي قد فرِغ، لم أجرِ خلفه، وتبعتُ المرأة ذات الرداء الرماديّ دونما كلام، عبرنا مجموعة أخرى من الأبواب المزدوجة إلى أحد الأبراج القصيرة.

عندما وقعت عيني على الدرج، كدتُ أنهار باكيةً.

قلتُ في نفسي بيأسٍ: ربما عليّ أن أسألهم إذا يمكنني البقاء

هنا في منتصف الرواق.

ولكنّني جاهدتُ ذلك الشعور واستندتُ على الدرابزين المُزيّن بالنقوش، وشرعتُ في الصعود بجسدٍ يلعن كلّ خطوة تطؤها قدماي. وعندما وصلتُ للأعلى، فكّرتُ أن أكافئ نفسي بأن أستلقي على الأرض وآخذ قيلولة قصيرة، ولكن الخادمة سبقتني إلى الرواق فلحقتُ بها. مررنا من باب إلى باب، حتّى وصلنا أخيرًا إلى حجرة كانت تنتظرنا فيها خادمة أخرى ترتدي الزي ذاته، وقفت بثباتٍ أمام باب غرفة أخرى.

دلفنا إلى الداخل. كانت الغرفة واسعة، تُغطّي نوافذها ستائر ذهبيّة ثقيلة، وكانت ثمّة نار مُشتعلة في موقدٍ جميل الشكل تُضفي على الغرفة الدفء الذي تفتقره. والحق أنّني لم آبه بكُل هذا، فما لفت نظري كان السرير الضخم المفروش فوقه غطاء.

قالت المرأة: «هل تودّين أي شيء؟ هل أجلب لكِ طعامًا مثلًا؟».

هززتُ رأسي، فلم أُرِد شيئًا سوى الغطُّ في سباتٍ عميق.

«جيد». قالت المرأة ثم أومأت برأسها للخادمة التي انحنت وغادرت إلى الرواق.

أضافت المرأة: «إذًا سأتركك كي ترتاحي. لا تنسي أن تغلقي باب الغرفة بالقفل».

اندهشتُ ممّا قالت.

أردفت: «هذا لحمايتك».

ثم غادرت الغرفة وأغلقت الباب بلطفٍ.

تساءلتُ: لحمايتي من ماذا؟

لم تكـن لـديّ طاقـة للتفكـير في أي شيء. ففعلـتُ كـما أمـرَت، وخلعـتُ زيـي وحـذائي، وألقيـتُ بنفـسي فـوق السريـر.

الفصل السادس

حلمتُ أنّني عدتُ إلى (كيرامزين)، أركض على غير هدى في ممرّاتٍ مُظلمة بقدمين حافيتين، مُحاولة البحث عن (مال). كنتُ أسمعه يناديني، ولكن صوته ظلّ بعيدًا وكأنّه يخشى الاقتراب. وصلتُ في النهاية إلى الطابق العلوي، ووقفتُ أمام غرفة النوم الزرقاء القديمة حيث كنّا نحب الجلوس على مقعد بجانب النافذة التي تُطل على حديقتنا. سمعتُ (مال) يضحك، ففتحتُ باب الغرفة.. وصرختُ. كانت ثمّة بِرَك من الدماء تُغطّي أرضيّة الغرفة. رأيتُ فولكرا تجلس على المقعد الذي بجانب النافذة، التفتت لي وفتحت فمها كاشفةً عن فكّيها المُرعبيْن. لاحظتُ حينها أن عينيها رماديّتان كحجري مرو.

انتفضتُ من نومي، كاد قلبي ينفجر، نظرتُ حولي وقد تملّك الرعب منّي، لوهلةٍ نسيتُ أين أنا، ثم تأوّهتُ وألقيت برأسي فوق الوسادة مُجدّدًا.

كنت على وشك استكمال نومي لمّا سمعتُ طرْقًا على الباب.

تمتمتُ من تحت الغطاء قائلًة: «اذهبوا بعيدًا». ولكن الطرْق لم يتوقّف، بل ازداد صخبًا. رفعتُ الغطاء عن جسدي الذي كان يصيح مُتمرّدًا ونهضتُ من السرير، كاد الصداع يفتكِ برأسي، وقدماي ثقيلتان تأبيان التحرّك بسلاسة.

«حسنًا، أنا قادمة!».

توقّف الطرْق. جررتُ نفسي إلى الباب، ووضعتُ يدي على

القفل، وقبل أن أفتحه قلتُ بتردّدٍ: «من الطارق؟».

أجابني صوت نسائي: «ليس لدي وقت لمثل هذه الأسئلة. افتحي الباب، الآن!».

اندهشتُ من ردّها، ورغم ذلك قلتُ في نفسي: لن أشتكِ إذا اختطفوني أو حتّى قتلوني، ما داموا لن يجبروني على ركوب حصان أو صعود درجٍ عالٍ!

فور فتْحيَ للباب، دلفت شابّة طويلة للداخل بسرعة، وأخذت تتفحّصني وتتفحّص الغرفة بعين الناقدة. أستطيع القول أنّها أجمل أنثى رأيتها في حياتي؛ كان شعرها الكستنائيّ ينساب بسلاسة كموجٍ بحر هادئ، وعيناها كبيرتين وذهبيّتي اللون، أمّا بشرتها فناعمة وبلا عيوب، ووجنتاها المثاليتان منحوتتان من مرمرٍ نادر، ولون زي الكِفتا الذي ترتديه كلون القشدة، مُزيّن بتطاريز ذهبيّة، وبطانته حمراء اللون مصنوعة من فراء ثعلب.

نظرت إليّ وقالت: «أيّها القدّيسون، ألهموني الصبر! هل استحممتِ من قبل؟ وماذا حدث لوجهكِ؟».

احمرّ وجهي خجلًا، وارتفعت يدي تلقائيًا لتلمس الندبة التي تُشوّه وجهي. لقد مضى أسبوع تقريبًا على مُغادرتي للمُعسكر، ومنذ ذلك الوقت، أو ربما أكثر، لم أستحم أو حتّى أمشّط شعري. كان جسدي مُغطى بالوسَخ، وبُقع الدماء، ورائحة الأحصنة الكريهة.

«إنّني...».

لم تعرني الشابّة انتباهها فصمتُّ. كانت تقذف أوامرها في

أوجـه الخادمـات الـلائي تبعنهـا إلى داخـل الغرفـة.

«فلتمـلأن حـوض الاسـتحمام بالمـاء السـاخن، ولتُحـضرن لي أدواتي، والأهـم مـن هـذا كلّـه أن تنزعـن عنها تلـك الملابـس القـذرة!».

اقتربت منّي الخادمات وشرعن في فكّ أزرار زيي.

«ماذا تفعلن؟!». صحتُ وأنا أُبعد أيديهن عنّي.

قالت الغريشا: «ثبّتن يديها وقدميها إذا تطلّب الأمر ذلك».

صرختُ: «توقّفن!».

رجعـتُ للخلـف مُبتعـدةً عنهـن. وقفـن مُـتردّدات، تتأرجـح نظراتهـن بينـي وبـين الغريشـا.

في الواقـع، أفضـل مـا قـد أحظـى بـه في حالتـي هـذه هـو حـمّام سـاخن، وأن أُبـدّل ملابـسي، ولكنّنـي لـن أدَع شـابّة مُتسـلّطة مثلهـا تُعطينـي أوامـر.

قلتُ: «ماذا يجري هنا؟ ومن أنتِ؟».

«ليس لدي و...».

«إذًا جِـدي وقتًـا! لقـد قطعـتُ مسـافة مائتـي ميـلٍ عـلى ظهـر حصـان، ولم أنـم جيّـدًا منـذ أسـبوع، وعـلاوةً عـلى ذلـك، كِـدتُ أُقتَـل مرّتـين! لـذا، فعـليّ -قبـل أن أفعـل أي شيء- أن أعـرف مـن تكونـين، ولمـاذا تُصريـن عـلى خلـع ملابـسي!».

تنفّسَـت الغريشـا الصعـداء ثـم قالـت بهـدوء: «أُدعـى (جينيـا).. إنّـكِ سـتمثُلين أمـام الملـك خـلال أقـل مـن سـاعة، ومُهمّتـي هـي تهيئتـكِ لمُقابلتـه».

تلاشى غضبي.

تُرى هل ما تقوله صحيح؟

قلتُ بخوعٍ: «حقًّا؟».

«أجل، حقًّا. والآن، هل لنا أن نبدأ؟».

أومأتُ برأسي دونما كلام. صفّقت (جينيا) فبدأت الخادمات في عملهن. جرّدنني من ملابسي وأخذنني إلى الحمّام.

لم أحظَ الليلة الماضية بفرصة تفحُّص الغرفة، فكان الإرهاق مُسيطرًا عليّ حينها، ولكنّني الآن أستطيع مُعاينتها بوضوح رغم ارتعاش جسدي وخوفي المُفرط من مُقابلة الملك. تأمّلتُ الألواح البرونزيّة التي تُزيّن جميع الأسطح، وحوض الاستحمام النحاسيّ البيضاويّ الشكل الذي عزم الخدم على ملئه بالماء المغليّ، وبجانب الحوض كان ثمّة جدار مُرصّع بأصداف وقواقع مُتلألئة.

قالت إحدى الخادمات وهي تُعطيني دَفعة رقيقة للأمام: «هيّا إلى حوض الاستحمام!».

كان الماء ساخنًا لدرجة مؤلمة، ولكنّني تحمّلت الألم وانزلقتُ إلى الأسفل بسرعة. لقد جرّدتني الحياة العسكريّة من حيائي منذ وقتٍ طويل، ولكن انتابني شعور مختلف لكوني العارية الوحيدة داخل غرفة بها نساء يُطلقن في وجهي سهام نظراتهن الحادّة.

صحتُ عندما أمسكت إحداهن برأسي بقوّة وشرعت في غسل شعري بغضب. في الوقت ذاته، انحنت خادمة أخرى على الحوض وبدأت في تنظيف وتقليم أظافري.

تأقلم جسدي المُتألّم على حرارة الماء. منذ أكثر من عام

وأنا لم أحظَ بحمّام ساخن، وفي الواقع، لم تراودني فكرة أنّني قد أستحم في حوض كهذا حتّى في الأحلام. من الواضح أن انتمائي للغريشا أتى بثماره.

أردتُ لو أقضي ساعةً كاملة في هذا الحوض، ولكن بعد أن انتهت الخادمات من تنظيف جسدي بعناية، جذبتني إحداهن من ذراعي وأمرتني أن أنهض.

غادرتُ حوض الاستحمام على مضض، فأسرعت النساء بتجفيف جسمي بمناشف سميكة، ثم تقدّمت نحوي أصغرهن سنًّا حاملةً رداءً مخمليًا ثقيلًا، أعطته لي، وقادتني إلى غرفة النوم. غادر الجميع بعد ذلك وتركنني مع (جينيا).

راقبتها بحذر بينما كانت تزيل الستائر، وتسحب ناحية إحدى النوافذ كرسيًا وطاولة خشبيّة مُزيّنة بنقوش مُبهرة.

قالت لي بلهجة آمرة: «اجلسي».

أغضبتني نبرتها ولكنّني أطعتُها.

فتحَت صندوقًا صغيرًا وأفرغت مُحتوياته على الطاولة، والتي ضمّت جِرارًا زجاجيّة صغيرة مليئة بما بدا أنّه توت، وأوراق شجر ومساحيق مُلوّنة. لم ألحظ بقيّة المُحتويات، لأن (جينيا) أمسكت بذقني ونظرت إلى وجهي عن قرب، ثم وجّهت خدّي الذي تشوّهه الندبة ناحية ضوء النافذة. أخذَت نفسًا عميقًا ومرّت بأصابعها فوق خدي. شعرتُ بنفس الرغبة في حكّ جلدي التي كنتُ قد شعرتُ بها عندما اعتنت المُعالجة بالجروح التي أُصبتُ بها في معركة الطيّة.

مرّت دقائق طويلة أطبقتُ فيها على يديّ لأمنع نفسي من

حك خدّي. تراجعت (جينيا) خطوة للوراء ثم أعطتني مرآة يد ذهبيّة صغيرة. وجدتُ الندبة قد اختفت، ضغطت على مكانها ولكنّني لم أشعر بأي ألم.

«شكرًا لكِ».

قلتُ وأنا أضع المرآة على الطاولة وأهِم بالوقوف، لكن (جينيا) أعادتني إلى مقعدي وقالت: «إلى أين أنتِ ذاهبة؟ أنا لم أنتهِ من عملي».

«ولكن...».

«لو أن مُستحضر الظلام أراد شفاء جروحكِ، لكان أرسل لكِ مُعالجة».

«ألستِ مُعالجة؟».

ردّت بحدّة: «لا أظنّني أرتدي زيًّا أحمر، أليس كذلك؟». ثم ما لبثت أن أضافت: «أنا خيّاطة».

نظرتُ لها مُتحيّرةً، فإنّني لم أرَ أحدًا من الغريشا يرتدي زي الكِفتا الأبيض من قبل.

سألتها: «هل ستُفصّلين لي فستانًا؟».

زفرت (جينيا) باستياء وقالت: «أنا لا أُفصّل الفساتين، بل هذا...». ثم لوّحت بأصابعها الرشيقة الطويلة أمام وجهها.

أردَفَت: «هل تظنين أنّني وُلِدتُ بهذه الطلّة؟».

حدّقتُ في ملامح وجهها المرمريّ الناعم وأدركتُ مقصدها. شعرتُ ببعض الإهانة ولكنّني قمعتُ غضبي وقلت: «أتريدين تغيير ملامح وجهي؟».

«لن أغيّرها، بل سأنعشها قليلًا».

انتابني شعور بالضيق الشديد..

كنت أعلم كيف بدوتُ، بل وكنتُ على دراية كاملة بعيوبي، لكنني لم أكُن بحاجة إلى إحدى فاتنات الغريشا كي تستخرج لي تلك العيوب. والأسوأ من هذا كلّه أن مُستحضر الظلام هو من أرسلها لي.

قفزتُ من مقعدي وقلتُ لها: «انسي هذا الأمر.. إذا كان مظهري لا يُعجب مُستحضر الظلام، فهذه مُشكلته هو».

سألتني (جينيا) بوجهٍ تملؤه ملامح الفضول: «هل يُعجبكِ مظهركِ؟».

«لستُ مُتأكّدةً من هذا، ولكن حياتي قد أصبحت -مؤخرًا- مُربكةً بما فيه الكفاية، ولذا فلن أتحمّل أن أرى وجهًا غريبًا عنّي في المرآة».

«الأمر ليس مُعقدًا لهذه الدرجة.. ليس باستطاعتي القيام بتغييرات جذرية. بإمكاني فقط إجراء بعض التعديلات البسيطة، كأن أجعل بشرتكِ أكثر نعومةً، أو شعركِ أكثر انسيابيّة. لقد قضيتُ عمري كلّه في الوصول إلى جمالي المثالي هذا».

وددتُ لو أجادلها فيما قالت، لكنّها كانت مثاليّة الجمال بالفعل.

قلتُ لها: «غادري الغرفة».

مالَت برأسها إلى اليمين وقالت وهي تتفحّصني: «لماذا تأخذين كلامي بمحمل شخصي؟».

«ألَن تفعلي هذا إذا كنتِ مكاني؟».

«لا أدري، فقد وُلِدتُ جميلة».

«بل ومُتواضعة أيضًا».

هـزّت كتفيهـا وقالـت: «جـمالي ليـس ذا نفـعٍ بالنسـبة للغريشـا. ومُسـتحضر الظـلام لا يهتـم بالمظاهـر، بـل بالأفعـال».

«لماذا أرسلكِ إليّ إذًا؟».

«لأنّـه يعلـم أنّ الملـك يُحـب الجـمال في كل صـوره. في بـلاط الملـك، المظاهـر تُمثّـل كل شيء. ولـذا، فـإذا كان خـلاصُ رافـكا في يـدكِ، فعليـكِ أن تبـدي دائمًـا في أحسـن حـال».

نظـرتُ خـارج النافـذة فرأيـتُ الشـمس تسـطع عـلى بحـيرة ضيّقـة، تقبـع في مركزهـا جزيـرة صغـيرة. لم أدرِ كـم كانـت السـاعة أو كـم سـاعة نمـت.

وقفت (جينيا) بجانبي وقالت: «أتعلمين، أنتِ لستِ قبيحة».

قلتُ بحِدّة وأنا أنظر الأشجار من تحتنا: «أشكركِ».

«إنّكِ فقط تبدين...».

«مُتعبة؟ أم مريضة؟ أم ربما نحيفة؟».

«في الواقـع.. لقـد قلـتِ بنفسـكِ أنّـكِ واجهـتِ صعوبـات ومخاطر كثـيرة أثنـاء سـفركِ في الأيّـام الماضيـة و...».

تنهّدتُ وقلتُ: «هذا ما أبدو عليه دائمًا».

أسـندتُ رأسي عـلى زجـاج النافـذة البـارد. أحسسـتُ بغضبـي وخجـلي يتلاشـان.

ما الذي كنتُ أقاتل من أجله؟

إذا أصبحـتُ صريحـةً مـع نفـسي للحظـة، سـأدرك أن (جينيـا)

تُقدِّم لي عرضًا مُغريًا.

قلتُ لها: «حسنًا.. افعلي ما تشائين».

صفقت (جينيا) بيديها وقالت: «شكرًا لكِ!».

نظرتُ إليها بجِدّة.

لم ألحظ في نبرة صوتها، أو حتّى ملامح وجهها، أي نوعٍ من أنواع السخرية. لا شك أنّها شعُرَت بالارتياح. إن مُستحضر الظلام هو من كلّفها بتلك المُهمّة، فيا تُرى ما الذي كان سيحدث لها لو كنتُ قد رفضتُ مطلبها.

تركتها تقودني إلى الكرسي مُجدّدًا.

قلتُ: «فقط لا تُبالغي في تعديلاتكِ».

فقالت: «لا تقلقي، لن تتغيّري كثيرًا. ستبدين فقط وكأنّكِ استطعتِ النوم لعدد ساعاتٍ أكبر. وتأكّدي أنّني أتقن عملي».

«بوسعي رؤية الدليل».

«حسنًا، راقبي ما سيحدث، ولكن لا تتكلّمي. فقط اجلسي بثبات».

أعطتني المرآة الذهبيّة، رفعتُها قبالة وجهي وراقبت أصابعها الباردة وهي تهبط ببطءٍ على جبيني. شعرتُ بوخزٍ خفيف بينما كانت يدا (جينيا) تتحرّك فوق بشرتي. ظل اندهاشي يتفاقم عندما رأيتُ كل خدشٍ في وجهي، وكل عيب يشوّهه، يختفي تحت أصابعها وكأنّه لم يكُن.

ثم وضعت إبهاميها تحت عيني. صرختُ مُندهشةً عندما شاهدتُ تلك الدوائر الداكنة أسفل عينيّ، التي شوّهَتهما منذ طفولتي، تتلاشى نهائيًا.

قالت (جينيا): «لا تتحمّسي لهذه الدرجة، فهذا وضع مؤقّت».

أمسكَت بإحدى الورود التي على الطاولة، وقطفت بتلة ورديّة شاحبة، ثم رفعتها ناحية خدّي. نزفت البتلة رحيقها على خدي حتّى تورّد. ثم كرّرت (جينيا) نفس العمليّة على شفتيّ.

أخبرتني (جينيا) أن تأثيرها يدوم لبضعة أيّام، ثم قالت: «والآن دعيني أصلح شعركِ التالف».

أخرجَت من صندوقها مشطًا طويلًا مصنوعًا من العظام، وناقوسًا زجاجيًا مملوءًا بشيءٍ لامع.

سألتها مشدوهةً: «أهذا ذهب حقيقي؟».

أجابت: «بالتأكيد».

رفعت بضع خصلات من شعري البني الباهت، وأخذت تُمرّر فوقه رقاقات الذهب بينما تُمشّطه. بدا وكأن الذهب يذوب فيستحيل إلى خيوط لامعة. ومع انتهائها من كل خصلة، تقوم بلفّها حول أصابعها لتسقط في النهاية على كتفي بانسيابية.

وعندما فرغت من عملها، تراجعت خطوة للخلف وقالت وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة انتصار: «أليس هذا أفضل؟».

تفحّصتُ مظهري في المرآة. بدا شعري أكثر لمعانًا، وخدّاي مُتورّدين. لم أتحوّل إلى فتاة فاتنة الجمال، ولكنّني لا أستطيع إنكار ما جرى لي من تحسُّن.

تُرى لو رآني (مال)، ماذا سيكون رد فعله؟

قلتُ لـ(جينيا) على مضض: «نعم، هذا أفضل».

تنهّدت (جينيا) بحزنٍ وقالت: «هذا أقصى ما أستطيع القيام

بـه الآن».

قلتُ لها بجِدّة: «أشكرك».

غمـزت لي وابتســمَت قائلًـة: «وعـلاوة عـلى ذلـك، فمِـن الأفضـل ألّا يسـتحوذ مظهـركِ عـلى انتبـاه الملـك الكامـل».

كانــت نــبرة صوتهــا خافتــة، ورأيــتُ ظـلًا يكســو وجههـا بينـما كانـت تمـضي نحـو البـاب كي تُدخـل الخـدم إلى الغرفـة مـرّة أخـرى.

قـادوني إلى برافـان أسـود اللـون مصنـوع مـن خشـب الأبنـوس، ومُرصّـع بنجـوم مُتلألئـة مثـل تلـك التـي تُزيّـن سـماء الليـل. وفي غضـون لحظـات، ألبسـوني سـترة نظيفـة، وبنطـالًا، وحـذاء جلديـًا ناعـمًا، ومعطفًـا رماديًـا. أصابتنـي خيبـة أمـلٍ كبـيرة عندمـا أدركـتُ أن مـا ارتديتـه مـا هـو إلّا زيـي العسـكري بعـد تنظيفـه، وكان ثمّـة بوصلـة بـارزة مُطـرّزة عـلى الكُـم الأيمـن، والبوصلـة شـعار رسّـامي الخرائـط.

لا شك أن انزعاجي بدا في وجهي..

سـألتني (جينيـا) بــشيءٍ مــن الاندهــاش: «أليــس هــذا مــا توقّعتِــه؟».

«ظننتُ فقط أن...».

مــا الــذي ظننتُــه؟ هــل كنــتُ أعتقــد حقًــا أن زي الغريشــا يُناســبني؟

«إن الملـك يتوقّـع أن يـرى فتـاةً بسـيطة أُختـيرَت مــن ضمــن أفـراد جيشـه، بـل عُـثِر عليهـا وكأنّهـا كنـز دفـين. أمّـا إذا ارتديـتِ زي الكِفتـا، فسـيظن أن مُسـتحضر الظـلام كان يُخبئـكِ طـوال هـذا الوقـت».

«ولماذا قد يُخبئني؟»

هـزّت (جينيـا) كتفيهـا وقالـت: «ربمـا ليزيـد نفـوذه، أو ليحصـل عـلى مكافـأة مـا. لا أعلم.. ولكـن الملك... سـترين كل شيء بنفسـكِ».

شـعرتُ بـألمٍ في معـدتي ناتـج عـن توتّـري الشـديد. فقـد كنـتُ عـلى وشـك المثـول أمـام الملـك! حاولـتُ تمالـك أعصـابي، ولكـن عندمـا قادتنـي (جينيـا) إلى خـارج الغرفـة ومضينـا سريعًـا داخـل الـرواق، أحسسـتُ بقدمـيّ تثقُـلان وترتعشـان.

همسـت (جينيـا) في أذني عندمـا وصلنـا لأسـفل السـلم: «إذا سـألكِ أحـد عـمّا فعلتـه لـكِ، فأخبريـه أنّنـي سـاعدتكِ عـلى ارتـداء ملابسـكِ فقـط، وهـذا لأنّنـي غـير مسـموحٍ لي بتحسـين مظهـر الغريشـا».

«ولِمَ لا؟».

«لأن الملكـة السـخيفة، ونسـاء بلاطهـا الحمقـاوات، تظـنّ أنّـه ليـس عـدلًا».

نظـرتُ إليهـا وقـد أصابتنـي صدمـة قويّـة، فـإن سـب الملكـة يُعـد خيانـة عظمـى، ولكـن يبـدو أن (جينيـا) لا تكـترث لهـذا.

دخلنـا القاعـة الواسـعة التـي تُغطّـي أعلاهـا قبّـة ضخمـة، وجدناهـا مُزدحمـة بالغريشـا ممـن يرتـدون أرديـة قرمزيّـة، وبنفسـجيّة، وزرقـاء داكنـة، بـدا مُعظمهـم قريبـين مـن سـنّي، وكانـت ثمّـة فئـة قليلـة أكـبر سـنًا يجتمعـون في أحـد الأركان، ورغـم خصـال شـعورهم الفضيّـة، وتجاعيـد وجوههـم، فـإنّ جاذبيّتهـم صدمتنـي.

في الواقع، كان كل من في الغرفة جذّابين بشكلٍ مُثير للدهشة.

قلتُ لـ(جينيا) بصوتٍ خفيض: «قد تكون الملكة مُحقّة».

«لم تلمس يداي أحدًا منهم».

إذا كان ما تقوله صحيحًا، فهذا دليل قاطع على أنّني لا أنتمي لهذا المكان.

رآنا أحدهم فور دخولنا القاعة. سكت جميع الحضور واكتفوا بتصويب نظراتهم تجاهي.

تقدّم نحونا أحد الغريشا، كان طويل القامة، عريض المنكبين، أسمر البشرة، ويرتدي زيًّا أحمر. انحنى بجسده قليلًا مُحيّيًا إيّانا وقال: «أُدعى سيرجي بزنيكوف».

«وأنا...».

قاطعني مُبتسمًا حتّى كاد بياض أسنانه يعميني: «بالطبع أعرف من تكونين. والآن، دعيني أُقدّمكِ إلى أفراد جماعتي. سوف ترافقيننا».

أمسكني من ذراعي وبدأ في المُضيّ نحو مجموعة من الكوربورالكي.

«إنّها من المُستحضرين يا سيرجي» قالت فتاة ترتدي زيًّا أزرق، شعرها يتدفّق كنهرٍ على كتفيه.

ثم أردَفَت: «سوف ترافقنا نحن».

انبعثت همهمات موافقة من أفراد الإثيريالكي الواقفين خلفها.

تصنّع (سيرجي) الابتسام وقال: «هل تُرجّحين يا ماري أنها سترافق مجموعة أقل مرتبةً منّا؟».

احمرّ وجه (ماري) المرمريّ من فرط الغضب، ووقف العديد من المُستحضرين بجانبها.

«هل عليّ أن أُذكّرك بأن مُستحضر الظلام نفسه ينتمي إلى جماعتنا؟».

«وهل تساوون أنفسكم بمُستحضر الظلام الآن؟».

ازداد غضب (ماري).

قاطعتهم مُحاولة تهدئة النزاع القائم بينهم، فقلتُ: «لماذا لا أرافق (جينيا) إذًا؟».

انبعثت من خلف (سيرجي) قهقهات مكتومة.

سألني (سيرجي) مذهولًا: «سترافقين الخيّاطة؟».

نظرتُ إلى (جينيا)، فابتسمت وهزّت رأسها.

قالت (ماري) مُعترضة: «لا، إنّها تنتمي إلى جماعتنا».

ثم اندلع جدال ساخن من حولنا.

«إنّها سترافقني». قال صوتٌ خفيضٌ انبعث من مكانٍ ما خلفنا، عندما سمعه الجميع عقدوا ألسنتهم.

الفصل السابع

التفــتُّ لأرى مُســتحضر الظـلام واقفًـا عنـد المدخـل، وبجانبـه (أيفـان) ومجموعـة أخـرى مـن الغريشـا ممّـن رافقونـا في رحلتنـا. تراجـع (سـيرجي) و(مـاري) عـلى الفـور، ووقـف مُسـتحضر الظـلام ينظـر في وجـوه مَـن في الحشـد، ثـم مـا لبـث أن قـال: «إنّهـم في انتظارنـا».

وعـلى الفـور، نهـض جميـع الغريشـا مـن أماكنهـم وشرعـوا في مُغـادرة الغرفـة عـبر الأبـواب المُزدوجـة الضخمـة. نظّمـوا حركتهـم إلى الخـارج بحيـث يمـضي كل اثنـين بجانـب بعضهـما، مُكوّنـين طابـورًا طويـلًا في أوّلـه أفـراد الماتيريالـكي، ثـم الإثيريالـكي، ثـم الكوربورالـكي، حتّـى يدخـل غرفـة العـرش في النهايـة أعـلى أفـراد الغريشـا منزلـةً، وهـو بالطبـع مُسـتحضر الظـلام.

لم أدرِ مـاذا عسـاني أن أفعـل، ولذلـك وقفـتُ حيـث أنـا، أراقـب تحرُّكاتهـم. نظـرتُ حـولي باحثـة عـن (جينيـا) ولكنّهـا كانـت قـد اختفـت. مـرّت لحظـات أخـرى مـن الصمـت، ثـم جـاءني مُسـتحضر الظـلام ووقـف بجانبـي. تأمّلـتُ وجهـه الشـاحب، وأسـنانه الحـادّة، وعينيـه المنحوتتـين مـن الجرانيـت، دونمـا كلام، حتّـى بـادرني هـو قائـلًا: «وجهـكِ يبـدو أكـثر نضـارة مـن ذي قبـل».

شعرتُ ببعض الضيق..

لم أشـعر بالراحـة لمـا فعلتـه (جينيـا) بمظهـري، ولكـن في ظـل تواجـدي هنـا في هـذه القاعـة المُكتظّـة بحسـناوات الغريشـا، عـليّ

الاعتراف أنّني أكِن لها كل امتنان. ورغم أنّني لم أشعر بانتمائي لهم، فإنّني كنتُ سأشعر بغُربة أكبر دون مُساعدة (جينيا).

سألته: «هل ثمّة خيّاطون آخرون؟».

أجاب ناظرًا في عينيّ: «كلّا، فجينيا فريدة من نوعها.. مثلنا».

تجاهلتُ تلك الرعشة الطفيفة التي سرَت في جسدي عندما التقطت أذناي كلمة «مثلنا»، وقلتُ: «لماذا لا أراها بين الغريشا؟».

«لأن عليها أن تعتني بالملكة».

«ولِمَ؟».

«عندما برزت قدرات (جينيا)، كان بإمكاني أن أُخيّرها بين الانضمام إلى جماعة المُصنّعين أو الكوربورالكي، ولكنّني ارتأيتُ أنّه من الأفضل أن أُنمّي تلك القدرات ثم أُهديها للملكة».

«تُهديها؟ إذًا ليس ثمّة فرق بين الغريشا والعبيد!».

قال بحِدّة فاجأتني: «جميعنا نخدم أحدًا».

صمَتَ بُرهة ثم أضاف: «إن الملك يتوقّع أن نُقيم عرضًا أمامه كنوعٍ من الإثبات».

شعرتُ وكأن رأسي قد أُغرِق في الماء البارد.

قلتُ: «ولكنني لا أدري كيف...».

قال بهدوء: «إنّني لا أتوقّع منكِ معرفة أي شيء».

ثم مضى إلى الأمام بعدما اختفى آخر فرد من أفراد الكوربورالكي خلف الباب.

خرجنا إلى طريقٍ مرصوفٍ بالحصى، واستقبلتنا الشمس قبل أن

تغرب. أحسستُ بثِقَل في صدري، وكأنّهم يصطحبونني لأعدَم.
قلتُ في نفسي بقلبٍ مقبوض: ربما أنا في طريقي لأن أُعدَم بالفعل.

همستُ لمُستحضر الظلام غاضبَة: «إن هذا ليس عدلًا.. أنا لا أعلم ماذا يتوقّع الملك منّي، ولذلك فليس من العدل أن تقذفوا بي إلى داخل الغرفة وتنتظروا منّي أن... أن أقوم بشيء ما لا أدري ما هو!».

«أتمنّى ألّا تنتظري منّي أن أكون عادلًا يا (ألينا)، فالعدل ليس من اختصاصاتي».

حدّقت في عينيه.. تُرى ماذا عساني أن أفهم ممّا قاله؟

أردَف: «هل تظنين حقًا أنني أتيتُ بكِ كل هذه المسافة كي أجعل منّا حمقى أمام الجميع؟».

«كلّا». جاء ردّي.

قال بينما كنّا نمضي في الممر المُظلم المحفوف بالشجر الكثيف: «وأعتقد أن الأمر لم يعُد في يدكِ على الإطلاق، أليس كذلك؟».

رغم كون كلامه غير مُطمئن، فإنّه كان مُحقًا. لم يكن لدي خيار آخر سوى أن أثق بأنّه يعرف ما يفعله.

انتابني شعورٌ مُقبِض دفعني لسؤاله: «هل ستجرحني مرّة أخرى؟».

«أعتقد أنّني سأضطر لهذا، ولكن الأمر يتوقّف عليكِ».

ازداد خوفي..

حاولتُ تهدئة ضربات قلبي التي أخذت تتسارع حتّى كادت

تُـردي بي، وقبـل أن أحظـى بفرصـة لالتقـاط أنفـاسي، وجدنـا أننـا قـد وصلنـا إلى السُّـلّم الرخامـي الأبيـض الـذي يـؤدّي إلى القـصر الكبـير. دلفنـا إلى قاعـة اسـتقبال واسـعة، ثـم مضينـا في ممـر طويـل مُزيّـن بزخـارف ذهبيّـة، تصطـف عـلى جانبيـه مرايـا أنيقـة، وجـدتُ نفـسي -تلقائيًـا- أقـارن القـصر الكبـير بالقـصر الصغـير. حيثـما نظـرتُ، وجـدتُ ذهبًـا برّاقًـا، وثريّـات مُتلألئـة، وأسـطحًا رخاميّـة لامعـة، وجـدران عاليـة امتـزج لونهـا الأبيـض بطيـفٍ أزرق خافـت، وأرضيّـات مـن الخشـب المُلـوّن مُزخرفـة بتصاميم هندسـيّة مُتقنـة. ورغـم أن كل مظاهـر الـترف هـذه كانـت مُرهقـة لعينـي، فـإن جمالهـا لم يـزل طاغيًـا.

كنـتُ أزعـم أن فلّاحـي (رافـكا) الجوعـى، وجنودهـا الفقـراء، قـد عانـوا بسـبب طيّـة الظـل، ولكـن بعدمـا مررنـا بشـجرةٍ مصقولـة مـن اليشـم الأخـضر، ومُزدانـة بـأوراق شـجر ماسـيّة، لم أعُـد واثقـة مـن صحّـة نظريتـي.

كانـت غرفـة العـرش عـلى ارتفـاع ثلاثـة طوابـق، ويتدفّـق وهـج العُقبـان الذهبيّـة المُزدوجـة، المُسـتقرّة عـلى نوافذهـا، إلى أركانهـا القاصيـة والدانيـة. وامتـدّت عـلى الأرض بطـول الغرفـة سـجّادة زرقـاء طويلـة، مُنتهاهـا عنـد عـرشٍ مُنتصـب التـف مـن حولـه رجـال ونسـاء البـلاط الملـكي؛ ارتـدى العديـد مـن الرجـال الـزي العسـكري المُكـوّن مـن سراويـل سـوداء ومعاطـف بيضـاء مُعلقـة عليهـا نياشـين وميداليـات شرف، أمّـا النسـاء فتألّقـن في ثيابهـن الحريريّـة ذات الأكـمام الواسـعة والياقـات الرفيعـة. وعـلى جانبـي السـجادة ارتـصّ أفـراد الغريشـا بنظـام.

عـمَّ السـكون فـور دخـولي الغرفـة برفقـة مُسـتحضر الظـلام،

واكتفى الجميع بقذفنا بنظراتهم المُندهشة. مشينا ببطءٍ نحو العرش الذهبي، وعندما اقتربنا منه، اعتدل الملك في جلسته وقد اعتلت وجهه ملامح الحماس. بدا أنّه في الأربعينيّات من عمره، نحيف البدن، مُقوّس الظهر، دامع العينين، ذو شارب خفيف. كان يرتدي زيّه العسكري الكامل، ويتدلّى من جنبه سيف حادٌ رفيع، وتُغطّي صدره المُتقلّص نياشين كثيرة. وقف بجانبه رجل ذو لحية طويلة داكنة، يرتدي زي كاهنٍ، ورأيتُ على صدره العُقاب الذهبي المُزدوج ذاته وقد أخذ يُحدّق بي.

ضغط مُستحضر الظلام على ذراعي بلُطفٍ لكي أتوقّف.

قال بصوتٍ واضح: «مولاي الملك.. هذه ألينا ستاركوف، مُستحضرة النور».

انبعثت همهمات من الحشد.

لم أدرِ إذا ما كان عليّ أن أنحني برأسي أم بجسدي كلّه. تذكّرت إصرار (آنا كونيا) على تعليمنا كيف نُحيّي ضيوف الدوق من النبلاء. خالجني إحساسٌ بأنّه ليس من الصواب أن أنحني وأنا مُرتدية الزي العسكري. وسرعان ما أنقذني الملك من الوقوع في خطأ فادح بأن أشار لنا بالتقدُّم للأمام قائلًا باندفاع: «هيّا، هيّا، أحضرها لي!».

اقتربنا من قاعدة المنصّة.

تفحّصني الملك بعينيه من رأسي إلى أخمص قدمي. شاهدتُ ملامحه تتبدّل، وشفته السفليّة تتصلّب. قال: «إنّها تبدو عاديّة جدًّا».

احمرّت وجنتاي وعضضتُ على لساني من فرط غيظي، فإن

الملـك لم يكُـن وسـيمًا مثـلي تمامًـا! عمليًـا، كان بـلا ذقـن، وعندمـا نظـرتُ لـه عـن قـرب، اسـتطعتُ رؤيـة الأوعيـة الدمويّـة المكسـورة في أنفـه.

قال الملك آمرًا: «أريني ما لديكِ».

شـعرتُ بقلبـي ينقبـض. نظـرتُ إلى مُسـتحضر الظـلام، فعرفـتُ أن الأوان قـد آن. بادلنـي مُسـتحضر الظـلام النظـرة ثـم أومـأ برأسـه وفتـح ذراعيـه عـن آخرهـما. خيّـم الصمـت عـلى الغرفـة، وامتـلأت يـداه بتلـك الخيـوط السـوداء التـي أخـذت تحـوم في الهـواء. وفجـأة، ضـم يديـه معًـا فانبعـث منهـما دويّ قـوي. علَـت صيحـات الحاضريـن الذيـن ذُعـروا عندمـا كسـا الظـلام الغرفـة. أمّـا أنـا فكنـتُ مُهيّـأة لمنظـر الظـلام الـذي اجتـاح كل شيء يحيـط بنـا، لكنّـه لم يـزل مُقبضًـا.. خطـوتُ للأمـام باحثـةً -بشـكلٍ لا شـعوريّ- عـن أي شيء أتمسّـك بـه. جذبنـي المُسـتحضر مـن ذراعـي ثـم انزلقـت يـده لتُمسـك بيـدي، شـعرتُ بنفـس القـوّة التـي شـعرت بهـا مـن قبـل عندمـا أحـدَث ذلـك القطـع في ذراعـي، ثـم سـمعتُ بداخـلي نـداءه الواضـح القـاسي، مُطالبًـا إيّـاي أن أُلبّيـه. نمـا بداخـلي شـعور بالذعـر والراحـة في الوقـت ذاتـه، وكان ثمّـة شـعور آخـر لم أتبيّنـه أخـذ يتفاقـم ويعظُـم، ولكنّنـي لم أُصارعـه هـذه المـرّة.. بـل تركتـه يتملّـك منّـي.

غمـر الضـوء غرفـة العـرش، بعـث في أجسـادنا الـدفء وحطّـم الظـلام وكأنّمـا كان زجاجًـا أسـود. عـلا تصفيـق الجميـع. رأيـتُ بعضهـم يبكـون، وآخـرون يحتضنـون بعضهـم بعضًـا، وكان ثمّـة امـرأة لم تسـتطع تمالـك نفسـها فأُغـشي عليهـا.

صفّـق الملـك بحماسـة، وقـام مـن عرشـه مُسـتمرًا في التصفيـق

وقد بدت على وجهه ملامح البهجة.

أفلتَ مُستحضر الظلام يدي فتلاشى الضوء.

صاح الملك: «مُذهل! يا لها من مُعجزة!».

ثم نزل سُلّم المنصّة، ومن خلفه الكاهن المُلتحي يتبعه في صمت. أمسك الملك بيديّ ورفعها إلى شفتيه المُبلّلتين وقال: «يا فتاتي العزيزة.. يا فتاتي العزيزة».

جال في ذهني ما قالته (جينيا) عن عدم لفت انتباه الملك، فشعرتُ بوخزٍ عنيفٍ في جلدي، ولكنّني لم أجرؤ على إفلات يديّ.

تركني الملك وراح يربت على كتف مُستحضر الظلام ويقول: «هذه حقًّا مُعجزة.. مُعجزة لا مثيل لها! تعال معي، علينا أن نضع خططًا على الفور».

عندما ابتعد الاثنان ليتحدّثا سويًا، تقدّم الكاهن نحوي وقال وعيناه لا تنفكّان عنّي: «أجل، إنّها لمُعجزة حقًّا».

كانت عيناه بُنّيتين داكنتين حد السواد، ورائحته خليطًا من العفن والبخور، كمثل القبور، ارتعَد جسدي حينما شممتها. ثم تدفّقت السكينة إلى قلبي عندما ذهَب لينضم إلى الملك ومُستحضر الظلام.

لحظاتٌ وتجمّع حولي رجال ونساء حِسان الملبس، جميعهم راغبون في التعرّف عليّ، ويودّون لمس يدي أو حتّى كُم زيي العسكري. حاوطوني من كل جهة، وأخذوا يتصارعون ويدفعون بعضهم بعضًا كي يقتربوا منّي. أحسستُ بالتوتّر يتسلّل إليّ، وقبل أن يستقر، ظهرَت (جينيا) بجانبي فشعرتُ ببعض الراحة.

ولكن تلك الراحة لم تدُم طويلًا، فقد همسَت (جينيا) في أذني: «إن الملكة تريد رؤيتك».

قادتني من بين الحشد إلى باب ضيّق في أحد جوانب الغرفة، عبرنا منه إلى غرفة جلوسٍ تبدو من الداخل مثل جوهرة ضخمة، جلَست الملكة هناك على أريكة طويلة، وعلى فخذيها جثم كلبٌ غريب المظهر ذو وجه مُطبّق.

بدت الملكة طاغية الجمال؛ شعرها أشقر لامع ومُصفّف بعناية، وملامحها رقيقة وجذابة، ولكن لم يزل ثمّة شيء غريب في وجهها. كان لون عينيها الأزرق مُبالغًا فيه، وشعرها مُبالغًا في شقرته، وبشرتها مُبالغًا في نعومتها. تساءلتُ كم بذلَت (جينيا) من جهد كي تبدو الملكة بهذه الطلّة.

كان ثمّة عدد من السيدات يُحاوطن الملكة، يرتدين ثيابًا فاخرة لونها وردي ممزوج بالأزرق الخافت، وياقاتها الرفيعة مُطرّزة بخيوط مُذهّبة، ومُرصّعة بلآلئ لامعة مُتناهية الصغر. ورغم جمالهن فإنّ جمال (جينيا) طغى عليهن جميعًا. بدَت مُتألّقة في زي الكِفتا المُتواضع قشديّ اللون الذي ترتديه، وشعرها الكستنائيّ يحترق كما الشعلة المُتوهّجة.

قالت (جينيا) وهي تنحني على استحياء: «مولاتي الملكة.. ها هي مُستحضرة النور».

لم أتردّد هذه المرّة وقرّرتُ أن أنحني. سمعتُ السيدات يضحكن ضحكات فاترة.

قالت الملكة بعدما نظرت لي: «تبدين فاتنة.. ولكنّني أكره التظاهر». لبثَت مليًا ثم سألتني قائلةً: «هل عائلتكِ من

الغريشـا؟».

نظـرتُ بتوتّـر إلى (جينيـا) التـي أومـأت برأسـها مُشـجّعةً إيّـاي عـلى إجابـة السـؤال.

«كلّا.. يا مولاتي».

«هل هم من الفلّاحين إذًا؟».

أومأتُ برأسي.

قالت الملكة: «نحن محظوظون بشعبنا».

تمتمت السيدات بكلمات تنم عن موافقتهن.

أردَفَـت: «يجـب أن نُخطِـر عائلتـكِ بوضعـكِ الجديـد. سـتبعث (جينيـا) رسـولًا لهـم».

أومـأت (جينيـا) برأسـها وانحنـت أمـام الملكـة. فكّـرتُ أن أومـئ بـرأسي مثلهـا، ولكنّنـي لم أُرِد أن أكـذب عـلى الأسرة المالكـة.

«في الواقـع، يـا جلالـة الملكـة، لقـد تربّيـت في منـزل الـدوق كيرامـزوف».

اعتلـت الدهشـة وجـوه السـيّدات، وحتّـى (جينيـا) تملّـك منهـا الفضـول.

قالت الملكة بسرور: «أنتِ يتيمة إذًا! يا للروعة!».

لم أكُـن أعلـم أنّـه سـيأتي يـوم سـيصف فيـه أحدهـم مـوت والـديّ بالأمـر «الرائـع». تجمّـدت الكلـمات في حلقـي ولم أسـتطع إلّا أن ألفـظ منهـا الآتي: «أشـكركِ.. يـا مـولاتي».

«قـد يبـدو كل هـذا غريبًـا بالنسـبة لـكِ. فقـط كـوني حريصـة ألّا تفسـدكِ الحيـاة في البـلاط الملـكي كـما أفسـدت غـيركِ». قالتهـا ثـم

نظرت بعينيها الزرقاوين المرمريتين نحو (جينيا).

لا أشك أن الملكة كانت تقصد (جينيا) بهذه الإهانة، ولكن الأخيرة لم يبدُ على ملامحها أي تأثر، مما أزعج الملكة. صرفتنا بإشارة من أصابعها المُحمّلة بالخواتم قائلةً: «اذهبن الآن».

قادتني (جينيا) إلى الباب، سمعتها تهمس ناعتةً الملكة بـ«البقرة العجوز». وقبل أن أسألها عمّا قالته للملك، وجدنا مُستحضر الظلام أمامنا، فاصطحبنا إلى رواقٍ خالٍ من الناس.

سألني: «كيف كان لقاؤكِ مع الملكة؟».

أجبتُ بصراحة: «لا أدري.. كل ما قالته كان جيدًا جدًا، ولكن طوال تواجدي هناك كانت تنظر إليّ وكأنّني شيء بصقه كلبها!».

ضحكت (جينيا) والتوَت شفتا مُستحضر الظلام وقد ارتسمت عليهما ابتسامة خافتة.

قال: «أهلًا بكِ في البلاط الملكيّ».

«لا أظنّني أحببته».

«لا أحد منّا يحبّه، ولكنّنا نتصنّع ذلك».

«لقد بدا الملك مسرورًا».

«ليس الملك إلّا طفلًا».

انفتح ثغري عن آخره من فرط الصدمة. نظرتُ حولي بتوتّر خشية أن يكون أحدهم قد سمع تلك الجملة. يبدو أن الجميع هنا يُعبّرون عن كرههم للملك والملكة بسهولة وكأنّهم يتنفّسون! وعلى ما يبدو، لم تنزعج (جينيا) ممّا قاله مُستحضر الظلام.

لا شك أنّه لاحظ انزعاجي، لأنّه قال: «ولكنّكِ اليوم رسمتِ البهجة على وجه ذلك الطفل».

قلتُ مُحاولةً تغيير الموضوع: «من كان ذلك الرجل المُلتحي الذي رافق الملك؟».

«أتقصدين المُستشار الروحاني؟».

«هل هو كاهن؟».

«ليس بالضبط.. يعتقد البعض أنّه من المُتطرّفين، ويعتقد البعض الآخر أنّه من المُحتالين».

«وماذا تظن أنت؟».

«أرى أن له دوره الخاص».

ثم نظر مُستحضر الظلام إلى (جينيا) وقال: «أظن أنّنا طلبنا من (ألينا) الكثير اليوم. اصطحبيها إلى غرفتها وألبسيها زي الكِفتا الخاص بها لأنّها ستبدأ تدريباتها اعتبارًا من الغد».

انحنت (جينيا) بجسدها، ثم اعتدلت وجذبتني بهدوءٍ من ذراعي لنمضي بعيدًا. تملّك منّي الحماس، وغمرَت الراحة قلبي. إن قوّتي (التي لا أصدّق بعد أنّني أمتلكها) قد تجلّت مُجددًا، وأنقذتني من الوقوف كالحمقاء أمام الجميع. لقد مثَلتُ أمام الملك، وقابلتُ الملكة في غرفتها، وسأُمنح زي الغريشا الخاص بي!

نادى مُستحضر الظلام بعدما ابتعدنا قليلًا: «جينيا! ألبسيها الزي الأسود».

شهقت (جينيا).. نظرتُ إلى وجهها المذهول، ثم إلى مُستحضر الظلام الذي أولانا ظهره وبدأ في المُضيّ بعيدًا.

صِحتُ مُندفعةً: «انتظر!».

التفت مُستحضر الظلام نحوي ونظر لي بعينيه الأردوازيّتين.

قلتُ: «إنّني.. أريد أن أرتدي الزي الأزرق، إذا كان هذا مُمكنًا. أقصد زي المُستحضرين الأزرق».

«ألينا!». صاحت (جينيا) وقد بدت عليها الصدمة.

رفع مُستحضر الظلام يده لإسكاتها، وقال لي: «لماذا؟».

«إنّني أشعر بالفعل أنّني لا أنتمي لهذا المكان.. ولذا، فمن الأفضل ألّا يزيد ذلك الشعور بالغربة بجعْلي.. مُختلفة عن الكُل».

«هل أنتِ مُتلهّفة لهذه الدرجة لأن تصيري مثل الجميع؟».

شعرتُ ببعض الضيق.. بدا أنّه لم يوافق على مطلبي، ولكنّني لم أستسلم، فقلت: «كل ما في الأمر أنّني لا أريد أن أكون محط أنظار الجميع، حتّى في ملبسي».

أطال مُستحضر الظلام النظر إليّ. لم أدرِ إذا ما كان يُفكّر فيما قلته، أم يُحاول إرعابي. ولكنّني لم أشح بوجهي عنه، وبقيتُ مُحدّقة به مثلما يُحدّق بي.

فاجأني بإيماءة قال بعدها: «كما تريدين.. ستلبسين الزي الأزرق».

لم ينبس بكلمة أخرى، أولانا ظهره واختفى في الرواق.

صوّبت (جينيا) نظرها نحوي، وعلى وجهها ملامح الصدمة.

قلتُ: «ماذا بكِ؟».

ردّت بهدوء: «ألينا.. عليكِ أن تعلمي أن مُستحضر الظلام لم يسمح لأحدٍ غيركِ على الإطلاق بأن يرتدي اللون الأسود».

«أتعتقدين أنّه غضِب منّي؟».

«هـذا ليـس أهـم مـا في الأمـر! ارتـداؤك للزيّ الأسـود كان سـيُظهر علـو مكانتـكِ، وتقديـر مُسـتحضر الظـلام لـكِ. كنـتِ سـترتقين فـوق الجميع!».

«في الواقع، أنا لا أريد أن أصير فوق الجميع».

غضبـت (جينيـا) وجذبتنـي مـن ذراعـي وقادتنـي للخـارج إلى المدخـل الرئيـسي، حيـث فتـح لنـا الأبـواب الذهبيّـة الكبـيرة خادمان يرتديـان بذلتـين لونهـما كلـون زي (جينيـا): مزيـج مـن الأبيـض والذهبـي. لا شـك أن (جينيـا) قـد ظنّـت أنّنـي مجنونـة لرفـضي عـرض مُسـتحضر الظـلام، وربمـا هـي عـلى حـق.

رافقتنـي الفكـرة طـوال الطريـق الطويـل المُـؤدّي إلى القـصر الصغـير. كان الغسـق يُغلّـف الجـو بالظُلمـة ببطءٍ، فانشـغل الخدم بإضـاءة القناديـل المُصطفّـة عـلى طـول الممـر المرصـوف بالحـصى. وعندمـا صعدنـا الـدّرج إلى غرفتـي، سـمعتُ قرقـرة معـدتي تعلـو وكأنّهـا تُنـادي عـلى الطعـام.

جلســتُ بجانــب نافـذةٍ أراقــب مـا يجـري في الخـارج. وبينـما كنـتُ في حالـة التأمُّـل هـذه، أحـضَرت (جينيـا) خادمـة إلى الغرفـة وأمرتهـا أن تسـتدعي مُصمّمـة الأزيـاء، وأن تجلـب صحـن عشـاء. وقبـل أن تنـصرف الفتـاة، التفتـت لي (جينيـا) وقالـت: «هـل تُفضّلـين الانتظـار حتّـى موعـد عشـاء الغريشـا الليلـة؟».

هـزرتُ رأسي.. كان التعـب قـد سـيطر عـليّ لدرجـة أن فكـرة تواجـدي مـرّة أخـرى بـين حشـدٍ أرهقتنـي.

قلتُ: «هل بإمكانكِ البقاء معي؟».

ترددت..

أضفتُ سريعًا: «بالطبع هذا ليس إجبارًا، فأنا واثقة أنك تريدين تناول العشاء مع البقيّة».

حسمَت الأمر قائلة للخادمة: «أحضري عشاءً يكفي فردين».

غادرَت الخادمة الغرفة على غير هدى، أغلقَت (جينيا) الباب وراءها، ثم مضت إلى طاولة الزينة الصغيرة وبدأت تُرتّب الأدوات المُستقرة على سطحها، التي من بينها: مشط، وفرشاة، وقلم، ومِحبَرة. لا أتذكّر أنّني رأيتُ تلك الأدوات من قبل، لا بد أن أحدهم قد أحضرها إلى غرفتي في غيابي.

قالت (جينيا) دون أن تلتفت لي: «عليكِ أن تعلمي يا (ألينا) أنكِ ستبدئين تدريباتكِ من الغد، وأنّ... الكوربورالكي لا يتناولون الطعام مع المُستحضرين، والمُستحضرين لا يتناولون الطعام مع المُصنّعين، و...».

«إذا لا تريدين البقاء هنا لتتناولي العشاء معي، فأعدكِ ألّا أدَع دموعي تنسال إلى حسائي!».

قالت: «هذا ليس مقصدي! إنّني أحاول فقط أن أشرح لكِ نظام القصر».

«انسي الأمر».

زفرت (جينيا) بإحباط ثم قالت: «أنتِ لا تفهمينني.. إنّه لشرف كبير لي حقًّا أن تطلبي منّي أن أتناول معكِ العشاء، لكن بقيّة الغريشا لن يعرضوا عليّ ذلك».

«ولِمَ؟».

تنهّدت (جينيا) وجلست على أحد المقاعد المُزخرفة ثم

قالت: «لأنّهم يرونني كلبة الملكة المُدلّلة، ولأنّهم لا يعترفون بقيمة ما أفعله. الأسباب كثيرة».

فكّرتُ في تلك الأسباب الأخرى، وتساءلتُ إذا ما كان لها علاقة بالملك. وماذا عن هؤلاء الخدم الذين يرتدون الزي الأبيض الممزوج بالذهبي، ويقفون أمام كل غرفة أو قاعة في القصر الكبير؟ تُرى كيف تشعر (جينيا) وقد عُزِلَت عن باقي الغريشا ولا يعتبرها أحد ضمن نساء البلاط الملكي؟

قطعتُ برهة الصمت: «يا له من أمر مُضحك! في السابق، كنتُ أظن أن جمال المرأة يجعل حياتها أكثر بساطةً».

قالت ضاحكةً: «ولكن هذا حقيقي».

لم أستطع قمع ضحكتي..

قطع حديثنا طرق على الباب، وسرعان ما دلفت مُصمّمة الأزياء إلى الغرفة، وشغلتنا في أمور القياسات، وعندما انتهت وكانت تجمع أقمشتها وإبرها، همَست (جينيا) في أذني قائلةً: «لم يفُت الأوان بعد، لا يزال بإمكانكِ أن...».

قاطعتها قائلةً بحِدّة: «سأرتدي اللون الأزرق».

كاد الألم يفتك بمعدتي مرّة أخرى..

غادَرَت مُصمّمة الأزياء، والتفتنا لنرى ما قد أحضرته لنا الخادمة من عشاء. لم يكُن الطعام غريبًا مثلما توقّعت، بل كان أشبه بتلك الوجبة التي كنّا نتناولها في أيّام الأعياد بـ(كيرامزين)، والتي في الغالب تتكوّن من: عصيدة بازلاء الزهور، وسمّان مشوي بالعسل، وثمرات تين طازجة. لا أتذكرّ أنّني شعرتُ بمثل هذه الدرجة من الجوع من قبل، جاهدتُ نفسي لكيلا أمسك

بطبقي وألعقه مثل طفلةٍ جائعة.

ظلّت (جينيا) تتحدّث طوال العشاء، وكان أغلب ثرثرتها عن الغريشا. لم أكُن أعلم أيًا من الأشخاص الذين تحدّثت عنهم، ولهذا السبب -لحسن حظّي- لم أستطع مُجاراتها في المُحادثة واكتفيتُ بالإيماء أو الابتسام عندما اقتضى الأمر ذلك.

غادر آخر الخدم، حاملين معهم أطباق العشاء. رأتني (جينيا) أتثاءب فقامت من مكانها، وقالت: «سآتي بفطوركِ بنفسي في الصباح. ستستغرقين بعض الوقت حتّى تتعرّفي على القصر، لأنّه أشبه بالمتاهة».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيثة، ثم ما لبثت أن أضافت: «من الأفضل أن تأخذي قسطًا من الراحة، لأنّك ستُقابلين (باغرا) غدًا».

«باغرا؟».

«أجل، إنّها المُفاجأة الكبرى».

وقبل أن تتسنّى لي فرصة سؤالها عن مقصدها، لوّحت لي وغادرت الغرفة. عضضتُ على شفتيّ. تُرى ماذا يخبّئون لي غدًا؟

شعرتُ بالإرهاق يتسلّل إلى جسدي. قبل تلك اللحظة، كان حماسي المُفرط طاغيًا على حواسي، فلَم أشعر بأي إعياء؛ ففي ذلك اليوم المليء بالأحداث، قابلتُ الملك والملكة، ومضيتُ في الأروقة الساحرة للقصرين الكبير والصغير، والأهم من هذا كلّه أنّني تأكّدت من حقيقة قواي! والآن أصابني الإعياء مرّة أخرى، وزاد عليه شعور قاسٍ بالوحدة.

خلعتُ زيّي العسكري، وعلّقته بعناية على مشجب مُثبّت خلف البرافان المُرصّع بالنجوم، ووضعتُ تحته حذائي الجديد اللامع. تحسّستُ بأصابعي فراء معطفي المُزأبَر، آملةً أن أجد فيه عزاءً في وحدتي، وأُلفةً تُذكّرني بما مضى، ولكن ملمس الصوف الخشن أشعرني بالغُربة، ووجدتُني أحن لمعطفي القديم المتّسخ.

ارتديتُ قميص نوم فضفاضًا وغسلتُ وجهي بالماء، ثم جفّفته وألقيت نظرةً على نفسي في المرآة. بدوتُ أجمل مما كنتُ عليه عندما أنهَت (جينيا) تعديلاتها على مظهري.. أو ربما كان هذا تأثير ضوء القنديل لا أكثر.. قضيتُ برهة أُحدّق في المرآة وعلى ثغري ابتسامة البلهاء. لم أكُن يومًا تلك الفتاة التي تتفحّص مظهرها في المرآة، وهذا يُفسّر لماذا شعرتُ لحظتها ببعض التخوّف من أن يصيبني داء الغرور.

تسلّقتُ السرير الضخم، وانزلقتُ تحت الغطاء الحريري الثقيل مُطفئةً القنديل. سمعتُ من بعيدٍ أصوات أبواب تُغلَق، وأناس يتمنّون لبعضهم ليلة سعيدة، وأخذت تلك الأصوات تتلاشى رويدًا رويدًا، حتّى خيّم الصمتُ فوق القصر الصغير.

بقيتُ مُحدّقة في ثنايا الظلمات.. لم تكُن لديّ غرفة مُستقلّة من قبل.. في (كيرامزين)، كنتُ أنام في صالة لعرض اللوحات، والتي حُوِّلَت لاحقًا إلى مهجَع تنام فيه معي فتيات لا يُحصى لهن عدد. وفي الجيش، كنتُ أنام في خيم المُعسكر مع باقي المُتعقّبين. وها أنا الآن قابعةٌ فوق سرير ضخم، في غرفة واسعة ليس بها أحد غيري، أشاهد في ذلك الصمت الموحِش أحداث اليوم وهي تتجسّد أمامي، وأُجاهد دموعًا قد وجدت طريقًا

لتهـرب عـبر جفـوني.

ربمـا سأسـتيقظ صبـاح الغـد لأجـد أن كل مـا عشـته لم يكُـن إلّا حلـمًا، سـأرى (أليكـسي) حيًّـا أمامـي، وسـأجد (مـال) بخـير ولم يُصَـب بـأي جـروح، وسـأُدرك أنّنـي لم أقابـل الملـك أو الملكـة أو المُستشـار الروحـاني قـط، ولـن أشـعُر بيـد مُسـتحضر الظـلام عـلى مُؤخّـرة عنقـي مثلـما أشـعر بهـا الآن. ربمـا سـتوقظني رائحـة الدخّـان المُنبعثـة مـن نـيران المُعسـكر المتوهّجـة، وسـأجدني أرتـدي ثيـابي التـي أعرفهـا وأجلـس فـوق سريـري الضيّـق، وسـأحكي عـلى مسـامع (مـال) تفاصيـل هـذا الحلـم الغريـب، والمُخيـف، والجميـل في الوقـت ذاتـه.

مـرّرتُ أصابعـي فـوق تلـك الندبـة التـي في باطـن يدي، فسـمعتُ (مـال) يُحدّثنـي فجـأة قائـلًا: «سـنكون بخـير يـا (ألينـا).. لـن يصيبنا مكـروه.. كالعادة».

همستُ إلى وسادتي: «أتمنّى ذلك يا مال».

ثم تركتُ دموعي تسرقني إلى منام كئيب.

الفصل الثامن

بعدما قضيتُ تلك الليلة المُضطربة، تجافى جسدي عن سريري مُبكرًا ولم أستطع مُعاودة النوم. كنتُ قد نسيت إسدال الستائر قبل أن أتسلّق السرير، فشَق ضوء الشمس البرّاق طريقه إلى الغرفة حتّى غمرها. وددتُ لو أنهض كي أسدِلها وأحاول النوم مُجددًا ولكن لم يكن لديّ من الطاقة ما يُشجّعني على التحرُّك من مكاني. لا أعلم ماذا كان السبب وراء تقلُّبي في مضجعي، أكان الخوف أم القلق الزائد؟ أو ربما السبب هو عدم اعتيادي على النوم فوق سرير حقيقي.. فقد كنتُ -لأشهر طويلة- أنام على سرير خشبي ضيّق يتأرجح من أقل حركة، وأحيانًا ما كنتُ أنام على غطاءٍ هزيل يفصل بيني وبين الأرض الصلبة من تحتي.

اعتدلتُ ولامستُ بإصبعي تلك النقوش المُتقنة للطيور والزهور التي تُزيّن أحد أعمدة السرير. من فوقي، كشفت الناموسيّة عن سقف مطليّ بألوان غامقة، مرسومة عليه بإتقان مناظر طبيعيّة لطيور تُحلّق فوق أوراق شجر وورود زاهية. بقيتُ أحدّق في السقف للحظات، أُحصي عدد أوراق العرعر، حتّى كدتُ أغُط في النوم مجددًا. وفجأة، سمعتُ طرقًا خفيفًا على الباب، فرفعتُ الغطاء عن جسدي سريعًا، وارتديتُ خُفّي المُبطّن بالفراء، وهرعتُ نحو الباب. وعندما فتحته، وجدتُ خادمةً تقف خلفه حاملةً كومة من الملابس، وزوجًا من الأحذية، والتفّ على ذراعها زي كِفتا لونه أزرق

داكـن. وقبـل أن أشـكرها عـلى مـا أحضرتـه لي، كانـت قـد أومـأت لي برأسـها واختفـت. أغلقـتُ البـاب ووضعـتُ الملابـس وزوج الأحذيـة عـلى السريـر، ثـم علّقـت زي الكِفتـا عـلى البرافـان بحـذر. ظللـتُ أتأمّلـه لبعـض الوقـت، أتذكّـر كيـف قضيـتُ الشـق الأوّل مـن حياتي مُرتديـة ملابـس ورثتهـا عـن الأيتـام الأكـبر سـنًا، وعندمـا التحقـتُ بالجيـش الأوّل ارتديـتُ الـزي العسـكريّ الموحّـد، وعـدا ذلـك، فلَـم أحـظَ مـن قبـل بملابـس صُمِّمَـت خصّيصًـا لي، ولم يُـراودني حتّـى حلـم في منامـي أنّنـي سـأرتدي يومًـا مـا زي الغريشـا.

غسـلتُ وجهـي ومشّـطتُ شـعري. لم أعلـم متـى سـتأتيني (جينيـا)، ولذلـك قـرّرتُ تأجيـل الاسـتحمام. كنُـت في أمَـسّ الحاجـة إلى كـوب شـاي، ولكنّنـي لم أجـرؤ عـلى مُنـاداة إحـدى الخـدم. في النهايـة، لم أجـد شـيئًا لأفعلـه، فقـرّرتُ ارتـداء الملابـس التـي وضعتهـا فـوق السريـر. بـدأتُ بالبنطـال المصنـوع مـن قـماش لم أرَ مثلـه مـن قبـل، كان ضيّقًـا لدرجـة أنّـه بـدا كطبقـة جلديّـة أخـرى فـوق جلـدي، ثـم ارتديـتُ بلـوزة طويلـة مصنوعـة مـن القطـن الرقيـق لهـا ربـاط أزرق داكـن. وفي النهايـة لبسـتُ الحـذاء، الـذي ربمـا لا يسـمونه كذلـك، لأنّـه مُختلـف عـن أي حـذاء ارتديتـه مـن قبـل، فهـو مصنـوع مـن أكـثر أنـواع الجلـد الأسـود نعومـةً، وكان مثاليًـا لشـكل قدمـي.

تلـك الملابـس الغريبـة كانـت شـبيهة بعـض الـشيء بمـا يرتديـه الفلّاحـون، ولكـن الفـلّاح البسـيط لـن يتحمّـل -حتّـى في خيالـه- ثمـن شراء أقمشـة بتلـك الجـودة.

وعندمـا انتهيـت، نظـرتُ إلى الكِفتـا وتسـاءلتُ: هـل سـأرتدي هـذا الـزي حقًـا؟ هـل سـأصبح مـن الغريشـا؟

لا يبدو ذلك مُمكنًا..

قلتُ مُوبّخةً نفسي: «إنّه مُجرّد زيّ!».

أخـذتُ نفسًـا عميقًـا ثـم سـحبتُ الـزي مـن فـوق البرافـان وارتديتـه. بيـدَ أنّـه رقيـق عـلى عكـس مـا توقّعتـه، ومثـل بقيّـة الملابـس، كان مقاسـه مثاليًـا. أدخلـتُ الأزرار الداخليّـة الصغـيرة في عُراهـا، ثـم وقفـتُ أمـام مـرآة الحـوض لأرى كيـف أبـدو. كان الـزي داكـن الزرقـة كآخـر خيـطٍ مـن الليـل، وطويـلًا يـكاد طرفـه يُلامـس قدمـيّ، أمّـا كُـمّاه فكانـا واسـعين كأكـمام المعطـف، وأنيقـين مثـل أكـمام الفسـاتين. لاحظـتُ التطاريـز التـي تُزيّنهـما، فمثـل جميـع جماعـات الغريشـا، تُفـرّق تلـك التطاريـز بـين فصائـل الإثيريالـكي المُختلفـة، فصانعـو الأمـواج مثـلًا تكـون أزياؤهـم مُطـرّزة باللـون الأزرق الخافـت، ومُسـتحضرو النـار أزياؤهـم مُطـرّزة باللـون الأحمـر، وأزيـاء مُسـتحضري الريـاح مُطـرّزة باللـون الفـضي. أمّـا زيّـي فـكان مُطـرّزًا باللـون الذهبـي، تحسّسـتُ بأصابعـي الخيـوط اللامعـة، وشـعرتُ بالقلـق يُسـيطر عـليّ. دق البـاب وكِـدتُ أنتفـض مذعـورة.

عندمـا فتحـتُ البـاب، قالـت (جينيـا): «تبديـن جميلـة جـدًا، ولكـن الـزي الأسـود كان سـيليق بـكِ أكـثر».

أخرجـتُ لهـا لسـاني. مضَـت عـلى غـير هـدى في الـرواق فأسرعـتُ لأتبعهـا، ثـم نزلنـا السُـلّم. قادتنـي (جينيـا) إلى القاعـة ذات القبّـة الضخمـة التـي تجمّعنـا فيهـا بعـد ظهـر اليـوم السـابق. لم تكُـن مُحتشـدة عـن آخرهـا مثـل ذلـك اليـوم، ولكـن كان ثمّـة ضجيـج يعُـج في القاعـة. تجمّـع بعـض الغريشـا حـول أباريـق السـماور الضخمـة التـي يُعـد فيهـا الشـاي، واسـترخى بعضهـم عـلى أرائـك

فخمة، يُدفنون أجسادهم بجانب مواقِد مُزيّنة بإتقان من الخارج بألواحٍ من الطوب الأحمر، وآخرون جلسوا يتناولون فطورهم حول الطاولات الأربع الطويلة المُرتّبة على شكل مُربّع مُتساوٍ في مُنتصف القاعة. وكما حدث ليلة البارحة، خيّم الصمتُ على المكان فور دخولنا، ولكن هذه المرّة تظاهر الكُل أنّهم يُكملون مُحادثاتهم.

تقدّمت نحونا فتاتان ترتديان زيّ المُستحضرين. تعرّفت على إحداهما على الفور؛ كانت (ماري) التي دار بينها وبين (سيرجي) جدال حاد قبل الموكب.

صاحَت (ماري) قائلة: «ألينا! إنّنا لم نتعرّف بشكلٍ لائق الليلة الماضية.. اسمي ماري، وهذه ناديا». ثم أشارت إلى الفتاة ذات الخدّين المُتورّدين التي تقف بجانبها. ابتسمت لي الفتاة ابتسامة عريضة، وتفاجأتُ بـ(ماري) وقد تعلّقت بذراعي، ثم أولت ظهرها إلى (جينيا) وقالت لي: «هيّا لتجلسي معنا!».

غضبتُ وكنتُ على وشك إبداء اعتراضي، ولكنّني رأيتُ (جينيا) تهز لي رأسها وتقول: «اذهبي معهما، فأنتِ تنتمين الآن إلى الإثيريالكي. سآتي بعد الفطور لأصطحبكِ في جولة حول القصر».

قالت (ماري): «يمكننا أن نأخذها نحن في جولة حول الـ..».

قاطعتها (جينيا) قائلة: «هذا ما أمَرني به مُستحضر الظلام».

احمرّ وجه (ماري).

قالت: «مَن تكونين؟ هل أنتِ خادمتها؟».

ردّت (جينيا) قائلة: «شيء من هذا القبيل». ثم ذهبَت كي

تصُب لنفسها كوبًا من الشاي.

قالت (ناديا) بنبرةٍ تنم عن ضيقها: «يا لها من مُتعجرفة».

أضافَت (ماري): «وسيزداد تعجرفها هذا يومًا بعد يوم».

ثم نظرَت لي وقالت مُبتسمةً: «لا بد أنك تتضوّرين جوعًا!».

رافقتني إلى إحدى الطاولات الطويلة، وعندما اقتربنا منها، تقدّم نحونا خادمان وجرّا لنا كرسيّين كي نجلس عليهما.

قالت (ماري) بفخرٍ: «نحن نجلس هنا دائمًا، على يمين مُستحضر الظلام». ثم أشارت إلى نهاية الطاولة حيث جلس المزيد من الغريشا ممّن يرتدون الزي الأزرق. نظرَت نحو الطاولة المُقابلة لنا بازدراء، حيث كان (سيرجي) يجلس مُحملقًا فينا بغضب، وبجانبه عدد من الغريشا، جميعهم في زيّهم الأحمر، وقد انشغلوا بتناول فطورهم.

قالت (ماري) بينما لم تزل ناظرة نحوهم: «يجلس الكوربورالكي هناك على الدوام».

لم أُفصح لـ(ماري) عن تعجُّبي ممّا قالت، فإذا كنّا نجلس عن يمين مُستحضر الظلام، فإن الكوربورالكي يجلسون بالقرب منه أيضًا على جهة اليسار!

كانت طاولة مُستحضر الظلام فارغة، لا يُميّزها إلّا كرسيه الضخم المصنوع من خشب الأبنوس. وعندما سألت إذا ما كان سيتناول الفطور معنا، هزّت (ناديا) رأسها بقوّة وقالت: «كلّا، فنادرًا ما يتناول معنا الطعام».

ارتفع حاجباي..

تتفاخر (ماري) بجلوس الإثيريالكي بالقرب من مُستحضر

الظـلام، في حـين أنـه لا يُبـالي بالحضـور مـن الأسـاس!

وُضِعـت أمامنـا أطبـاق مـن سـمك الرنجـة المُملّـح وخـبز الجـاودار. وضعـتُ كلتـا يـديّ عـلى فمـي كي لا أتقيّـأ؛ كـم أكـره هـذا النـوع مـن السـمك! ولحُسـن الحـظ، كان ثمّـة الكثـير مـن الخبـز. اندهشـتُ عندمـا وقعـت عينـي عـلى طبـق فيـه شرائـح مـن البرقـوق، لا شـك أنّـه زُرِع في صوبـة.

أحـضر لنـا أحـد الخـدم أكوابًـا مـن الشـاي السـاخن كان قـد صبّهـا مـن إبريـق السـماور الكبـير، وعندمـا وضـع قصعـةً صغـيرة أمامـي، صحـتُ قائلـة: «أهـذا سُّـكر؟!».

احمرّ خدّاي عندما تبادلت (ماري) النظرات مع (ناديا).

لقـد تـم تقنـين السُّـكّر في (رافـكا) عـلى مـدار المائـة عـام الماضيـة، ولكـن يبـدو أنّـه مُتوفـر بكـثرة في القـصر الصغـير.

انضمّـت إلينـا مجموعـة أخـرى مـن المُسـتحضرين، وبعدمـا عـرّف كل منهـم نفسـه بإيجـاز، انهـال عـليّ وابـل مـن الأسـئلة.

- من أين أنا؟ من الشمال.

(لم نكـذب أنـا و(مـال) بشـأن أصولنـا مـن قبـل، كنّـا فقـط نُـواريَ جـزءًا مـن الحقيقة).

- هل كنتُ رسّامة خرائط؟ نعم.

- هل هاجمني الفيرديون؟ أجل.

- كم قتلتُ من الڤولكرا؟ صفر.

خيَّبـت هـذه الإجابـة الأخـيرة آمالهـم، وبالأخـص الرجـال منهـم. كان مـن بينهـم شـاب يُدعـى (أيڤـو)، أملـس البـشرة مثـل حيـوان المِنـك، قـال لي مُعترضًـا: «ولكنّـي سـمعتُ أنّـكِ قتلـتِ المئـات مـن

تلـك المخلوقـات عندمـا هاجمـت السـفينة!».

قلـتُ: «في الواقـع.. لم أقتـل أيًّـا منهـا.. أو عـلى الأقـل هـذا مـا تذكّرتـه بعدمـا.. أُغـشي عـليّ».

نظـر لي (أيڤـو) بعينـين امتلأتـا بالرعـب وقـال: «هـل فقـدتِ الوعـي حقًّـا؟».

شـعرتُ بنقـرة عـلى كتفـي، فالتفـتُّ لأجـد (جينيـا) قـد جـاءت لإنقـاذي.

سألتني مُتجاهلةً الجميع: «هلّا قُمتِ معي رجاء؟».

ودّعتهـم سريعًـا ومضيـتُ مـع (جينيـا) بعيـدًا عنهـم. أحسسـتُ بنظراتهـم تخـترق ظهـري كسـهامٍ غـادِرة، ولكنّنـي لم ألتفـت.

سألتني (جينيا): «كيف كان الفطور؟».

«سيئ للغاية».

قالـت بنـبرة مُشـمئزّة: «هـل أعـدّوا خبـز الجـاودار وسـمك الرنجـة المخلّـل؟».

كان عقـلي مُنشـغلًا بتلـك الأسـئلة التـي وجّههـا إليّ المُسـتحضرون، فاكتفيـتُ بالإيمـاء لـ(جينيا).

لـوَت (جينيـا) أنفهـا وقالـت: «معـكِ حـق، إنّـه طعـام سـيئ للغايـة».

نظرتُ إليها بعينين يملؤهما الشك وسألتها: «ماذا أكلتِ؟».

نظـرَت (جينيـا) خلفهـا لتتأكّـد أن ليـس ثمّـة مـن يسـمعها، ثـم قالـت: «لـدى إحـدى الطهـاة ابنـة تُعـاني مـن انتشـار بُقـع عـلى جلدهـا جعلـت مظهرهـا بشـعًا، فعالجتُهـا، وفي المُقابـل فإنّهـا تُرسـل

لي كل صباح بعضًا من الفطائر التي تُعدّها لساكني القصر الكبير. تلك الفطائر لم آكُل مثلها في حياتي».

ابتسمتُ وهززتُ رأسي. ربما يحتقر الغريشا (جينيا)، ولكنّها لديها قوّتها الخاصّة وتأثيرها الفريد.

أردفَت (جينيا): «أرجوكِ لا تخبري أحدًا بذلك، لأن مُستحضر الظلام يحرص على أن نتناول جميعًا طعام الفلّاح الأصيل. أرجو من القدّيسين ألّا ينزعوا من قلوبنا إخلاصنا لرافكا».

جاهدتُ رغبةً مُلحّة بداخلي بأن أُصدِر نخرة.. فإن الحياة في القصر الصغير لم تكُن تشبه حياة الفلّاحين إلّا في قصص الأطفال؛ إنّها حياة تبعُد كل البُعد عن واقع (رافكا) الحقيقي المُؤلم، حيث يلمع كل ركن من أركان البلاط الملكي الفخم، والذي به كل شيء مصنوع من الذهب.

بدا لي أن جميع الغريشا مهووسون بتقليد الفلّاحين، وقد وصل بهم الأمر إلى ارتداء ملابس تُشبه ملابسهم أسفل زي الكِفتا. ولكن أيُعقل أن يضعوا «طعام الفلّاح الأصيل» -كما وصفته (جينيا)- على أطباقٍ رخاميّة، ويجلسوا جميعًا ليتناولوه في قاعةٍ تعتليها قبّة مُطعّمة بالذهب؟ وأي فلّاح قد يُفضّل السمك المُخلّل على الفطائر الملكيّة؟!

قلتُ لـ(جينيا): «أعدكِ ألّا أخبر أحدًا».

«جيد! ولأنّكِ لطيفة معي، سأشاركِك سرًّا آخر».

سكتت بُرهة ثم أضافت وهي تغمز لي بعينيها: «والآن، انظري، إن هذه الأبواب تؤدّي إلى المكتبة وغرف العمل».

أشارت إلى عدد من الأبواب المُزدوجة المُتراصة بجانب بعضها

البعض. ثم التفتت إلى اليمين وقالت: «وهذا الطريق سيُعيدكِ إلى غرفتكِ».

التفتت بعد ذلك إلى اليسار وأشارت إلى الأبواب المزدوجة المُغلقة أمامنا وقالت: «أمّا هذا الطريق، فيؤدّي إلى القصر الكبير».

قلتُ مُشيرة إلى الأبواب المُغلقة خلف طاولة مُستحضر الظلام: «وماذا عن ذلك الطريق؟».

«احذري إذا فُتِحَت هذه الأبواب، فإنّها تؤدّي إلى القاعة التي تنعقد فيها مجالس مُستحضر الظلام، وتؤدّي أيضًا إلى غرفته الخاصّة».

عندما نظرتُ نحو الأبواب المُزخرفة عن قرب، استطعتُ رؤية شعار مُستحضر الظلام المُختبئ بين أغصان شجيرات الكروم المُتشابكة والحيوانات التي تركض حولها. أشحتُ بنظري بعيدًا، ثم أسرعتُ لألحق بـ(جينيا) التي كانت في طريقها إلى خارج القاعة المُقبّبة.

تبِعتُها إلى أحد الممرّات حتّى وجدنا أمامنا مجموعةً من الأبواب المُزدوجة الضخمة، من بينها باب نُحِت على شكل غلاف كتاب قديم. عندما فتحته (جينيا)، شهقتُ مُندهشة مّما رأيته.

كانت المكتبة مُكوّنة من طابقين، تغطّي الكتب جميع جدرانها، وترتفع الأرفف إلى حدود سقفها، وثمّة شرفة تمتد بعرض الطابق الثاني تعتليها قبّة ضخمة مصنوعة بالكامل من الزجاج لتغمر الغرفة بنور الصباح. وبجانب الجدران، وُضِعت

بعض الطاولات والكراسي الصغيرة لمن شاء أن يجلس ليقرأ، وفي منتصف المكتبة، تحت القبّة الزجاجيّة المُتلألئة مُباشرةً، ثمّة طاولة مُستديرة يلتف حولها مقعد دائري.

مضينا إلى الطاولة، ثم تجوّلنا حول المكان. قالت (جينيا) قاطعةً السكون المُخيّم على المكتبة: «سيتعيّن عليكِ المجيء إلى هنا لتتلقّي دروسًا عن التاريخ وغيرها من المواد النظريّة. لا تقلقي، لقد تلقيت تلك الدروس المُملّة من قبلكِ، منذ سنوات عدّة».

ضحكت ثم قالت: «أغلقي فمكِ.. إنّكِ تبدين كسمكة سلمون مُرقّطة!».

أغلقتُ فمي، ولكن عينيّ انفتحتا عن آخرهما من فرط الاندهاش.

كانت مكتبة الدوق مُدهشة بالنسبة لي، ولكن عندما قارنتها بهذه المكتبة المُذهلة، لم أعُد أراها في خيالي سوى كوخ حقير مُتّسخ، مثلها كمثل (كيرامزين) إذا قورنت بالقصر الصغير، فلا شك سيبدو فيها كل شيء باهتًا وبلا ملامح. ولكن التفكير في الأمر بهذه الطريقة بعث الحزن في نفسي. تُرى ماذا سيكون رأي (مال) عندما يرى مكانًا كهذا؟

تباطأت خطواتي..

تُرى هل يُسمح للغريشا باستقبال ضيوف؟ هل يُمكن لـ(مال) أن يزورني في (أوز ألتا)؟ أعلم أن لديه الكثير من الواجبات التي عليه تأديتها مع كتيبته، ولكن ماذا لو كان باستطاعته أن يأخذ إجازة و...؟

امتلأ قلبي حماسًا.

لن يُخيفني القصر الصغير إذا سِرتُ داخل ممراته مع أعز أصدقائي..

غادرنا المكتبة عبر أحد الأبواب المُزدوجة، ومشينا في ممرٍ مُظلم. انعطفت (جينيا) يسارًا، وقبل أن أتبعها نظرتُ إلى اليمين فرأيتُ اثنين من الكوربورالكي يخرجان من باب مطليّ باللون الأحمر. رمقانا بنظرةٍ خبيثة قبل أن تبتلعهما الظلال في جوفها.

«تعالي معي!». همست (جينيا) ثم جذبتني من ذراعي وقادتني ناحية اليسار.

«إلى أين يؤدّي ذلك الباب الأحمر؟».

«إلى غرف التشريح».

اقشعرّ بدني.. لا بد أنّ المُعالجين والمُتلاعبين بالقلوب يتدرّبون هناك.. أسرعتُ الخطى كي ألحق بـ(جينيا) حتّى لا أسرح بخيالي بعيدًا وأتخيّل ما يحدث داخل تلك الغرف، كما أنّني لا أريد البقاء بالقرب منها لأكثر من ذلك.

توقّفنا في نهاية الردهة أمام مجموعة من الأبواب المصنوعة من الخشب الرفيع، منقوش عليها رسومات لطيور لها عيون أرجوانيّة وزهور مُتفتّحة استُبدلت بتلاتها بماسات صفراء. أمّا مقابض الأبواب فقد صُمّمَت على هيئة أيدي مثاليّة الحجم، أمسكَت (جينيا) بإحداها وكأنّها تصافحها ثم فتحت الباب.

كانت ورش المُخترعين مَصبًّا لضوء الشمس المُتدفّق من الشرق، وقد ساعدت على ذلك النوافذ التي تبدو كثغراتٍ في الجدران من فرط كثرتها. ذكّرتني تلك الغرفة المُتوهّجة بخيمة الوثائق،

ولكن لم يكُن فيها أطالِس، أو أكوام من الورق، أو زجاجات حبر، بل كانت الطاولات مُكتظّة بلفافات من القماش، وألواح من الزجاج، وشرائط من الذهب والفولاذ، وكتل صخريّة مُلتوية لم أرَ مثلها من قبل. لمحتُ في أحد الأركان مأرضة زجاجيّة تحتوي على زهور غريبة الشكل واللون، وأنواع مختلفة من الحشرات، وثعابين رعبني مظهرها.

كان المُصنّعون مُنخرطين في أعمالهم، ولكن عندما مررتُ بجانبهم، حدّقوا جميعًا بي وكأنّ قدّيسة قد زارتهم. رأيتُ على إحدى الطاولات اثنتين من المُصنّعات تمسكان بكُتلتين مُنصهرتين من فولاذ الغريشا النادر، ولمحتُ فوق الطاولة ماسات برّاقة مُبعثرة هنا وهناك، وجِرار مليئة بديدان القز. جُلتُ بنظري حول المكان فرأيتُ مُصنّعًا مُلثّمًا يُمسك بأنبوب قياس به سائل أسود لزج تفوح منه رائحة القطران البشعة.

تبعتُ (جينيا) إلى طاولة يجلس عليها أحد المُصنّعين، يُمسك بألواح مُستديرة صغيرة من الزجاج. بدا رفيع البدن مثل العصا، ووجهه شاحب كئيب، وشعره في حاجة ماسّة لأن يُحلَق.

حيّته (جينيا) قائلّة: «أهلًا ديڤيد!».

نظر (ديڤيد) سريعًا نحو (جينيا)، وأومأ برأسه دون أن ينبس بكلمة، ثم عاد إلى عمله.

تنهّدت (جينيا) ثم قالت: «ديڤيد، أُقدّم لك ألينا».

صدرت نخرة من أنف (ديڤيد).

أضافت (جينيا): «إنّها مُستحضرة النور».

قال دون أن ينظر لإحدانا: «هذه لكِ».

نظرتُ إلى الألواح الزجاجيّة وقلتُ: «حقًّا؟ شكرًا لك».

لم أدرِ ماذا عساني أن أقول، فنظرتُ إلى (جينيا) التي هزّت كتفيها والتفتت.

«وداعًا ديڤيد!». قالت (جينيا) ثم جذبتني من ذراعي لنمضي خارج الغرفة.

مشينا في ممر خشبي مفتوح يُطل على بُسُط ممتدّة من الحشائش الخضراء. قالت لي (جينيا) بعدما أطلنا المشي لبعض الوقت دونما كلام: «لا تنزعجي من ديڤيد، فهو لا يقصد مُضايقتكِ. إنّه حدّاد ماهر، باستطاعته أن يشحذ السكّين حتّى يصير حادًا لدرجة تجعله يخترق اللّحم كأنّه يخترق الماء. إن ديڤيد لا يهتم بأي شيء آخر لم يُصنع من معدن أو زجاج، بما في ذلك البشر».

لاحظتُ أن (جينيا) تحدّثت بنبرة تنساب منها الغبطة، ووجنتاها المثاليّتان توردّتا فجأة. التفتُّ ونظرتُ عبر النوافذ فاستطعتُ رؤية كتفيّ (ديڤيد) الهزيلتين وشعره البنيّ الأشعث. ابتسمتُ؛ فإذا كانت فتاة فاتنة مثل (جينيا) قد وقعت في حب مُصنّع نحيف لا يُبالي بأي شيء سوى عمله، فلا شك أن الحظ سيبتسم لي يومًا ما.

لمحت (جينيا) ابتسامتي فقالت: «ماذا بكِ؟».

«لا شيء.. لا شيء».

حدّقت (جينيا) في وجهي بعينين يملؤهما الشك، فأبقيتُ فمي مُغلقًا. تابعنا السيْر في الممر المُمتد على طول الجدار الشرقي للقصر الصغير، مررنا بالمزيد من النوافذ التي تطل

على ورش المُصنّعين، وعندما انعطفنا عند إحدى الزوايا، وجدتُ (جينيا) تُسرع الخطى.

سألتها: «لماذا؟ لم أعُد أرى أي نوافذ؟».

ارتبكت (جينيا) عندما وقعت عيناها على الجدران المُقابلة لنا. هذه هي المنطقة الوحيدة بالقصر الصغير التي لم تكن بها أي نقوش.

ردّت (جينيا) قائلةً: «نحن على الجانب الآخر من غرف التشريح التابعة للكوربورالكي».

«ألا يحتاجون الضوء في عملهم؟».

«بلى، ولكنّهم لا يُفضّلون النوافذ، بل يعتمدون كُليًّا على الضوء المُنبعث من كوّة السقف، تمامًا مثل قبّة المكتبة».

«ولكن.. ماذا يفعلون بالداخل؟». سألتها رغم أنّني لم أُرِد إجابة.

«لا يعلم ذلك إلّا الكوربورالكي. ولكن انتشرت مُؤخرًا بعض الإشاعات أنّهم يعملون مع المُصنّعين على.. تجارب جديدة».

لا أعلم لماذا انقبض قلبي، ولكن سرعان ما سرَت الراحة بداخلي عندما انعطفنا عند زاويةٍ أخرى وعادت النوافذ تنتشر مرّة أخرى كالجراد على الجدران. رأيتُ من خلال النوافذ غرف نوم تشبه غرفتي، أدركتُ لاحقًا أنّها مهاجع. شعرتُ بالامتنان لأنّني أتبوّأ غرفة في الطابق الثالث، رغم أن صعود السُلّم يُرهقني في كل مرّة. وبعدما صارت لدي غرفة خاصّة بي، أدركتُ أنّني محظوظة، فعلى الأقل لن أرى أحدهم يمشي بجانب نافذتي.

أشارت (جينيا) نحو البحيرة التي كنتُ قد رأيتها من نافذة غرفتي من قبل، حيث ثمّة خيم بيضاء صغيرة مُنتشرة على ضفتها، وقالت: «هذه خيم المُستحضرين التي سنذهب إليها الآن».

«هل سنمشي كل هذه المسافة؟».

«إنّه مكان آمن للغاية، ستتلقين فيه تدريباتكِ. فقط لا تقلقي إذا رأيتِ مُستحضر نار دفعه حماسه الزائد لأن يحرق القصر بأكمله من حولنا».

«حقًّا؟ لم يخطر على بالي أمرٌ كهذا».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيثة، وقالت: «هذا أقل ما قد يحدث. ثمّة مكان آخر للمُصنّعين، يقع خارج المدينة، يُصنّعون فيه مواد مُتفجّرة. بإمكاني أن أُرتّب لكِ زيارة إلى هناك يومًا ما».

«لا أظنّني سأحب ذلك».

نزلنا سُلّمًا يؤدّي إلى طريق طويل مرصوف بالحصى، مضينا فيه باتجاه البحيرة، وعندما اقتربنا منها، تراءى لي مبنى كبير يقع عند نهاية الضفّة. تفاجأتُ عندما رأيتُ مجموعات من الأطفال، يرتدون أزياء حمراء وأرجوانيّة وزرقاء، يصيحون ويركضون حول الفناء. وعندما رنّ جرس ما، تركوا اللعب وارتصّوا بانتظام ليدخلوا المبنى.

سألتُ (جينيا): «أهذه مدرسة؟».

أومأت (جينيا) برأسها وقالت: «أجل. عندما يُختبر الطفل وتُكتشف قوّته، يُؤتى به إلى هنا ليتدرّب. لقد تعلّمنا جميعًا

العلـم الصغـير في هـذا المـكان».

تذكّـرت مُحققـو الغريشـا الثلاثـة الذيـن أتـوا إلى غرفـة الجلـوس بـ(كيرامزيــن). تُــرى لمــاذا لم يكتشــفوا قــدراتي طــوال الســنوات الماضيـة؟ ولـو كانـوا قـد فعلـوا ذلـك، إلى أي درجـة كانـت سـتتغيّر حيـاتي؟ ربمـا كنـتُ سـأحظى بخـدمٍ يكونـون دائمًـا رهـن إشـارتي، بـدلًا مـن أن أعمـل جنبًـا إلى جنـب معهـم في الميتـم، ولم أكُـن لأصبـح رسّـامة خرائـط أو حتّـى أتعلّـم كيـف أرسـم خريطـة. تُـرى هـل كان في يـدي وقتهـا أن أُسـدي خدمـة لأهـالي (رافـكا)؟ ربمـا لـو كنـتُ قـد تعلّمـت كيفيّـة توظيـف قـواي بالشـكل الصحيـح، لاسـتطعتُ القضـاء عـلى طيّـة الظـل، وكانـت سـتصير محـض قصّـة تُـدوّن في سـجلّات التاريـخ ليحكيهـا الآبـاء لأبنائهـم لاحقًـا، ولمـا اضطـررتُ أنـا و(مـال) لمُحاربـة الڤولكـرا. في الواقـع، كان كل منّـا سـينسى الآخـر إلى الأبـد.

نظـرتُ إلى البحـيرة ثـم إلى المدرسـة وقلـتُ لـ(جينيـا): «مـاذا يحـدث عندمـا يُتمّـون تدريباتهـم؟».

«يلتحقـون عـلى الفـور بالجيـش الثـاني. يُرسَـل الكثـير منهـم إلى منـازل النبـلاء كي يكونـوا في خدمتهـم، وتُبعَـث مجموعـات أخـرى لتخـدم مـع الجيـش الأوّل عـلى الجبهـة الشـماليّة أو الجنوبيّـة أو بالقـرب مـن الطيّـة، أمّـا صفوتهـم فيبقـون في القـصر الصغـير لينهوا تعليمهـم ويُصبحـوا في خدمـة مُسـتحضر الظـلام».

«وماذا عن عائلاتهم؟».

«يتـم تعويضهـم بسـخاء؛ عائـلات الغريشـا لا ينقُصهـم شيء أبـدًا».

«ليس هذا مقصدي. أعني.. هل تزورين أهلكِ؟».

«إنّني لم أرَ والديّ منذ كان عمري خمس سنوات. إن القصر الصغير هو بيتي».

نظرتُ في عينيّ (جينيا) ولم أقتنع. لقد عشتُ في ميتم (كيرامزين) مُعظم حياتي، ولم أشعر للحظة أنّه بيتي، وكذلك لم أشعُر بانتمائي إلى جيش الملك. كان (مال) هو بيتي الوحيد الذي شعرتُ بالدفء في كنفه، ولكن إقامتي به لم تطُل.

يبدو أن الاختلاف الوحيد بيني وبين (جينيا) هو جمالها الطاغي.

عندما وصلنا إلى شاطئ البحيرة، اتجهنا مُباشرةً صوب الأكواخ الحجريّة، ولم تتوقّف (جينيا) حتّى وصلنا إلى طريق يصِل الشاطئ بالغابة.

«ها قد وصلنا». قالت (جينيا).

نظرتُ أمامي، لم أرَ سوى كوخ حجري صغير يختبئ في ثنايا الظلال، وتحفّه الأشجار من الجانبيْن.

«هل ستأتين معي؟».

«بالطبع أودُّ ذلك، ولكنّني لا أستطيع».

انتابتني القشعريرة عندما عاودتُ النظر إلى الكوخ.

نظرَت لي (جينيا) بعينين تملؤهما الشفقة وقالت: «لا تقلقي، ستعتادين على مُعاملة (باغرا) الجافّة ولن تُزعجك فيما بعد».

«حسنًا». قلتُ بسرعة وانطلقتُ إلى الكوخ.

صاحت (جينيا) بعدما ابتعدتُ: «حظًّا مُوفّقًا!».

كان الكوخ الحجري مُستدير الشكل، ولاحظتُ أنّه بلا نوافذ. صعدتُ السُّلّم القصير وطرقتُ الباب، ولكن لم أسمع أي صوتٍ يدل على وجود أحد بالداخل. طرقتُ الباب مُجدّدًا وانتظرتُ. لم أدرِ ماذا عساني أن أفعل فنظرتُ خلفي نحو الطريق ولكن (جينيا) قد اختفت منذ وقتٍ طويل. طرقتُ للمرّة الأخيرة ثم تشجّعتُ وفتحتُ الباب.

عندما دلفتُ إلى الداخل صفعني القيظ صفعة قويّة، وكأن انفجارًا ما قد حدث في الكوخ قبل وصولي إليه بلحظات. بدأ جسدي يتعرّق مُبلّلًا زيي الجديد. آذى عينيّ الظلام الحالك الرابض فوق المكان، وعندما تأقلمَتا عليه وقع نظري على سرير ضيّق موضوع في أحد الأركان، وحوض مُتوسّط الحجم، وكانون يستريح فوقه إبريق، وفي مُنتصف الحجرة ثمّة كرسيان وموقد مصنوع من حجارة كبيرة الحجم، به نار تلظّى.

انبعث صوتٌ أجش من مكان ما: «لقد تأخّرتِ».

نظرتُ حولي ولكن لم أرَ أحدًا في تلك الغرفة الضيّقة. ثم تحرك ظلٌ فجأة أمامي وكاد قلبي يقفز خارج صدري.

«أغلقي الباب يا فتاة، إنّ الحرارة تتدفّق إلى الخارج».

أغلقتُ الباب.

«جيّد، والآن دعيني أراكِ عن قرب».

أردتُ لو ألتفت وأركض إلى الخارج، ولكنّني لم أُرِد التصرّف بحماقة. جررتُ قدميّ جرًّا نحو النار المُلتهبة. تقدّم الظل نحوي من خلف الموقد، وسرعان ما رأيتُ عينين تُحدّقان بي.

عندما وقعت عيناي على المرأة الواقفة أمامي لأوّل مرّة،

ظننتُها عجوزًا طاعنة في السن، ولكن عندما أمعنتُ النظر في وجهها أصابتني الدهشة. كانت بشرة (باغرا) ناعمة وأطراف وجهها مشدودة، وكان ظهرها مفرودًا وقوامها ممشوقًا مثل بهلوانات الـ(سولي)، وشعرها الأسود الفاحم لم يمسسه اللون الرمادي. ورغم هذا كلّه، فقد شوّه الضوء المُنبعث من النار ملامحها فبدَت مثل جمجمة مُخيفة، عظامها بارزة وبها تجويفات عميقة. كانت ترتدي زي كِفتا قديمًا لم أستطع تمييز لونه، ويدها النحيلة استندت على عصا مُسطّحة الرأس بدت مصنوعة من خشب صلبٍ، ومطليّة باللون الفضّي.

قالت بنفس النبرة الرخيمة الخفيضة: «أنتِ إذًا مُستحضرة النور التي أتت كي تُنقذنا جميعًا.. حسنًا، أين مُرافقتكِ؟».

نظرتُ يمينًا وشمالًا وقد تملّك القلق منّي.

«هل أنتِ بكماء؟».

تنحنحتُ وقلتُ: «كلّا».

«جيّد. أخبريني إذًا، لماذا لم تخضعي لاختبار عندما كنتِ طفلة؟».

«لقد تم اختباري بالفعل».

تبدّلت ملامحها ورمقتني بنظرة خبيثة أخافتني، وسرَت لسعة بردٍ كادت تُجمّد حواسي رغم حرارة الغرفة.

قالت بنبرةٍ صارمة: «أتمنّى أن تكوني أقوى مما تبدين عليه يا فتاة».

زحفت يدها النحيلة خارج كُم ردائها كثعبان يستعد للهجوم على فريسته، ثم أمسكت بمعصمي بقوّة.

قالت في النهاية: «والآن، لنرى ماذا تُخبّئين في جُعبتكِ!».

الفصل التاسع

صُدِمتُ وكادت الصدمة تُردي بي..

عندما أطبقَت (باغرا) يدها النحيلة على معصمي، أدركتُ على الفور أنّها مُضخّمة قوى حيّة، تمامًا مثل مُستحضر الظلام. اهتز كياني مثلما حدث من قبل، انفجر الضوء من بين ثناياي، وغمر الغرفة بأكملها، مُضيئًا جدران الكوخ الحجري. وعندما أرخَت (باغرا) قبضتها وطلبت منّي أن أستحضر النور بمُفردي، لم ينبعث منّي خيط ضوءٍ واحد. وبّختني تارة، وأمرتني بلطفٍ أن أُحاول مُجددًا تارة، ثم وصل بها الأمر أن ضربتني بعصاها.

صرخَت في وجهي: «ماذا عساني أن أفعل مع فتاة ليس بإمكانها استحضار قوّتها الخاصّة؟ أتعلمين أن الأطفال بإمكانهم القيام بذلك؟».

أمسكَت بمعصمي مرّة ثانية، فخالجني الشعور ذاته من جديد، وكأنّه يُحاربني كي أطلق له العنان. تمكّنتُ من تحديد موقعه بداخلي، وأمسكته وكأنّه شيء مادّي يرتخي في قبضتي. أفلتت (باغرا) يدي مرّة أخرى، وانفلتت معها قوّتي، غارقةً كالحجارة في بحرٍ لا يُرى له عمق. لوّحَت لي بالانصراف وقد بدت على وجهها ملامح الاشمئزاز.

لم يتحسّن يومي منذ غادرتُ الكوخ؛ قضيتُ ما تبقى من الصباح في المكتبة، حيث انكببتُ على برجٍ شاهق من الكتب عن تاريخ الغريشا وعلومهم، كما أنّني أُخبِرتُ أن كل تلك

الكتب ليست إلّا جزءًا ضئيلًا مما عليّ استذكاره. وعندما حل وقتُ العشاء، بحثتُ عن (جينيا) في كل مكان ولكنّني لم أجدها، فجلستُ أخيرًا على طاولة المُستحضرين. وفي غضون دقائق، تجمّع حولي كثير من الإثيريالكي.

تناولتُ القليل من الطعام ثم انهالت عليّ أسئلة (ماري) و(ناديا)؛ سألتاني كيف كان درسي الأوّل، وأين تكون غرفتي، وهل أريد أن أذهب معهما إلى الحمّامات عندما يحل الليل. ولكن عندما وجَدَتاني أرُد باقتضاب، التفتتا إلى باقي المُستحضرين وانخرط الجميع في الحديث عن دروسهم. بينما كانت (باغرا) تُعذّبني، كان باقي الغريشا يدرسون مادَّة «نظريّات الغريشا المُتقدّمة»، إلى جانب مادَّة «اللغات» ومادَّة «الاستراتيجيّات العسكريَّة». اتّضح أنّهم كانوا يتأهّبون لمُغادرة القصر الصغير الصيف المُقبل، ولذا فعليهم إنهاء تلك المواد قبل رحيلهم. سيُسافر مُعظمهم إلى الطيّة، أو إلى إحدى الجبهتين (الشماليَّة أو الجنوبيَّة) كي يتولّوا مناصب قياديَّة في الجيش الثاني هناك. لكن يظل السفر مع مُستحضر الظلام هو أعظم شرف يتمنّى أي فردٍ من أفراد الغريشا أن يحظى به، وقد نال (إيفان) ذلك الشرف.

فعلتُ ما بوسعي لكي أنتبه لما يقولون، ولكن ذاكرتي ظلّت تسترجع مُقابلتي الكارثيَّة مع (باغرا). لاحظتُ أن (ماري) و(ناديا) كانتا تُحدّقان في وجهي، فأدركتُ أن إحداهما قد سألتني سؤالًا لم يُدركه ذهني الشارد.

قلتُ: «مُتأسّفة.. لم أسمعكما.. ماذا قلتما؟».

تبادلتا النظرات.

قالت (ماري): «هل تودّين الذهاب معنا إلى الإسطبل لتحضري تدريبات الفنون القتاليّة؟».

هل عليّ حقًّا أن أحضر تلك التدريبات؟ نظرتُ في الجدول الصغير الذي أعطته لي (جينيا)، فرأيتُ كلمات مكتوبة بعد كلمة «عشاء»، ألا وهي: «تدريبات الفنون القتاليّة» و«بوتكن» و«الإسطبل الغربي». أدركتُ على الفور أن اليوم سيغدو أسوأ ممّا ظننت.

نهضتُ وقلتُ: «بالطبع».

تقدّم الخدم للأمام وسحبوا مقاعدنا ورفعوا الأطباق من فوق الطاولة. لا أظنّني سأعتاد على خدمتهم المُتواصلة لي.

قالت (ماري) مُبتسمةً: «ني برينيت».

أصابتني الحيرة، فسألتها: «ماذا قلتِ للتو؟».

«تو تشي بيتي زابافنو».

ابتسمت (ناديا) وقالت: «لا تقلقي، ستُحبّين تلك اللهجة. إنّها اللّهجة السوليّة التي ندرسها حاليًا، فمن المُحتمل أن يرسلونا إلى الجبهة الشرقيّة».

«فهمت».

«شي سي يويان سولي». قال (سيرجي) الذي تبعنا إلى خارج القاعة، ثم ما لبث أن أضاف: «ومعنى هذه الجملة: السولي لغة مُنقرضة».

تبدّلت ملامح (ماري) وبدا التوتّر على (ناديا).

همست (ناديا) قائلةً: «إن (سيرجي) يتحدّث السوليّة بطلاقة».

«لاحظتُ ذلك».

ظلّت (ماري) طوال الطريق تشكو من (سيرچي) وباقي الكوربورالكي، وتتناقش معنا حول أهمّية لغة الـ»سولي»، ولماذا هي أهم من لغة الـ»شو»؛ كانت تزعم أن الأولى مُفيدة لمن يُرسَل بهم إلى شمال غرب (راڤكا)، أمّا الأخيرة فيستخدمها فقط من يُطلَب منهم ترجمة الأوراق الدبلوماسيّة. كما قالت (ماري) أن (سيرچي) ليس إلّا أحمق من الأفضل له أن يذهب إلى (كيرتش) ليتعلّم التجارة. صمتت برهة ثم أشارت إلى حمامات الـ»بانيا» أمامنا، التي تتكوّن من حمّامات بخار، ومسابح مملوءة عن آخرها بالماء البارد، تنتشر في بستان من شجر البتولا يقع بجانب القصر الصغير. ثم انتهزَت الفرصة لكي تحكي لنا عن أنانيّة أفراد الكوربورالكي الذين يحتلّون المسابح في كل ليلة.

ربما لن أفشل في تدريبات القتال؛ فإن (ماري) و(ناديا) تُغذّيان شعورًا مُلِحًّا بداخلي بلكمِ أي شيء أمامي.

بينما كنّا نعبر الروضة الغربيّة، خالجني شعور بأن ثمّة من يراقبني. نظرتُ حولي فرأيتُ طيفًا يقف بعيدًا عن الممر، ومن خلفه أشجار قصيرة تقذفه بظلالها حتّى كادت تُخفيه عن الأنظار. تعرّفتُ على الفور على ردائه البُني الطويل، ولحيته السوداء القذرة، وشعرتُ بنظراته الحادّة تخترق جسدي رغم بُعدي عنه.

إنّه المُستشار الروحاني..

أسرعتُ لألحق بـ(ماري) و(ناديا)، فلاحقتني نظراته مثلما تلاحق السهام أهدافها. وعندما التفتُّ ورائي، رأيته ثابتًا في

مكانـه، لم يـزل يُطلـق مـن عينيـه سـهامًا نحـوي.

***

تقـع قاعـات التدريـب بالقـرب مـن الإسـطبل، جميعهـا قاعـات كبـيرة، جيّـدة الإضـاءة، يُغطّـي أرضيّاتهـا الـتراب، عُلِّقَـت عـلى جدرانهـا جميـع أنـواع الأسـلحة. لم يكُـن مُدرّبنـا (بوتكـن يـول إردن) مـن الغريشـا، بـل كان مـن مُرتزقـة (شـو هـان) يومًـا مـا. لقـد حـارب عـلى كل جبهـة، في كل قـارّة، ومـع كل جيـش، ولم يكـترث لأي شيء سـوى المُقابـل الـذي يُدفـع لـه؛ فموهبتـه كانـت في النهايـة فريـدة مـن نوعهـا. كان شـعره مُبعـثرًا ورمـادي اللـون، وثمّـة ندبـة بشـعة تُشـوّه رقبتـه. ربمـا حـاول أحدهـم ذبحـه مـن قبـل.

ظللتُ أسُب ذلك الرجل ساعتين كاملتين لإهماله إيانا.

بدأنـا بتمرينـات التحمُّـل.. نظّـم (بوتكـن) لنـا سـباقًا في السـاحة. فعلـتُ مـا بوسـعي كي أواكـب الجميـع ولكـن جسـدي الضعيـف ألقـى بي في مُؤخّـرة الصـف.

قـال (بوتكـن) بلهجتـه الثقيلـة سـاخرًا منّـي: «أهـذا مـا علّمـوه لـكِ في الجيـش الأوّل؟».

منعتني أنفاسي الثقيلة من الرد.

عندمـا عدنـا إلى قاعـات التدريـب، وجـدتُ المُـستحضرين يتهيّأون لتدريـب المُلاكمـة، وأصرّ (بوتكـن) أن يكـون خصمـي. قضيتُ سـاعة كاملـة أتلقّـى فيهـا لكمـة تلـو اللكمـة حتّـى شـعرتُ بإعيـاء شـديد.

صـاح (بوتكـن) بينـما كان يدفعنـي للـوراء: «تصـدّي للكـماتي! تحـرّكي أسرع! يبـدو أنّـكِ تُحبّـين تلقّـي اللكـمات يـا صغـيرتي!».

مـا بعـث الطمأنينـة في نفـسي هـو أنّنـا مُنِعنـا مـن اسـتخدام

فوانا الخاصّة داخل قاعات التدريب، وبهذا فلن يعلم أحد أنّني لا أستطيع استحضار قوّتي.

عندما ازداد تعبي لدرجة لا تُحتَمل، فكّرتُ أن أجلس على الأرض وأدع (بوتكن) يركلني كما شاء، لكنّني وجدته يأمرنا بالانصراف. وقبل أن نخرج من الباب صاح قائلًا: «ستأتي الفتاة الصغيرة غدًا مُبكرًا كي تتدرّب معي».

كل ما استطعتُ فعله وقتها أن أكبح امتعاضي.

عدتُ إلى غرفتي واستحممتُ، شعرتُ برغبة مُلِحّة في الانزلاق تحت الغطاء لأختبئ إلى الأبد، ولكنّني أجبرتُ نفسي على النهوض لأعود إلى القاعة المُقبّبة لأتناول عشائي.

سألتُ (ماري) فور جلوسي على مائدة المُستحضرين: «أين (جينيا)؟».

ردّت: «إنّها تتناول جميع وجباتها في القصر الكبير».

أضافت (ناديا): «وتنام هناك أيضًا؛ فالملكة تحتاجها طوال الوقت».

«والملك أيضًا».

«ماري!». صاحت (ناديا) مُقاطعةً إيّاها، ثم ضحكت.

نظرتُ إليهما مُندهشةً ثم قلتُ: «هل معنى ذلك أنّها...».

قاطعتني (ماري): «هذه محض إشاعة». ولكنّها نظرت إلى (ناديا) نظرة تنم عن تيقُّنها.

وجدتني أتذكّر شكل شفتي الملك المُبتلّتين، وأنفه الغريب، ثم استحضرتُ صورة (جينيا) أمامي، بجمالها الطاغي وألوان زيّها الزاهية، فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا أُبعد الطبق من أمامي؛

فقد فقدتُ ما تبقى من شهيّتي.

استمر العشاء دهرًا. شربتُ كوبًا من الشاي وتحمّلتُ ثرثرة من يجلسون حولي. وعندما كنتُ على وشك الاستئذان لأفِرّ إلى غرفتي، فُتِحَت الأبواب التي خلف مائدة مُستحضر الظلام، فنصَب الصمتُ خيامه في القاعة.

ظهر (إيڤان) أولًا، وتوجّه صوب مائدة المُستحضرين، غير عابئ بنظرات باقي الغريشا. أحسستُ بثِقَل في قلبي عندما رأيته قادمًا نحوي.

قال فور وقوفه أمامي: «ستاركوف، تعالِي معي...». ثم أضاف بنبرةٍ ساخرة: «من فضلكِ».

نهضتُ من مقعدي وشعرتُ بقدميّ تثقلان.

تُرى هل أخبرت (باغرا) مُستحضر الظلام أنّني فاشلة؟ وهل أخبره (بوتكن) إلى أي مدى قد أخفقتُ في التدريبات؟

رمقني جميع الغريشا بنظراتٍ مُندهشة، ورأيتُ ثغر (ناديا) قد انفتح عن آخره.

تبعتُ (إيڤان) إلى خارج القاعة الساكنة ثم عبرنا خلال الأبواب الأبنوسيّة. قادني بعد ذلك في ممرٍ طويل ثمّة باب في آخره مُزيّن بشعار مُستحضر الظلام. دلفنا إلى داخل غرفة واسعة، بدت لي أنّها غرفة العمليّات العسكريّة، لم تكن بها أي نوافذ، وكانت جدرانها مُغطّاة بخرائط كبيرة لـ(راڤكا). لاحظتُ أن الخرائط رُسِمَت على الطريقة القديمة، باستخدام الحبر الساخن وجلود الحيوانات. أردتُ لو أقف أمامها لساعات، لأتفحّصها وأتحسّس بأصابعي انحناءات الأنهار وسفوح الجبال،

ولكنّني لم أفعل، بل وقفتُ مكتوفة الأيدي، وفي قلبي عواصف لا يشعر بها أي مخلوق.

وجدتُ مُستحضر الظلام يجلس على رأس طاولة طويلة، وأمامه كومة من الأوراق. عندما دخلتُ الغرفة، نظر لي بعينيه المرمريتين اللتين تلمعان في ضوء القنديل.

أشار إلى المقعد الذي بجانبه ثم قال: «ألينا، اجلسي رجاءً».

تردّدتُ..

لم يكن غاضبًا.

غادر (إيفان) الغرفة وأغلق الباب خلفه. بلعتُ ريقي بصعوبة، ثم اتجهتُ إلى حيث أمرني مُستحضر الظلام.

«كيف كانت تدريباتكِ؟».

بلعتُ ريقي مرّة أخرى قبل أن أقول: «جيّدة».

عبر على وجهه طيف ابتسامة لم يدُم طويلًا ثم قال: «حقًّا؟ حتّى (باغرا)؟ لقد اختبرتكِ فقط».

«أجل.. كان محض اختبار».

«هل أنتِ مُتعبة؟».

أومأتُ برأسي.

«هل تشتاقين لكتيبتكِ؟».

هززتُ كتفيّ.. إنّه من الغريب أن أشعُر بالحنين إلى ثكنات الجيش الأوّل.

قلتُ: «نوعًا ما».

«ستتخلّصين من ذلك الشعور عمّا قريب».

تمنّيتُ أن يكون صادقًا؛ فلا أظنني سأتحمّل أيامًا صعبة أخرى مثل يوم التدريب.

«ستزداد الأمور تعقيدًا، أعلم ذلك، لكن عليكِ أن تُدركي حقيقة كونكِ فريدة من نوعك. فمثلًا، نادرًا ما يعمل فرد من أفراد الإثيريالكي بمفرده. ومُستحضرو الرياح غالبًا ما يجتمعون مع صانعي الأمواج، كما يعمل مُستحضرو النار بعضهم مع بعض».

قلتُ بنبرةٍ تنم عن إرهاقي: «حسنًا، فهمت».

لم أُرِد سماع مثل هذا الكلام، لم أرِد أن أعرف كم أنا استثنائيّة.

نهض مُستحضر الظلام ثم قال: «تعالي معي».

بدأت دقّات قلبي تعلو مُجدَدًا داخل صدري.

قادني إلى خارج الغرفة. وجدنا أنفسنا في ممرٍ طويل ثمّة باب ضيّق مُتوارٍ عن الأنظار في أحد جوانبه. أشار نحوه مُستحضر الظلام ثم قال: «الزمي جهة اليمين وستصلين إلى المهاجع. أظنّكِ تريدين تجنّب المرور بالقاعة الرئيسيّة».

حملقتُ في عينيه ثم صِحتُ غاضبةً: «أهذا كل شيء؟ هل طلبت رؤيتي كي تسألني كيف كان يومي فقط؟».

مالَ برأسه يمينًا وهو ينظر إليّ، ثم قال: «تُرى ماذا كنتِ تتوقّعين منّي؟».

شعرتُ براحةٍ تُثلج صدري، حتّى أنّ ضحكة هربت من فمي. قلتُ: «لا أدري. ربما كنتَ ستعذّبني، أو تستجوبني، أو تُحدّثني بصرامة على أقل تقدير!».

عبس وجهه قليلًا وقال: «أنا لستُ وحشًا يا (ألينا).. عليكِ

أن تتأكّدي مـن هـذا، رغـم كل مـا سـمعتِه عنّـي».

قلـتُ بسرعـة: «لم أقصـد ذلـك. بـل... إنّنـي لا أعـرف مـاذا كان عـليّ أن أنتظـر منـك».

«لقد توقّعتِ الأسوأ».

«هـذه عـادة قديمـة». قلتهـا ثـم صمـتُّ. كنـتُ أعلـم أنّ عـليّ التوقّـف عنـد هـذا الحـد، ولكنّنـي لم أسـتطع مقاومـة نفسي. ربمـا ظلمتـه، ولكنّـه لا يقـل عنّـي ظلـمًا بـأي حـال مـن الأحـوال.

اسـتكملتُ حديثـي قائلـةً: «لمـاذا عـليّ ألّا أخـاف منـك؟ إنّـك مُسـتحضر الظـلام! وهــذا يعنــي أنّــك تســتطيع أن تُلقــي بي في حفـرة، أو ترسـلني عـلى مـتن سـفينة إلى تسـيبيا. كـما أنّـك تُقطّـع النـاس إلى نصفـين، ولـذا فمـن الطبيعـي أن أتوجّـس منـك خيفـة».

أطـال النظـر في عينـي. تمنّيـتُ وقتهـا لـو أبقيـتُ فمـي مُغلقًـا. زار وجهـه طيـف الابتسـامة الـذي اعتـدتُ عـلى رؤيتـه بـين الحـين والآخـر.

قال: «ربما تكونين على حق».

سـاد الصمـتُ للحظـات قصـيرة ثـم أضـاف مُسـتحضر الظـلام: «لمـاذا تفعلـين هـذا؟».

«ماذا تقصد؟».

أمسـك بيـدي، فانتابنـي نفـس الشـعور الرائـع الـذي أحسـه في كل مـرّة يلمسـني فيهـا.

قال: «لماذا تتحسّسين باطن يدك بإبهامك؟».

ضحكـتُ بتوتّـر. لم أكُـن أشـعر بـأن إبهامـي قـد لَمَـس كفّـي مـن الأساس.

«هذه عادة قديمة أخرى».

تفحّص يدي في ضوء الممر الخافت، ثم تحسّس بإبهامه تلك الندبة التي تمتد بعرض كف يدي. أحسستُ بجسدي يرتجف.

«متى أُصبتِ بهذه الندبة؟».

«عندما كنتُ.. في كيرامزين».

«حيث تربّيتِ؟».

«أجل».

«وماذا عن ذلك المُتعقّب؟ أكان يتيمًا مثلكِ؟»

أخذتُ نفسًا عميقًا. تُرى هل كانت قراءة الأفكار من ضمن قواه؟!

تذكّرتُ أن (مال) قد أدلى بشهادته عندما كنا في خيمة الغريشا تلك.

قلتُ: «نعم، إنّه يتيم».

«هل هو جيّد في الـ..؟».

«في ماذا؟».

واجهتُ صعوبة في التركيز. لم يزل إبهامه يتحسّس ندبتي ذهابًا وإيابًا، وكأنّه يقيس طولها.

«في التعقب. هل يجيد التعقب؟».

قلتُ بفخرٍ: «إنّه أفضل المُتعقبين. يقول العبيد أنّه يصنع المُعجزات».

استغرق في التفكير لبعض الوقت، ثم قال: «أتعلمين، أتساءل أحيانًا عن مدى فهمنا لمواهبنا الخاصّة».

أفلت يدي ثم فتح الباب وتنحّى جانبًا.

قال بعدما انحنى برأسه قليلًا: «طابت ليلتكِ يا ألينا».

«طابت ليلتك».

دلفـت إلى الممـر الضيّـق، ثـم بعـد لحظـات، سـمعتُ صـوت البـاب يُغلـق مـن خلفـي.

الفصل العاشر

في الصباح التالي، أيقظني ألم مُبرِح يَسري في جسدي كلّه، لدرجة أنّني لم أستطع -في البدء- أن أنهض من سريري. لكنّني قاومتُ الألم، بكل ما أوتيت من قوّة، طردتُ ذلك الإعياء الشديد الجاثم فوق جسمي، وقمتُ لأستعد للتدريبات. كل يومٍ مرَّ عليّ كان أسوأ وأكثر إحباطًا من اليوم الذي سبقه، ولكنّني لم أستسلم، أو بالأحرى لم أستطع أن أستسلم. إنّني لم أعُد رسّامة خرائط، وإذا لم أصير من الغريشا، فيا تُرى ماذا سيكون مصيري؟

تذكّرتُ ما قاله لي مُستحضر الظلام في تلك الليلة التي قضيناها في المزرعة المهجورة.

«أنتِ أوّل شعاع أمل يشُق طريقه إليّ منذ وقتٍ طويل».

هذا ما قاله حينها.

إنّه مُتيقّن من كوني مُستحضرة نور، وأنّنا نستطيع معًا أن ندمّر طيّة الظل. وإذا نجحنا، فلَن يتعيّن على أي جندي، أو تاجر، أو مُتعقّب، عبور اللا بحر مرّة أخرى.

في كل يوم يمُر عليّ كنتُ أتأكّد من سذاجة تلك الفكرة..

قضيتُ ساعات طويلة في كوخ (باغرا) أمارس بعض التمارين التي تساعد على إطالة النَّفس وزيادة التركيز. أعطتني كتبًا لأقرأها، وأحضرت لي أكوابًا من الشاي لأشربها، وضربتني أكثر من مرّة بعصاها، ولكن لم يُجدِ أي شيء نفعًا.

كانت تصرخ دائمًا قائلةً: «ماذا عساني أن أفعل كي تتعلّمي؟ هل عليّ جرحكِ بسكّين؟ أم آمُر أحد مُستحضري النار كي يحرقكِ؟ ربما سأطلب من أحدهم أن يقذف بكِ في الطيّة مرّة أخرى كي تكوني طعامًا لكائنات الڤولكرا الجائعة!».

كنتُ أفشل يوميًّا في تدريبات (باغرا). وكان (بوتكن) يُعذبني شر تعذيب؛ كان يأمرني بالركض حول القصر، وفي الغابة وفوق الروابي، حتّى كدتُ أنهار. كما تسبّبت تدريبات السجال وتدريبات السقوط في انتشار الجروح في كل جزء من جسمي، وتألّمت أذناي من وقْع الجُمَل الثلاث التي قلّما يتفوّه بغيرها: أنتِ بطيئة، أنتِ ضعيفة، أنتِ هزيلة.

صرخ في وجهي يومًا قائلًا: «كيف عليّ أن أُشيّد قصرًا كبيرًا من القش الهش؟». ثم ضغط على ذراعي وقال: «تغذّي جيّدًا!».

لكنّني لم أعُد أشعر بالجوع. لقد فقدتُ شهيّتي منذ أن واجهتُ الموت في طيّة الظل، وحتّى الأكل قد فقد مذاقه. كنتُ بالكاد أنام، رغم أن سريري مُريح وفخم. شعرتُ أنّني أتعذّب كل يوم. خدّاي عادا شاحبين، وانتشرت دوائر سوداء أسفل عينيّ، وبهُت لون شعري، وكأن (جينيا) لم تفعل بمظهري شيئًا.

ظنّت (باغرا) أن سبب فقداني لشهيّتي، وعدم قدرتي على النوم، هو فشلي في استدعاء قوّتي.

قالت لي يومًا: «أوَليس المشي بأقدام مُكبّلة صعبًا؟ وكذلك الحديث بفمٍ مُكمّم؟ إذًا لماذا تبذلين قصارى جهدكِ في محاربة طبيعتك الحقيقيّة؟».

ولكنّني لم أفعل.. أو ربما هذا ما ظننته.

إنّني لم أعُد متأكّدة من أي شيء.. لقد عشتُ طوال حياتي ضعيفة، وهشّة، وفي كل يومٍ كنتُ أواجه صراعًا جديدًا. ولذا، فإذا كانت (باغرا) على حق، فستنتهي مأساتي عندما أتقن التعامل مع قوّتي.

أتمنّى أن يحدث هذا يومًا ما، حتّى أتخلّص من تلك الكوابيس التي تُؤرّقني.

كنتُ أعلم أن بقيّة الغريشا يتحدّثون عنّي. كان الإثيريالكي يُفضّلون التدريب معًا بجانب البحيرة، حيث يُجرّبون طرقًا جديدة لاستحضار الماء والهواء والرياح، ولأنّني لم أُرِدهم أن يكتشفوا أمر فشلي في استدعاء قوّتي، كنتُ أختلق الأعذار كي لا أنضم إليهم، حتّى توقّفوا في النهاية عن دعوتي.

كانوا يجلسون جميعًا في القاعة المُقبّبة كل ليلة، يشربون الشاي أو يتجرّعون كؤوسًا من الكفاس، ويُخطّطون لقضاء عطلات نهاية الأسبوع في (بالاكيريف) أو غيرها من القرى المجاورة لـ(أوز ألتا). ولكنّني لن أستطيع مرافقتهم لأن مُستحضر الظلام لم يزل خائفًا من تعرُّضي لمحاولة اغتيال أخرى، والحق أنّه عذر كافٍ سيعفيني من التبرير.

لقد اكتشفتُ أنّه من السهل رصد موقعي بين المُستحضرين، ولذلك كنتُ أتجنّب الاختلاط بهم قدر استطاعتي.

نادرًا ما صرتُ أرى مُستحضر الظلام، وغالبًا ما يكون بعيدًا عنّي عندما يحضر. دائمًا ما أجده مُنخرطًا في حديثٍ مع (إيفان) أو المُستشارين العسكريين للملك. علمتُ من زملائي أنّه لا يقضي من الوقت إلّا القليل في القصر الصغير، وهذا بسبب انشغاله الدائم بالسفر إلى منطقة الطيّة، أو الحدود

الشـماليّة، وأحيانًـا مـا يتجـه جنوبًـا حيـث مرتزقـة (شـو هـان) يُداهمـون معسـكرات الجيـش هنـاك قبـل أن يحـل الشـتاء. فمُسـتحضر الظـلام هـو المسـؤول عـن مئـات الأفـراد مـن الغريشـا الذيـن يتمركـزون في جميـع أنحـاء (راڤـكا).

لم يتفـوّه معـي بكلمـة منـذ مـدّة، وحتّـى أعيننـا لم تلتـقِ منـذ دهـرٍ. لعـل السـبب وراء ذلـك هـو تأكّـده مـن عـدم تطـوُّر أدائي في التدريبـات، وبهـذا سـتصبح مُسـتحضرة النـور التـي تمنّـى نجاحهـا، محـض فاشـلة لا أمـل في تعلّمهـا.

***

عندمـا ينتهـي (بوتكـن) و(باغـرا) مـن تعذيبـي، أفِـرُّ إلى المكتبـة حيـث أجلـس لأتصفّـح كتبًـا عـن علـم الغريشـا. ظننـتُ أنّنـي أدرك أساسـيّات مـا يقـوم بـه الغريشـا (أو بالأحـرى مـا نقـوم بـه)، لكنّنـي كنـتُ مُخطئـة.

في هـذا العـالم، يمكـن لأي شيء أن ينكسـر إلى جزيئـات صغـيرة مُتطابقـة، وسـحر الغريشـا الحقيقـي يكمُـن في مقدرتهـم عـلى التلاعـب بالمـواد في صورهـا المُجـرّدة. فـإن (مـاري) -عـلى سـبيل المثـال- لا تخلـق نيرانًـا، بـل تسـتدعي مـن الهـواء حولهـا مـواد قابلـة للاشـتعال، ولكنّهـا تحتـاج إلى مـا يُحفّـز تلـك المـواد لتشـتعل. وكذلـك فـولاذ الغريشـا ليـس سـحريًا، بـل إن مهـارة المُصنّعـين هـي مـا جعلتـه مُميّـزًا؛ فهـم لم يحتاجـوا إلى حـرارة أو أدوات مُتقدّمـة كي يتلاعبـوا بالمعـادن.

إن فهمـي لمـا نقـوم بـه لا يعنـي بالـضرورة أنّنـي أدرك كيـف يحـدث.

عرفتُ من الكتب أن العلم الصغير قائم على قاعدة أساسيّة وهي أن «الشيء يستدعي ما يشابهه»، ولكنّني اكتشفتُ بعد ذلك أن الأمر أكثر تعقيدًا. ثمّة مُصطلح في علم الغريشا يُسمّى «أودِناكوڤوست»، وأقرب معنى له هو «التماثل»، أو ما يجعل الشيء مشابهًا لغيره من الأشياء. أمّا «إيتوڤوست» فهو عكس المصطلح الأوّل، ويعني «التفرُّد»، أو ما يجعل الشيء مُتميّزًا عن غيره من الأشياء. إن الأودناكوڤوست هو ما ربط الغريشا بالعالم، أمّا الإيتوڤوست فقد وهبهم ميزة مُنفردة كالتحكُّم في الهواء، أو الدم، أو الضوء مثل حالتي.

في ذلك الوقت، شعرتُ بعقلي يشرد.

لفتت نظري كلمة استخدمها الفلاسفة ليصفوا مَن لا يملكون قوى الغريشا. أطلقوا عليهم اسم «أوتكازاتسيا»، أو «المهجورون»، أو في قولٍ آخر «اليتامى».

***

في مساء أحد الأيّام، كنتُ مُنكبّة على قراءة فقرة من كتاب تصف دور الغريشا الهام في تحسين طرق التجارة. وفجأة، شعرتُ بأن ثمّة من يقف بجانبي. نظرتُ عن يميني. أجبرني خوفي على التراجع في مقعدي. كان ظل المستشار الروحاني جاثمًا فوقي، وعيناه الداكنتان يملؤهما الخبث.

جُلتُ بنظري حول المكتبة، لم يكن ثمّة غيرنا في المكان. شعرتُ بلسعة بردٍ تُجمّد أحشائي، رغم أشعّة الشمس التي تتدفَّق من السقف الزجاجي.

جلس على المقعد المجاور لمقعدي، فاحت رائحة ردائه

العفنة حتّى كادت تسُدُّ فتحتي أنفي. رائحة القبور غلّفتني، فحاولتُ التنفس من فمي.

«أخبريني إذًا يا (ألينا)، هل تستمتعين بدراستكِ؟».

«كثيرًا». كذبتُ عليه.

«رائع.. ولكن أتمنّى أن تهتمّي بتغذية روحكِ مثلما تُغذّين عقلكِ. أنا المُرشد الروحاني لكل من خلف أسوار هذا القصر. ولذا، فأرجو ألّا تترددي في القدوم إليّ إذا أصابكِ القلق، أو وقعتِ في محنةٍ ما».

«سأفعل ذلك بكُل تأكيد».

ابتسم لي، كاشفًا عن صفّين من الأسنان الصفراء المُتزاحمة، ولثة سوداء فاحمة كلثة ذئبٍ.

قال: «جيّد جدًّا.. أتمنّى أن نصير أصدقاء، فهذا مُهم لكِ، ولي».

«بالطبع».

«سأكون سعيدًا إذا قبلتِ هديّتي هذه».

أخرَج من جيب ردائه البُنّي كتابًا صغيرًا غلافه أحمر مصنوع من الجلد.

توجّستُ منه خيفة رغم أنّه كان يهديني كتابًا.

انحنيتُ للأمام على مضض وحرّرتُ الكتاب من بين يديه الطويلتين اللتين تكسوهما عروق زرقاء مُتصلّبة. وجدتُ حروف العنوان منقوشة بماء الذهب، فقلتُ: «حياة القدّيسين؟».

أومأ برأسه ثم قال: «قديمًا، كان جميع أطفال الغريشا

يُمنحون هذا الكتاب فور مجيئهم إلى مدرسة القصر الصغير».

قلتُ مُرتبكةً: «شكرًا لك».

«إن الفلّاحين يحبّون القدّيسين، ويعشقون المعجزات، لكنّهم يكرهون الغريشا. تُرى ما السبب في ظنّكِ؟».

«لم يخطر ببالي ذلك السؤال من قبل».

فتحتُ الكتاب فوجدتُ اسمي مكتوبًا على ظهر الغلاف. ألقيتُ نظرةً على عناوين الفصول، التي كان من بينها: «القديس بيتير، قدّيس بريڤنو» و«القدّيس إليا المُقيّد» و«حكاية القدّيسة ليزابيتا». يسبق كل فصل رسمة توضيحيّة خُطّت بأحبارٍ زاهية الألوان.

قال المستشار الروحاني: «ربما لأن الغريشا لا يُعانون مثلما يعاني العامّة والقدّيسون».

«ربما».

«لكنّكِ عانيتِ كثيرًا يا (ألينا)، أليس كذلك؟ وأعتقد أن... مُعاناتكِ ستزداد».

ارتعد جسدي.. ظننتُ أنّه يُهدّدني، ولكن عينيه كانتا تفيضان بتعاطفٍ زاد من خوفي.

نظرتُ مُجدّدًا إلى الكتاب المُستريح على فخذي. وجدتُ إبهامي مُستقرًا فوق رسمة توضيحيّة للقدّيسة (ليزابيتا) وقد قُطِّعَت أوصالها، وتدفّق بين الأزهار نهر من الدماء منبعه ما تبقّى من جسدها.

أغلقتُ الكتاب ونهضتُ سريعًا، ثم قلتُ: «عليّ أن أذهب».

قام المستشار الروحاني من مقعده. ظننته سيمنعني من

الرحيـل لكنّـه لم يفعـل.

قال: «يبدو أن الهديّة لم تنل إعجابك».

«إطلاقًـا، إنّهـا جميلـة حقًـا. شـكرًا لـك. إنّنـي فقـط لا أريـد أن أبقـى هنـا لوقـتٍ مُتأخّـر».

غـادرتُ المكتبـة عـلى غـير هـدى، ولم أتوقّـف لألتقـط أنفـاسي إلى أن وصلـتُ إلى غرفتـي. قذفـتُ بالكتـاب في الـدرج السـفلي لمنضـدة الزينـة ثـم أغلقتـه بإحـكام.

تُـرى مـاذا يريـد منّـي المستشـار الروحـاني؟ هـل كان يوجّـه لي تهديـدًا؟ أم كان يُحـذّرني؟

أخـذتُ نفَسًـا عميقًـا، قاومـتُ موجـة مـن الإرهـاق والارتبـاك كانـت تتدفّـق داخـلي. كـم أشـتاق إلى حيـاتي الرتيبـة في خيمـة الوثائـق، حيـث لم يُطلـب منّـي أي شيء سـوى إنجـاز بضـع رسـومات وترتيـب المكتـب. كـم أشـتاق إلى رائحـة الحـبر والـورق التـي اعتـادت عليهـا أنفـي.

والأهم من ذلك كلّه، أنّني أشتاق إلى (مال).

كنـتُ أكتـب لـه جوابًـا كل أسـبوع، وأرسـله إلى الوحـدة، ولكـن لم يصلنـي منـه أي رد. كنـتُ أعلـم أنّـه مـن الصعـب الوثـوق بالبريـد، وربمـا يكـون (مـال) قـد غـادر منطقـة الطيّـة مـع كتيبتـه، أو حتّـى ارتحـل إلى (راڤـكا الغربيّـة)! ولكـن لم يـزل ثمّـة بصيـص مـن الأمـل يُنـير قلبـي الـذي ينبـض آمـلًا أن يصلـه رد منـه.

لقـد صرفـتُ النظـر عـن فكـرة زيارتـه لي في القـصر الصغـير، رغـم أنّ عينـيّ تتوقـان إلى رؤيتـه، لكنّنـي لم أُرِده أن يعـرف أنّنـي تأقلمـتُ عـلى حيـاتي الجديـدة.

أصعـد السـلّم كل ليلـة إلى غرفتـي، مُودّعـةً يومًـا آخـر قـد أثقـل قلبــي بــالألم، وأتخيّــل أنّ ثمّــة جوابًــا يســتريح فــوق الطاولــة في انتظـاري. أُسرع الخطـى نحـو الطاولـة، ولكنّنـي لا أرى أي جـواب. واليـوم لا يختلـف عـن باقـي الأيّـام، بـلا جوابـات أو برقيّـات. أتحسّـس سـطح الطاولـة الفـارغ يائسـة، فـلا أجـد سـوى خشـب يُصافـح يـدي.

أهمس لفراغ الغرفة بقلبٍ مفطور: «أين أنت يا (مال)؟».

فلا يجيبُ عليّ سوى السكون.

الفصل الحادي عشر

لم يخطر ببالي أن الأمور ستزداد سوءًا..

كنتُ أتناول فطوري في القاعة المُقبّبة عندما فُتحَت الأبواب الرئيسيّة فجأة، ودلفت إلى القاعة مجموعة غير مألوفة لي من الغريشا. لم أعرهم انتباهي؛ فدائمًا ما يتردّد تابعو مُستحضر الظلام على القصر، بعضهم يأتي لعلاج جروحهم التي أصيبوا بها أثناء المداهمات على الجبهتين الشماليّة والجنوبيّة، وآخرون عائدون ليقضوا إجازاتهم.

أصابت (ناديا) و(ماري) صدمة جعلتهما تبدوان وكأنّهما تجمّدتا في مقعديهما.

نظرتُ نحو الأبواب مرّة أخرى. انتفض جسدي عندما تعرّفتُ على الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم التي أسَرَتها وسامة (مال) عندما كنّا في (كريبيرسك). شاهدتها تقذف الجالسين بكلمات الترحيب، وضحكاتها دوّت من أرض القاعة إلى أعلى القبّة الذهبيّة، وحول أركان المكان.

همستُ لـ (ماري): «من تكون؟».

ردّت: «هذه (زويا).. فتاة فظيعة كانت تكبرنا في المدرسة بسنة».

أضافت (ناديا): «وتظن أنّها أفضل من الجميع».

ارتفع حاجباي.

إذا كانت خطيئة (زويا) هي التعجرف، فليس من حق

(ماري) أو (ناديا) إصدار أحكام.

تنهّدت (ماري) ثم قالت: «والأسوأ أنّها مُحقّة؛ فهي مُستحضرة رياح قويّة بشكلٍ لا يُصدّق، ومُقاتلة عنيفة. انظري إليها!».

وقعت عيناي على التطاريز الفضيّة التي تُزيّن كُم زيّها، ولفت نظري شعرها الأسود اللامع، وعيناها الزرقاوان الواسعتان اللتان تحرسهما رموش لا تقل سوادًا عن شعرها. كاد جمالها يُقارب جمال (جينيا). تذكّرتُ (مال) وشعرتُ على الفور بالغيرة تتملّك من قلبي.

كانت (جينيا) مُقيمة في المعُسكر القريب من منطقة الطيّة. ولذلك، فإذا قامت هي و(مال) بـ.. أيًا يكُن، من المؤكّد أنّها تعلم أخباره.

أزحتُ طبقي بعيدًا؛ لقد فقدتُ شهيّتي عندما أدركتُ أنّني قد أُجبَر على سؤال (زويا) عن (مال).

قطعت (زويا) حديثها مع أحد الكوربورالكي الذي اعتلت وجهه ملامح الدهشة، وسارت باتجاه مائدتنا وكأنّها أحسّت بي وأنا أصوّب نظري نحوها.

صاحت عندما وقفت أمامنا: «ماري! ناديا! كيف حالكما؟».

قامت كلتا الفتاتين من مقعديهما، بثغرين ارتسمت عليهما ابتسامتان مُزيّفتان، وفتحتا أذرعيهما لتُعانقاها.

قالت (ماري): «تبدين رائعة يا (زويا)! كيف حالكِ؟».

أضافت (ناديا) سريعًا: «لقد اشتقنا لكِ كثيرًا».

قالت (زويا): «وأنا اشتقتُ لكما. كم أنا مسرورة لعودتي

إلى القصر الصغير أخيرًا! لن تستطيعا تخيّل حجم المهام التي كلّفني بها مُستحضر الظلام. يا لي من وقحة! لقد نسيتُ أن أُحيّي صديقتكما. لا أظن أنني قابلتها من قبل».

قالت (ماري) بنبرةٍ يملؤها الفخر: «هذه ألينا ستاركوف، مُستحضرة النور».

نهضتُ لأصافحها في حرج ولكنني وجدتها تعانقني وتقول بأعلى صوتها: «يا له من شرف لي أن أقابل مُستحضرة النور!».

استمرّت في عناقي للحظات ثم همست في أذني: «تفوح منكِ رائحة كيرامزين العفنة».

تجمّدتُ في مكاني. وسرعان ما انفكّت ذراعاها من حولي، وتراقصت على شفتيها المثاليّتين ابتسامة خبيثة.

لوّحت لنا وقالت: «أراكُنّ لاحقًا». ثم غادرت القاعة مُتجهة إلى المهجع.

بقيتُ مُتجمّدة في مكاني، خدّاي يحترقان من شدّة الغيظ. شعرتُ أن جميع من حولي يحدّقون بي، لكن اتضح أن لا أحد قد سمع ما قالته لي (زويا).

رافقتني كلماتها طوال اليوم، بقيت تحوم داخل رأسي أثناء فترة تواجدي في كوخ (باغرا)، وعندما ذهبتُ لأتناول غدائي في القاعة. قصّت (زويا) على مسامع الحضور حكاية رحلتها من (كريبيرسك) إلى القصر الصغير، وما رأته في إحدى القرى من رسومات شعبيّة منقوشة على ألواح من خشب.

كلّما ذكرت (زويا) كلمة «فلّاحون» كانت تنظر إليّ مباشرة. ربما صوّر لي عقلي ذلك، لا أدري، لكنني إخالها حقيقةً. عندما

كانـت تتكلّـم، كان الضـوء ينبعـث مـن سـوارها الفـضيّ الثقيـل المُلتـف حـول معصمهـا. لاحظـتُ أنّـه مُرصّـع بكسـور مـن العظـام.

قلتُ في نفسي: «لا بد أنّه مُضخّم قوى».

ازدادت الأمـور سـوءًا عندمـا جـاءت (زويـا) إلى درس الفنـون القتاليّـة. عانقهـا (بوتكـن) فـور رؤيتهـا، وقبّـل خدّيهـا، ثـم وقفـا يتحدّثـان معًـا بلُغـة الشـو التـي لا أفهمهـا. تُـرى هـل هنـاك شيء تجهلـه تلـك الفتـاة؟

أحـضَرَت معهـا صديقتهـا ذات الشـعر الكسـتنائي التـي كنـتُ قـد رأيتهـا في خيمـة الغريشـا. باتتـا تتهامسـان وتضحـكان بينـما كنـتُ أُعـذّب في التدريبـات التـي يبـدأ بهـا (بوتكـن) درسـنا كل يـوم. وعندمـا حـان وقـت تدريـب الملاكمـة، لم أُفاجـأ بـأن (بوتكـن) قـد اختـار (زويـا) لتكـون منافسـتي.

ابتسـم وقـال بفخـرٍ: «سـتُدرّب تلميـذتي النجيبـة تلـك الفتـاة الصغـيرة».

ابتسـمت (زويـا) بتعجـرفٍ وقالـت: «إن مُسـتحضرة النـور لا تحتـاج إلى مسـاعدتي بـكُل تأكيـد».

راقبتها بحذر.. لم أدرِ لماذا تكرهني تلك الفتاة لهذه الدرجة!

ازداد ثقل اليوم على كاهلي حتّى كدتُ أسقط ولا أقف ثانيةً.

اتّخـذت كل منـا موقعهـا وتأهبنـا للقتـال، ثـم أطلـق (بوتكـن) إشـارة البـدء.

اسـتطعتُ صـدّ ضربـة (زويـا) الأولى، لكنّنـي تلقّيـتُ الثانيـة. أُصبـتُ في فـكّي السـفلي فارتـجّ رأسي بعنـفٍ.

حاولتُ استعادة اتزاني سريعًا..

تقدَمـت (زويـا) نحـوي لتَلكُـم ضلعـي الأيمـن، لكنّنـي تفاديـتُ الضربـة. يبـدو أن تدريبـات (بوتكـن)، عـلى مـدار الأسـابيع القليلـة الماضيـة، قـد أتـت بثمارهـا أخـيرًا.

أخـذَت تحـوم حـولي مثـل الفراشـة. لمحـتُ بطـرف عينـي بقيّـة المُسـتحضرين وقـد كفّـوا عـن القتـال، واجتمعـوا ليشـاهدوا معركتنا الشرسـة.

اسـتغلّت (زويـا) تشـتُّتي ولكمتنـي بقـوّة في بطنـي. وقبـل أن تتسـنّى لي فرصـة لالتقـط أنفـاسي، حاولَـت ضربي بكوعهـا، لكنّنـي لحسـن الحـظ تفاديـتُ الضربـة.

اندفعَت نحوي بأقصى سرعتها، وكان هذا خطؤها.

أعـترف أنّنـي بطيئـة وضعيفـة جسـمانيًا، لكـن (بوتكـن) علّمنـي أن أسـتغل قـوّة خصمـي بالشـكل الصحيـح. قفـزتُ إلى اليسـار، وعندمـا اقتربـت منّـي، لففـتُ سـاقي بسرعـة حـول كاحلهـا، فسـقطت وارتطـم جسـدها بـالأرض بقـوّة.

صفّـق الجميـع بحـرارة. ولكـن قبـل أن تسـتقر في قلبـي فرحـة الانتصـار، نهضـت (زويـا) وقـد انكمشـت ملامحهـا مـن فـرط الغضـب، وأخـذت تُحـرك ذراعيهـا ببـطءٍ في الهواء. شـعرتُ بجسـدي يرتفـع إلى الأعـلى حتّـى لم تعُـد قدمـاي تلمسـان الأرض، ثـم طـرتُ إلى الخلـف واصطدمـتُ بجـدار غرفـة التدريـب الخشـبي. سـمعتُ صـوت شيء ينكـسر. انزلقـتُ إلى الأرض، وانسـحبت أنفـاسي مـن جسـدي.

صرخ (بوتكـن) قائـلًا: «زويـا! اسـتخدام القـوى ممنـوع في غـرف التدريـب! ممنـوع بتاتًـا!».

شعرتُ وكأنّ ثمّة غشاوة على عيني، ورغم ذلك فقد استطعتُ رؤية المُستحضرين وهم يتجمّعون حولي. وسمعتُ (بوتكن) يصيح طالبًا من أحدهم أن يُحضر مُعالجًا.

حاولتُ أن أخبرهم أنّني بخير، لكنّ أنفاسي الثقيلة كمّمت فمي. استلقيتُ على الأرض المُتسخة ألهث ككلبٍ لم يزُر حلقه الماء منذ أشهر. وكلّما أحاول أن أتنفّس، يطعن الألم جانبي الأيسر. أتت في النهاية مجموعة من الخدم، حملوني على نقّالة، ثم فقدتُ وعيي.

(ماري) و(ناديا) أخبرتاني بما حدث بعد ذلك عندما جاءتا لزيارتي في المشفى. لقد أبطأ أحد المُعالجين ضربات قلبي حتّى استسلمتُ إلى نومٍ عميق، ثم عالج ضلعي المكسور والكدمات التي تركتها (زويا) على أجزاء مُختلفة من جسدي.

قالت (ماري): «كان (بوتكن) غاضبًا للغاية. لم أره في مثل تلك الحالة من قبل. لقد طرد زويا خارج غرف التدريب، وشعرتُ أنّه كان على وشك أن يضربها بنفسه!».

«يقول (أيڤو) إنّه رأى (إيڤان) يصطحبها إلى قاعة مُستحضر الظلام، وعندما خرجت منها وجدها تبكي».

«جيّد». قلتُ في نفسي وقد امتلأ قلبي بالرضا.

ولكن عندما تذكّرتُ مظهري وأنا مُستلقية في أحضان الوسَخ، شعرتُ بخدّيّ يحترقان.

حاولتُ الاعتدال في جلستي وسألتهما: «لماذا فعلت هذا؟».

لقد تعاملتُ مع كثير من الناس، منهم من يتجاهلني، ومنهم من يحتقرني، ولكن (زويا) كانت بلا شك تكرهني.

حملقت كلتاهما في وجهي وكأنني قد أُصيب رأسي لا ضلعي.

قالت (ناديا): «لأنّ الغيرة تحرق قلبها!».

لم أُصدّق ما سمعته..

قلتُ: «تغيرُ مني أنا؟».

قالت (ماري): «إنّها لا تقدر على تحمُّل فكرة أن يكون ثمّة شخص مُفضّل لدى مُستحضر الظلام غيرها».

ضحكتُ حتّى كاد الألم يفتك بضلعي، ثم قلتُ: «ومن قال إني المُفضّلة عند مُستحضر الظلام؟».

«بالطبع أنتِ المُفضّلة عنده! فعلى الرغم من قوّة (زويا) المُذهلة، فإنّها ليست سوى مُستحضرة رياح ضمن جماعة كبيرة من المُستحضرين. لكن أنتِ... أنتِ مُستحضرة النور».

تدفّق الدم في وجنتي (ناديا) حتّى شعرتُ وكأنّهما ستنزفان. التقطت أذناي نبرتها التي تملؤها الغيرة، وتساءلتُ: تُرى إلى أي حدٍ تشعر (ناديا) بالغيرة تجاهي؟ لقد تبيّنتُ من حديث (ماري) و(ناديا) عن (زويا) أنّهما تكرهانها أشد الكُره، ومع ذلك فقد تبسّمتا في وجهها عندما قابلتاها.

تُرى ماذا تقولان عنّي عندما لا أكون معهما؟

صاحت (ماري) فجأة قائلةً: «ربما سيسلبها منزلتها العالية!».

أضافت (ناديا): «أو ربما سيُرسلها إلى تسيبيا!».

ظهر أحد المُعالجين من بين الظلال، أسكتهما وأمرهما بالانصراف. وعدتني كلتا الفتاتين أن تزوراني في اليوم التالي. أظن أنّني نمتُ بعُمقٍ بعدها، لأنّني حينما استيقظت بعد

بضع ساعات وجدتُ الظلام قد خيّم على المشفى. كانت الأسرّة فارغة، وساد صمتٌ مُميت في أرجاء الغرفة لم تقطعه سوى دقّات السّاعة الخافتة بين الحين والآخر. اعتدلتُ في جلستي بصعوبة.. لم يزل الألم رابضًا على ضلعي الذي لم أُصدّق أنّه انكسر منذ ساعات.

كان حلقي جافًّا وبدأ الصداعٍ يُسيطر على رأسي. جاهدتُ الألم ونهضتُ من سريري لأصُبّ كوب ماءٍ من الإبريق المُستقر على منضدة بجانبه، ثم فتحتُ الشباك وسمحتُ لهواء الليل أن يغمُر صدري.

«ألينا ستاركوف». انبعث صوت لا أعلم مصدره.

انتفضتُ مذعورةً.

تمالكتُ نفسي قليلًا ثم سألتُ فراغ الغرفة: «من هناك؟».

انبثق المُستشار الروحاني من بين الظلال التي تحف الباب وكأنّه قد وُلِد للتو منها.

«هل أخفتكِ؟».

أجبتُه مُعترفة: «أجل، قليلًا».

تُرى منذ متى كان يختبئ هناك؟ وهل كان يراقبني أثناء نومي؟

مشى ببطءٍ شديد نحوي، ورداؤه المُهترئ يزحف خلفه كثعبانٍ خبيث. وجدتني حينها أتراجع خطوةً للخلف دون أن أشعر.

«انزعجتُ للغاية عندما علمتُ بأمر إصابتكِ. يجب على مُستحضر الظلام أن ينتبه من الآن فصاعدًا».

«أنا بخير».

رمقني بنظرةٍ تنم عن شكّه وقال: «حقًا؟ لكنّكِ لا تبدين بحالة جيّدة.. يجب أن تكوني دائمًا بأفضل حال».

«إنّني فقط مُتعبة قليلًا».

اقترب منّي أكثر ففاحت منه تلك الرائحة الغريبة، التي لا يسعني وصفها إلّا بأنّها مزيج من البخور والعفن ورائحة التراب النديّ. ذكّرتني رائحته بمقبرةٍ في (كيرامزين)، حيث شواهد القبور مُهشّمة، والنساء يبكين فوق قبور من فقدوهنّ حديثًا.

أدركتُ أن المشفى خالٍ تمامًا من الناس. قلتُ في نفسي: «تُرى هل ما زال المُعالج في المبنى، أم ذهب ليبحث عن زجاجةٍ من الكفّاس وسريرٍ دافئ؟».

همس لي المُستشار الروحاني قائلًا: «هل تعلمين أن ثمّة أناسًا في بعض القرى يصنعون لكِ مذابح في الأديرة؟».

«ماذا؟».

«إنهم مُتعطّشون للأمل.. كما أن النحّاتين يتربّحون جيدًا بفضلكِ هذه الأيّام».

«ولكنّني لستُ قدّيسة!».

«إنّه شرف عليكِ أن تفخري به يا ألينا». قالها ثم اقترب منّي أكثر. لحيته الشعثاء الداكنة بعثت في نفسي الاشمئزاز، ومظهر أسنانه الصفراء المُبعثرة بعشوائيّة أصابني بالذعر.

مرّت لحظات ساد خلالها الصمتُ، ثم ما لبث أن قال: «لقد أصبحتِ خطِرة، وستزداد خطورتكِ يومًا بعد يوم».

همستُ مُتعجّبةً: «أنا؟ خطِرة على من؟».

«ثمّة شيء ما أعتى من الجيوش.. شيء قويّ بما فيه الكفاية ليطيح بالملوك وحتّى مُستحضري الظلام. أتدرين ما هو؟».

هززتُ رأسي..

برقت عيناه السوداوان وتنهّد قائلًا: «إنّه الإيمان.. ولا شيء آخر».

مدّ يديه ليُمسك بي فتراجعتُ على الفور للوراء، تحسّستُ -دون أن أستدير- سطح المنضدة المجاورة لسريري، باحثة عن شيء أمسكه كي أدافع عن نفسي، وإذ بيدي تصطدم بكوب الماء فهوى وارتطم بالأرض وعلا دوي انكساره في الأرجاء، وسرعان ما سمعتُ صوت أقدامٍ آتيًا من ناحية الردهة. تراجع المستشار الروحاني ثم اختفى بين الظلال وكأنّها ابتلعته.

انفتح الباب ودلف مُعالج إلى الداخل وزيّه الأحمر يرفرف خلفه. سألني إذا ما كنتُ بخير، ففتحتُ فمي لأجيبه، ولكنّني ترددتُ؛ فالمُستشار الروحاني قد تسلّل إلى الخارج دون أن يُحدث أي صوت.

قلتُ في النهاية: «مُتأسّفة.. لقد كسرتُ كوبًا».

نادى المُعالج على خادمٍ كي يُنظّف الأرض من شذرات الزجاج، ثم أعادني إلى السرير ونصحني بأخذ قسط من الراحة. ولكنّه عندما عاد من حيث أتى، قمتُ لأضيء القنديل المُجاور للسرير.

يداي كانتا ترتعشان. أردتُ لو أتجاهل ما قاله المُستشار الروحاني ولكنّني لم أستطع. وكيف لكلامه ألّا يعلق في ذهني وقد أخبرني بأن الناس يُصلّون الآن لمُستحضرة النور؟ وهذا يعني أنّهم قد أودعوا فيّ ثقتهم، ويرون فيّ خلاصهم. جالت

في ذهنـي كلـمات مُسـتحضر الظـلام التـي قالهـا لي في الحظـيرة المهجـورة.

«إن عصر الغريشا شارف على الانتهاء».

تذكّـرتُ الڤولكـرا.. وتذكّـرتُ الحيـوات التـي تُسـلَب في طيّـة الظـل.

«إذا ظلّـت راڤـكا مُنقسـمة فلـن تنجـو مـن تقلّبـات هـذا العـصر الجديد».

إنّنـي الآن لا أخـذل مُسـتحضر الظـلام أو (باغـرا) أو حتّـى نفـسي فقـط.. بـل إنّنـي أخـذل (راڤـكا) بأكملهـا.

***

عندمـا جـاءت (جينيـا) لتـزورني في الصبـاح التـالي، أخبرتهـا عـن زيـارة المُستشـار الروحـاني لي، ولكنّهـا لم تُبـدِ اهتمامًـا لمـا قالـه، ولم تُعقّـب عـلى تصرُّفاتـه الغريبـة.

قالت لي: «إنّه شخص مُخيف، لكنّه ليس مُؤذيًا».

«لـو رأيـتِ كيـف بـدا ليلـة البارحـة، لتيقّنـتِ مـن كونـه مُؤذيًـا، بـل إنّـه مجنـون كُليًّـا!».

«إنّه مُجرّد كاهن».

«إذًا لماذا أتى إليّ؟».

هـزّت (جينيـا) كتفيهـا وقالـت: «ربمـا طلـب منـه الملـك أن يدعـو لكِ».

«لـن أبقـى هنـا أكـثر مـن ذلـك. أريـد أن أنـام في غرفتـي، وأغلـق البـاب بالقفـل».

جالـت (جينيـا) بنظرهـا حـول الغرفـة ثـم قالـت: «في الواقـع.. أنـتِ مُحقّـة؛ لـو كنـتُ مكانـكِ لما بقيـتُ هنـا يومـين».

سـكتت بُرهـة حملقـت خلالهـا في وجهـي ثـم أردفـت: «تبديـن بشـعة للغايـة.. مـا رأيـكِ أن أُحسّـن مـن مظهـركِ قليـلًا؟».

«لا».

«دعينـي أخلّصـكِ فقـط مـن تلـك الدوائـر السـوداء التـي ارتسـمت أسـفل عينيـكِ».

قلتُ بعنادٍ: «لا أريد ذلك.. لكنّني أحتاج منكِ خدمةً».

قالت وقد بدا عليها الحماس: «هل عليّ أن أجلب أدواتي؟».

«كلّا، أريـد خدمـة أخـرى.. لي صديـق أُصيـب في الطيّـة، وقـد... كتبـتُ لـه رسـائل ولكنّنـي لا أدري مـا إذا كانـت تصـل إليـه أم لا».

شـعرتُ بالـدم يتدفّـق في وجنتـيّ. صمـتُّ لبعـض الوقـت ثـم أضفـتُ: «هـل يمكنـكِ معرفـة أخبـاره؟ وأيـن يمكـث الآن؟ إنّنـي لا أعـرف مَـن عـليّ أن أسـأل.. وبمـا أنّـكِ تقضـين مُعظـم وقتـكِ في القـصر الكبـير، فأظـن أنـكِ قـد تسـتطيعين مُسـاعدتي».

«بالطبع، ولكـن.. هـل تحقّقـت مـن عـدم وجـود اسـمه في سـجل الضحايا؟».

أومـأتُ بـرأسي.. شـعرتُ وكأن روحـي سـتُغادر جسـمي عـبر حلقـي. ذهبـت (جينيا) لتُحـضر قلـمًا وورقـة كي أكتـب لهـا اسـم (مـال).

تنهّـدتُ وفركـتُ عينـيّ. لم أدرِ مـاذا عسـاني أن أفهـم مـن اختفـاء (مـال). كنـتُ أتفقّـد سـجل الضحايـا أسـبوعيًّا بقلـبٍ مقبـوض. خفـتُ أن أرى اسـمه يومًـا.. وفي كل أسـبوع كنـتُ أشـكر كل

القديسين لأن (مال) حيٌّ، حتّى وإن لم يكترث لمراسلتي.

هل هذه هي الحقيقة إذًا؟

تلوّى قلبي وكأن ثمّة مَن يعصره.

هل هو سعيد لأنّنا افترقنا، ولأنّه تخلّص أخيرًا من صداقتنا القديمة؟

وجدتني أقول في نفسي: «أو ربما هو نائم الآن فوق سرير مشفًى ما، بينما تدور كل تلك الترهات في عقلكِ الطفولي».

عادت (جينيا) فكتبتُ لها اسم (مال)، واسم كتيبته، ورقم الوِحدة. وعندما انتهيتُ، أعطيتها الورقة فطبّقتها ثم وضعتها في جيب زيّها.

قلتُ لها بصوتٍ مبحوح: «شكرًا لكِ».

ضغطت على يدي بلطفٍ وقالت: «أنا مُتأكّدة أنّه على ما يرام. والآن استلقي على ظهركِ كي أزيل تلك الدوائر السوداء».

«جينيا!».

«إذًا لن أُنفّذ لكِ طلبك!».

انفرج ثغري من فرط الدهشة وقلتُ: «يا لخُبثكِ!».

«تقصدين يا لروعتي!».

نظرتُ إليها ثم نفّذتُ طلبها.

***

بعدما غادرت (جينيا)، أخبرتُ المُعالج أنّني سأعود إلى غرفتي بالقصر. لم يُوافقني في البداية ولكنّني أصررت. كما أنّني صرتُ بالكاد أتألّم، ولذا فلم يكُن ثمّة داعٍ لبقائي في مشفى خالٍ من

الناس.

عندما عدتُ إلى غرفتي، أخذتُ حمّامًا وحاولتُ البدء في قراءة كتابٍ من كتب النظريّات ولكنّني فقدتُ تركيزي. كنتُ أخشى العودة إلى دروسي في اليوم التالي.. وأخشى الذهاب إلى (باغرا) التي لا أتعلّم منها شيئًا.

لاحظتُ خلال الأيّام الماضية أن الناس من حولي قد كفّوا عن التحديق بي أينما مررتُ، ولم أعُد أسمع ثرثرتهم التي كانت تشق أذنيّ. ولكن بعد معركتي مع (زويا)، فليس عندي أدنى شك أنّني سأصير محطّ أنظارهم، ومُحادثاتهم، من جديد.

نهضتُ من مكاني، فلمحتُ نفسي في المرآة الموضوعة على منضدة الزينة، فأسرعتُ لأتفحّص وجهي. وجدتُ أن الدوائر السوداء التي كانت أسفل عينيّ قد تلاشت، لكنّها لا شك ستعود بعد أيّام. لم يبدُ مظهري مُختلفًا كثيرًا.. كنتُ كما أنا مُتعبة كبهيمةٍ عجفاء، ولا يوحي شكلي نهائيًا بأنّني من الغريشا.

كانت قوّتي تقبع في مكانٍ ما بداخلي، ولكنّني لم أستطع الوصول إليها. دارت في ذهني أسئلة لم أجد لها إجابات.. أسئلة من قبيل: لماذا أنا مُختلفة عن الجميع إذًا؟ ولماذا استغرقت قوّتي وقتًا طويلًا لتكشف عن نفسها؟ ولماذا لا أستطيع التحكُّم فيها بمفردي؟

رأيتُ في المرآة الستائر الذهبيّة خلفي، والجدران التي يلمع طلاؤها، واللهيب المُتوهّج داخل الموقد. تذكّرتُ (زويا) التي

رغـم خبثهـا، كانـت عـلى حـق؛ فإنّنـي لا أنتمـي إلى هـذا العـالم الجميـل، وإذا لم أجـد طريقـة لاسـتخدام قـوّتي، فعـليّ نسـيان أمرهـا إلى الأبـد.

الفصل الثاني عشر

لم يكن صباح اليوم التالي سيئًا كما كنتُ أتوقّع..

عندما دخلتُ القاعة المُقبّبة وجدتُ (زويا) هناك. كانت تجلس عند نهاية طاولة المُستحضرين، تتناول فطورها في هدوء. رحّبت (ماري) و(ناديا) بي، ولم ترفع (زويا) عينيها في وجهي، ففعلتُ ما بوسعي لأتجاهلها.

كنتُ مُستمتعةً أثناء سيري إلى البحيرة؛ غمرني ضوء الشمس الدافئ، وهدهد النسيم خدّيّ، فلم أشعر برغبة في الذهاب إلى كوخ (باغرا) الذي بلا نوافذ، ولا فتحات تهوية، كما الزنزانة الخانقة.

عندما صعدتُ الدرج القصير إلى باب الكوخ، سمعتُ أصواتًا مُرتفعة يهتز لها الكوخ هزًّا.

وقفتُ مُتردّدة في البداية، ثم طرقتُ الباب بلطفٍ. تلاشت الأصوات فجأة ففتحتُ الباب ودلفتُ إلى الداخل لأجد مُستحضر الظلام واقفًا بجانب الموقد، وعلى وجهه ملامح الغضب.

نظرتُ لهما ثم قلتُ وأنا أتراجع إلى الباب: «مُتأسّفة».

قالت (باغرا) بنبرةٍ آمرة: «ابقي مكانكِ يا فتاة، وأغلقي الباب حتّى لا تتسرّب الحرارة إلى الخارج!».

انحنى لي مُستحضر الظلام برأسه بعدما أغلقتُ الباب، ثم قال: «كيف حالكِ يا (ألينا)؟».

«أنا بخير». أجبته.

صاحت (باغرا): «بخير! أجل هي بخير! لا تستطيع إضاءة ممر وتقول إنّها بخير!».

احمرّت وجنتاي وتمنّيت أن أختفي بين ثنايا الهواء.

تفاجأت بمُستحضر الظلام يقول: «دعيها وشأنها».

قالت (باغرا) بعينين نصف مُنغلقتين: «حقًّا؟ هل ستحب ذلك؟».

تنهّد مُستحضر الظلام ووضع يده على شعره الداكن وقد تملّك منه الغضب، ثم زار شفتيه طيف ابتسامة حزينة وقال: «إن لباغرا طرقها الخاصّة التي تصل من خلالها إلى مُبتغاها».

«كفاك خبثًا أيُّها الصبي!».

شق صوتها الهواء وكأنه سوط غاشم.. تفاجأتُ بمُستحضر الظلام يستقيم في وقفته وقد قطّب جبينه وكأنّ الكلام قد سدّ حلقه. مرّت لحظات ثم قال بصوتٍ خفيض يحمل بين طيّاته نبرة تهديد: «كفاكِ توبيخًا أيّتها العجوز».

أخذ طيف من الغضب يجول حول الغرفة. تُرى ماذا جاء بي إلى هنا؟ تمنّيتُ لو أستطيع الانسحاب إلى خارج الكوخ وأتركهما لكي ينهيا نقاشهما.

صاحت (باغرا) من جديد قائلةً: «ذاك الصبي يريد أن يأتي لكِ بمُضخّم قوى. ما رأيك في هذا يا فتاة؟».

صدمني نعتها إيّاه بالصبي.. لدرجة أنّني صمتُّ للحظة كي أحاول استيعاب مقصدها، وسرعان ما امتلأ قلبي بالأمل والارتياح. مُضخم قوى؟ أجل! لماذا لم يخطر ذلك ببالي من قبل؟ ولماذا لم يخبرني أحد بذلك الحل المُذهل من قبل؟

دائمًا ما ينجح مُستحضر الظلام و(باغرا) في مُساعدتي على استدعاء قوّتي، لأنّهما مُضخّما قوى، فلماذا إذًا لا يصير لديّ مُضخّم قوى مثل مخالب الدب التي يملكها (إيفان) أو أسنان الفقمة التي تتدلّى من عنق (ماري)؟

صِحتُ بحماسٍ مُفرط: «يا لها من فكرة رائعة!».

نخرت (باغرا) مُمتعضةً.

رمقها مُستحضر الظلام بنظرةٍ حادّة ثم التفت إليّ وقال: «ألينا، هل سمعتِ عن قطيع موروزوفا من قبل؟».

قالت (باغرا) ساخرةً: «بالتأكيد! بل تعرف أيضًا أحادي القرن وتنانين شو هان».

تجلّت ملامح الغضب على وجه مُستحضر الظلام، لكنّه تمالك نفسه وقال مُخاطبًا إيّاي بلطفٍ: «هل لي أن أتحدّث معكِ على انفرادٍ يا (ألينا)؟».

«بالـ.. طبع». قلتُ وكأن لساني قد انعقد.

نخرت (باغرا) مرّة أخرى، ولكن مُستحضر الظلام تجاهلها وجذبني من ذراعي ليقودني إلى خارج الكوخ. أغلق الباب جيّدًا خلفنا، ثم مضينا في طريقنا بعيدًا عن الكوخ بمسافة قصيرة، توقّف بعد ذلك وقال بعدما تنفّس الصعداء: «عجوز عنيدة».

لم أستطع كبح ضحكتي.

قال بجِدّة: «ماذا بكِ؟».

«لا شيء.. إنّني فقط لم أرك مُنزعجًا لهذه الدرجة من قبل».

«هذا تأثير باغرا».

«هل كانت مُعلّمتك أيضًا؟».

بدت على وجهه ملامح الضيق.

قال: «أجل.. والآن أخبريني، ماذا تعلمين عن قطيع موروزوفا؟».



«في الواقع... لا شيء سوى...».

تنهّد وقال: «قصص الأطفال؟».

أومأتُ برأسي.

«لا بأس.. وماذا تتذكّرين من تلك القصص؟».

تذكّرت صوت (آنا كونيا) الذي كان يجول في المهجع ليلًا.

«أعلم أنّها غزلان بيضاء خارقة لا تظهر إلّا وقت الشفق».

«إنّها ليست خارقة مثلنا، بل هي كائنات قديمة وقويّة جدًّا».

قلتُ وقد اعتراني الشك: «أتُرجّح أنّها كائنات حقيقيّة؟».

نسيتُ أن أخبره أنّني لا أظنّني خارقة، ولا حتّى قويّة، على الإطلاق.

قال مُستحضر الظلام: «أجل، أعتقد أنّها حقيقيّة».

«لكن (باغرا) تنفي ذلك».

«نعم، فعادةً ما تجد (باغرا) أفكاري سخيفة. ماذا تتذكّرين من القصص أيضًا؟».

ضحكتُ وقلتُ: «حسنًا.. في قصص (آنا كونيا)، كانت تلك الغزلان تتكلّم، وإذا أمسك بها أحد الصيادين ثم عتقها، ستُنفّذ له أمنياته».

ضحك مُستحضر الظلام. كانت هذه المرّة الأولى التي أسمع فيها ضحكته الرائعة التي أخذت تموج في الهواء.

قال: «هذا -بالطبع- ليس حقيقيًّا».

«وماذا عن باقي ما أخبرتك به؟».

«بحث العديد من الملوك ومُستحضري الظلام عن قطيع موروزوفا لقرون، ولم يتوصّلوا له. ويزعم بعض الصيّادين، الذين يعملون لديّ، أنّهم رأوا آثار أقدام القطيع، ولكنّهم لم يروا أيلًا واحدًا بأعينهم».

«وهل تُصدّقهم؟».

نظر إليّ بعينيه الأردوازيتين نظرة باردة وقال: «إن رجالي لا يكذبون عليّ».

شعرتُ بلسعة بردٍ قويّة كادت تُجمّد أوصالي. كنتُ أعلم ما يستطيع فعله مُستحضر الظلام بمن يكذب عليه. وجدتني أقول له بنبرةٍ تنم عن عدم ارتياحي: «حسنًا».

«إذا اصطاد أحدهم أيلًا من آيائل موروزوفا، فيُمكن أن نصنع من قرونه مُضخم قوى». قالها ثم نقر على عنقي، ورغم أنّها كانت مُجرّد لمسة، لكن قوّتي تحفّزت على الفور.

سألته مُحاولة تخيُّل ما يقصده: «هل ستصنعون منها قلادة؟».

كنت لا أزال أشعر بأثر لمسته على عنقي..

أومأ برأسه وقال: «أجل، إنّه أقوى مُضخّم يُمكننا صنعه على الإطلاق».

انفتح ثغري -كالعادة- من فرط الدهشة، وقلتُ: «وهل

تريـد أن تُعطينـي إيّـاه؟».

أومأ برأسه مُجدّدًا.

«أليـس مـن الأسـهل أن أحصـل عـلى مخلـبٍ أو نـابٍ، أو أي شيء آخـر؟».

هـزّ رأسـه وقـال: «إذا كنّـا نأمـل أن نُبـدّد الطيّـة، فسـنحتاج إلى قـرون الأيـل».

«ولكـن ربمـا إذا حصلـت عـلى شيء آخـر، وتدرّبـت بـه، فيُمكـن أن...».

«أنتِ تعلمين أن هذا ليس مُمكنًا».

«وكيف لي أن أعلم؟».

قطب جبينه وقال: «ألا تدرسين نظريّات الغريشا؟».

نظـرتُ لـه باسـتغرابٍ وقلـتُ: «ثمّـة العديـد مـن النظريـات التـي لم أدرسـها بعـد».

تفاجـأتُ بـه يبتسـم ويقـول: «أجـل، أجـل، لقـد نسـيتُ أنّـكِ مـا زلـتِ في البدايـة».

«في الواقع.. أنا لا أفهم شيئًا مما أقرأ».

«هل الأمر صعب لهذه الدرجة؟».

أودع الإحـراج غُصّـة في حلقـي فعجـزتُ عـن الـكلام للحظـات، لكنّنـي قاومتهـا وقلـتُ: «لا شـك أن (باغـرا) أخبرتـكَ أنّنـي لا أسـتطيع اسـتحضار خيـط مـن الضـوء بمفـردي».

«سـيحدث ذلـك عاجـلًا أم آجـلًا. أنـا لسـتُ قلقًـا بشـأن هـذا الأمـر».

«حقًّا؟».

«أجل. وإذا افترضنا أنّني قلق، ففور حصولنا على قرون الأيل، لن يهمّنا شيء آخر».

شعرتُ بإحباطٍ شديد. إذا كانت قرون الأيل ستجعلني غريشا حقيقيّة بالفعل، فإنّني أريدها الآن، وعلى الفور!

«لقد قلتَ أن قطيع موروزوفا لم يُعثر عليه إطلاقًا، فما الذي يجعلك مُتأكّدًا أنك ستجده الآن؟».

«لأن هذه فرصتنا الأنسب؛ لن يعثر أحد على القطيع غيرك يا (ألينا). هذا ما يؤكّده لي إحساسي».

كان يُحدّق في وجهي. ورغم أن شعره شعِث فإنه بدا وسيمًا في ضياء الصباح، والأهم أنّه بات إنسانًا طبيعيًّا كما لم أره من قبل.

أردف: «عليكِ أن تثقي بي».

تُرى ماذا عساني أن أقول؟ لم يكُن ثمّة خيار آخر؛ فإذا أراد مُستحضر الظلام أن أتحلّى بالصبر، فعليّ أن أطيعه.

قلتُ له في النهاية: «حسنًا. ولكن علينا ألّا نتباطأ».

ضحك مُجدّدًا، فشعرتُ بالدم يتدفّق في خدّيّ. ثم ما لبثت ملامحه أن تبدّلت وقال: «لقد انتظرتكِ لوقتٍ طويلٍ يا (ألينا). وبما أنّنا معًا، فسنُغيّر العالم».

ضحكتُ وقلتُ بنبرةٍ تشي بتوتُّري: «ولكنّني لستُ ممن يستطيعون تغيير العالم».

قال بلطفٍ: «فقط تحلّي بالصبر».

ثـم نظـر إليّ بعينيـه المرمريّتـين الرماديتـين فـكاد قلبـي ينشـطر. ظننتـه سـيُضيف شـيئًا، ولكنّـه تراجـع للخلـف، وقـال وقـد بـدا عليـه الاضطـراب: «حظًّـا مُوفّقًـا في دروسـك». ثـم انحنـى لي برأسـه ومـضى في طريقـه نحـو ضفّـة البحـيرة، ولكنّـه التفـت بعدمـا مـشي بضـع خطـوات وقـال: «ألينـا، بالنسـبة لأمـر الأيـل...».

«ماذا؟».

«لا تخـبري أحـدًا بـه؛ فمُعظـم النـاس يظنّـون أنّـه محـض حكايـة للأطفـال، وأنـا أكـره أن أبـدو أحمـق أمـام أي شـخص مهـما كان».

«أعدك ألّا أخبر أحدًا».

أومـأ برأسـه، ودون أن ينبـس بكلمـة، اسـتأنف السـير في طريقـه. ظـلّ نظـري مُصوّبًـا نحـوه بينـما كان يبتعـد، شـعرتُ بـدوارٍ لا أعلـم مـن أيـن أتـاني. التفـتُّ لأري (باغـرا) واقفـةً أمـام مدخـل الكـوخ، وعيناهـا لا تنفـكّان عنّـي. وجـدتُ خـدّيّ -بـلا سـبب- يصطبغـان بحُمـرة الخجـل.

نخرَتْ مرّة أخرى، ثم أولت لي ظهرها.

***

بعـد مُحادثتـي مـع مُسـتحضر الظـلام، انتهـزتُ أوّل فرصـة لأزور المكتبـة.

لم يُذكـر الأيـل في أيٍ مـن كتـب النظريـات التـي أدرسـها، لكنّنـي وجـدتُ إحالـة إلى (إليـا موروزوفـا)، الـذي يُعتـبر مـن أوائـل الغريشـا وأقواهـم.

وجـدتُ أيضًـا معلومـات كثـيرة عـن مُضخّـمات القـوى، مـن بينهـا أن كل فـردٍ مـن أفـراد الغريشـا مـن حقّـه أن يحظـى بمُضّخـم قـوى

لا غير طوال حياته، وليس مسموحًا لأحد الغريشا أن يستخدم مُضخِّم قوى يمتلكه شخص آخر.

لفتت نظري تلك السطور التي قرأتها في أحد الكتب:

«قد يمتلك الغريشا مُضخِّم قوى، وكذلك يمتلك مُضخِّم القوى الغريشا. وبمُجرّد أن يتم ذلك، فلن يستطيع أي شخص آخر استخدامه. إن الشيء يستدعي ما يشابهه، وبهذا يُبرَم الميثاق».

لم يكن السبب واضحًا بالنسبة لي، لكن الأمر بدا كأنّه اختبار ما لقوى الغريشا.

«يمتاز الجواد بسرعته، والدب بقوّته، والطائر بجناحيه. ليس ثمّة مخلوق وُهِب جميع تلك المزايا مُجتمعةً، وبهذا يتحقّق التوازن في عالمنا. ولذا، فإن مُضخِّمات القوى يجب ألّا تُخِلُّ بذلك التوازن، ومن الأفضل أن يعلم ذلك كل الغريشا، وإلّا سيُواجهون عواقب وخيمة».

كتب فيلسوف آخر: «لماذا لا يستطيع فرد من الغريشا امتلاك أكثر من مُضخِّم قوى؟ وما هو الشيء الذي ليست له نهاية؟ سأجيب عن السؤال الأخير لأنّه الأهم: في الواقع ثمّة شيئان ليس لهما حدود؛ الكون وطمع الرجال».

نظرتُ إلى القبّة الزجاجيّة من فوقي، وتذكّرتُ المُهرطق الأسود. لقد قال مُستحضر الظلام أن طيّة الظل كانت نتيجة طمع جدّه الأعظم. تُرى هل الطيّة عاقبة من العواقب الوخيمة التي تحدّث عنها الفيلسوف؟

وجدتني أُفكّر -لأوّل مرّة في حياتي- في حقيقة أن الطيّة هي المكان الوحيد الذي يُظهر عجز مُستحضر الظلام، ويُثبت أن

قـواه ليـس لهـا أي معنًـى.

لقـد عـانى أحفـاد المُهرطـق الأسـود بسـبب طموحـه. ومـع ذلـك، فـإنّ (راڤـكا) هـي التـي ظلّـت -وتظـلّ- تدفـع الثمـن دمًـا.

***

اسـتحال الخريـف إلى شـتاءٍ قـارس، وجـرّدت الريـاح العتيّـة شـجر القـصر مـن غصونـه وأوراقـه. لم تـزل مائدتنـا مليئـة بالفواكـه الطازجـة، وسـطحها مُغطًـى بزهـورٍ زُرِعَـت في دفيئـات الغريشـا التـي يتحكّمـون في حرارتهـا كيفـما شـاؤوا. ورغـم لـذّة الخـوخ والعنـب الأرجـواني، فإنّنـي لم أسـترجع شـهيّتي.

ظننـتُ أن حديثـي مـع مُسـتحضر الظـلام سـيُغيّر شيئًا في نفسي، وددتُ لـو أصـدّق مـا قالـه.. وعندمـا كنّـا نقـف عـلى مقربـة مـن ضفّـة البحـيرة، كنـتُ عـلى وشـك أن أُصدّقـه. ولكـن لم يتغـيّر أي شيء؛ مـا زلـتُ أعتمـد عـلى (باغـرا) في تحفيـز قـواي، مـا زلـتُ لا أشـعر بانتـمائي الحقيقـيّ إلى الغريشـا.. ربمـا الأمـر الوحيـد الـذي تغـيّر هـو أنّنـي صرتُ أتقبّـل فشـلي بصـدرٍ رحـب. ألَـم يطلـب منّـي مُسـتحضر الظـلام أن أثـق بـه؟ إذًا فليـس لـديّ خيـار آخـر سـوى أن آمـل أن يكـون عـلى حـقٍ فيـما قالـه بشـأن الأيـل.

مـا زلـتُ أتجنّـب التـدرُّب مـع المسـتحضرين، ولكنّنـي سـمحتُ لـ(مـاري) و(ناديـا) أن تصطحبـاني إلى الحمّامـات العامّـة عـدّة مرّات، كـما أنّنـي ذهبـتُ معهـما إلى إحـدى حفـلات الباليـه في القـصر الصغـير، وسـمحتُ يومهـا لـ(جينيـا) أن تُضفـي عـلى وجنتـيّ لونًـا ورديًّـا زاهيًـا.

صارت (باغرا) أكثر غضبًا من ذي قبل.

صرخـتْ يومًـا قائلـةً: «لقـد توقّفـتِ عـن المُحاولـة وصرتِ تنتظريـن أيـلًا سـحريًا تخالـين أنّـه سـيأتي لإنقـاذك! هـل تتمنّـين ارتـداء قـلادة أنيقـة فحسـب؟ لعلّـك سـتنتظرين أيضًـا أحـادي قـرن ليـأتي يومًـا مـا ويضـع رأسـه عـلى فخـذك أيّتهـا الحمقـاء!».

ازداد صياحهـا في وجهـي فاكتفيـتُ بهـزّ كتفـي.. كانـت (باغـرا) عـلى حـق؛ لقـد تجرّعـتُ كأس الفشـل حتّـى فـاض بطنـي. لكنّنـي صرتُ أتقبّـل تلـك الحقيقـة.. حقيقـة أنّنـي لسـتُ كبقيّـة الغريشـا. والحق أن ثمّة جزءًا ثائرًا بداخلي كان مُستمتعًا بإثارة غضبها.

***

ظلّت (زويا) تتجاهلني.

لا أعلـم تحديـدًا بمـاذا عوقبـت، لكنّهـا مُنعـت مـن دخـول غـرف التدريـب، كـما سـمعتُ أنّهـا سـتعود إلى (كريبيرسـك) فـور انتهـاء عيـد الشـتاء. لمحتهـا غـير مـرّة تُحـدّق في وجهـي، وسـمعتُ قهقهتها عندمـا كانـت تجلـس مـع أصدقائهـا القلائـل مـن المُسـتحضرين، ولكنّنـي حاولـتُ قـدر استطاعتي ألّا ألقـي لها بـالًا.

استمرّ شعوري بالفشل في مطاردتي أينما ذهبتُ.

عندمـا تسـاقطت رقاقـات الثلـج لأوّل مـرّة في ذلـك العـام، اسـتيقظتُ لأجـد زي كفتـا جديـدًا موضوعًـا أمـام بـاب غرفتـي. كان مصنوعًـا مـن الصـوف الثقيـل، لونـه أزرق داكـن، ولـه قلنسـوة مُبطّنـة بفـراء ذهبـيّ سـميك. ارتديتـه عـلى الفـور، وسرعـان مـا تملّـك منّـي شـعور بأنّنـي محـض مُحتالـة، ترتـدي زيًّـا لا تسـتحقّه.

تناولـتُ فطـوري ثـم مضيـتُ في طريقـي إلى كـوخ (باغـرا). لاحظـتُ أن مُسـتحضري النـار قـد أزالـوا الثلـج الـذي كان يُغطّـي

الطـرق، فتـلألأت تحـت أشـعّة شـمس الشـتاء الخافتـة. وقبـل أن أصـل إلى ضفَـة البحـيرة، اسـتوقفتني إحـدى الخادمـات، وأعطتنـي ورقـة مطويّـة ثـم انحنـت برأسـها وعـادت مـن حيـث أتـت.

علمتُ على الفور أنّه خط يد (جينيا)..

تمركـزت كتيبـة (ماليـان أوريتسـف) في معسـكر (تشيرناسـت) شـمال (تسـيبيا)، وسـتبقى هنـاك لمـدّة سـتة أسـابيع. إنّـه بصحّـة جيّـدة. وبإمكانـك الآن أن ترسـلي لـه جوابًـا.

إن سـفراء كيرتـش يغمـرون الملكـة بالهدايا: بعـض المحـار وعـدد مـن طيـور الطيطـوي التـي حُفِظـت في الثلـج الجـاف، وكثـير مـن حلـوى اللـوز! سـأجلب لـكِ بعضًـا منهـا الليلـة.

جـ

مـا زال (مـال) حيًـا وبأمـان، وكتيبتـه لا تخـوض أي معـارك الآن! لا بـد أنّـه مُنشـغل بالصيـد حاليًـا!

يا لسعادتي! لقد زار الفرح قلبي أخيرًا!

بإمكانكِ الآن أن ترسلي له جوابًا.

لقـد كتبـتُ لـه كثـيرًا مـن الجوابـات خـلال الأشـهر الماضيـة.. تذكّـرت الجـواب الأخـير الـذي أرسـلته:

عزيزي مال،

لم يصلنـي منـك أي رد. ولذلـك فإنّنـي افترضـتُ أنّـك قابلـتَ إحـدى حسـناوات الڤولكـرا وتزوّجـت منهـا، ولا شـك أنّـك تحيـا

حياةً مُستقرّة معها في طيّة الظل، حيث لا يوجد ضوء ولا ورق لتكتب لي جوابًا. أو قد تكون عروسك التهمت كلتا يديك.

قصصتُ عليه الكثير في ذلك الجواب. أخبرته عن (بوتكن)، وكلب الملكة كثير النخر كالخنازير، وافتتان الغريشا بملابس الفلاحين. كما حكيتُ له عن جمال (جُينيا)، وغموض (باغرا)، والخيم المُشيّدة بجانب البحيرة، وقبّة المكتبة الزجاجيّة السّاحرة، ودفيئات الغريشا الزراعيّة المُمتلئة بالفاكهة، والطيور التي تُحلّق فوق سريري. لكنّني لم أخبره عن قطيع موروزوفا، ولا عن فشلي كإحدى أفراد الغريشا، ولا أنّ اشتياقي له يزداد يومًا بعد يوم.

أردتُ إضافة بعض الجُمَل، لكنّني ترددتُ، فقاومني قلمي وخطّ من تلقاء ذاته:

لا أعلم إذا ما كانت رسائلي تصلك..

جمال هذا المكان لا يسعني وصفه، لكنّني مُستعدّة للتضحية به في سبيل أن أقضي المساء معك على شاطئ بركة تريڤكا، نقذف الحجارة لتتأرجح على سطح مائها ثم تغرق بلا رجعة.

أرجوك راسلني.

لا شك أنّ رسائلي كانت تصله. تُرى ماذا كان يفعل بها؟ هل اهتمّ أن يقرأ ما بداخلها؟ هل تنهّد عندما جاءته رسالتي الخامسة، والسادسة، والسابعة، بينما لم يرد على رسالتي الأولى؟

أرجوك راسلني يا (مال).. أرجوك لا تنسني يا (مال).

شعرتُ أنّني مُذلّة مُهانة. أشفقتُ على نفسي فانهمرت الدموع من عيني.

بقيتُ أحدّق في البحيرة التي بدأت تتجمّد. تذكّرتُ ذلك الجدول الضيّق الذي يلتفُّ حول عزبة الدوق (كيرامزوف). كنّا ننتظر أن يتجمّد ذلك الجدول حتّى نتزلّق عليه.

أطبقتُ قبضتي على رسالة (جينيا) حتّى كادت تصرخ من فرط الألم. لم أعُد أرغب في التفكير في (مال) لأكثر من ذلك. تمنّيتُ أن أمحو (كيرامزين) تمامًا من ذاكرتي. تمنّيت أن أركض إلى غرفتي لأبكي حتّى أنام. لكنّني لم أستطع؛ فعليّ أن أقضي صباحًا يائسًا آخر في كوخ (باغرا).

مشيتُ في طريق البحيرة ببطءٍ، وعندما وصلتُ إلى الكوخ صعدتُ السُلّم، ثم فتحتُ الباب ودلفتُ إلى الداخل.

وجدتُها كالعادة تجلس بجانب الموقد، تُدفئ جسدها الواهن. جلستُ على الكرسي المُقابل لها. وفجأة قهقهت ضاحكةً وقالت: «تبدين غاضبةً يا فتاة.. تُرى ما الذي أثار غضبكِ؟ هل انزعجتِ من انتظاركِ للأيل الأبيض السحري؟».

لم أنبس بكلمة.

«تكلّمي يا فتاة!».

كان من الممكن أن أكذب عليها، وأخبرها أنّني بخير. لكنّني فاض بي الكيل، فقلتُ بغضب: «لقد سئمتُ من هذه الحياة التي أعيشها.. سئمتُ من أكْل خبز الجاودار وسمك الرنجة، سئمتُ من ارتداء زي الكفتا القبيح هذا، سئمتُ من إهانة (بوتكن) لي، وسئمتُ منكِ!».

توقَّعتُ أنّها ستغضب منّي، لكنّها اكتفت بالتحديق في وجهي. كان شعرها مُنسدلًا على كتفها الأيمن، وعيناها السوداوان تلمعان في ضوء النار، فبدت كطائر جارحٍ على وشك الهجوم.

قالت بهدوء: «كلّا.. كلّا.. ليس هذا ما يُغضبكِ؛ ثمّة شيء آخر.. هل تملّك الشوق من قلبكِ أيّتها المسكينة؟».

نخرتُ وقلتُ: «شوق إلى ماذا؟».

«جاوبيني أنتِ عن هذا السؤال. وأخبريني كيف تكرهين حياتكِ الجديدة بينما تمتلكين كل شيء! ترتدين ملابس ثمينة، وتنامين على سرير مُريح، وتأكلين طعامكِ ساخنًا. وعلاوةً على كل هذا، فقد صرتِ فتاته المُدلّلة».

«لستُ فتاته المُدلّلة!».

قالت بسُخرية: «لكنّك تودّين ذلك، ليس ثمّة داعٍ للكذب.. إنّكِ مثلهن جميعًا؛ لقد رأيتُ كيف نظرتِ له».

احترقت وجنتاي.. أردتُ أن أمسك بعصاها وأضربها على رأسها.

«ثمّة الآلاف من الفتيات اللائي يُردن أن يبِعن أمّهاتهن فقط ليصرن في مكانكِ، لكنّكِ لا تُدركين هذه الحقيقة. وها أنتِ ذا، بائسة وعلى وشك البكاء كما الأطفال. أخبريني إذًا يا فتاة، إلامَ يشتاق قلبكِ الحزين؟».

كانت بالطبع مُحقّة؛ فأنا أشتاق إلى صديقي المُقرّب في كل لحظةٍ تمُر عليّ، لكنّني لم أُرِد أن أصارحها بذلك.

قمتُ وأزحتُ الكرسي بقوّة وقلتُ: «هذه مضيعة للوقت».

«حقًّا؟ إذًا كيف تريدين أن تقضي أيّامكِ القادمة؟ سترسمين

الخرائـط؟ أم ستسـاعدين رسّـام خرائـط عجـوزًا؟».

«إنّها ليست مهنة مُشينة».

«بالطبـع ليسـت مُشـينة. ولـو افترضنـا أنّـكِ حربـاء، ولسـت إنسـانة، فهـذا لا يعيبـكِ، إلّا إذا كنـتِ قـد خُلقـتِ بـازًا».

«لقـد طفـح الكيـل!». صِحـتُ ثـم أوليتها ظهـري، ومضيـتُ نحـو البـاب. كادت الدمـوع تنهمـر مـن عينـي، لكنّنـي قاومتُهـا؛ فلـن أسـمح لنفـسي أن أبـكي أمـام تلـك العجـوز الشـمطاء.

قالـت (باغـرا) بصوتهـا المُزعـج: «إلى أيـن أنـتِ ذاهبـة؟ مـن ينتظـركِ في الخـارج؟».

صرختُ قائلة: «لا أحد! لا أحد!».

شـعرتُ بغصّـة في قلبـي لأن مـا قلتـه حقيقـي.. لم يكـن ثمّـة أحـد في انتظـاري.

وحينـما أمسـكتُ بمقبـض البـاب، شـعرتُ بـدوارٍ شـديد. تذكّـرتُ وقتهـا ذلـك اليـوم الـذي أتانـا فيـه مُختبرو الغريشـا:

كنـتُ في غرفـة الجلـوس في (كيرامزيـن)، حيـث نـيران الموقـد تتراقـص، وكان الرجـل قـويّ البنيـة الـذي يرتـدي الـزي الأزرق مُمسـكًا بذراعـي، يجذبنـي بعيـدًا عـن (مـال). شـعرتُ بأصابـع يـد (مـال) تنفـك مـن بـين أصابعـي.

أمسـك الرجـل ذو الـزي الأرجـواني ذراع (مـال) وقـاده إلى المكتبـة، ثـم أغلـق البـاب بقـوّة. ظللـتُ أقاومهـم بـكُل مـا أوتيـت مـن قـوّة، ولكـن بـلا فائـدة. سـمعتُ (مـال) يـصرخ مُناديًـا اسـمي.

أمسـكني رجـل آخـر بقـوّة حتّـى شـلّ حركتـي، ثـم لفّـت المـرأة ذات الـزي الأحمـر أصابعهـا حـول معصمـي. شـعرتُ بسـيلٍ مـن

اليقين يتدفق داخلي. توقفتُ عن المقاومة، سمعتُ نداءً يعلو بداخلي، وثمّة جزء منّي يحثّني على تلبية النداء.

لم أستطع التنفُّس.. كنتُ كمَن نزلت إلى قاع بحيرةٍ ثم سبحت بكُل قوّتها إلى سطح الماء عندما صرخ صدرها من قلّة الهواء.

ظلّت المرأة تُحدّق بي عن قُرب..

لم ينقطع نداء (مال) الذي شقّ باب المكتبة: «ألينا! ألينا!».

علمتُ وقتها... أنّنا مُختلفان.. مُختلفان بشكلٍ مُؤسف.

«ألينا! ألينا!».

اتّخذتُ قراري.. أطبقتُ قبضتي على ذلك الشعور الملِح بداخلي، ودفعته إلى الأسفل وكأنّني أدفنه إلى الأبد.

قاومتُ مُجدّدًا وصرختُ: «مال! مال!».

حاولت المرأة أن تُبقيَ يدها مُمسكةً بمعصمي، لكنّني انتفضتُ وصرختُ إلى أن أطلقت سراحي في النهاية.

أسندتُ ظهري إلى باب الكوخ. تلك المرأة ذات الزي الأحمر كانت مُضخّمة قوى، ولهذا شعرتُ بأن تأثير مُستحضر الظلام عليّ كان مألوفًا. لكنّني استطعتُ أن أقاومها.

أخيرًا فهمتُ كل شيء..

قبل أن يأتي (مال) إلى (كيرامزين)، كان الميتم مكانًا مُرعبًا بالنسبة لي. كم من ليالٍ طويلة قضيتها بأعين دامعةٍ وقلبٍ مفطور؛ كنتُ منبوذةً ممّن يكبرونني سنًّا، وكلما ذهبتُ إلى غرفةٍ وجدتها خاوية، ورفع عليها الصقيع لواءه.

ثم جاء (مال) ليُغيّر كل شيء..

باتت الأروقة المُظلمة تحتضننا، وصرنا نلعب فيها الغُمّيضة. وأصبحنا نزور البساتين المهجورة التي لم تطأها قدم منذ سنوات. تحوّلت (كيرامزين) إلى قصر لا يمتلكه غيرنا، أضحت مملكتنا نحن. والأهم أنّني لم أعُد أهاب شيئًا.

لكن مُختبري الغريشا كادوا يُفرّقون بيني وبين (مال) ويُجبرونني على مُغادرة مملكتنا. وكان (مال) كل شيءٍ في حياتي.. ولذلك قرّرتُ أن أقمع قوّتي. صرتُ أحاربها كل يوم واحتفظتُ بذلك السر لنفسي.

أتذكّر حينما وقفتُ مع (مال) عند النافذة لنراقب الغريشا وهم يُغادرون الميتم. شعرتُ وقتها بإعياءٍ شديد، وفي الصباح التالي وجدتُ دوائر سوداء قد تشكّلت أسفل عينيّ، ورافقتني منذ ذلك الحين.

ضربتُ باب الكوخ البارد برأسي، وجسدي يرتعش بلا هوادة.

سألتُ نفسي: «وماذا بعد؟».

فانبعث صوتٌ داخل عقلي يقول: «لقد تخلّى (مال) عنكِ».

إن أقرب شخص إلى قلبي في هذا العالم قد قرّر أن يتركني، وأبى قلمه أن يخُطّ لي حرفًا في رسالة. ومع ذلك فقد تمسّكتُ به.. تمسّكتُ به بعدما آثر الاختفاء من حياتي، بعدما مُنِحتُ رفاهية العيش في القصر الصغير، وبعدما اكتشفتُ أن لديّ قوًى خاصّة.

بيد أن (باغرا) كانت على حق؛ لقد ظننتُ أنّني أبذل مجهودًا كبيرًا كي أتحسّن، لكن قلبي كان يشتاق إلى (مال)، الذي هو داري وملاذي. ثمّة صوت بداخلي يُخبرني أن كل ما

أعيشـه محـض وهـمٍ سـيزول عندمـا يُـدرك مُسـتحضر الظـلام أنّـه مُخطـئ، وسيسـمح لي بالعـودة مـرّة أخـرى إلى كتيبتـي. وربمـا سيشـعر (مـال) بمـدى اشـتياقه لي، وحينهـا سـنقضي مـا تبقّـى مـن عمرنـا معًـا في بُسـتاننا، إلى أن تتسـاقط أسـناننا مـع أوراق شـجر الخريـف.

لكنّ (مال) قد تناساني..

وربمـا لم يتملّكـه الخـوف ذاتـه الـذي مـلأ قلبـي عندمـا فـرّق بينـي وبينـه أولئـك الأشـخاص الثلاثـة الغامضـون.

حان الوقت لكي أتخلّى عنه مثلما تخلّى عنّي..

لقـد أنقـذ (مـال) حيـاتي عندمـا كنّـا في طيّـة الظـل، وكذلـك أنـا أنقـذتُ حياتـه. ربمـا فراقنـا وقتهـا كان أمـرًا حتميًـا.

جعلـت تلـك الفكـرة مـن قلبـي دلـوًا لا يملـؤه شيءٌ سـوى الحزن.. حـزن عـلى تلـك الأحـلام التـي تشـاركناها وضاعـت قبـل أن تتحـوّل إلى حقيقـة.. حـزن عـلى ذلـك الحـب الـذي تـلاشى.. حـزن عـلى مـوت تلـك الفتـاة الحالمـة بداخـلي التـي كُنتهـا يومًـا، والتـي لـن أسـتطيع بعثهـا مـن جديـد. تدفّقـت أنهـار مـن الحـزن بداخـلي، وجرفـت معهـا ميثـاق الحـب الـذي أودعتـه قلبـي. أغمضـتُ عينـيّ فانهمـرت دمـوع الحـسرة عـلى خـدّيّ.

بحثـتُ عـن ذلـك الـشيء الـذي خبّأتـه بداخـلي لفـترةٍ طويلـة، وهمسـتُ لـه قائلـةً: «أعتـذر أنّنـي تركتـك وحـدك في الظـلام طـوال ذلـك الوقـت. أرجـوك تقبّـل اعتـذاري؛ فإنّنـي عـلى أتـم اسـتعداد الآن!».

ناديـتُ عـلى الضـوء فلبّـى النـداء. شـعرتُ بـه ينـدفـع نحـوي

مـن كل حـدبٍ وصـوب، يتزلّـج فـوق البحـيرة، ويحـوم كالعصفـور فـوق قبـاب القـصر الصغـير الذهبيّـة قبـل أن يطـير باتّجاهـي، حتّـى وصـل إلى كـوخ (باغـرا) فاقتحمـه. فتحـتُ يـديّ وإذا بالضـوء يخترقهـما، ثـم غمـر الغرفـة بأكملهـا، مُضيئًـا جدرانهـا الحجريّـة، وموقدهـا القديـم، ووجـه (باغـرا) الغريـب.

احتضنتنـي حـرارة الضـوء.. كان الضـوء أقـوى وأنقـى مـن ذي قبـل؛ لأنّنـي اسـتحضرته بمُفـردي هـذه المـرّة. شـعرتُ برغبـة في أن أضحـك، وأغنّـي، وأصرخ؛ فأخـيراً امتلكـتُ شـيئًا لا يملُكـه أحـد سـواي!

حدّقت (باغرا) في الضوء ثم قالت: «جيّد.. لنبدأ عملنا الآن».



الفصل الثالث عشر

عندما انجلى الظهر، انضممتُ إلى بقيّة الإثيريالكي الذين كانوا يتدرّبون عند البحيرة، واستعرضتُ قوّتي أمامهم لأوّل مرّة؛ أرسلتُ خيطًا من الضوء الساطع ليسبح على سطح الماء، وإذا به يتدحرج فوق الأمواج التي استحضرها (أيڤو). بالطبع لم أصل إلى نفس الدرجة من الإتقان مثل الباقين، لكنّني تحسّنتُ كثيرًا. شعرتُ في الواقع أن الأمر صار سهلًا.

لم أعُد مُرهقةً طوال اليوم، ولم أعُد ألهث بعدما أصعد السُّلّم. صرتُ أنامُ بعُمقٍ ولم يراودني طيف حلمٍ واحد، وعندما أستيقظ أشعر بأنّني نشيطة على غير العادة. أمّا بالنسبة إلى الأكل، فأصبحتُ ألتهمُ ما يقع أمامي من أطباق العصيدة المُضاف إليها السكر والقشدة، وسمك الورنك المقليّ في الزبد، وخوخٍ وبرقوق طازج. وعندما أفرغ من طعامي، أشرب كأسًا من الكڤاس المُرّ.

إن تلك اللحظة التي استدعيتُ فيها النور في كوخ (باغرا) قد بثّت فيَّ ريح الحياة من جديد.

لم يكُن الآخرون على دراية بما واجهته من صعوبات أثناء تدرُّبي على استحضار النور، لكنّهم تعجّبوا من تغيُّري المُفاجئ. فضّلتُ ألّا أشرح لهم ما حدث، وجاءتني (جينيا) لتقصّ عليّ بعضًا من الشائعات المُضحكة التي انتشرت مُؤخرًا عنّي.

«إن (أيڤو) و(ماري) قد اعتقدا أن الفيردانيين أصابوكِ بمرضٍ

ما».

«لقد ظننتُ أن الغريشا لا يمرضون!».

«بالضبط! نظريّة مُضحكة، أليس كذلك؟ قال آخرون إن مُستحضر الظلام قد سقاكِ كوبًا من دمه، وأطعمكِ كسورًا من الماس الخالص كي يشفيكِ».

ضحكتُ وقلتُ: «هذا مُقزّزا».

«ثمّة ما هو أكثر من ذلك.. لقد حاولت (زويا) أن تُقنع الجميع بأنّك ممسوسة!».

تعالت ضحكاتي حتّى اهتزّت لها ثنايا الهواء.

***

لم تزل تدريبات (باغرا) صعبة، ولم تُضف إليها أي مُتعة تُذكَر. لكنّني كنتُ أستغلُّ جميع الفرص لكي أستحضر قوّتي، وشعرتُ أنّني بالفعل أتحسّن. انتابني الخوف -في البدء- عندما استعددتُ لاستدعاء النور؛ لم أُرِد أن أخفق وأعود مُجدّدًا لما كنتُ عليه.

قالت لي (باغرا) وقتها: «إن قوّتك هي جزء لا يتجزّأ منكِ. إنّها ليست حيوانًا سيمضي بعيدًا عندما يراكِ، أو عندما تُشيرين إليه فيختار أن يأتي إليكِ أم لا. هل تطلبين من قلبكِ أن ينبض، أو من رئتيكِ أن تتنفّسا؟ هكذا قوّتك تخدمك لأن هذه وظيفتها الوحيدة، وليس لديها خيار آخر».

كنتُ أشعر أحيانًا أن ثمّة ظلال معانٍ أخرى تتخفّى بين كلمات (باغرا)، وربما أرادتني أن أفهمها جميعها. لكنّني كنتُ أبذل مجهودًا كبيرًا أثناء التدريب مما لم يدع لي مجالًا للتفكير

فيما تقصده تلك العجوز الخبيثة.

أجبرتني (باغرا) على التحكُّم في الضوء بشكلٍ أفضل، وتوسيع حيِّز انتشاره. كما علّمتني كيف أُصدِر دفقات مُركّزة من الضوء، وكيف أُشكّلها لتُصبح أشعّة تحترق. وعلّمتني أيضًا أن أجعل الضوء يتدفّق كالشلّال. استحضرتُ النور مرّاتٍ ومرّات حتّى لم يعُد بإمكاني استدعاءه مُجدّدًا.

أمرتني (باغرا) أن آتي إلى كوخها في حلك الليل لأتدرّب، بحيث لا أجد أي ضوءٍ لأستدعيه. شعرتُ بالفخر عندما نجحتُ في استحضار خيط ضوءٍ خافت، لكن (باغرا) ضربت بعصاها الأرض وصاحت: «هذا لا يكفي!».

تملّك الغضب منّي فصرختُ في وجهها: «إنّني أبذل قصارى جهدي!».

بصقت (باغرا) على الأرض وقالت: «هل تظنّين أن العالم يبالي إذا ما كنتِ تبذلين قصارى جهدكِ أو لا؟ نفّذي ما أمرتكِ به، نفّذيه بالشكل الصحيح!».

***

كانت تدريبات (بوتكن) هي المفاجأة الكبرى بالنسبة لي.

في طفولتي، كنتُ أركض مع (مال) في الحدائق والبساتين، لكنّني لم أستطع اللحاق به مُطلقًا؛ لطالما كنتُ هزيلة وضعيفة، يُصيبني إعياء شديد عندما أبذل أقل مجهود. أمّا الآن، بعدما اهتممتُ بتناول وجباتي كاملة، وصرتُ أنام جيّدًا، فقد تغيّر كل شيء. جعلني (بوتكن) أخوض تدريبات قتاليّة وحشيّة، وركضتُ لأدهرٍ في أراضي القصر، لكنّني استمتعتُ ببعض التحدّيات التي

واجهتني، وأحببتُ معرفة قدراتي الجديدة، ومدى قوّة جسدي.

لم أظن يومًا أنّني سأنال إعجاب (بوتكن)..

تفاجأتُ بأحد المُصنّعين يُعطيني قفّازين من الجلد صُنعا خصّيصًا من أجلي. كان القفّازان بلا أصابع، ومُثبّت عليهما مرايا صغيرة تُشبه تلك الألواح الزجاجيّة التي أراني إيّاها (ديفيد) عندما كنّا في ورشة المُصنّعين. لامستُ بأصابعي إحدى تلك المرايا فوجدتُها تتحرك. وبإذنٍ من (بوتكن)، أصدرتُ ومضاتٍ سريعة من الضوء في الهواء.. وفي أعيُن خصومي. تدرّبتُ كثيرًا إلى أن اعتادت يداي عليهما، صارا كطبقتين من الجلد فوق جلدي.

لم يزل (بوتكن) فظًّا ويقذفني بالانتقادات طوال الوقت، وأينما تسنح له الفرصة يُخبرني أنّني بلا فائدة. ومع ذلك، فقد لمحتُ بين الحين والآخر نظرة تشجيعٍ في عينيه الذابلتين.

وفي أواخر الشتاء، تمكّنتُ بعد تدريبٍ طويل أن أسدِّد له ضربةً في ضلوعه (شكرني عليها بصفعةٍ قويّة كادت تخلع فكّي)، أعطاني سكينًا ثقيلة تقبع داخل غمدٍ من الجلد اللامع، ثم قال: «أبقيها معكِ أينما ذهبتِ».

تفاجأتُ أنّها ليست سكّينًا عاديّة، بل كانت مصنوعة من فولاذ الغريشا.

«شكرًا لك».

«لا داعي للشكر». قالها ثم لامس بأصابعه تلك الندبة البشعة التي تُفسد مظهر رقبته.

سكت بُرهة ثم أضاف: «إنّكِ تملكين سلاحًا الآن».

***

قضيتُ شتاءً لم أقضِ مثله من قبل. كنتُ أتزلّج في المساء مع المُستحضرين على البحيرة المُتجمّدة أو في ساحات القصر الشاسعة. وعندما كان الثلج يغمر الأرجاء، كنّا نجتمع حول المواقد في قاعة الطعام، نشرب الكفاس ونتناول كثيرًا من الحلويّات. احتفلنا بعيد القدّيس نيكولاي، تناولنا حساء الزلابية وأطباقًا من وجبة ال»كوتيا» المصنوعة من العسل وبذور الخشخاش.

غادر بعض المُستحضرين القصر ليتزلّجوا أو ليذهبوا في جولات استكشافيّة في المناطق الريفيّة المكسوّة بالثلوج التي تحيط (أوز ألتا). أمّا أنا فبقيتُ في القصر لدواعٍ أمنيّة، والحق أنّني لم أنزعج؛ فقد صرتُ أشعر براحة أكبر عندما أجلس مع المُستحضرين، وفي الوقت ذاته لم أعُد أودُّ الجلوس مع (ماري) و(ناديا). أكون في قمّة سعادتي عندما أجلس مع (جينيا) بجانب الموقد في غرفتي، نشرب الشاي وننخرط في النميمة حول ما يحدث في البلاط الملكي، وتلك الحفلات الفخمة التي يُقيمونها في القصر الصغير. أعجبتني قصّة حكتها لي (جينيا) عن الكونت الذي أهدى كعكة ضخمة للملك وانبثق منها قزم كي يُهدي للملكة باقةً من الزهور.

يُقيم الملك والملكة قبل انتهاء الشتاء حفلًا لا مثيل له (بحسب تعبير جينيا)، يحضره جميع الغريشا، وعائلات النبلاء، وضبّاط البلاط الملكي، وأبطال الجيش الأوّل، وزوّار مرموقون من البلدان الأخرى، وبالطبع الابن الأكبر للملك (ووريث عرشه)

الذي رأيته يومًا يتجوّل في أراضي القصر مُمتطيًا حصانه الأبيض المخصيّ، الذي يُقارب حجمه حجم منزلٍ. يُمكنني وصف ولي العهد بأنّه وسيم، لكنّه ورث ذقن أبيه الصغيرة وجفنيه الغليظين اللّذين بسببهما لم أستطع تحديد إذا كان مُتعبًا أم يشعر بالملل من كثرة الطواف.

«لا شك أنّه كان مُملًّا.. إنّه يُكرّس وقته للسُكْر، والصيد، وركوب الخيل، ممّا يُثير غضب الملكة».

«لكن راڤكا في حالة حربٍ الآن، ولذا فعليه أن يُلقي بالًا لشؤون المملكة».

قالت وهي تُدير ملعقتها في كوب الشاي: «إن الملكة لا تكترث لهذا، إنّها تريده أن يتزوّج بدلًا من أن يجول حول العالم ويُنفق جبالًا من الذهب لشراء المهور».

«وماذا عن ابنها الآخر؟».

كنتُ أعلم أن الملك والملكة لديهما ابن أصغر، لكنّني لم أره من قبل.

«سوباتشكا؟».

ضحكتُ وقلتُ: «لا يُمكنكِ نعت الأمير بالجرو!».

قالت (جينيا): «هذا ما يصفه به الجميع». ثم أخفضت صوتها وأضافت: «ثمّة شائعات مُنتشرة تُرجّح أنّه قد يكون ابن زنى».

كدتُ أبصق رشفة الشاي من فمي.

«لا يعلم أحد الحقيقة سوى الملكة. إنّه منبوذ من الجميع إلى حدٍ ما. وأصرّ أن ينضم إلى سلاح المشاة ليُؤدّي خدمته

العسكريّة، ثم صار مُساعدًا لأحد صانعي الأسلحة».

«وهل ما زال يزور القصر؟».

«كلّا، لم تطأ قدمه أرض القصر منذ سنوات. ربما يكون قد سافر إلى بلدٍ ما ليدرس تشييد السفن أو شيئًا مُملًّا من هذا القبيل. أعتقد أنّه إذا قابل (ديڤيد) سيصيران صديقين مُقرّبين».

قلتُ وقد تملّك منّي الفضول: «عمّ تتحدّثان عندما تتقابلان؟». لم أفهم لماذا كانت (جينيا) مُغرمةً بذلك المُصنّع غريب الأطوار.

تنهّدت (جينيا) وقالت: «نتحدّث عن مواضيع عاديّة.. كالحب والحياة ودرجة انصهار خام الحديد!».

لفّت خصلة من شعرها اللامع حول سبابتها، وازدانت وجنتاها باللون الوردي الخافت.

أردَفَتْ: «في الواقع إنّه شخص مُضحك للغاية، لكنّه يأبى أن يُبيّن ذلك».

«حقًّا؟».

هزّت (جينيا) كتفها وقالت: «أظن ذلك».

ربتُّ على كتفها وقلتُ مُطمئنة إيّاها: «سيتخلّص من خجله عاجلًا أم آجلًا».

«ربما عليّ أن أجلس بجانبه على الطاولة في الورشة وأنتظر أن يصنع لي تمثالًا من حديد!».

«كلُّ قصص الحب العظيمة تبدأ بهذه الطريقة».

ضحكت (جينيا)، لكنّ ثغري أبى حتّى أن يبتسم. شعرتُ

بالذنـب يزحـف نحـو قلبـي ليلتهمـه.

لقـد وثقـت (جينيـا) فيّ، وأفصحـت لي بسلاسـة عـما تُكِنـه لـ(ديڤيـد) مـن مشـاعر، أمّـا أنـا فلـم أبُـح لهـا عـن سر (مـال).

قلـتُ مُؤنِّبـة نفسـي: «ليـس ثمّـة مـا عليـكِ البـوح بـه». ثـم أضفـتُ ملعقـةً مـن السُّـكّر إلى كـوب الشـاي.

***

في إحـدى الأمسيّات الهادئـة، عندمـا غـادر الغريشـا (أوز ألتـا)، أقنعتنـي (جينيـا) أن نتسـلّل إلى داخـل القـصر الكبـير. قضينـا سـاعاتٍ طويلـة داخـل غرفـة ملابـس الملكـة، نتأمّـل فسـاتينها اللامعـة وأحذيتهـا الفاخـرة. أصرّت (جينيـا) عـلى أن أرتـدي ثوبًـا حريريًّـا، لونـه وردي خافـت، ومُرصّـع باللآلـئ النّهريّـة النّـادرة. سـاعدتني في ارتدائـه ثـم قادتنـي نحـو إحـدى المرايـا الذهبيّـة الضخمـة، فلـم أُصـدّق مـا رأتـه عينـي.

تعلّمـتُ أن أتجنّـب النظـر في المـرآة؛ فالمرايـا تكشـف لنـا مـا نحـاول مُواراتـه طـوال الوقـت. ولذلـك شـعرتُ أن تلـك الفتـاة التي تقـف بجانـب (جينيـا) غريبـة عنّـي. كانـت وجنتاهـا مُتورّدتـين، وشـعرها لامعًـا، و... وجسـمها ممشـوقًا. وددتُ أن أبقـى مُحدّقـة فيهـا لسـاعات.. بـل لأعـوام! وتمنّيـتُ في تلـك اللحظـة أن يـراني (ميخائيـل) في طلّتـي هـذه.

لا شك أنّه كان سينعتني بال»عصا» مثلما يفعل دائمًا..

نظرت لي (جينيا) في المرآة وابتسمت.

سألتها: «ألهذا السبب قد أحضرتنا إلى هنا؟».

«ماذا تقصدين؟».

«أنتِ تعلمين مقصدي جيّدًا».

«كل ما في الأمر أنّني ظننتُ أنّكِ ستحبّين رؤية نفسكِ في المرآة وأنتِ جميلة».

شعرتُ بإحراجٍ شديد، ووجدتني أحتضنها تلقائيًا وأهمس لها قائلةً: «شكرًا لك». ثم دفعتها بلطفٍ بأصابعي وقلتُ: «والآن ابتعدي عنّي؛ فإنّه من المُستحيل أن أشعر بجمالي بينما تقفين بجانبي!».

قضينا ما تبقّى من الأمسية نرتدي الفستان تلو الفستان، ونتفحّص مظهرنا في المرآة. والحق أنّني لم أتخيّل أنّ الأمر سيكون مُمتعًا إلى هذه الدرجة. لم نشعر بانقضاء الوقت، وكان على (جينيا) أن تساعدني على خلع الفستان القرمزي وارتداء الكفتا. أعدو إلى كوخ (باغرا). تأخّرتُ على موعد التدريب فغضبت (باغرا)، ورغم أن التدريبات المسائيّة كانت هي الأصعب دومًا، فإنّها صارت أسوأ في تلك الليلة.

«تحكّمي في الضوء!». قالتها بينما كانت موجة الضوء التي استحضرتها تومض فوق ضفّة البحيرة.

صاحت مُضيفةً: «فيم تُركّزين؟».

قلتُ في نفسي: «في العشاء».

لقد انشغلتُ أنا و(جينيا) في ارتداء ثياب الملكة لدرجة أنّنا نسينا أن نأكل. ومعدتي كانت تعوي كذئبٍ جائع.

زِدتُ من تركيزي فازداد الضوء بدوره إشراقًا، وامتدّ بطول البحيرة المُتجمّدة.

قالت (باغرا): «هذا أفضل.. دعي الضوء يتدفّق بحُرّية.

وتذكّـري أن الـشيء يسـتدعي مـا يشـابهه».

حاولـتُ أن أسـترخي وأدع الضـوء يسـتدعي نفسـه، فتفاجـأتُ بـه يندفـع بقـوّة فـوق الجليـد، مُضيئًـا الجزيـرة الصغـيرة البـارزة في منتصـف البحـيرة.

صاحـت (باغـرا) بنـبرة آمـرة: «هـذا لا يكفـي! أريـد أن أرى مزيـدًا مـن الضـوء! ما الـذي يمنعـكِ؟».

كثّفـتُ جهـودي فتضخّمـت دائـرة الضـوء فـوق الجزيـرة حتّـى غمـرت البحـيرة بأكملهـا، وأضـاءت المدرسـة عـلى الضفّـة الأخـرى. ورغـم تسـاقط الثلـج مـن حولنـا، فـإن الضـوء المُشِـع أضفـى عـلى الجـو حـرارة صيـف حارقـة. قـوّتي هـزّت كيـاني.. غمرتنـي السـعادة مثلـما غمـر الضـوء كل شيء حولنـا. لكنّنـي أُرهقـتُ، وشـعرتُ أنّنـي تجـاوزتُ حـدود قـدراتي.

صاحت (باغرا): «أريد المزيد!».

«لا أستطيع!».

«قلتُ أريد المزيد!».

دقّ إصرارهـا ناقـوس الخـوف بداخـلي ففقـدتُ تركيـزي، وانفلـت الضـوء مـن قبضتـي. حاولـتُ التحكّـم فيـه ولكـنّ مُحاولتـي بـاءت بالفشـل. حلّـق الضـوء فـوق المدرسـة مُجـدّدًا، ثـم منهـا إلى الجزيرة. ومـن ثـم ابتلـع الظـلام ضفّـة البحـيرة مـرّة أخـرى.

«هذا ليس كافيًا».

بعث صوته ذعرًا في نفسي.

انبثـق مُسـتحضر الظـلام مـن بـين أحضـان الظلـمات ومـضى في الطريـق المُضـاء بالقناديـل مُتجهًـا نحونـا.

قالـت (باغـرا): «ربمـا.. ولكـن أتـرى كيـف أصبحـت قويّـة رغـم أنّنـي لم أسـاعدها؟ أحـضر لهـا مُضخّـم قـوى وشـاهد مـا ستسـتطيع فعلـه».

هزّ مُستحضر الظلام رأسه وقال: «سأجلب لها الأيل».

تبدّلت ملامح (باغرا).

قالت: «يا لك من أحمق!».

«لقـد قيـل عنّـي مـا هـو أسـوأ.. وأنـتِ نفسـكِ قـد قلـتِ أكـثر مـن ذلـك».

«هذه محض حماقة.. عليك أن تُعيد التفكير في قرارك».

قطّـب مُسـتحضر الظـلام جبينـه وقـال: «أنـتِ لا تُعطيننـي أوامـر الآن أيّتهـا العجـوز. أنـا أعلـم جيّـدًا مـا عـليّ فعلـه».

قاطعتهما قائلةً: «قد أُفاجئكما بما سأفعله».

حدّق الاثنان بي.. بيد أنّهما قد نسيا أنّني كنتُ أقف معهما.

أردفـتُ: «إن (باغـرا) مُحقّـة؛ فأنـا واثقـة أنّنـي أسـتطيع بـذل مجهـود أكـبر».

«لقـد ذهبـتِ إلى طيّـة الظـل يـا (ألينـا)، وبالتـالي فمـن المُفـترض أنّـكِ تدركـين خطـورة مـا سـنواجهه».

لم أعـدِل عـن رأيـي، فقلـتُ: «إنّ قـوّتي تـزداد يومًـا بعـد يـوم. فـإذا منحتنـي فرصـةً سـ...».

هـزّ مُسـتحضر الظـلام رأسـه مُجـدّدًا وقـال: «لـن أسـتطيع منحـكِ فرصـة كهـذه ومصـير رافـكا عـلى المحـك».

قلتُ بيأسٍ: «أتفهّم ذلك».

«هل أنتِ مُتأكّدة؟».

«أجل. فبدون أيل موروزوڤا، ليس لي أي فائدة».

قالت (باغرا): «هذه الفتاة ليست غبيّة كما تبدو».

صاح مُستحضر الظلام بغضبٍ: «اتركينا وحدنا».

«ستعاني جميعًا بسبب كبريائك يا فتى».

«لن أكرّر أمري».

رمقتـه (باغـرا) بنظـرة احتقـار ثـم التفتـت وسـارت عائـدة إلى الطريـق المُـؤدّي إلى كوخهـا، وعندمـا دلفـت إلى داخلـه وأغلقـت البـاب، قـال مُسـتحضر الظـلام وهـو يُحـدّق في وجهـي الـذي يُضيئـه نـور القنديـل: «تبديـن جميلـة اليـوم».

«شكرًا». قلتُ وقد أشحتُ وجهي عنه.

(يجب على (جينيا) أن تُعلّمني كيف أتقبّل المُجاملات).

قـال: «إذا تودّيـن العـودة إلى القـصر الصغـير، فدعينـا نمـضي معًـا».

سِرنـا صامتـيْن لبعـض الوقـت بمحـاذاة الضفّـة، وعندمـا مررنـا بالخيـم المهجـورة، تـراءت لي أضـواء المدرسـة في الجانـب الآخـر مـن البحـيرة المُتجمّـدة.

قـرّرتُ أن أقطـع ذلـك الصمـت المُميـت، فقلـتُ: «هـل وصلتـك أي أخبـار عـن الأيـل؟».

زمّ مُسـتحضر الظـلام شـفتيه وقـال: «كلّا، لكـن رجـالي يزعمـون أنّ القطيـع قـد هاجـر إلى فيـيردا».

حاولتُ أن أُواري ملامح الخيبة التي اعتلت وجهي.

توقّـف مُسـتحضر الظـلام عـن المـشي فجـأة، وقـال: «إنّنـي لا أظنّـكِ بـلا فائـدة يـا ألينـا».

قلـتُ مُطأطئـةً رأسي: «أعلـم ذلـك.. ربمـا لسـت بـلا فائـدة، لكنّني لا أعلم فائـدتي إلى الآن».

«ليـس مـن بـين الغريشـا مـن هـو قـوي بمـا فيـه الكفايـة كي يواجـه الطيّـة، وأنـا لا أسـتثني نفسـي».

«أتفهّم ذلك».

«لكنّ الأمر لا يُعجبك».

«وهــل مــن المفــترض أن يعجبنــي؟ إذا لم أســتطع مُســاعدتك عـلى تبديـد الطيّـة، فـما هـي فائـدتي إذًا؟ أهـي إنـارة الطريـق لـك عندمـا تذهـب في نزهـة بعـد انتصـاف الليـل؟ أم تدفئـة قدميـك في الشــتاء؟».

زار شـفتيه طيـف ابتسـامة خافتـة وقـال: «نزهـة بعـد انتصـاف الليـل؟».

لم أستطع مبادلته الابتسام.

قلـتُ: «لقـد أعطـاني (بوتكـن) سـلاحًا.. وبالطبـع أنـا مُمتنّـة لـه، لكنّنـي لا أشـعر أنّنـي أسـتحق أي شيء».

تنهّـد وقـال: «إنّنـي أكِـن لـكِ اعتـذارًا يـا (ألينـا)؛ لقـد طلبـتُ منـكِ أن تثقـي فيّ، ولم أكُـن أهـلًا لتلـك الثقـة».

بدا عليه الانزعاج الشديد فشعرتُ بالندم على الفور.

«إن الأمر ليس...».

قاطعني قائلًا: «بل هذه حقيقة».

ثـم تنفّـس بعُمـقٍ ووضـع يـده خلـف رأسـه وأردف قائـلًا: «قـد تكـون (باغـرا) عـلى حـق.. وأنـا أكـره أن أعـترف بذلـك».

مِلـتُ بـرأسي إلى جانـبٍ وقلـتُ: «إنّـك لا تنزعـج بسـهولةٍ، فلـماذا تـدع لهـا مجـالًا لمُضايقتـك بهـذا الشـكل؟».

«لستُ أدري».

«في الواقع.. أعتقد أنّها تعرف جيّدًا كيف تتعامل معك».

اعتلت وجهه ملامح الدهشة، وقال: «لماذا؟».

«لأنها الوحيدة التي لا تهابُك، ولا تحاول أن تُثير اندهاشك».

«وهل تحاولين أنتِ إثارة اندهاشي؟».

ضحكتُ وقلتُ: «بالطبع».

«هل تقولين دائمًا ما يخطر على بالك دونما تفكير؟».

«أجل، بل وأقول أكثر مما ينبغي».

قهقه ضاحكًا..

أتذكّر كيف أحببتُ ضحكاته.

قال: «أظن إذًا أنّني محظوظ».

«ما هي قوّة (باغرا)؟».

خطـر عـلى بـالي ذلـك السـؤال لأوّل مـرّة. كنـتُ أعلـم أنّهـا مُضخّمـة قـوًى حيّـة تمامًـا مثـل مُسـتحضر الظـلام، لكـنّ الأخـير لديـه قـواه الخاصّـة.

ردّ مُسـتحضر الظـلام: «لا أدري، لكنّنـي أظـن أنّهـا كانـت مـن صانعـي الأمـواج. ليـس مـن بيننـا مـن يتذكّـر مـاذا كانـت قواهـا».

لاحظـتُ أن الـبرد قـد صبـغ خدّيـه باللـون الـوردي، وضـوء

القنديـل أضـاف لمعـةً في عينيـه الرماديّتـين.

أردف: «ألينـا، إذا أخبرتـكِ أنّنـي مـا زلـتُ أعتقـد أنّنـا سـنصل إلى الأيـل، هـل سـتظنّين أنّنـي مجنـون؟».

«ولماذا يهمّك رأيي من الأساس؟».

بدت على وجهه الحيرة. قال: «لا أعلم، لكنّه يهمّني».

ثم طبع قبلة على شفتيّ.

جـاءت قبلتـه عـلى حـين غفلـةٍ منّـي. وبفعـل الصدمـة لم أسـتطع اتخـاذ أي رد فعـل. كنـتُ في لحظـةٍ أُحـدّق في عينيـه المرمريّتـين، وفي اللحظـة التـي تليهـا كانـت شـفتاه تضغطـان عـلى شـفتيّ. شـعرتُ بجسـدي ينصهـر مـن فـرط الحـرارة التـي سرت فيـه، وقلبـي يتراقص عـلى أنغـام لم يسـمعها مـن قبـل. وفجـأة، تراجـع إلى الخلـف. بيـد أنّـه تفاجـأً مثـلي تمامًـا.

قال مُحرجًا: «إنّني لم أقصد أن...».

وفي تلـك اللحظـة سـمعنا صـوت وقـع أقـدام، وإذ بـ(إيڤـان) يظهـر أمامنـا مـن العـدم. انحنـى برأسـه إلى مُسـتحضر الظـلام، ثـم إليّ، وعندهـا لمحـتُ ابتسـامة خبيثـة تعتـلي شـفتيه.

قال (إيڤان): «إن صبر المُستشار الروحاني بدأ ينفد».

فقـال مُسـتحضر الظـلام بلطـفٍ: «أمـر مُتوقّـع؛ هـذه إحـدى خصالـه السـيّئة».

اختفـت ملامـح الدهشـة مـن وجهـه، وعـاد إلى طبيعتـه. انحنـى لي برأسـه ثـم انـصرف مـع (إيڤـان) دون أن يرمقنـي بنظـرةٍ أخـرى، وتركنـي الاثنـان وحـدي فريسـةً للصقيـع.

تجمّـدتُ في مـكاني للحظـاتٍ طويلـة، ثـم شرعـتُ في السّيْر عائـدةً

إلى القصر الصغير.

لامستُ شفتيّ بأصابعي وتساءلتُ: ماذا حدث للتو؟ هل قبّلني مُستحضر الظلام حقًّا؟

لم أمُرّ بالقاعة المُقبّبة واتجهتُ إلى غرفتي مُباشرة، وفور وصولي إليها، شعرتُ بملل مُميت. طلبتُ من إحدى الخادمات أن تُحضر لي صحن عشاء، وعندما فعلَت جلستُ أتناول طعامي. كنتُ بحاجة ماسّة للتحدّث مع (جينيا)، لكنّها تنام كل ليلة في القصر الكبير، ولم أملك الجرأة الكافية التي تجعلني أذهب لأبحث عنها هناك. قرّرتُ في النهاية أن أذهب إلى القاعة المُقبّبة، آملةً في التخلّص من حالة الملل تلك.

عندما وصلتُ إلى القاعة، وجدتُ (ماري) و(ناديا) قد عادتا من رحلات التزلّج، وجلستا بجانب موقدٍ، تحمل كل منهما كوبًا من الشاي في يدها. صُدِمتُ عندما رأيتُ (سيرجي) يجلس بجانب (ماري)، وذراعاه تلتفّان حول خصرها.

قلتُ في نفسي: «يبدو أن الهواء يحمل في ثناياه الهوى».

جلستُ أحتسي الشاي معهم، وسألتهم عمّا فعلوه طوال اليوم، وكيف كانت رحلتهم إلى الريف، لكنّني لم أستطع التركيز فيما قالوه. ظلّت ذاكرتي تلاعبني؛ تجسّم أمامي صورةً لمُستحضر الظلام وهو يُقبّل شفتيّ، ثم تختطفني في مشهدٍ آخر إلى حيث كان واقفًا في الطريق المُتجمّد، مُحاطًا بأضواء القناديل، ينفث من فمه غيمة بيضاء يُبدّدها برد الليل القارس، وقد تجمّدت على وجهه ملامح الدهشة التي تأبى أن تذوب.

كنتُ أعلم أنّني لن أذوق طعم النوم، ولذلك قرّرتُ أن

أرافق (ماري) و(ناديا) إلى الحمّامات العامّة. حدّثتنا (آنا كونيا) كثيرًا عنها، واصفةً إيّاها ب«حمّامات الهمج»، حيث يختبئ فيها الفلّاحون ليشربوا الكڤاس ويُمارسون الرذيلة. لكنّني أدركتُ فيما بعد أن تلك العجوز كانت تُبالغ بعض الشيء.

جلستُ في حوضٍ مُمتلئ بالماء المغليّ، إلى أن آذتني الحرارة، فقمتُ وقذفتُ بنفسي في أحضان الثلج بالخارج مثل الباقين. ثم ركضتُ مُجدّدًا إلى الداخل لأعيد الكرّة. بقيتُ معهم بعد انتصاف الليل بوقتٍ طويل، كنّا نلهث من فرط الضحك.. حاولتُ في تلك الفترة أن أنفض غبار الأفكار عن رأسي.

عدتُ في النهاية إلى غرفتي، وألقيتُ بنفسي فوق السرير. كانت بشرتي رطبة ويغلب عليها اللّون الوردي، وشعري مُبتلّا ومُتشابكًا. أحسستُ بارتخاء في جسدي وكأنّني رخوة بلا عظام، لكنّ عقلي لم يتوقّف عن التفكير. استجمعتُ تركيزي واستحضرتُ دفقة ضوءٍ دافئة، وقذفتُ بها نحو السقف المطليّ فأخذت تدور وتتراقص. أطلقتُ العنان لقواي كي تُهدّئ أعصابي.

ثم اقتحمت ذاكرتي قُبلة مُستحضر الظلام، فأطاحت بتركيزي، ومزّقت تفكيري، وانقضّت على قلبي كنورسٍ جائع لمح فريسته تسبح بالقرب من سطح البحر.

فجأة، سلّمني الضوء إلى الظلام، ورحل عنّي.. مثلما رحل (مال).

الفصل الرابع عشر

قبـل انتهـاء الشـتاء، تكاثـرت الأقاويـل حـول الاحتفـال الـذي سـيقيمه الملـك والملكـة في القـصر الكبـير.

كان مـن المفـترض أن يُقـدّم المُسـتحضرون عرضًـا ترفيهيًـا يُظهـرون فيـه قواهـم، وسـيحضر ذلـك العـرض جميـع النبـلاء، وقـد تبـيّن أنّهـم أضاعـوا كثيرًا مـن الوقـت في ترتيبـاتٍ مـن قبيـل: مَن سـيُؤدّي العـرض، ومـاذا سـيجعل العـرض مُدهشًـا.

قالـت (جينيـا) مُحـذّرةً إيّـاي: «أرجـوكِ لا تقـولي «يُـؤدّون»؛ فمُسـتحضر الظـلام يكـره تلـك الكلمـة. إنّـه يـرى أن عيـد الشـتاء مضيعـة لوقـت الغريشـا الثمـين».

والحق أنّنـي أوافقـه الـرأي؛ فـورَش الماتيريالـكي لم تخـلُ في النهـار أو الليـل مـن طلبـات القـصر، مـن نسـج الملابـس، لصقْـلِ الأحجـار الكريمـة وتصنيـع الألعـاب الناريّـة. أمّـا المُسـتحضرون فقـد قضـوا سـاعات طويلـة في الخيـم يتدرّبـون عـلى العـرض الـذي سـيُقدّمونه. والأسـوأ أن (رافـكا) في حالـة حـرب مُسـتمرّة منـذ أكـثر مـن مائـة عـام، ولذلـك أرى أن إقامـة احتفـال في هـذا التوقيـت مـا هـو إلّا أمـر سـاذج وطائـش. وعـلى الرغـم مـن ذلـك، فـكان مـن الصعـب ألّا أحـضر ذلـك الحفـل المـليء بالفسـاتين الحريريّـة، والزهـور، والرقـص.

***

اتضح أن صبر (باغرا) قد نفد.

عندما كنتُ أفقد تركيزي للحظة، كانت تضربني بعصاها وتقول: «هل تحلمين بالرقص مع أميركِ الغامض يا فتاة؟».

فضّلتُ أن أتجاهلها، لكنّها كانت على حق. فعلى الرغم من بذلي أقصى ما عندي كي لا أفقد تركيزي، فصورة مُستحضر الظلام لم تُغادر ذهني. عندما اختفى فجأة، أخبرتني (جينيا) أنّه سافر إلى الشمال، وفسّر بعض الغريشا اختفاءه بأنّه يُخطّط للظهور بشكلٍ مُختلف في عيد الشتاء، ولكن هذا محض توقُّع.

منعتُ نفسي مرارًا وتكرارًا كي لا أخبر (جينيا) بأمر القبلة.

حدّثتُ نفسي بصرامةٍ قائلة: «لا تكوني غبيّة؛ فتلك القبلة لا تعني شيئًا. إنّه على الأرجح يُقبّل كثيرًا من فتيات الغريشا. ولماذا قد يُعجب بكِ من الأساس وأنتِ مُحاطة بحسناواتٍ مثل)جينيا(و)زويا(؟».

والحق أنّني لا أريد معرفة إذا ما كنتُ على حق. وما دمتُ مُغلقةً فمي، فسيظل أمر القبلة سرًّا بيني وبين مُستحضر الظلام، وهذا -في الواقع- ما أُفضّله. ولكي يحدث هذا، جاهدتُ نفسي في كثير من الأيّام كي لا أنهض من مقعدي في القاعة أثناء الفطور وأصيح قائلةً: «إن مُستحضر الظلام قد قبّلني!».

***

إذا كنتُ قد أحبطتُ (باغرا)، فهذا لا يُقارن بمدى انزعاجي من إحباطي لنفسي. فمهما بذلتُ من جهدٍ صارت حدود قوّتي تنجلي. كان مُستحضر الظلام يُكرّر الجملة ذاتها بعد كل درسٍ: «هذا ليس كافيًا». وقد كان على حق.

أراد مُستحضر الظلام أن يمحو الطيّة نهائيًا، ويوقف اندفاع موج اللا بحر الأسود إلى الأبد. ولكنّني ببساطة لم أكُن أملك القوّة الكافية لمُعاونته على ذلك. واتضح لي، بعدما اطّلعتُ على كثير من الكتب كي أفهم السر، أن ثمّة حدودًا لقوى جميع الغريشا، حتّى مُستحضر الظلام.

لكنّه قال إنّني سأغيّر العالم، وكان من الصعب أن أرفض تلك المُهمّة.

اختفى مُستحضر الظلام، لكن المُستشار الروحاني كان مُتواجدًا في كل مكان. رأيته يختبئ في الممرات، ويقف مُتربصًا لي على طريق البحيرة. ظننتُ أنّه يحاول أن يُلقي بي في فخ عندما أكون بمفردي. لكنّني لم أرِد سماع ثرثرته عن الإيمان والمُعاناة، ولهذا حرصتُ ألّا أدع له مجالًا لكي يقترب منّي.

***

ذهبتُ إلى (بوتكن) يوم العيد رغم أنّنا قد أُعفينا من التدريبات. والسبب أنّني كنتُ قلقة بشأن مُشاركتي في العرض، ومن رؤية مُستحضر الظلام مُجدّدًا، فلَم أستطع البقاء في غرفتي. كما أن جلوسي بين الغريشا لم يُجدِ نفعًا؛ فقد ظلّت (ماري) و(ناديا) تتحدّثان باستمرار عن زيّهما الحريري الجديد ونوع المجوهرات التي سترتديانها. أمّا (ديفيد) وغيره من المُصنّعين فظلّوا يضغطون عليّ كي أخبرهم بتفاصيل العرض. ولذلك، تجنّبتُ المرور بالقاعة المُقبّبة وذهبتُ إلى غرف التدريب مُباشرةً.

بدأنا كالعادة بتدريبات الركض، ثم درّبني (بوتكن) على استخدام القفّازات ذات المرايا الصغيرة، التي بدونها لم أستطع

مواجهته في السجال. وعندما انتهى الدرس، اعترف لي (بوتكن) أنه لم يُرِد أن يلكمني.

هزّ كتفيه وقال: «لم أسدّد لكِ أي لكمات لأنكِ ذاهبة إلى الحفل. لكن غدًا سنعود إلى تدريباتنا العادلة».

شعرتُ بقلبي ينقبض من الخوف.

ذهبتُ بعد ذلك إلى القاعة المُقبّبة، وتناولتُ العشاء سريعًا. وقبل أن يوقفني أحد، أسرعتُ إلى غرفتي، وألقيتُ بنفسي في حوض الاستحمام الذي أعشقه. لا أنكر أن الحمّامات العامّة مُسلّية، لكنّني اكتفيتُ من الاستحمام الجماعي منذ أن كنتُ في الجيش، وأردتُ أن أتحلّى ببعض الخصوصية التي باتت أمرًا جديدًا بالنسبة لي.

وعندما انتهيتُ من الاستحمام الذي دام لوقتٍ طويل، جلستُ بجانب النافذة كي أجفّف شعري وراقبتُ الليل يسدل ستاره على البحيرة وكأنّه يواريها عن الأنظار. وسرعان ما أُضيئت القناديل التي تصطف بطول مدخل القصر، وشاهدتُ عربات النبلاء الفخمة وهي تتوقّف فيه، واحدة تلو الأخرى، وكل عربة مُزيّنة بزخارف أكثر من تلك التي تسبقها. شعرتُ بقليلٍ من الحماس.

قبل بضعة أشهر، كنتُ سأخشى ليلة كهذه.. ليلةٌ سيُقام فيها عرض عليّ المُشاركة فيه، ويجب أن أظهر في أحسن حال بين مئات الجميلات. لم أزل مُتوترة، لكنّني أظن أنّني على الأقل.. سأستمتع.

انزعجتُ عندما نظرتُ إلى الساعة المُستقرّة على الرف؛ كان

مـن المفـترض أن تحـضر لي إحـدى الخادمـات زي الكِفتـا الحريـري الجديـد. ولكنّهـا إذا لم تـأتِ بـه في أقـرب وقـتٍ، سـأضطرّ أن أرتـدي زيـي الصـوفيّ القديـم، أو سـأذهب إلى (مـاري) لأسـتعير أحـد أزيائهـا.

وفجـأة، سـمعتُ طرقًـا عـلى البـاب. وعندمـا فتحتـه وجدتُهـا (جينيـا)، كانـت ترتـدي ثوبًـا حريريًـا مُغطـى بالكامـل بتطاريـز مـن الذهـب، وشـعرها الكسـتنائي مُلتـف فـوق رأسـها ليتجـلى قرطاهـا الماسـيان الكبـيران المُتدلّيـان مـن أذنيهـا.

دارت في مكانها مرتين، وأخذت تتراقص ثم قالت: «ما رأيكِ؟».

ابتسمتُ وقلتُ: «أنا أحقد عليكِ».

«لأنّنـي أبـدو رائعـةً بالطبـع». قالـت وهـي تتأمّـل مظهرهـا في المـرآة.

«ستكونين أجمل إذا تحلّيتِ ببعض التواضع».

«لا أظـن ذلـك». قالتهـا ثـم التفتـت إليّ. وعندمـا لاحظـت أنّنـي مـا زلـتُ أرتـدي زي الكفتـا القديـم سـألتني: «لمـاذا لم تجهـزي للحفـل؟».

«لم يصل زيّي الجديد بعد».

«يبـدو أن المُصنّعـين مُنشـغلون بطلبـات الملكـة. ولكـن لا تقلقـي، سـتحضره إحـدى الخادمـات إليـكِ. والآن، اجلـسي أمـام المـرآة كي أصفّـف لـكِ شـعركِ».

حاولـتُ ألّا أُظهـر حـماسي؛ كنـتُ أتمنّـى أن تُصفّـف لي (جينيـا) شـعري، لكنّنـي لم أُرِد أن أطلـب منهـا ذلـك.

«ظننـتُ أنّـكِ سـتكونين مـع الملكـة هـذه الليلـة». أخبرتُهـا عندمـا

أمسـكت شـعري بيديهـا الماهرتـين.

نظـرت إليّ بعينيهـا العنبريتـين في المـرآة وقالـت: «لم أعُـد أتحمّلهـا! لقـد قرّرت جلالتهـا فجـأة أنّهـا لا ترغـب في حضـور الحفـل الليلـة، والسـبب أنّهـا تشـعر بصـداع. وذلـك بعدمـا قضيـتُ سـاعة كاملـة أزيـل التجاعيـد التـي تحـاوط عينيهـا!».

«ألَن تحضر الحفل حقًّا؟».

«بالطبـع سـتحضره! إنّهـا فقـط تريـد وصيفاتهـا أن يلتففـن حولها كي تشـعر بأنّهـا شـخص مُهـم. هـذا أهـم حـدثٍ في موسـم الشـتاء كلّـه، ويسـتحيل أن يفوتهـا».

أهم حدثٍ في موسم الشتاء..

هزّت تلك الجملة كياني.

«هل أنتِ مُتوتّرة؟».

«قليلًا، ولا أعلم السبب».

«ربمـا لأن هنـاك بضـع مئـات مـن النبـلاء الذيـن يتوقـون لرؤيتـكِ لأوّل مرّة».

«أشكُركِ يا)جينيا(؛ لقد بعثتِ في نفسي الطمأنينة».

شـدّت شـعري بقـوّة وهـي تقـول: «عـلى الرحـب والسـعة.. أظـن أنّـكِ اعتـدتِ الآن عـلى تحديـق النـاس بـكِ».

«إطلاقًا».

«إذًا أعطينـي إشـارة عندمـا تشـعرين بالتوتّـر كي أقـف فـوق طاولـة المأدبـة، وألقـي بطـرف ثـوبي فـوق رأسي، وأشرع في الرقـص، وبهـذا سـأصرف عنـكِ أنظـار الجميـع».

ضحكتُ حتّى دمعت عيناي، وشعرتُ بالسكينة تتسلّل إلى جسدي.

مرّت لحظة ساد فيها الصمت. ثم سألتُ (جينيا) بنبرةٍ حاولتُ ألّا تكشف أمري: «هل أتى مُستحضر الظلام؟».

«أجل، لقد رأيتُ عربته. يبدو أنّه وصل البارحة إلى القصر».

أحسستُ بثقلٍ في قلبي؛ لقد قضى يومًا كاملًا في القصر دون أن يأتي لزيارتي، أو حتّى يطلب رؤيتي.

أردفت (جينيا): «أعتقد أنّه مشغول للغاية».

«بالطبع».

لبثت مليًا ثم أضافت بنبرةٍ خافتة: «هل تعلمين أنّنا جميعًا نشعر بذلك؟».

«تشعرون بماذا؟».

«بانجذابك إلى مُستحضر الظلام. لكن عليكِ أن تعلمي يا (ألينا) أنّه ليس مثلنا».

تملّك منّي التوتُّر..

أبقت (جينيا) نظرها مُصوّبًا نحو جدائل شعري.

«ماذا تقصدين؟». سألتها بصوتٍ تفاجأتُ من عُلوّه.

قالت (جينيا): «قواه مُختلفة، ومظهره مُختلف.. تلك أشياء بارزة للأعمى قبل البصير!».

وجدتني أُوجّه لها سؤالًا لم أرِد أن أتفوّه به: «هل حاول من قبل أن...؟ أعني.. هل وقعتما في...؟».

«إطلاقًا! هذا لم يحدث!».

لمحتُ ابتسامةً خبيثة ترتسم على شفتيها. ومن ثم أردفت: «لكنّه إذا أرادني فلن أمانع!».

«حقًّا؟».

تلاقت أعيننا في المرآة وهي تقول: «ومَن تلك التي تستطيع الرفض؟ لكنّني لن أسمح لقلبي أن يتورّط في ذلك الأمر».

حاولتُ ألّا أُبيّن اكتراثي، فقلتُ: «لا أظن ذلك».

رفعَت (جينيا) حاجبيها المثاليين وشدَّت شعري بقوّة مُجدّدًا.

صِحتُ: «إنّك تؤلمينني!».

صمتنا بُرهةً ثم سألتُ (جينيا): «هل سيحضر (ديڤيد) الحفل؟».

تنهّدت ثم قالت: «كلّا؛ إنّه لا يحب الاحتفالات. لكنّني مررتُ اليوم بورشة المُصنّعين كي أُريه ما قد يفوته. أظنّه لم يرني».

حاولتُ أن أطمئنها قائلةً: «لا أعتقد ذلك. من المُؤكّد أنّه رآكِ».

انتهت (جينيا) من عملها وأعطتني مرآتي الصغيرة كي أرى ما فعلته بي. وجدتها قد جمعت نصف شعري في عُقدة واحدة، والنصف الآخر يتدفّق كنهرٍ مُتلألئ على كتفيّ. ابتسمتُ واحتضنتها سريعًا.

«شكرًا لكِ، (جينيا). أنتِ رائعة حقًّا!».

«أنا رائعة بكل تأكيد».

تساءلتُ كيف لـ(جينيا) أن تقع في حب شخص جادٍ، وهادئ، ولا يُقدّر جمالها؟ تُرى هل هذا ما جعلها تنجذب إلى (ديڤيد)؟

انتشلني طرقٌ على باب الغرفة من غياهب تساؤلاتي. أسرعتُ لفتحه، فوجدتُ خادمتين تقفان أمام الباب، تحمل كل منهما عدّة صناديق. حتّى تلك اللحظة، لم أكُن أدرك مدى قلقي من وصول زي الكِفتا الجديد. وضعتُ أكبر الصناديق على السرير وأزلتُ غطاءه.

شهقت (جينيا)، بينما تجمّدتُ أنا في مكاني، أُحدّق في مُحتويات الصندوق. تقدّمت (جينيا) وأخرجت من أحضان الصندوق ثوبًا طوله يمتد إلى ما لا نهاية، مصنوعًا من حريرٍ أسود يتموّج كبحر الربيع، وثمّة تطاريز ذهبيّة رقيقة تُزيّن كُمّيْه وفتحة الرقبة، بالإضافة إلى بعض الخرز اللامع ليُصبح الثوب مثاليًّا.

همست لي (جينيا) قائلةً: «إنّ لون الزّي... أسود».

هذا اللون لا يرتديه أحد سوى مُستحضر الظلام. تُرى ما هو السر وراء اختياره لأن يكون لون زيّي أسود؟

لاحظتُ أن فتحة الرقبة مُزيّنة أيضًا بشريط أسود مخمليّ، تتدلّى منه تميمة على شكل الشمس يوم الكسوف.. وهذا شعار مُستحضر الظلام.

هذه المرّة، لقد قرّر مُستحضر الظلام أن يُميّزني عن الجميع عنوةً، وليس لديّ ما أفعله. شعرتُ بشيءٍ من الاستياء، لكنّ حماسي كان طاغيًا على أي شعورٍ آخر انتابني وقتها.

تُرى هل اختار لي لون الزي قبل تلك الليلة التي قبّلني فيها أم بعدها؟ وهل سيشعر بالندم عندما يراني مُرتديةً إيّاه؟

لم أستطع التفكير في أي شيء، ولم يكُن لديّ سوى خياريْن، إمّا

أن أرتدي الزي الأسود، أو أذهب إلى الحفل عارية. أسرعتُ إلى خلف البرافان ولبستُ زيي الجديد. أحسستُ ببرودة الحرير على بشرتي. وعندما انتهيتُ خرجتُ إلى (جينيا) التي قابلتني بابتسامةٍ عريضة.

أمسكت بذراعي وقالت: «كنتُ أعلم أنّكِ ستبدين جميلة بالزي الأسود. هيّا، لنذهب».

«إنّني لم أرتدِ حذائي بعد!».

«قلتُ هيّا بنا!».

جذبتني من ذراعي إلى الردهة، ثم توقّفت أمام أحد الأبواب التي على جانبيه وفتحته دون استئذان.

بُهتت (زويا) التي كانت تقف في منتصف غرفتها، مُرتديةً زيّها الحريري ذا اللون الأزرق الداكن، وممسكةً بفرشاةٍ في يدها.

قالت لها (جينيا): «معذرة، ولكنّنا نريد هذه الغرفة الآن. هذه أوامر مُستحضر الظلام!».

بدا الحنق في عيني (زويا) الجميلتين.

قالت: «إذا تعتقدين أنّ...».

صمتت عندما وقعت عيناها عليّ، وانفتح ثغرها عن آخره، وهرب الدم من وجهها حتّى اصفرّ.

صرخت (جينيا): «غادري الغرفة فورًا!».

اندهشتُ عندما غادرت (زويا) الغرفة دون أن تنبس بكلمة. وأغلقت (جينيا) الباب بإحكام.

«ماذا فعلتِ للتو؟».

«ظننتُ أنّكِ بحاجة إلى رؤية نفسكِ في مرآة مُناسبة، بدلًا من ذلك الزجاج عديم الفائدة الذي تقفين أمامه في غرفتك. والأهم أنّني أردتُ أن أرى رد فعل تلك العاهرة عندما تراكِ مُرتديةً الزي الأسود».

لم أستطع مُقاومة الابتسام.

قلتُ: «تلك كانت فكرة مُذهلة».

«أليس كذلك؟».

وقفتُ أمام المرآة، وإذ بـ(جينيا) تجذبني من ذراعي لتُجلسني على منضدة (زويا)، ثم ذهبت لتُنقّب عن شيء لا أعلمه في الخزانات.

«جينيا!».

«انتظري قليلًا... ها قد وجدتها! كنتُ مُتأكّدة أنّها وضعت كُحلًا على رموشها!».

أخرجت (جينيا) من إحدى الخزانات قنينة زجاجية صغيرة مملوءة بالكحل.

أردفت: «هل يمكنكِ استحضار ضوءٍ كي أستطيع العمل؟».

استدعيتُ كرة ضوءٍ صغيرة ومُتوهّجة لأساعد (جينيا) على الرؤية بوضوح، وحاولتُ أن أتحلّى بالصبر عندما كانت تأمرني بالنّظر يمينًا، ويسارًا، وإلى الأعلى والأسفل.

قالت لي عندما انتهت من عملها: «ممتاز! إنّك تبدين فاتنة يا (ألينا)!».

«أريني!».

انتزعتُ المرآة من يدها، وحدّقتُ في وجهي. وجدتني أبتسم تلقائيًا؛ فتلك الفتاة الحزينة، المُرهقة، ذات الخدّين المُجوّفين والجسد الهزيل، قد اختفت. وحلّت محلّها إحدى حسناوات الغريشا: عيناها تتلألآن، وشعرها البرونزيّ اللون يتموّج على كتفيها. أحسستُ أن ثوبي الحريري الجديد قد التصق بجسدي، أو بالأحرى امتزج به مثلما تمتزج الظلال ببعضها. وقد فعلت (جينيا) شيئًا رائعًا بعينيّ حتّى صارتا داكنتين وبالكاد تُشبهان عيني قطّة.

صاحت (جينيا) قائلةً: «تنقُصكِ بعض المجوهرات!».

أثناء عودتنا إلى غرفتي، مررنا بـ(زويا) التي كانت تقف في الردهة، وعلى وجهها ملامح السخط.

سألتنا: «هل انتهيتما؟».

فأجبتها بلطفٍ: «أجل، مُؤقتًا».

أصدرت (جينيا) نخرة لا تليق بحسناء مثلها.

وجدنا في الصناديق الأخرى خُفّين من الحرير الذهبي، وقرطين من الذهب اللّامع أيضًا، وفراء سميكًا.

ألقيتُ نظرةً على نفسي في المرآة الصغيرة المُثبّتة فوق الحوض. شعرتُ أنّني غريبة عنّي، وكأنّني لا يجدر بي ارتداء مثل تلك الملابس الباهظة.

التفتُّ إلى (جينيا) لأجدها ترمقني بنظرة تنم عن ضيقها.

انتابني الخجل فسألتها: «ماذا بكِ؟».

تبسّمت وقالت: «لا شيء.. إنّكِ تبدين جميلةً حقًّا، ولكن...».

تلاشت ابتسامتها فجأة.. تقدّمت نحوي ولامسَت بأصابعها

تلك التميمة الذهبيّة التي تتدلّى من رقبتي وقالت: «أريد أن أخبركِ شيئًا يا (ألينا).. إن مُستحضر الظلام لا يكترث لوجودنا. وسيأتي يوم وينسانا جميعًا وكأنّنا لم نمُر بحياته من الأساس. لا أعلم إذا كان هذا أمرًا سيّئًا أم لا.. فقط... احذري».

أحسستُ لحظتها أنّني في حيرةٍ من أمري، فسألتها: «من ماذا؟».

«من قهر الرجال».

سألتها قبل أن أفقد أعصابي: «ماذا حدث بينكِ وبين الملك يا (جينيا)؟».

طأطأت رأسها ثم أجابت: «لقد فعل معي مثلما يفعل مع كثيرٍ من الخدم».

سكتت بُرهة ثم أضافت: «على الأقل أعطاني بعض المجوهرات».

«كلّا.. هذا لم يحدث!».

«بل حدث بحذافيره». قالت وهي تعبث بقرطيها المُتدلّيين من أذنيها.

أردفَتْ: «أسوأ ما في الأمر أن جميع من في القصر على علمٍ بذلك».

احتضنتها وقلتُ: «لا يهم.. إنّكِ أفضل منهم جميعًا!».

كشفتْ زيف ابتسامتها وهي تقول: «أعلم ذلك».

«كان يجب على مُستحضر الظلام أن يفعل شيئًا.. كان عليه أن يحميكِ!».

«لقد بذل ما في وسعه يا (ألينا). اعلمي أن مُستحضر الظلام ليس إلّا عبدًا لأهواء الملك مثلنا جميعًا.. حاليًا على الأقل».

«حاليًا؟».

ضغطت على ذراعي وقالت: «دعينا نعتزل ما قد يبعث في نفسيْنا الإحباط هذه الليلة، هيّا لنذهب».

اقتحمت وجهها الفاتن ابتسامة مُشرقة، وقالت: «إنّني بحاجةٍ ماسّة إلى كأسٍ من الشامبانيا!».

غادرت الغرفة بعد ذلك قبل أن نُكمِل حديثنا. أردتُ أن أسألها عما كانت تقصده عن مُستحضر الظلام. وأردتُ أيضًا أن أذهب إلى غرفة الملك لأضربه بمطرقة على رأسه. لكنّها كانت على حق؛ ثمّة كثير من المتاعب تنتظرني غدًا.

ألقيتُ نظرةً على نفسي في المرآة لآخر مرّة، ثم هرعتُ إلى الردهة، تاركة همومي، وتحذيرات (جينيا)، وحدها في الغرفة.

***

كان زيّي الأسود الجديد محطّ أنظار الجميع في القاعة المُقبّبة. استشعرتُ ذلك عندما حاوطتنا مجموعةٌ من الإثيريالكي -ممن يرتدون أزياء زرقاء مخمليّة وحريريّة- فور دخولنا. وبالطبع (ماري) و(ناديا) كانتا من بينهم. أرادت (جينيا) أن تتركني لولا أنّني تشبّثتُ بذراعها؛ فبما أنّني ارتديتُ زيًّا أسود كزي مُستحضر الظلام، فلِمَ لا أسير مع صديقتي مثلما يسير هو مع (إيڤان)؟

همست (جينيا) في أذني قائلةً: «أنتِ تعلمين أنّني لا أستطيع دخول قاعة الاحتفال معكِ؛ فهذا سيُغضب الملكة».

«حسنًا، لكن بإمكانكِ -على الأقل- أن ترافقيني إلى الباب».

أشرقت ابتسامة (جينيا).

مضينا في الطريق المرصوف بالحصى، ومنه إلى الممر المحفوف بالأشجار. وفي تلك الأثناء، لاحظتُ أن (سيرجي) قد انضم لنا، ومعه مجموعة أخرى من المُتلاعبين بالقلوب. أدركتُ حينها أنّهم جاءوا لحراستنا، أو بالأحرى لحراستي أنا، ووجدتُ أنّه أمر منطقي في ظل تواجد عدد كبير من الغرباء في مُحيط القصر. وعلى الرغم من ذلك فقد انتابني القلق؛ ففي الغالب يود كثير منهم أن يروني ميتة.

أُضيئت ساحات القصر حين شرع المُمثّلون في تأدية مسرحيّاتهم، وكذلك بدأت فرق البهلوانات تُقدّم عروضها إلى الضيوف. كما تجوّل العازفون في الممرّات والمسارات، ومرّ بنا رجل يحمل قردًا على كتفه، ورجلان يركبان حمارين وحشيّين، يرتديان ثيابًا ذهبيّة، وكانت ثمّة ثلاث راقصات، شعورهن حمراء اللون، يقفن حول نافورة العُقاب المُزدوج، يحملن أطباقًا مليئة بالمحار، ويتمايلن بأجسادهن يمينًا ويسارًا في حركاتٍ مُتناغمة.

عندما شرعنا في صعود السلّم الرخاميّ، أوقفنا خادم ليُعطي رسالةً لـ(جينيا). قرأتها على الفور ثم تنهّدت وقالت: «لقد حدثت مُعجزة ما خلّصت الملكة من الصداع، ولهذا قرّرت أنّها ستحضر الحفل».

احتضنتني (جينيا) ووعدتني أنّها ستبحث عنّي قبل أن يبدأ الحفل، ثم اختفت.

بدأت بوادر الربيع تفرض نفسها على الجو، لكن يستحيل

أن يُلاحظ ذلك مَن بداخل القصر الكبير. تدفّقت الموسيقى في الممرّات الرخاميّة، وانبعث هواء دافئ من مصدرٍ لا نعلمه، مُحمّل بروائح الآلاف من الزهور البيضاء -التي زُرِعت في دفيئات الغريشا الخاصّة- والتي تُغطّي أسطح الطاولات، وجوانب السلالم.

مررتُ مع (ناديا) و(ماري) بين حشودٍ من النبلاء. تظاهر مُعظمهم بتجاهلنا، لكنّهم أخذوا يتهامسون عندما رأوا حارس الكوربورالكي يسير بجوارنا. مضيتُ رافعة رأسي، وابتسمتُ لشابٍ من بينهم كان يقف أمام مدخل قاعة الحفل. تفاجأتُ به يخجل ويُطأطئ رأسه. نظرتُ إلى (ماري) و(ناديا) لأرى إذا كانتا قد لاحظتا ما حدث، لكنّهما انشغلتا بالحديث عن بعض الأطباق التي قُدِّمَت إلى النبلاء: كحيوان الوشق المشويّ، والخوخ المُملّح، والبجع المُحمّر مع الزعفران. شعرتُ بالسعادة لأنّنا تناولنا الطعام قبلهم.

كانت القاعة أكبر وأوسع حتّى من غرفة العرش، ومُضاءة بصفوف من الثريّات المُتلألئة. احتشد داخلها جمع من الناس، يتجرّعون كؤوسًا من الشامبانيا، ويتراقصون على أنغام الأوركسترا التي يجلس أفرادها المُلثّمون على طول الجدار البعيد. رأيتُ الثياب، والجواهر، والبلّورات المُتدلّية من الثريّات، وحتّى الأرض من تحتنا كانت تتلألأ. تساءلتُ حينها عن عدد المُصنّعين الذين قاموا بتلك التجهيزات.

رأيتُ أفرادًا من الغريشا يرقصون بين الحشد. كان من السهل تمييزهم لِما يرتدون من ألوانٍ مُختلفة عن الجميع، مثل: الأرجواني، والأحمر، والأزرق الداكن. كانوا جميعًا يتوهّجون

تحـت أضـواء الثريّـات كزهـورٍ نـادرة نبتـت في صحـراء قفـر.

مـرّت سـاعة لا أتذكّـر مـا حـدث خلالهـا سـوى أنّنـي قُدِّمـتُ إلى عـدد لا يُحـصى مـن النبـلاء وزوجاتهـم، وضبّـاط ذوي رُتـب عاليـة، ورجـال مـن حاشـية الملـك، وحتّـى بعـض الغريشـا مـن عائـلات النبـلاء الذيـن أتـوا ضيوفًـا ليحـضروا الحفـل. وجدتُني أنسى الأسـماء سريعًـا فاكتفيـتُ بالابتسـام والإيمـاء والانحنـاء. وحاولـتُ أن أمنـع عينـيّ مـن أن تجـولا حـول الحشـد بحثًـا عـن مُسـتحضر الظـلام. كـما تذوّقـتُ طعـم الشـامبانيا لأوّل مـرّة، الـذي وجدتـه أفضـل بكثـير مـن الكفـاس.

وفجـأة توقّفـتُ أمـام رجـلٍ يتكئ عـلى عصـا ويبـدو عـلى وجهـه التعب.

«الـدوق كيرامـزوف!». صِحـتُ مناديـةً عـلى ذلـك الرجـل الـذي كان يرتـدي زيًّـا عسـكريًّا قديمًـا، وكان ثمّـة عـدد ضخـم من النياشـين مُثبّتـة عـلى صـدره العريـض.

رمقني العجوز بنظرة اهتمام، ربما تفاجأ أنّني أعرف اسمه.

قلتُ: «هذه أنا.. ألينا ستاركوف».

ارتسـمت عـلى شـفتيه ابتسـامة خافتـة وقـال: «أجـل.. أجـل.. بالطبـع».

نظرتُ في عينيه.. لم يبدُ أنّه يتذكّرني على الإطلاق.

ولمـاذا قـد يتذكّـرني مـن الأسـاس؟ فأنـا لم أكُـن سـوى يتيمـة مـن بـين يتيـمات كثـيرات يعشـن في كنفـه. كـما أنّنـي أُنـسى بسـهولة؛ فليـس ثمّـة شيء يُميّـزني عـن الأخريـات.

لا أعلم لماذا شعرتُ بغُصّة في قلبي وقتها.

دارَ بيننا حوار مُهذَّب ثم انتهزتُ أوّل فرصة كي أنسحب. أسندتُ ظهري على أحد الأعمدة والتقطتُ كأسًا من الشامبانيا من خادمٍ عابر. كانت الغرفة دافئة أكثر من اللازم، فشعرتُ ببعض الضيق. وازداد انزعاجي عندما نظرتُ حولي وأدركتُ أنني وحيدة. في تلك اللحظة تذكّرتُ (مال)، ولأوّل مرّة منذ أسابيع، أحسستُ بقلبي يخفق من جديد. تمنّيت أن يأتي إلى هنا ليرى هذا المكان.. تمنّيتُ أن يتأمّلني في زيّي الحريريّ الجديد، ويرى خصل شعري الذهبيّة. أردته أن يكون إلى جانبي.. وهذا أهم عندي من أي شيء آخر.

نحيت تلك الفكرة جانبًا وأخذتُ رشفةً من كأس الشامبانيا.

خطر على بالي هذا السؤال فجأة: هل كان سيُهم إذا عرفني ذلك العجوز الثمِل؟

كلّا، بل إنّني سعيدة -في الواقع- أنّه لم يتذكّر تلك الفتاة الهزيلة البائسة التي كُنتها.

اخترقت (جينيا) الحشد مُحاولةً الوصول إليّ. فرأيتُ الجميع يُحدّقون بها، من بينهم أناس يشغلون مناصب مُهمّة مثل كونتٍ، ودوقٍ، وأحد التجّار الأغنياء. ومع ذلك، فقد غضّت (جينيا) طرفها عنهم. أردتُ أن أُخبرهم بألّا يُضيعوا وقتهم؛ فقلبها مِلكٌ لمُصنّعٍ شجاع لا يحب الاحتفالات.

قالت (جينيا) عندما وصلت إليّ: «حان وقت بدء الحفل.. أقصد العرض. لماذا تقفين وحدكِ؟».

«أردتُ أن أختلي بنفسي قليلًا».

«هل شربتِ الكثير من الشامبانيا؟».

«ربما».

وضعت ذراعها على كتفي وقالت: «يا لكِ من حمقاء.. لن تتأثري بشُرب الكثير من الشامبانيا الليلة، لكن عقلكِ سيُثبت لكِ العكس تمامًا غدًا».

قادتني بين الحشد، مُتفادية بعض الأشخاص ممن أرادوا مُصافحتي، أو التحديق فيها، إلى أن وصلنا إلى خشبة المسرح التي يجلس عليها أعضاء الأوركسترا. وقفنا بجانبهم وشاهدنا رجلًا يرتدي زيًّا فضّيًا يتّخذ بضع خطوات للأمام، وشرع في تقديم الغريشا.

عزف أعضاء الأوركسترا لحنًا مُثيرًا، وبدأ الضيوف يُصفّقون ويهلّلون عندما قذف مُستحضرو النار ألسنة من اللهب فوق الحشد، وبعث مُستحضرو الرياح نسماتٍ مُحمّلة بغبارٍ لامع أخذ يجوب القاعة كرحّالة يبحث عن مأوى. ثم انضمّت إليهم مجموعة من خالقي الأمواج الذين تعاونوا مع مُستحضري الرياح كي يستدعوا موجة ضخمة اقتحمت القاعة من الشرفة، وتأرجحت فوق رؤوس المُتفرّجين بمسافة قصيرة. بيد أن الجميع مُستمتعون بالعرض، حتّى أنّني رأيتُ بعضهم يمدّون أيديهم يُحاولون لمْس تلك الموجة المُضيئة. رفع مُستحضرو النار أذرعهم، سمعتُ هسهسة تنبعث من مكانٍ ما، وفجأة انفجرت الموجة واستحالت إلى دوّامة من الضباب. كنتُ مُختبئةً في زاويةٍ من المسرح، داهمني الإلهام فجأة وأجبرني أن أرسِل دفقة من الضوء تخلّلت ثنايا الضباب، فاستحال إلى قوس قزح تلألأ لفترةٍ وجيزة في سماء القاعة.

«ألينا».

قفزتُ من الرعب.

تلاشى الضوء واختفى قوس القزح.

التفـتُّ لأرى مُسـتحضر الظـلام واقفًـا بجانبـي. كان يرتـدي زيّـه الأسـود المُعتـاد، ولكنّـه كان مصنوعًـا مـن الحريـر والمخمـل هـذه المـرّة. وشـعره الأسـود الداكـن يعكـس ضـوء الشـموع حتّـى آذى عينـي. ابتلعـتُ ريقـي ونظـرتُ حـولي لأجـد (جينيـا) قـد اختفـت.

«أهلًا». قلتُ بصوتٍ خفيض.

«هل أنتِ مُستعدّة؟».

أومـأتُ بـرأسي، فقـادني نحـو سُـلّم المنصّـة وسـط تصفيـقٍ حـارٍ مـن الحضـور. أفسـح لنـا الغريشـا الطريـق، ولكمنـي (أيڤـو) لكمـةً خفيفـة عـلى ذراعـي وقـال: «لقـد أضفـتِ لمسـة رائعـة يـا (ألينـا)! قـوس القـزح كان مُبهـرًا!».

شـكرته ثـم نظـرتُ حـولي، وإذ بالتوتُّـر يتسـلّل إليّ كوحـشٍ خبيث. رأيـتُ وجوهًـا يملؤهـا الحـماس، ولاحظـتُ ملامـح الملـل عـلى وجـه الملكـة التـي التفّـت مـن حولهـا النسـاء، وبجانبهـا جلـس الملـك عـلى عرشـه، يترنّـح يمينًـا ويسـارًا مـن أثـر الـشراب، ووقـف بجانـب عرشـه مُستشـاره الروحـاني. لم ألحـظ وجـود أيّ مـن الأمـراء، ربمـا لم يهتـم أحدهـم بحضـور الحفـل. انقبـض قلبـي عندمـا لاحظـتُ أن المُستشـار الروحـاني كان مُصوّبًـا نظـره تجاهـي، فأشـحتُ بوجهـي عنـه عـلى الفـور.

انتظرنـا قليـلًا حتّـى بـدأ أعضـاء الأوركسـترا يعزفـون مقطوعـة صاخبـة زادت مـن خـوفي. ثـم تقـدّم الرجـل ذو الـزي الفضّي وبـدأ يُقدّمنـا للجمهـور.

وفجأة، وجدتُ (إيڤان) يقترب من مُستحضر الظلام ليهمس في أذنه بشيءٍ لم أتبيّنه. سمعتُ مُستحضر الظلام يقول له: «اذهب معهم إلى غرفة العمليّات العسكريّة وسألحق بكم بعد قليل».

غادر (إيڤان) مُتجاهلني تمامًا. وعندما التفت لي مُستحضر الظلام، وجدته يبتسم في وجهي، وعيناه يشتعل فيهما الحماس. لا شك أن (إيڤان) قد جلب له أخبارًا سعيدة.

علا تصفيق الجمهور فعلمنا أنّ وقت صعودنا المسرح قد حان. أمسك مُستحضر الظلام يدي ثم قال: «لنُريهم ما يريدون رؤيته».

أومأتُ برأسي مُجدّدًا؛ فقد جفّت الكلمات في حلقي. قادني إلى مُنتصف المسرح. سمعتُ الحضور يتهامسون، ولمحتُ نظرات الترقُّب في أعينهم. أومأ مُستحضر الظلام برأسه لي، ثم ضمّ يديه فارتجّت القاعة بفعل صيحات الرعد التي اقتحمتها، ثم ابتلعها الظلام.

انتظر قليلًا، مانحًا فرصة لحماس الجمهور أن يزداد.. قد يكره مُستحضر الظلام أن يقوم الغريشا بتأدية مثل هذه العروض، لكنّه بارع فيها. وعندما اهتزّت القاعة من فرط التوتّر، مالَ نحوي وهمس في أذني قائلًا: «هيّا الآن!».

ارتجف قلبي.. قاومتُ خوفي ومددتُ ذراعي كاشفةً عن قبضتي. أخذتُ نفسًا عميقًا واستدعيتُ تيّار الضوء الذي يتدفّق داخلي، وجمّعته بين راحتيّ، فانبثق شعاع ضوء قوي من بينهما، فأضاء الغرفة رغم الظلمة التي كانت قد خيّمت عليها. سمعتُ شهقات تنبعث من الحشد، وصاح أحدهم:

«إنّها حقيقيّة!».

أدرتُ يدي قليلًا باتجاه الشرفة كما وصف لي (ديڤيد) من قبل.

قال وقتها: «احرصي فقط على أن تصوّبي الضوء لأعلى نقطة، وسنجدكِ نحن».

علمتُ أنّني نجحتُ عندما انطلق الشعاع من يدي نحو الشرفة، وأخذ يتعرّج وينعكس بعدما اصطدم بالمرايا التي أعدّها المُصنّعون خصّيصًا للعرض، إلى أن سادت تيّارات مُتقطّعة من أشعّة الشمس، مُبدّدةً ظلام الغرفة.

علّت صيحات الحشد.

أطبقتُ قبضتي فتلاشى الشعاع المُنبعث منها، ولم يتبق من الضوء الذي غمر الغرفة سوى هالة ذهبيّة ارتسمت حولنا، وأخذت تتضخّم حتّى أضحت كرةً مُتوهّجة تُحيطنا.

نظر إليّ مُستحضر الظلام ومدّ يده، مُرسلًا خيوطًا داكنة من الظلام، التي تسلّقت كرة الضوء وأخذت تلتف حولها. استحضرتُ شعاع ضوءٍ أقوى وأوضح، أحسستُ حينها بنشوة تدفُّق الضوء بداخلي، ثم تأرجح الضوء بين أصابعي فردّ عليّ مُستحضر الظلام بأن أرسل ما يمكن وصفه بفروعٍ من الظلام أخذت تشق الضوء حتّى قسمته.

صفّق الجمع بحرارة ثم همس مُستحضر الظلام قائلًا: «والآن، أريهم ما لديكِ».

ابتسمتُ وفعلتُ كما أمرني.. فتحتُ ذراعيّ عن آخرهما، ثم ضممتُ يديّ فاهتزّت الغرفة بأكملها، وانفجر ضوء أبيض لامع

سطع بين الحضور لدرجة أنّهم أغمضوا أعينهم ورفعوا أيديهم ليحتموا من شدّته. أبقيتُه لثوانٍ ثم تركته يتلاشى. انهال علينا التصفيق الحار، وصاح البعض فرِحين مُهلّلين، وقفز البعض الآخر من فرط الاستمتاع.

انحنينا مُحيِّين الحشد، وشرع فريق الأوركسترا في العزف مُجددًا، إلى أن توقّف الجميع عن التصفيق وبدأوا يتحدّثون مع بعضهم بعضًا. قادني مُستحضر الظلام إلى ركنٍ من أركان المسرح وهمس قائلًا: «هل سمعتِهم؟ هل رأيتِ كيف كانوا يرقصون ويعانق بعضهم بعضًا؟ لقد صدّقوا أخيرًا تلك الإشاعات التي انتشرت مُؤخّرًا، وتأكّدوا أن العالم سيتغيّر من الآن فصاعدًا».

خفتت ابتسامتي قليلًا عندما انتابتني الريبة. سألته: «لكن.. أتعتقد أنّنا نمنحهم أملًا مُزيّفًا؟».

«كلّا يا (ألينا).. لقد أخبرتكِ من قبل أنّكِ أوّل شعاع أملٍ يشق طريقه إليّ منذ وقتٍ طويل. وهذه حقيقة».

«ولكن بعد ما حدث عندما كنّا نقف بجانب البحيرة...».

احمرّت وجنتاي من الخجل وأضفتُ سريعًا: «أعني.. إنّك قلت أنّني لستُ قويّة بالشكل الكافي».

ابتسم مُستحضر الظلام لكن نظرته الجادّة لم تُغادر عينيه. قال: «أتظنّين حقًّا أنّني فقدتُ الأمل فيكِ؟».

شعرتُ وكأنّ زلزالًا قد هزّ كياني.

ظل يرمقني بالنظرة ذاتها إلى أن تلاشت ابتسامته، ثم جذبني من ذراعي وقادني بين الحشد. هنّأني الجميع، وحاول البعض لمس أجسادنا، لكنّ مُستحضر الظلام حاوطنا -أثناء مرورنا-

بغلافٍ من الظلمة الحالكة حتّى صرنا معزولين عن الجميع، ولا يرانا أحد.

سمعتُ شذراتٍ من مُحادثات كانت تجري حولنا:

«لم أصدّق ما سمعته في البدء...».

«... لم أثق به قط، ولكن...».

«سنتخلّص من ذلك الكابوس! سنتخلّص منه إلى الأبد!».

لم تزل الضحكات والصيحات تعلو من حولنا. شعرتُ بالقلق يصفع قلبي مُجدّدًا؛ فأولئك الناس يعتقدون أنّني أستطيع إنقاذهم. تُرى ماذا لو علموا أنّني لا أجيد القيام بشيء سوى تلك العروض الصغيرة؟ لكن قلقي لم يدُم طويلًا، فلم يكُن بوسعي التفكير إلّا في يد مُستحضر الظلام التي تُعانق يدي الآن، بعد تجاهُله لي لأسابيع.

قادني عبر باب ضيّق، ثم إلى ردهةٍ خالية، ثم دلفنا إلى داخل غرفة لم يكُن بها أحد، لا تُضيؤها سوى أشعّة القمر التي تتسلّل عبر النوافذ. هربت من فمي ضحكة طائشة عندما نظرتُ حولي. بدت الغرفة شبيهة بتلك التي قابلتُ فيها الملكة، ولكنّني لم أستطع أن أتأكّد؛ لأنّه بمُجرّد أن أغلق مُستحضر الظلام الباب، بدأ يُقبّلني.. فنسيتُ العالم كلّه.

لم تكن هذه أوّل قبلة لي.. فقد وقعتُ في ذلك الخطأ عندما كُنتُ ثملة، وأحيانًا ما كان يحدث بدافع الاستكشاف البريء. لكن قُبلة مُستحضر الظلام لم تشبه أيًّا مما سبقتها؛ كان يُقبّلني بقوّة وثقة، شعرتُ وكأن بدني قد بُثّت فيه الحياة من جديد. وأحسستُ بحرارة جسده، وبذراعيه اللتين تلتفّان حولي؛ يد

ظلّت تعبث بشعري، والأخرى وضعها على خصري ليضُمّني إليه.

عندما التقت شفتانا، شعرتُ أنّه يزفر قوّته بداخلي.. ولامست ذلك الشعور بالرغبة الذي طغى عليه، ولكن تلك الرغبة تخفّي وراءها شعورًا آخر... أشبه بالغضب.

تراجعتُ للخلف في ذهولٍ وقلتُ: «إنّك لا تريد القيام بذلك».

«بل إنّني لا أودُّ فعل أي شيء آخر».

كان يزأر في وجهي بنبرةٍ حادّة وتضفو عليها الرغبة.

«لكنّك تكره ذلك!».

تنهّد ثم مالَ نحوي، مُمشّطًا شعري بيده، وقال: «ربما».

ثم أخذ يطبع قبلاتٍ على أذني، ورقبتي، وكتفي.

ارتجف جسدي من فرط الصدمة، فتراجعتُ مرّة أخرى وقلتُ: «لماذا؟».

«لماذا؟». كرّر ما قلته بينما شفتاه لم تتوقّفا عن مُداعبة بشرتي، وأصابعه تتسلّل أسفل رقبتي.

أردف: «أتعلمين ما أخبرني به (إيفان) قبل أن نصعد سُلّم المسرح يا (ألينا)؟ لقد أخبره رجالي أنّهم توصّلوا إلى مكان قطيع موروزوفا! وأخيرًا صار مفتاح لغز الطيّة بين أيدينا! ومن المفترض أن أكون الآن في غرفة العمليّات العسكريّة لأسمع شهاداتهم، ثم أُخطّط لسفرنا إلى الشمال. لكنّني لم أذهب.. أليس كذلك؟».

غاب عقلي عن الوعي حينها، وتركتُ النشوة تحوم داخلي. تجمّدتُ في مكاني، مُنتظرة قبلته القادمة أن تستقر على أي

موضـعٍ بجسـدي.

كـرّر قولـه: «أليـس كذلـك؟». ثـم ضخّ مـن لسـانه لـذّة النشـوة عـلى رقبتـي. شـهقتُ وهـززتُ رأسي، فتسـاقطت منهـا كُل الأفـكار التـي ملأتهـا.

دفعنـي نحـو البـاب، واقـترب منّـي حتّـى صـارت فخـذاه تضغطان عـلى فخـذيّ بقـوّة. ظـلّ يُقبّـل خـدّي بلهفـةٍ حتّـى لامسـت شـفتاه شـفتيّ، وقبـل أن أتذوّقهـما مُجـدّدًا، همـس قائـلًا: «أتعلمـين مـا هـي مُشـكلة الرغبـة؟ أنّهـا تجعلنـا ضعفـاء».

وقبـل أن أمـلّ الانتظـار، زرع عـلى شـفتيه تُفّاحـةً هممـتُ بقضمِهـا.

تلـك القبلـة كانـت أعنـف، وأقـوى، وألـذّ. تدفّـق ريقـه المُحمّـل بالغضـب إلى حلقـي، ولكنّنـي لم أكـترث. تناسـيتُ أنّـه تجاهلنـي يومًـا مـا، وتناسـيتُ كل لحظـة شـعرتُ فيهـا بالارتبـاك وهـو يُحدّثنـي، وتناسـيتُ تحذيـرات (جينيـا) الغامضـة.

لقـد وفى بوعـده وعـثر عـلى الأيـل.. لقـد كان مُحقًـا في كُل مـا قالـه لي.

انزلقـت أصابعـه إلى فخـذي.. انقبـض قلبـي عندمـا أخـذ يرفـع طـرف زيّـي ليضـع يـده عـلى بـشرتي العاريـة. لكنّنـي لم أبتعـد عنـه.. بـل جذبتـه نحـوي بـكُل مـا أوتيـت مـن قـوّة.

لا أعلـم مـاذا كان سـيحدث بعـد ذلـك لأننّـا سـمعنا ضجيجًـا يـدوي في الردهـة. بـدا أنّهـم أنـاس ثملـون يتخبّطـون في طريقهـم داخـل الممـر. وفجـأة اصطـدم أحدهـم بالبـاب وهـزّ المقبـض، فأسـند مُسـتحضر الظـلام كتفـه عـلى البـاب كي لا ينفتـح. لحظـات

وابتعـدوا جميعًـا، وخفتـت أصـوات صياحهـم وضحكاتهـم.

سـاد الصمـتُ بيننـا. ظللنـا نُحـدّق في بعضنـا بعضًـا للحظـات، ثـم وجدتـه يتنهّـد ويُفلـت يـده التـي كانـت قـد انقضّـت عـلى فخـذي، فعـاد زيّـي كـما كان.

همَـس لي قائـلًا: «عـليّ أن أذهـب؛ (إيڤـان) ينتظـرني مـع رجـالي الآخريـن».

أبى لساني أن يتلفّظ بكلمة، فاكتفيتُ بالإيماء.

ابتعـد عنّـي وفتـح البـاب، ثـم أخـرج رأسـه ليتأكّـد أن الردهـة خاليـة مـن النـاس. وقبـل أن يغـادر الغرفـة التفـت إليّ وقـال: «لـن أعـود إلى الحفـل.. لكـن عليـكِ أن تذهبـي إلى هنـاك».

أومأت برأسي مرّة أخرى.

أدركـتُ لحظتهـا أنّنـي كنـتُ أقـف مـع شـخصٍ غريـبٍ عنّـي في غرفـة مُظلمـة، وكان عـلى وشـك أن يخلـع عنّـي زيّـي. تذكّـرت عـلى الفـور وجـه (آنـا كونيـا) العابـس وهـي تُحـذّرني مـن الوقـوع في الأخطـاء السـاذجة التـي ترتكبهـا الشـابّات في القـرى، فاحمـرّ وجهـي مـن الخجـل.

غـادر مُسـتحضر الظـلام الغرفـة ثـم عـاد بعـد لحظـة وقـال لي: «ألينـا، هـل يمكننـي أن آتي إلى غرفتـكِ ليـلًا؟».

تـردّدتُ؛ فكنـتُ أعلـم أنّنـي إذا وافقـتُ، فلـن أسـتطيع التراجـع فيـما بعـد. لم يـزل جلـدي يحـترق مـن أثـر لمسـاته، لكـن حـماسي قـد بـدأ يتـلاشى، وعـاد إليّ وعيـي.

لم أعُد أعلم ما أريده.. ولم أعُد مُتأكّدة من أي شيء.

انتظـرتُ طويـلًا.. سـمعنا أصواتًـا تنبعـث مـن نهايـة الردهـة،

فأغلق مُستحضر الظلام الباب وذهب سريعًا وتركني وحدي في الغرفة التي ابتلعتها الظلمة. بقيتُ في مكاني مُتوترة، مُحاولةً أن أفكّر في سببٍ لتواجدي في تلك الغرفة الخالية، في حال أن عِلم أحدهم بمكاني واستجوبني.

تلاشى الضجيج وتلاشى معه قلقي. تنفستُ الصعداء وأخذتُ أُفكّر: إنّني لم أجبه عن سؤاله، فهل سيأتي على أي حال؟ هل بالفعل أريده، أم هذه شعلة الرغبة التي ستومض لبعض الوقت ثم يُطفئها الزمن؟ ظلّت أعاصير التساؤلات تلك تدور داخل رأسي، إلى أن قرّرت أن أستجمع ما تبقّى من قواي كي أستطيع العودة إلى الحفل. فمُستحضر الظلام يستطيع الاختفاء بسهولة، لكنّني لم أمتلك تلك الموهبة.

خرجتُ من باب الغرفة ونظرتُ يمينًا ويسارًا، فوجدتُ الردهة خالية. تفقّدتُ مظهري في إحدى المرايا ذات الإطارات الذهبيّة. لم تحدث سوى بعض التغييرات الطفيفة؛ فوجنتاي صُبغتا بحُمرة الخجل، وشفتاي تورّمتا قليلًا، لكن لم يكُن لديّ ما أفعله حيال ذلك. أسرعتُ باتجاه القاعة، ولكن قبل أن أدلف إلى الداخل، سمعتُ صوت باب ينفتح في الجانب الآخر من الردهة. التفتُّ لأرى المُستشار الروحاني يُسرع الخطى نحوي، ورداؤه البُنّي يتطاير خلفه. تمنّيتُ أن يختفي في التو واللحظة.

«ألينا!».

قلتُ وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة زائفة: «عليّ أن أعود إلى الحفل». ثم التفتُّ وأتبعتُ السير.

«يجب أن أتحدّث معكِ! إن الأمور تتغيّر بسرعة أكبر مما...».

لم ألتفت له ودخلتُ القاعة على الفور، مُحاولةً أن أبدو هادئة أمام الجميع. وسرعان ما التف النبلاء من حولي، يُهنئوني على العرض الذي أذهلهم. ركض (سيرجي) نحوي، وكان معه حرّاس من المُتلاعبين بالقلوب، وظلّ يعتذر لي عن غفلته عنّي إلى أن اختفيتُ بين الحشد.

شعرتُ بالاطمئنان عندما التفتُّ لأجد الحشد قد ابتلع جسد المُستشار الروحاني الهزيل.

فعلتُ ما بوسعي كي أتحدّث بلباقةٍ مع الضيوف، وحاولتُ الإجابة عن كل أسئلتهم. اقتربت منّي امرأة اغرورقت عيناها بالدموع، وطلبت منّي أن أُباركها. لم أدرِ ماذا عساني أن أفعل فربتُّ على يدها مُحاولةً بعث الاطمئنان في نفسها.

أحسستُ حينها برغبة مُلحّة في الانعزال عن الجميع، كي تتسنّى لي فرصة لاستجماع أفكاري وتنظيم فوضى المشاعر في قلبي. ومثل تلك الأمور لا تُحلّ بشرب الشامبانيا.

عندما رحلت عنّي مجموعة من الضيوف لتحل محلّها مجموعة أخرى، تعرّفت من بينهم على وجه الكوربورالكي الحزين الذي رافقني في عربة مُستحضر الظلام عندما هجم علينا مُرتزقة فيردا. حاولتُ أن أتذكّر اسمه لكنّني لم أستطع، وإذا به يتقدّم نحوي ويقول وهو ينحني بجسده: «فيديور كامنسكي».

«اعذرني.. فهذه الليلة الطويلة أرهقتني للغاية».

«بالطبع أتخيّل ما مررتِ به».

«لا أتمنّى ذلك». قلتُها في نفسي وقد انتابني بعض الخجل.

أردف مُبتسمًا: «يبدو أن مُستحضر الظلام كان مُحقًّا».

«معذرةً؟».

«لأنّكِ لم تكوني مُتأكّدة من كونكِ غريشا».

بادلته الابتسام وقلتُ: «لقد اعتدتُ أن أثق بتوقّعاتي إلى أن يثبت عكسها. ولا أظن أنّني أصبتُ في أي مرّة».

أخبرني (فيديور) في عجالة أنّه مُكلّف بمُهمّة ستُجبره على السفر إلى الحدود الجنوبيّة. وقبل أن يُكمل حديثه، أخذ الضيوف يتدافعون ليصلوا إليّ حتّى ضلّ بينهم، ولم تتسنّ لي فرصة لكي أشكره على إنقاذه لحياتي قبل أن تسحقها براثن الفيردانيين.

واصلتُ الحديث مع الجميع إلى ما يقرب من ساعة، ثم انتهزتُ فرصة انشغالهم عنّي للحظة وأخبرتُ الحرّاس أنّني أودُّ الرحيل، فالتفّوا حولي إلى أن غادرت أبواب القاعة. أحسستُ براحةٍ لا مثيل لها فور أن وطأت قدماي ساحة القصر. هدهدت خدّيّ برودة الليل المُحتملة، ولمعت في عينيّ النجوم الساطعة. تنفّستُ بعمقٍ، سامحةً للهواء أن يتخلّل خلايا جسدي المُتعَب. اتضح أنّني فشلتُ في إخماد نيران الأفكار التي تنهش عقلي؛ فكانت تارة تشتعل من الحماس، وتارة يُلهبها القلق المُفرط.

تُرى هل سيأتي مُستحضر الظلام إلى غرفتي ليلًا؟ وإذا أتى، هل سيعني هذا أنّني أصبحتُ ملكه؟

ارتعد جسدي..

إنّني لا أظن أنّه يحبّني، ولا أعلم حقيقة شعوري تجاهه. لكنّني مُتأكّدة أنّه يريدني أن أبقى بجانبه، وربما هذا يكفي.

حاولتُ التفكير في أمر آخر.

لقد عثر رجال مُستحضر الظلام على الأيل.

أجل.. هذا ما عليّ التفكير فيه؛ فهذا سيُحدّد مصيري. سيتعيّن عليّ قتل كائن عتيق كي أزيد من قوّتي، وتلك مسئوليّة كبيرة يجب أن أتحمّلها.

وجدتني مُجدّدًا أفكّر فيه، وفي أصابعه التي كانت تضغط على فخذي، وشفتيه اللتين طبعتا أحرّ القُبَل على رقبتي، وجسده الصلب الذي تثبّتُ به. استنشقتُ هواء الليل، أمرني عقلي بأن أذهب إلى غرفتي وأغُط في نومٍ عميق. لكن هل سأطيعه حقًّا؟

عندما وصلنا إلى القصر الصغير، تركني (سيرجي) وباقي الحرّاس ليعودوا إلى الحفل. مررتُ بالقاعة المُقبّبة فوجدتُ السكون قد خيّم عليها، والنيران في مواقدها قد أُخمدت، وتنبعث من القناديل أضواء ذهبيّة خافتة. كنتُ على وشك مُغادرة القاعة لأتّجه صوب السُّلّم الرئيسي، عندما انفتحت الأبواب المُزخرفة التي خلف مائدة مُستحضر الظلام. اختبأتُ بين أحضان الظلال؛ لم أُرِده أن يعلم أنّني غادرتُ الحفل مُبكرًا، كما أنّني لم أكُن مُستعدّة لرؤيته.

غادرت الغرفة مجموعة من الجنود، مُتجهين جميعهم نحو بوّابة القصر الرئيسيّة. بيدَ أنّهم الرجال الذين عثروا على الأيل، وقد جاءوا إلى مُستحضر الظلام كي يُخبروه بآخر الأنباء.

سقط شعاع ضوء على آخر جندي بالصف، فكاد قلبي يتوقّف عن النبض.

«مال!» صحت بأعلى صوتي.

عندما التفت لي، ونظرتُ في وجهه، غمرتني سعادة لم أشعر بها منذ مُدّة.. سعادةٌ جعلتني لا آبه بملامحه العابسة، ودفعتني للركض نحوه والقفز في حضنه، حتّى كاد يسقط. استعاد اتّزانه ثم حرّر رقبته من أسْر ذراعيّ، ونظر نحو باقي الجنود الذين وقفوا يراقبوننا. أعلم أنّني سبّبتُ له الإحراج، لكنّني لم أكترث، وظللتُ أقفز وأرقص في مكاني من شدّة الفرحة.

قال (مال) مُخاطبًا زملاءه: «اذهبوا أنتم، وسألحق بكم بعد لحظات».

ارتفعت حواجبهم من الدهشة، لكنّهم نفّذوا طلبه واختفوا خارج المدخل.

فتحتُ ثغري كي أتحدّث، لكنّني لم أعلم من أين أبدأ، فقرّرتُ أن أقول ما خطر على بالي.

«ماذا تفعل هنا؟».

ردّ بنبرةٍ تنم عن إرهاقه الشديد: «لا شيء.. كُنت أبلغ تقريري إلى سيّدكِ».

«إلى من؟ سيّدي؟».

تفاجأتُ من ذلك الوصف لكنّني تبسّمتُ وأتبعتُ: «يبدو أنّك مَن عثرتَ أوّلًا على قطيع موروزوفا! كان عليّ أن أعلم ذلك!».

لم يُبادلني الابتسام، وأعيننا لم تتقابل. بل أشاح بوجهه عنّي وقال: «عليّ أن أذهب».

لم أُصدّق ما قاله.. ظللتُ أُحدّق به إلى أن ذبلت ابتسامتي.

وهـا قـد تأكّـدتُ أنّي كنـتُ مُحقّـة؛ فـ(مـال) قـد تناسـاني بالفعـل. نما بداخـلي لحظتهـا غضـب فـاق كل مـا أحسسـتُه مـن حنـق في الشـهور الماضيـة.

قلـتُ بنـبرةٍ بـاردة: «مُتأسّـفة.. لم أكُـن أعلـم أننـي أُضيـع وقتـك الثمـين».

«أنا لم أقل هذا».

«كلّا، كلّا، أنـا أتفهّـم السـبب. وهـذا يُفسّر لمـاذا لم تسـتقطع مـن وقتـك القليـل كي تُـرد عـلى خطابـاتي. لمـاذا تقـف معـي إذًا بينـما أصدقـاؤك الحقيقيـون ينتظرونـك؟ اذهـب لهـم.. هيّـا اذهـب».

قطّب جبينه وقال: «لم تصلني أي خطاباتٍ منكِ!».

«حقًّا؟». سألته غاضبةً.

تنهّـد وحـكّ ذقنـه ثـم قـال: «لقـد تعـيّن علينـا أن نتقفّـى أثـر القطيـع دون انقطـاع، ولذلـك لم نسـتطع التواصـل مـع الوحـدة».

لم يـزَل الإرهـاق مـن صوتـه.. دقّقـتُ النظـر في وجهـه لأوّل مـرّة، فلاحظـتُ مـدى تغـيُّره. تشـكّلت هـالات سـوداء أسـفل عينيـه الزرقاويـن، وثمّـة ندبـة تمتـد بطـول خـدّه الـذي نبتـت فيـه لحيـة شـعثاء.

إنّه لم يزل (مال)، لكنّه صار أكثر قسوة وغرابة من ذي قبل.

«هل أنت مُتأكّد أن رسائلي لم تصلك؟».

أومأ برأسه دون أن ينظر إليّ.

فقـدتُ القـدرة عـلى التفكـير.. لم يكـذب (مـال) عـليّ مـن قبـل، ورغـم غضبـي الشـديد، فإنّنـي لم أعتقـد أنّـه يكـذب عـليّ.

«مال... هل... هل يُمكنك أن تبقى معي لوقتٍ أطول؟».

شـعرتُ أنّنـي أتوسّـل إليـه، وكـم كرهـتُ ذلـك! لكنّنـي لم أُرِده أن يرحـل.

أضفتُ: «إنّك لا تعلم ما حدث لي أثناء تواجدي هنا».

قهقـه ضاحـكًا وقـال: «لا أحتـاج لأن أتخيّـل؛ فقـد رأيـت العـرض المُبهـر الـذي قمـتِ بـه في القاعـة».

«أحقًا رأيتني؟».

ردّ بنبرةٍ غليظة: «أجل».

سـكت برهـةً ثـم أضـاف: «هـل تعلمـين أنّنـي كنـتُ قلقًـا عليـكِ طـوال الفـترة الماضيـة؟ لم تصـل أخبـاركِ إلى أحـد، ولم أعـرف كيـف يمكننـي أن أعـثر عليـكِ. وانتـشرت شـائعات أنّـك تُعذَّبـين هنـا في القـصر. وعندمـا فشـلت كلّ مُحـاولاتي، علمـتُ بالصدفـة أن القائـد يريـد أن يبعـث رجـالًا إلى مُسـتحضر الظـلام كي يخـبروه بأمـر الأيـل، فسـافرتُ كل هـذه المسـافة مثـل الأبلـه آمـلًا أن أجـدكِ!».

«حقًا؟».

كان مـن الصعـب عـليّ تصديـق مـا قالـه؛ فلَـم أشـعُر يومًـا أن (مـال) يكـترث لأمـري لهـذه الدرجـة.

«أجـل.. ولكـن هـا أنـتِ ذا، تعيشـين بأمـان، وترقصـين وتسـمعين أعـذب كلـمات الغـزل مـن الجميـع، وكأنّـك أمـيرة مُدلّلـة!».

«هـدِّئ مـن روعـك.. فبإمـكان مُسـتحضر الظـلام أن يأمُـر الخـدم بـأن يعـدّوا لـك غرفـة أنيقـة، بهـا خزانـة ثيـاب فخمـة وموقـد جاهـز لتدفئـة جسـدك المُرتجـف!».

عبـس وجهـه وقـرّر أن يرحـل لـولا أنّي أمسـكتُ بذراعـه. تشـنجت

عضلاتـه، لكنّـه لم يُقاومني.

اغرورقت عيناي بدموع الحسرة.. لا أعلم لماذا كنّا نتشاجر!

قلـتُ بنـبرةٍ تملؤهـا الحـسرة: «إنّنـي لا أتحكّـم في سيْر الأمـور هنـا يـا (مـال).. ولم أُرِد المجـيء مـن الأسـاس!».

التقـت أعيننـا للحظـة، ثـم أشـاح بنظـره عنّـي. ورغـم ذلـك، فقـد أحسسـتُ أنّـه بـدأ يسـتجمع هـدوءه. قـال في النهايـة: «إنّنـي أعلـم ذلك».

لم يزل الإرهاق مُسيطرًا على صوته.

همستُ له قائلة: «ماذا حدث لك يا (مال)؟».

لم يُجبني واكتفى بالتحديق في الظلام خارج البوّابة.

وضعـتُ يـدي عـلى خـدّه، وأدرتُ وجهـه نحـوي ببـطءٍ، ثـم قلتُ: «أخـبرني مـاذا حـدث لك».

أغمض عينيه وقال: «لا أستطيع».

لامسـتُ ندبتـه البـارزة بأصابعـي وقلـتُ: «بإمـكان (جينيـا) أن تُصلـح لـك هـذا؛ إنّهـا تسـتطيع...».

لم أُكمل حديثي؛ علمتُ أنّني أخطأت.

قال غاضبًا: «إنّني لا أريد إصلاحًا».

«أنا لم أقصد...».

انتـزع يـدي مـن فـوق خـدّه، وأطبـق قبضتـه عليهـا بإحـكام، وظلّـت عينـاه الزرقـاوان تُحدّقـان في عينـيّ لبعـض الوقـت، ثـم مـا لبـث أن قـال: «هـل أنـتِ سـعيدة هنـا يـا (ألينـا)؟».

صدمني سؤاله غير المتوقّع..

«لا... أدري. ربما... أحيانًا».

«هل أنتِ سعيدة بجواره؟».

لم يكُن هناك داعٍ لأن أسأله عمَن يقصده. حاولتُ أن أجيبه لكن لساني أبى أن يلفظ أي كلمة.

لمحته ينظر إلى التميمة الذهبيّة التي تتدلّى من رقبتي، وإذ به يقول: «إنّك ترتدين تميمة على شكل شعاره.. وترتدين زيًا مثل لون زيّه الأسود!».

«إنّه مُجرّد زي!».

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة لم أعهدها من قبل.. وجدتني أشتاق إلى ابتسامته التي أعرفها، وأحبّها.

أضاف: «يبدو أنّكِ لستِ مُقتنعة بما قلتِه».

«لا أعلم ماذا يهمّك في ملبسي!».

«ذلك الزي، وتلك الحُليّ، ومظهرك البهيّ، يخبرونني الكثير. لقد سيطر عليكِ بالكامل يا (ألينا)!».

صفعتني كلماته، لدرجة أنّني تخيّلت وجهي يُصبغ بحُمرة الألم، وخِفتُ أن يلحظ (مال) ذلك رغم ظُلمة الليل. حرّرتُ يدي من قبضته ووضعتها على صدري ثم همستُ قائلة: «الأمور ليست كما تعتقد».

لم أنظر في عينيه وأنا أتم جملتي.. بيد أن (مال) كان يقرأ أفكاري، وكأنّه يقتطف كل فكرة خبيثة عن مُستحضر الظلام قد جالت بذهني يومًا. لكنّني مثلما شعرتُ بالخجل، أحسستُ بالغضب يتملّك منّي. فإنْ كان قد علِم بما حدث بيني وبين مُستحضر الظلام، فهذا لا يُعطيه الحق لأن يُصدر أحكامًا.

يا تُرى كم فتاة ضاجعها (مال) في الظلام؟

قال: «لقد رأيتُ كيف كان ينظر إليكِ».

صرختُ في وجهه قائلة: «وأنا أحب تلك النظرة!».

هزّ رأسه، وتلك الابتسامة المُستفزّة لم تزل مُستقرّة على شفتيه.

شعرتُ برغبة مُلحّة بأن أصفعه على وجهه.

قال بنبرةٍ ساخرة: «اعترفي أنّه يمتلكك الآن».

«إنّه يمتلكنا جميعًا.. لا تستثني نفسك».

محَت جملتي ابتسامته. وصاح غاضبًا: «كلّا! ما تقولينه ليس له أي أساس من الصحّة!».

«حقًّا؟ ألا تتّبع الأوامر؟».

اعتدل في وقفته وقال بوجهٍ شحب فجأة: «بلى، أتّبعها».

ثم التفت وابتعد عنّي.

وقفتُ في مكاني لبعض الوقت، أرتجف من الغضب. ثم ركضتُ نحو المدخل ونزلتُ السُلّم ثم أوقفتُ نفسي. فاضت عيناي بالدموع فانهمرت على خدّي. أردتُ أن أركض خلفه لأعتذر له عما قلته. أردتُ أن أتوسّل إليه كي يبقى معي.. ولكنّني قضيتُ حياتي كلّها ركضًا وراءه، فقرّرتُ في النهاية أن أتركه يرحل.



الفصل الخامس عشر

عندما عُدتُ إلى غرفتي، وأغلقتُ الباب بإحكام، بكيتُ حتّى كاد قلبي ينفطر. جلستُ على الأرض، وأسندتُ ظهري إلى السرير، وضممتُ ركبتيّ إلى صدري، وحاولتُ أن أتمالك نفسي.. لكنّني فشلت.

لا بُدّ أن (مال) قد غادر القصر الآن، وسيُسافر إلى (تسيبيا) كي ينضم إلى فريق المُتعقّبين الذين يُحاولون صيد قطيع موروزوفا.

لقد بنى (مال) جدارًا بيننا.. جدارًا أستطيع لمسه الآن، وكُلّما وقعت أصابعي عليه يُذكّرني بمدى وحدتي، بل يُؤكّد لي أنّني سأعاني أكثر من أي وقتٍ مضى.

تحسّستُ بإبهامي الندبة التي في باطن يدي وهمستُ إلى ظلام الغرفة: «عُد إليّ».

ارتجف جسدي من شدّة البكاء. ردّدتُ: «عُد إليّ». ولكن (مال) لن يُجيب.

لقد دفعه ما قلته إلى الرحيل، وربما لن أراه مُجدّدًا.

لا أعلم كم لبثتُ في جلستي على أرض الغرفة المُظلمة، لكنّ ما أنقذني من غياهب حزني كان طرقًا خافتًا على الباب. نهضت ومسحتُ دموعي. ماذا لو كان الطّارق هو مُستحضر الظلام؟

إنّني لا أودُّ رؤيته، ولا أريد أن أشرح له سبب بكائي. جاهدتُ نفسي وفتحتُ الباب، وإذا بأصابع يدٍ نحيلة تلتفّ حول معصم يدي.

«باغرا؟».

جذبتني من ذراعي دون أن تلتفت وهي تقول: «تعالي معي».

«دعيني وشأني!».

حاولتُ أن أحرّر يدي من قبضتها ولكنّني تفاجأتُ من قوّتها.

«ستأتين معي يا فتاة، الآن!».

لا أعلم لماذا أطعتها وخرجت من باب الغرفة.. ربما لأنّني صُدِمتُ من نظرة الخوف في عينيها، أو لأنّني اعتدتُ على تنفيذ أوامرها.

أغلقت الباب خلفنا دون أن تُفلت يدي.

«ماذا يحدث؟ إلى أين نحن ذاهبتان؟».

«صمتًا يا فتاة!».

تفاجأتُ بها تقودني إلى نهاية الردهة، في الجهة المُعاكسة للسُّلّم الرئيسي. توقّفنا عند لوحٍ مُثبّت في الحائط. وعندما ضغطت عليه انفتح باب سرّي. أعطتني دفعة للأمام، فنزلتُ السُّلّم الحلزوني دونما كلام؛ فلَم تكُن لديّ رغبة في مُشاجرتها. ظلّت تدفعني في كل مرّة ألتفت لأنظر إليها، إلى أن وصلنا لممرٍ ضيّق، أرضه حجريّة وجدرانه من الخشب، لم تكُن به أي زخارف أو لوحات مثل التي تملأ كل ممرّات القصر الصغير. ظننتُ أنّنا مُتجهتان إلى حجرات الخدم.

أمسكت (باغرا) بمعصم يدي مُجدّدًا، وقادتني إلى غرفة مُظلمة وفارغة من الأثاث، إلّا من سرير ضيّق، ومقعد خشبي مُتواضع، وحوض للغُسل. تركتني وذهبت لتُضيء شمعة، ثم أوصدت

البـاب وأسـدلت السـتار عـلى نافـذة القبـو. وعندمـا انتهـت عـادت إليّ حاملـة كومـة مـن الملابـس.

قالت: «ارتديها الآن».

«إنّني مُرهقة ولن أقدر على التدريب الآن».

«لن أُدرّبك بعد الآن؛ لأنّكِ ستغادرين القصر.. الليلة».

«ماذا؟».

«إنّـي أنقـذك مـن مصيرٍ سيؤول بـكِ لأن تقـضي مـا تبقّـى مـن عمـرك كجاريـة. والآن، افعـلي كـما أمرتـكِ وارتـدي تلـك الملابـس».

«ماذا يحدث يا (باغرا)؟ لماذا أتيتِ بي إلى هنا؟».

«ليـس هنـاك وقـت للـشرح؛ فمُسـتحضر الظـلام عـلى وشـك الوصـول إلى قطيـع موروزوفـا».

«أعلم ذلك».

تذكّـرتُ (مـال) فشـعرتُ بغُصّـة في قلبـي. لكنّنـي -في الوقـت ذاتـه- شـعرتُ ببعـض الثقـة وأنـا أقـول لـ(باغـرا): «ظننتُـكِ لا تُصدّقـين أمـر أيـل موروزوفـا».

«هـذا مـا قلتـه لـه؛ كنـتُ أظنّـه سـيتخلّى عـن فكـرة مُلاحقـة الأيـل عندمـا يقتنـع أنّهـا مُجـرّد حكايـة يُردّدهـا الفلّاحـون. لكنّـه إذا عـثر عـلى الأيـل، فلـن يسـتطيع أحـد إيقافـه».

سألتها بغضب: «لن يستطيع أحد إيقافه عن فعل ماذا؟».

«عن استخدامه للطيّة سلاحًا».

«أجـل.. أجـل. وهـل سـيبني بداخلها بيتًـا كي يقـضي فيـه عُطلـة الصيـف؟».

ضغطت (باغرا) على ذراعي وقالت: «أنا لا أمزح!».

لم أعهد ذلك اليأس في صوتها من قبل. كما أنّها كانت تضغط على ذراعي بعصبيّة حتّى آذتني.

«ربما عليكِ أن تذهبي إلى المشفى يا باغرا».

صاحت قائلة: «أنا لستُ مريضة أو مجنونة! عليكِ أن تسمعيني!».

«إذًا لا تتفوّهي بكلامٍ ليس له معنى! فكيف لأي أحد أن يستخدم طيّة الظل سلاحًا؟!».

كادت أصابعها تشق ذراعي. اقتربت منّي أكثر وهمست في أذني قائلة: «عندما يستطيع توسيع نطاقها».

«حسنًا». قلتُ بهدوء تام، مُحاولةً أن أُخلّص ذراعي من قبضتها المُحكمة.

«كانت الأراضي التي يُغطّيها اللا بحر خصبةً وغنية ذات يومٍ. ولكنّها الآن صارت بورًا ولا تطؤها قدم. سيُوسّع مُستحضر الظلام حدودها شمالًا إلى (فيردا)، وجنوبًا إلى (شو هان)، وسيُجبر الجميع على تقديم فروض الولاء والطاعة له، وإلّا سيرون ممالكهم تستحيل إلى رماد أمام أعينهم، وستلتهمهم كائنات الفولكرا الجائعة».

نظرتُ لها مُرتعبة. صدمني ما قالته.. لا بد أنّ العجوز قد فقدت عقلها.

قلتُ لها بلطفٍ: «باغرا، أظن أنّكِ تُعانين الحمّى».

سكتُّ برهة وقلتُ في نفسي: «أو ربما أصابكِ خرف الشيخوخة».

أضفـتُ: «إن العثـور عـلى الأيـل في مصلحتنـا؛ فبهـذا سأسـتطيع مُسـاعدة مُسـتحضر الظـلام عـلى تدمـير الطيّـة».

عـلا صياحهـا كعويـل ذئـبٍ ضـال وهـي تقـول: «كلّا! إنّـه لا ينـوي أن يُدمّـر الطيّـة؛ إنّـه مـن خلقهـا!».

تنهّـدتُ.. تُـرى لمـاذا اختـارت (باغـرا) هـذا اليـوم بالتحديـد كي تفقـد صوابهـا؟

قلـتُ: «إنّ المُهرطـق الأسـود هـو مـن خلـق الطيّـة منـذ مئـات السـنين، أمّـا مُسـتحضر الظـلام فــ...».

صرخت في وجهي غاضبة: «إنّه هو المُهرطق الأسود!».

«أجل، بالطبع».

بذلـتُ مُجهـودًا لـكي أبعـد يدهـا عنّـي. وعندمـا نجحـتُ، ذهبـتُ نحـو البـاب وقبـل أن أخـرج قلـتُ لهـا دون أن ألتفـت: «سـأبحث عـن أحـد المُعالجـين كي يـأتي إليـكِ، ثـم سـأعود إلى غرفتـي».

«انظري إليّ يا فتاة».

تنفّسـتُ بعُمـقٍ ثـم التفـتُّ لهـا. كنـتُ أُشـفق عليهـا، لكـن صبري قـد نفد.

«بـ... باغرا...».

جفّت الكلمات في حلقي.

رأيـتُ كُرتـين مـن الظـلام تتجمّعـان بـين راحتـي (باغـرا)، وطفَـت خيـوط سـوداء في الهـواء.

«أنتِ لا تعلمين عنه شيئًا يا ألينا».

هذه كانت أوّل مرّة تنطق فيها اسمي.

أردفت: «لكنّني أعرفه جيّدًا».

وقفتُ أراقب زوابع صغيرة من الظلال وهي تحتضنها، مُحاولةً فهم ما أراه. دقّقتُ النظر في ملامح (باغرا) الغريبة، فوجدتُ فيها إجابات عن كل تساؤلاتي. رأيتُ طيفًا يحوم حول وجهها، طيف امرأة كانت فاتنة يومًا، قُدّر لها أن تُنجب ابنًا وسيمًا.

همستُ في أذنها قائلةً: «أنتِ أمّه».

أومأت برأسها وقالت: «إنّني لستُ مجنونة. بل أنا المرأة الوحيدة التي تعلم حقيقته جيّدًا، وأعرف جميع نواياه. ولذلك عليكِ أن تهربي في أسرع وقت».

لقد أخبرني مُستحضر الظلام من قبل أنّه لا يعرف ما هي قوى (باغرا). تُرى هل كان يكذب عليّ؟

هززتُ رأسي وحاولتُ أن أُفكّر بهدوء كي أستوعب ما قالته لي (باغرا).

نظرتُ لها وقلتُ: «إن ما تقولينه مُستحيل؛ فالمُهرطق الأسود كان حيًّا منذ مئات السنوات».

«لقد خدم عددًا لا يُحصى من الملوك، وزيّف ميتات لا حصر لها، وظلّ ينتظر مجيئكِ. والآن، وبمُجرّد أن يُسيطر على الطيّة، فلَن يقدر أحد على ردعه».

ارتجف جسدي من وقع كلماتها المُخيفة، ولكنّني سرعان ما تمالكتُ نفسي وقلتُ: «كلّا، لقد أخبرني أن خلق الطيّة كان خطأ وقع فيه المُهرطق الأسود الذي نعته بأنّه شرير».

أرخت (باغرا) يدها فتلاشى الظلام من حولها، ثم قالت: «لم

تكُن الطيّة خطأ؛ فالخطأ الوحيد الذي وقع فيه أنّه لم يتوقّع ما قد تُحدثه تلك القوّة الهائلة ببشرٍ عاديين».

شعرتُ بقلبي ينعصر.

«أتقصدين أن كائنات الڤولكرا كانت بشرًا في الأصل؟».

«أجل. كانوا فلّاحين لهم زوجات وأبناء، عاشوا منذ زمن. لقد حذّرته كثيرًا من الثمن الذي سيدفعه مُقابل أفعاله الشنيعة، ولكنّه لم يكترث. تعطُّشه للسلطة جعله يغفل كثيرًا من الأشياء، حتّى صار أعمى».

«لا بد أنّكِ مُخطئة.. أو ربما تكذبين عليّ!».

فركت ذراعيّ لعلّي أتخلّص من ذلك البرد الذي تسلّل إلى عظامي.

قالت (باغرا): «إن الڤولكرا هي التي منعت مُستحضر الظلام من استخدام الطيّة لمُحاربة أعدائه. تلك الكائنات خُلِقت لتكون عقابه في هذه الحياة، ولتُذكّره دائمًا بغطرسته وتعاليه. لكنّ خلاصه في يدكِ؛ لأن الڤولكرا لا تتحمّل ضوء الشمس. سيستغل مُستحضر الظلام قواكِ لإخضاعها، وسيدخل الطيّة بأمان. وفور حصوله على مُراده، لن يكون ثمّة حدّ لقوّته».

هززتُ رأسي وقلتُ: «لا، لن يفعل ذلك.. مُستحيل!».

تذكّرتُ تلك الليلة التي قضيناها في الحظيرة المهجورة. قال لي بنبرةٍ حزينة عندما جلسنا بجانب النار: «لقد قضيتُ حياتي بحثًا عن طريقة لإصلاح الأمور. أنتِ أوّل شعاع أمل يشُق طريقه إليّ منذ وقتٍ طويل».

«لقد أخبرني أنّه يريد أن يُوحِّد رافكا من جديد، وأنّه...».

صاحت مُقاطعةً إيّاي: «كفى! لا أريد سماع ما أخبرك به! عليكِ أن تعلمي أنّه عاش طويلًا، وهذا يعني أنّ لديه من الخبرة ما يجعله يخبك كذبةً من السهل على فتاةٍ وحيدة وساذجة مثلك أن تُصدّقها».

ثم اقتربت منّي، فلمحتُ عينيها السوداوين تحترقان.

«أمعني التفكير يا (ألينا).. إذا وُحِّدَت رافكا، فلن يصبح للجيش الثاني دور حيوي، وسيصير مُستحضر الظلام محض خادمٍ للملك. هل تظنّين أنّه يريد مصيرًا كهذا؟».

بدأ جسدي يرتجف مُجدّدًا فطلبتُ منها أن تصمت، ولكنّها أتبعت قائلة: «أمّا إذا سيطر على الطيّة، فسيُدمّر كل شيء حوله، ثم سيُخرّب العالم، ولن يركع لأي ملكٍ آخر مهما كان».

«كلّا».

«وكل ما سيحدث سيكون بسببك».

صرختُ في وجهها: «كلّا! لن أتسبّب في شيء! وإذا افترضتُ أن ما تقولينه صحيح، فلَن أساعده!».

«لن يكون لديكِ خيار آخر؛ فمَن يقتُل الأيل يحظى بقوّته».

«لكن مُستحضر الظلام لا يستطيع استخدام مُضخّم قوى!».

قالت بلطفٍ: «لكنّه يستطيع استخدامكِ».

صمتت بُرهة ثم أضافت: «إن أيل موروزوفا ليس مُضخّم قوّى عاديًّا. وعندما يذبحه مُستحضر الظلام، سيفصل قرونه عن رأسه، ثم سيضعها حول رقبتك. وحينها ستصبحين رهن إشارته، وستكونين أقوى غريشا عاشت على الإطلاق، وستصير تلك القوّة الهائلة تحت سيطرته. والأهم من ذلك كلّه أنّه

سـيمتلكك إلى الأبـد، ولـن تسـتطيعي مقاومتـه».

إن تلـك العجـوز، التـي تُحدّثنـي الآن بنـبرة كُلّها شـفقة، لم تسـمح لي أن أكـون ضعيفـة للحظـة، ولم تجعلنـي أسـتريح للحظـة. وهـذا مـا كاد يدفعنـي للانهيـار.

هويـتُ عـلى الأرض، ووضعـتُ يـديّ عـلى أذنيّ كي لا أسـمع المزيـد مــن كلــمات (باغــرا)، وإذا بكلــمات مُسـتحضر الظـلام تُطـاردني، وأخـذت تـتردّد داخـل عقـلي حتّـى كاد ينفجـر.

جميعنا نخدم أحدًا.

ليس الملك إلّا طفل.

معًا سنُغيّر العالم.

لقـد كـذب عـليّ بشـأن (باغـرا) والمُهرطـق الأسـود، وهـا قـد اكتشـفتُ أنّـه كـذب عـليّ بشـأن الأيـل.

عليكِ أن تثقي بي.

لقـد ترجّتـه (باغـرا) أن يُعطينـي أي مُضخّـم قـوى، لكنّـه أصرّ عـلى قـرون الأيـل. لم يُـرِدني أن أرتـدي قـلادة، بـل طوقًـا مـن العظام. وعندمـا أصبحـتُ أسـأله عـن الأيـل باسـتمرار، انتهـز أقـرب فرصـةً كي يُقبّلنـي، لأنـسى أمـر الأيـل ومُضخّـمات القـوى، وأي شيء آخـر..

تذكّـرتُ مظهـر وجهـه المثـالي في ضـوء القنديـل، وكـم كانـت ملامحـه مذهولـة، وشـعره مجعـدًا.

هـل كان كل هـذا جـزءًا مـن الخطّـة؟ تلـك القبلـة بالقـرب مـن ضفّـة البحـيرة، وملامـح الخيبـة التـي اعتلـت وجهـه عندمـا قضينـا ليلـة في المزرعـة المهجـورة، وإيماءاتـه وهمسـاته، وحتّـى مـا حـدث بيننـا الليلـة، هـل خطّـط لـكل هـذا مـن البدايـة؟

شعرتُ بضيقٍ شديد.

ما زلتُ أشعر بأنفاسه الدافئة على رقبتي، وأسمع همساته في أذني.

أتعلمين ما هي مُشكلة الرغبة؟ أنّها تجعلنا ضعفاء.

كم هو ذكيّ!

لقد كنتُ في حاجةٍ ماسّة لأن أشعر بأنّني أنتمي إلى مكانٍ ما.. أي مكانٍ مهما يكُن. ولذلك، عندما منحني ذلك الشعور، صرتُ أفعل ما بوسعي لإرضائه، وسعدتُ أنّه يأتمنني على أسراره. لكنّني لم أسأل نفسي يومًا عن المُقابل الذي يتوجّب عليّ دفعه، وعن السبب الحقيقي وراء ما يفعله معي. لقد كنتُ مُنشغلة بتخيُّلي بجانب مُنقذ (راڤكا) الذي لا مثيل له، وكأنّني ملكة.

بيد أنّني مهّدتُ الطريق لخطّته دون أن أدري.

وبما أنّنا معًا، فسنُغيّر العالم. فقط تحلّي بالصبر.

كان عليّ أن أرتدي أبهى الملابس، وأنتظر قبلته القادمة، وكلامه المعسول. ومن ثَم أنتظر أن يأتي بالأيل وقد صنع لي من قرونه طوقًا يُلائم رقبتي. وفي النهاية، سأصير قاتلة، وبالنسبة له محض جارية.

لقد أخبرني من قبل أن عصر الغريشا قد شارف على الانتهاء. فكيف تخيّلتُ حقًّا أنّ أمرًا كهذا قد يحدث؟

تنفّستُ بعُمقٍ وحاولتُ أن أُسيطر على جسدي المُرتجِف. تذكّرتُ (أليكسي) المسكين وغيره ممّن ابتلعتهم ظلمات الطيّة. وفكّرتُ في الرمال الرماديّة التي كانت ذات يومٍ تربة خصبة

صالحــة للزراعــة. كــما فكّــرتُ في كائنــات الڤولكــرا نفســها، أوّل ضحايـا المُهرطـق الأسـود.

أتظنّين حقًّا أنّني فقدتُ الأمل فيكِ؟

لقـد أراد مُسـتحضر الظـلام أن يسـتغلّني، أراد أن يسـلبني قـوّتي، التـي هـي الـشيء الوحيـد الـذي شـعرتُ أنّنـي أمتلكـه.

نهضـتُ مـن جديـد وقـد قـرّرت أن أفسـد عليـه خطّتـه. أمسـكتُ بكومـة الملابــس التــي أعطتنــي إيّاهــا (باغــرا) ثــم قلــتُ لهــا: «حســنًا. أخبرينــي بمــا علـيّ أن أفعلــه».



الفصل السادس عشر

لاحظتُ ملامح الراحة التي اعتلت وجه (باغرا).

قالت سريعًا: «ستهربين مع الفرقة المسرحيّة إلى خارج القصر. ثم ستتجهين غربًا، وعندما تصلين إلى أوز كيرڤو، ابحثي عن سفينة ڤيرلورين. إنّها سفينة تجاريّة من كيرتش.. ولا تقلقي؛ رحلتكِ مدفوعة».

تجمّدت أصابعي على أزرار زيّي من الصدمة. قلتُ: «هل تريدينني أن أسافر إلى راڤكا الغربيّة وأعبر الطيّة بمفردي؟».

«أريدكِ أن تتواري عن الأنظار يا فتاة. إنّكِ الآن قويّة بالشكل الذي يُؤهلكِ لعبور الطيّة دون مساعدةٍ من أحد. لا شك أنّ عبوركِ سيكون سهلًا؛ فلماذا تظنّين أنّني كنتُ أُدرّبكِ طوال الفترة الماضية؟».

ذاك أمرٌ آخر لم يخطر على بالي. لقد أمَر مُستحضر الظلام (باغرا) أن تدعني وشأني. ظننتُ أنّه يحاول الدفاع عنّي، لكن اتضح أنّه يريدني أن أبقى ضعيفة.

خلعتُ زي الكفتا وقلتُ: «لماذا لم تُخبريني بكل هذا منذ البداية؟ ولماذا اخترتِ هذه الليلة بالتحديد؟».

«خِفتُ أن يفوت الأوان. لم أُصدّق يومًا أنّه قد يعثر على قطيع موروزوڤا؛ فتلك كائنات صعب تعقُّبها».

أضافت بعد برهة من الصمت: «إنّها جزء لا يتجزأ من العالم القديم الذي هو أساس عالمنا.. ولكن يبدو أنّني استخففتُ

برجال مُستحضر الظلام».

«بل إنّكِ استخففتِ بمال». قلتُ في نفسي بينما كنتُ أرتدي البنطال الجلديّ وأنتعل زوجًا من الأحذية التي أعطتني إيّاها (باغرا).

أجل، ليس ثمّة مَن يُتقن التعقُّب والصيد مثل (مال). يستطيع (مال) أن يعثر على الأرانب بين الصخور. وفور وصوله إلى الأيل، سنصير جميعًا فريسة لمُستحضر الظلام.

أعطتني (باغرا) معطفًا وقبّعة من الفراء الثقيل، وحزامًا سميكًا لففته حول خصري. وجدتُ صُرّة مربوطة به بداخلها كثير من العملات، وبجانب الصُّرّة غمد تستقر فيه سكّيني، وجعبة بها قفّازاي.

قادتني إلى الخارج عبر بابٍ صغير وسلّمتني حقيبة سفر مصنوعة من الجلد فارتديتها. ثم أشارت نحو الأضواء التي تتراقص في القصر الصغير. سمعتُ موسيقى تنبعث من هناك، ممّا يعني أن الحفل ما زال قائمًا. شعرتُ وكأن سنوات قد مرّت منذ أن غادرت القاعة، لكنّني لا أظن أن الأمر استغرق أكثر من ساعة.

«اذهبي إلى متاهة الأشجار ثم انعطفي يسارًا. وحاولي طوال الطريق أن تتفادي أضواء الممرّات. لقد بدأ بعض الفنّانين يُغادرون الحفل بالفعل. ابحثي عن إحدى العربات التي ستغادر القصر وألقي بنفسك داخلها. ولا تقلقي؛ فالعربات لا يتم تفتيشها قبل الخروج من القصر. ففي الغالب ستكونين بأمان».

«في الغالب؟».

تجاهلت ما قلته وأتبعت: «عندما تغادرين أوز ألتا، حاولي ألّا تسيري في الطرق الرئيسيّة».

ثم أعطتني ظرفًا مختومًا بالشمع الأحمر وأضافت: «إذا سألك أحد عن هويّتك فأخبريه أنّكِ تعملين في التّجارة وستسافرين إلى راڤكا الغربيّة لتقابلي سيّدك الجديد، أتفهمين؟».

بدأ قلبي ينبض بسرعة. أومأتُ برأسي وقلتُ: «حسنًا.. ولكن.. لماذا تُقدّمين لي كل هذا العون وتخونين ابنكِ؟».

لم تنبس بكلمة، وظلّت واقفة بثبات بين ظلال القصر الصغير الموحشة. ثم عندما التفتت نحوي، لمحتُ شيئًا في عينيها دفعني لأن أتراجع خطوة للخلف.. شعرتُ وكأنّني أقف على حافّة هاويةٍ حالكة السواد، ليس لها قاع، تتثاءب وكأنّها ملّت من انتظار فريستها القادمة. ومن المُؤكّد أن تلك الهاوية اللا متناهية هي مصير كل من عاش طويلًا دون أن يكون لحياته معنًى.

تفاجأتُ بـ(باغرا) تـرُدُّ بلطفٍ قاطعة صمتها: «منذ سنواتٍ طويلة، قبل أن يحلم بأن يُكوِّن الجيش الثاني، ويُغيِّر اسمه ليصير مُستحضر الظلام، كان صبيًّا ذكيًّا وموهوبًا. فزِدتُ من طموحه وكبريائه. وقد آن الأوان لإيقافه عند حدّه».

ثم رسمت ريشة الحزن على شفتيها ابتسامة خافتة.

لبثت مليًّا ثم أضافت: «قد تظنّين أنّي أكره ابني، لكنّني أحبّه. وبدافع ذلك الحب فلَن أسمح له أن يصير فريسة لبراثن أفعاله المُشينة».

نظـرت إلى القـصر الصغـير وأردفـت: «سـآمُر خادمـة بـأن تقـف أمـام غرفتـك في الصبـاح لتُخبـر كل مـن يسـأل عنـكِ أنّـكِ مريضـة. سـأحاول أن أُبعـد الأنظـار عنـكِ قـدر اسـتطاعتي».

«الليلـة.. عليـكِ أن تُرسـلي الخادمـة الليلـة؛ لأن مُسـتحضر الظـلام قـد... قـد يذهـب إلى غرفتـي».

توقَّعـتُ أن تضحـك (باغـرا) كالعـادة، لكنّهـا هـزّت رأسـها وقالـت بهـدوء: «يـا لـكِ مـن فتـاة سـاذجة».

لم تزعجني سخريّتها هذه المرّة.

نظرتُ أمامي وفكّرتُ في كل المتاعب التي تنتظرني.

وتساءلتُ: هل سأهرب حقًّا؟

قاومـتُ ذعـري وقلـتُ: «شـكرًا لـكِ يـا (باغـرا).. شـكرًا لـكُل مـا فعلتِـه مـن أجلـي».

«اذهبي الآن يا فتاة. أسرعي الخطى وتوخّي الحذر».

أوليتُ لها ظهري وركضتُ.

***

عرفـتُ كل ركـنٍ مـن سـاحات القـصر الشاسـعة بفضـل تدريبـات (بوتكـن) التـي استـمرّت لأيّـام لم أسـتطع إحصاءهـا. كـم أنـا مُمتنّـة لـكل سـاعةٍ فاحـت فيهـا رائحـة عرقـي حينـما كنـتُ أعـدو بـين الأشـجار في البسـاتين. أرسـلت (باغـرا) سُـحُبًا مـن الظـلام، حفّتنـي مـن كل جانـب، كي تُخفينـي عـن الأنظـار بينـما كنـتُ أقـترب مـن السـاحة الخلفيّـة مـن القـصر الكبـير.

تُـرى هـل مـا زالـت (ناديـا) و(مـاري) ترقصـان بالداخـل؟ وهـل تبحـث (جينيـا) عنّـي؟

أكملتُ الركض ولم آبه بالبحث عن إجاباتٍ لتلك الأسئلة؛ كنتُ خائفة من التفكير مليًّا فيما سأفعله، وفي كل ما سأتركه خلفي.

رأيتُ أفرادًا من الفرقة المسرحيّة يملأون إحدى العربات بحقائب بها أزياؤهم ومُعدّاتهم. وظلّ الحوذيّ، الذي كان يُمسك بزمام الجواد، يصيح آمرًا إيّاهم أن يُسرعوا. صعد أحدهم إلى جواره، وتزاحم الآخرون داخل عربة صغيرة يجرُّها مهر ظلّت الأجراس المُتدلّية من لجامه تُصلصل أثناء سيره. أسرعتُ إلى مُؤخّرة العربة، مختبئةٌ في طريقي بين الأشجار ومُتلثّمة بقطعة من القماش.

كتمتُ أنفاسي عندما كنّا نمرُّ في الطريق المرصوف بالحصى، ومنه إلى بوّابات القصر. ظننتُ أنّه -في أي لحظة- سيُطلق أحدهم صافرة إنذار وسنتوقّف عن السير على الفور، ثم سيُكشف أمري وسيُخرجونني من العربة. لكن العجلات ظلّت تندفع للأمام دون توقّف، وترنّحت العربة في شوارع (أوز ألتا) المُتعرّجة.

حاولتُ أن أتذكّر ذلك الطريق الذي سلكته مع مُستحضر الظلام عندما أحضرني إلى هنا منذ أشهرٍ طويلة، لكنّ الإرهاق كان قد سيطر على جسدي بالكامل، لدرجة أن ذاكرتي أضحت مُشوّشة ولم تستحضر إلّا صورًا مُبهمة للمنازل الفخمة والشوارع الضبابيّة التي تُزيّن (أوز ألتا). لم أستطع رؤية الكثير من مخبئي، ولم أجرؤ على إلقاء نظرةٍ خاطفة خوفًا من أن يكشف أمري أحد المارّة. كل ما تمنّيته في تلك اللحظة أن أبتعد عن القصر لأكبر مسافةٍ ممكنة قبل أن يلحظ أحد غيابي. لا أعلم إلى أي

مـدى قـد تنجـح (باغـرا) في حجـب الأنظـار عنّـي، ولذلـك انبعـث صـوتٌ بداخـلي يترجّـى الحـوذيّ أن يُلهـب بسـوطه كتفَـي فرسـه كي نُـسرع.

وعندمـا عبرنـا الجسر إلى سـوق المدينـة، تنفّسـتُ الصُعـداء وقـد شـعرتُ أخـيرًا ببعـض الراحـة.

تسـلّل هـواءٌ بـارد إلى داخـل العربـة عبر الثغـرات التـي في الهيكل، أنقـذني مـن بطشـه المعطـف الثقيـل الـذي أعطتنـي إيّـاه (باغـرا). كنـتُ مُتعبـة وأشـعر بإعيـاءٍ شـديد، ومخبئـي لم يكـن مُريحًـا عـلى الإطـلاق، كـما أنّ قلبـي قـد امتـلأ بالخـوف؛ كنـتُ أهـرب مـن أقـوى رجـل في (رافـكا)، ومـن المُؤكّـد أنّـه سيُرسـل أفـرادًا مـن الغريشـا، وجنـودًا مـن الجيـش الأوّل، وربمـا سـيبعث (مـال) وزمـلاءه مـن المُتعقّبين كي يبحثـوا عنّـي.

تُـرى هـل سـأنجح في عبـور الطيّـة بمُفـردي؟ وإذا اسـتطعت الوصـول إلى (رافـكا الغربيّـة) بأمـان وصعـدتُ عـلى مـتن سـفينة (فيرلوريـن)، فـماذا سـأفعل؟ سـأكون وحيـدة في بلـدٍ غريـبٍ لا أتحـدّث لغتـه ولا أعـرف فيـه أحـدًا. اغرورقـت عينـاي بالدمـوع، لكنّنـي مسـحتها بيـدي بغضـب؛ فـإذا شرعـتُ في البـكاء، فربمـا لـن أتوقّـف.

سِرنـا في طـرق (أوز ألتـا) الحجريّـة خـلال السـاعات الأولى مـن الصبـاح، ثـم مضينـا في طريـق (فـاي) الـذي تُشـوّه مظهـره بـرك مـن الطين. انجـلى الفجـر ثـم أفـل دون أن أنـام، ورغـم أنّنـي كنـتُ أغفـو مـن حـين لآخـر، فـإن خـوفي أبقـاني مُسـتيقظة لمُعظـم الرحلة. وعندمـا ارتقـت الشـمس إلى أعـلى نقطـة في السـماء، وبـدأتُ أتعرّق في معطفـي الثقيـل، توقّفـت العربـة فجـأة. جازفـتُ بإلقـاء نظـرة

إلى الخارج فوجدتنا خلف حانةٍ أو ربما نُزُل.

مددتُ ساقيّ اللتين شُلّتا من عدم الحركة، وإذا بالدم يتدفّق بسرعة إلى أصابع قدميّ. انتظرتُ حتّى دلف السائق والآخرون إلى داخل المبنى ثم خرجت من مخبئي. كنتُ أعلم أنّني إذا بدوتُ وكأنّني أتسلّل، فسألفت الأنظار إليّ، ولذلك مضيتُ بهدوءٍ وثبات إلى الجانب الآخر من المبنى وانضممتُ إلى المارّة في الشارع الرئيسي للقرية.

أدركتُ أنّني في (بالاكريف) عندما تنصّتُّ على بعض المُتحدّثين، وهي قرية صغيرة تقع في غرب (أوز ألتا) مُباشرةً. لقد حالفني الحظ وتأكّدت أنّني أسير في الاتجاه الصحيح.

أثناء الرحلة، كنتُ أحصي النقود التي أعطتني إيّاها (باغرا)، وحاولتُ أن أضع خطّة لإكمال السفر. كنتُ أعلم أن السفر بالخيل أسرع من أي وسيلة أخرى، ولكن فتاة بلا مرافق مثلي، تملك ما يكفي من النقود لشراء حصان، لا شك ستُثير فضول الكثيرين. ولذا، فارتأيتُ أن الطريقة المُثلى هي أن أسرق حصانًا، ولكنّني لم أدرِ كيف يُمكنني القيام بذلك، فقرّرتُ أن أُكمل السير وأضع مقاليد الأمور في يد الحظ.

توقّفتُ عند السوق قبل مُغادرتي للقرية كي أشتري خبزًا، ومُكعّبات من الجبن، ولحمًا مُجفّفًا.

وبينما كنتُ أضع الطعام في حقيبتي، نظر إليّ البائع العجوز الذي اقتلع الزمن أسنانه، وقال: «يبدو أنّكِ جائعة، أليس كذلك؟».

قلتُ: «بل هذا أخي. إنّه شرِه كالخنزير».

ثم تظاهرتُ أنّني ألوّح لأحد المارّة وصِحتُ قائلةً: «مهلًا! أنا قادمة!». وركضتُ على الفور.

أردتُه أن يتذكّر أنّه رأى فتاةً تنتظرها عائلتها لاستئناف السفر. ومن الأفضل ألّا يتذكّرني على الإطلاق.

قضيتُ تلك الليلة في مخزن تبنٍ في مزرعة ألبان تقع بالقرب من طريق (ڤاي). كم اشتقتُ وقتها لسريري المُريح في القصر الصغير، لكنّني كنتُ مُمتنّة لذلك المأوى ولأصوات الحيوانات التي أحاطتني؛ فخوار البقر رغم علوّه أحيانًا فإنّه خفّف عنّي ألم الوحدة.

استخدمتُ حقيبتي وقبّعتي كوسادتين، وانقلبتُ على جانبي الأيسر وظللتُ أفكّر: ماذا لو كانت (باغرا) مُخطئة؟ ماذا لو كانت تكذب عليّ؟ هل سأعود إلى القصر الصغير وأنام في سريري الدّافئ وأحضر تدريبات (بوتكن) من جديد وأجلس مع (جينيا) لنتحدّث عمّا يجري في القصر؟

وإذا عدتُ، هل سيُسامحني مُستحضر الظلام؟

ولكن لماذا يُسامحني وأنا لم أُخطئ من الأساس؟ بل إنّه من يريد أن يضع طوقًا من العظام حول رقبتي ليجعلني جارية له! فلماذا إذًا يهمّني عفوه؟!

انقلبتُ على الجانب الأيمن وقد شعرتُ بالغضب من نفسي.

ولكنّ قلبي كان يُؤكّد لي أن (باغرا) على حق. تذكّرتُ تلك الجملة التي قلتها لـ(مال) بعفويّة: «إنّه يمتلكنا جميعًا». كنتُ غاضبةً وقتها وأردتُ فقط أن أجرح كبرياءه. ولكنّني قلتُ الحقيقة في النهاية، مثلما تفعل (باغرا) دائمًا. كنتُ أعلم أن

مُستحضر الظلام قاسٍ وخطِر، لكنّ حماسي المُفرط لما كنتُ مُقبلة عليه، ولأنّه اصطفاني لجواره، جعلني أتغاضى عن كل موبقاته.

سمعتُ صوتًا يتردّد داخل رأسي، يقول: «لماذا تنكرين أنّكِ أردتِ البقاء معه؟ لماذا تنكرين حقيقة أن ثمّة جزءًا منكِ يحثّكِ على العودة إليه؟».

حاولتُ ألّا أبحث عن إجابات، وظللتُ أُفكّر في ما سيحدث لي في اليوم التالي، وأي طريقٍ آمن عليّ أن أسلكه.

لم أُرِد أن أتذكّر لون عينيه.

***

قضيتُ اليوم التالي بأكمله على طريق (ڤاي). وجدتني مُحاطة بعددٍ من المُسافرين العائدين من (أوز ألتا) أو المُتجهين إليها. ولأن مُحاولات (باغرا) لحجْب الأنظار عنّي ستوفّر لي وقتًا كافيًا للابتعاد عن بؤرة الخطر، فتجنّبتُ الطرق الرئيسيّة والتزمتُ بالمشي في الغابات والحقول، مُتتبّعة ما قد خلّفه الصيّادون من أغراض. والحق أنّني عانيتُ مشقّة السفر سيرًا، حتّى أنّني وجدتُ بثورًا قد تكوّنت على أطراف أصابع قدميّ. ومع ذلك، فلَم أستسلم وتابعتُ المشي دون توقّف، وعيناي لا تنفكّان عن مُتابعة مسار الشمس من فوقي.

وعندما أسدل الليل ستاره، وحلّ صقيعه الذي يفتك بالعظام، لففتُ قبّعتي حول أذنيّ وجلستُ مُحاولة تدفئة جسدي الذي لا يُخفّف فراء معطفي من حدّة ارتعاشه. وازداد الأمر سوءًا عندما سمعتُ أصواتًا تنبعث من معدتي وكأنّ ثمّة وحشًا يزأر

بداخلها.

رسمتُ في مُخيّلتي خرائط كثيرة، مثل تلك التي كنتُ أعمل عليها في خيمة الوثائق، وكانت من بينها خريطة تُوضّح المسافة القصيرة التي قطعتها من (أوز ألتا) إلى (بالاكيريف)، حيث مررتُ بالعديد من القرى الصغيرة مثل (تشيرنتسن) و(كيرسكي) و(پولڤوست).

حاولتُ ألّا أفقد الأمل؛ فالطريق إلى الطيّة طويل ومحفوف بالمخاطر، وليس ثمّة ما أفعله سوى إكمال السير آملةً أن يحالفني الحظ في رحلتي.

همستُ لنفسي في الظلام قائلةً: «أنتِ لا تزالين حيّة.. والأهم أنّكِ حُرّة».

مررتُ في الطريق بكثيرٍ من المُزارعين والمُسافرين، فارتديتُ قفّازيّ ووضعتُ يدي على سكّيني تحسّبًا، لكن لم يلحظني منهم إلّا القليل. وكنتُ أشعر بالجوع باستمرار، ولذلك استهلكتُ كثيرًا من المُؤن التي ابتعتُها من سوق (بالاكيريف)، كما كنتُ أعتمد على مياه الجداول للشرب، وسرقتُ بيضًا وتفّاحًا من بعض المزارع التي صادفتني في الطريق.

لم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا يُخبّئه لي المُستقبل من مفاجآت، ولم أدرِ إلامَ ستؤول بي هذه الرحلة الشاقّة، لكنّني تمسكتُ بالتفاؤل. وعلى الرغم من أنّني ذقتُ مرارة الوحدة طيلة حياتي، فإن السفر دون مُرافق له مرارته الخاصّة. لكن الأمر لم يكُن مُخيفًا على عكس ما توقّعته مُسبقًا.

ذات صباحٍ، رأيتُ كنيسة صغيرة مطليّة بدهانٍ أبيض. تسلّلتُ

إلى الداخـل كي أحـضر قدّاسًـا لأحـد القساوسـة. وعندمـا انتهـى، دعـا مـن أجـل ولـد أُصيـب في إحـدى المعـارك، ولرضيـعٍ أصابتـه الحُمّـى. اندهشـتُ عندمـا وجدتـه قـد خصّـص آخـر دعواتـه لـ(ألينا سـتاركوف).

قـال حينهـا: «لتعِـش مُسـتحضرة النـور في رعايـة القدّيسـين وحمايتهـم؛ تلـك التـي بُعثـت كي تُخلّصنـا مـن شرور طيّـة الظـل، وتجمـع شـملنا مـن جديـد».

شعرتُ بثقلٍ في قلبي فهممتُ بمُغادرة الكنيسة.

قلـتُ في نفـسي: «إنّهـم يدعـون لـكِ الآن، ولكـن إذا نال مُسـتحضر الظـلام مُراده، سـيكرهونكِ جميعًا».

والحـق أنّنـي لـن ألومهـم إذا فعلـوا؛ ألسـتُ أتخـلّى عـن راڤـكا وعـن كل مـن يؤمنـون بي الآن؟

إنّنـي أعلـم جيّـدًا أن قـوّتي سـتقضي عـلى الطيّـة، ولكـن هـا أنـا ذا أهـرب كالجبنـاء.

لم أتحمّـل التفكـير في أي شيء. أنـا خائنـة وهاربـة. ولكـن قبـل أن أهتـم بمصير (راڤـكا)، عـليّ أوّلًا أن أتحـرّر مـن قبضـة مُسـتحضر الظـلام.

ركضـتُ سريعًـا في طريقـي إلى الغابـة، ثـم صعـدتُ سـفح تـلٍّ مُحاولـةً الهـرب مـن دقّـات أجـراس الكنيسـة التـي ظلّـت تطـاردني.

اسـتدعت ذاكـرتي تلـك الخريطـة التخيُّليّـة، فأدركـتُ حينهـا أنّنـي اقتربـتُ مـن (رايڤوسـت)، أكـبر المُـدن النهريّـة في (راڤـكا الشرقيّـة)، مـما يعنـي أنّ عـليّ تحديـد أفضـل طريـق سـيقودني إلى الطيّـة بأمـان. كان ثمّـة اختيـاران: إمّـا أن أتّخـذ طريـق النّهـر، أو أمـضي

مُباشرةً إلى جبال (بيترازوي) الشاهقة المُنتصبة فوق سماء الجهة الشماليّة الغربيّة. إذا سلكتُ طريق النّهر، سأمُرُّ بمناطق مُكتظّة بالسُّكان، أمّا الطّريق الجبليّ -بغضّ النّظر عن قِصَره- فسيكون من الصّعب اجتيازه. ظللتُ أُفكّر إلى أن وصلتُ إلى مُفترق الطرق في منطقة (شورا)، ثم استقرّ اختياري على الطريق الجبليّ. سيتعيّن عليّ -رغم خطورة الأمر- أن أتوقّف في (رايڤوست) قبل أن أتّجه إلى الوادي كي أبتاع غطاء ومزيدًا من الطّعام، حتّى أستطيع أن أُكمِل طريقي في (بيترازوي) بسلام.

وبعدما قضيتُ هناك أيّامًا طويلة، أصبحتُ لا أتحمّل ضجيج الشوارع دائمة الزّحام في (رايڤوست). لم أرفع رأسي للحظة أثناء سيْري بين المارّة، وأبقيتُ قُبّعتي مُنخفضة على الدوام؛ فمِن المُؤكّد أنّني كنتُ سأجد مُلصقات مرسومًا عليها وجهي مُثبّتة على أعمدة الإنارة ونوافذ المتاجر. لكنّني شعرتُ باطمئنان أكبر عندما توغّلتُ أكثر إلى عمق المدينة؛ فقد اتّضح أن خبر اختفائي لم ينتشر على عكس ما توقّعته.

سال اللُّعاب من فمي عندما فاحت من حولي رائحة الخراف المشويّة والخبز الطازج. تناولتُ تفّاحة عسى أن تكُف معدتي عن الصراخ، بينما كنتُ أشتري المزيد من مُكعّبات الجبن واللّحم المُجفّف.

ربطتُ غطائي الجديد بحقيبة السفر، وحاولتُ إيجاد طريقة لكي أحمل الوزن الزّائد خلال صعودي إلى سفح الجبل دون أن أفقد شيئًا. كِدتُ -في هذه الأثناء- أن أمُرّ بجموعة من الجنود كانوا يقفون على مقربة منّي. فزِعتُ وتسارعت ضربات قلبي عندما وقع نظري على معاطفهم الخضراء الزّيتونيّة وبنادقهم

النّائمـة فـوق ظهورهـم. أردتُ أن ألتفـت وأركـض في الجهـة الأخـرى، لكنّنـي عدلـتُ عـن قـراري وأجـبرتُ نفـسي عـلى السـير برتابـةٍ خافضـةً رأسي. وعندمـا ابتعـدتُ عنهـم بمسـافة قصـيرة، جازفـتُ بإلقـاء نظـرة عليهـم فوجدتهـم لا يرمقوننـي بنظـرات شـكٍ. بـل كانـوا -في الواقـع- يتبادلـون النـكات ويتجاذبـون أطـراف الحديـث. وكان مـن بينهـم جنـدي يُغـازل فتـاة أطلّـت مـن إحـدى الشرفـات كي تنـشر الغسـيل، ولكنّهـا لم تكُـن تسـتجيب.

انعطفـتُ إلى أحـد الشـوارع الجانبيّـة لألتقـط أنفـاسي ولأدع فُرصـة لضربـات قلبـي لـكي تنتظـم. تُـرى مـاذا يحـدث الآن؟ لقـد هربـتُ مـن القـصر الصغـير منـذ أكـثر مـن أسـبوع، لا بـد أن حالـة الطـوارئ قـد أُعلنـت وسيُرسـل مُسـتحضر الظـلام فرسـانًا إلى كل وحـدات الجيـش ليبحثـوا عنّـي.

سيُطاردني كل جندي من جنود الجيشين الأوّل والثاني.

***

رأيـتُ مجموعـة أخـرى مـن الجنـود قبـل مُغـادرتي لـ(رايڤوسـت). كانـوا يُبدّلـون الخدمـة ولذلـك لم يلحظنـي منهـم أحـد. أظـنّ أنّ عـليّ أنْ أشـكُر (باغـرا) لأنّهـا ربمـا تكـون قـد نجحـت في إقنـاع مُسـتحضر الظـلام بأنّنـي قـد تـم اختطـافي، أو أنّ الفيردانيـين قـد قتلـوني. ومـن المُحتمـل أيضًـا أن يكـون قـد توقّـع أنّنـي هربـتُ إلى (راڤـكا الغربيّـة).

قـرّرتُ أن أتـرك مصـيري في يـد الحـظ وأسرعـتُ لأجـد طريقًـا لمُغـادرة المدينـة. اسـتغرق الأمـر منّـي وقتًـا طويـلًا ولم أصِـل إلى الحـدود الغربيّـة إلّا بعـد حلـول اللّيـل. هجـر النـاس الشـوارع وفـرَض الظـلام سـلطانه عليهـا، مُسـتثنيًا بعـض الحانـات المشـبوهة

التي جلس أمام إحداها عجوز ثمِل مُرتكن على الحائط ظلّ يُغنّي لنفسه بصوتٍ خفيض. مررتُ بحانةٍ تنبعث الضوضاء من جميع نوافذها، وإذا ببابها الرئيسي ينفتح على مصراعيه ويتدحرج منه بدن رجل سمين إلى الشارع تحت أضواء القناديل وأنغام المجون.

أمسك بطرف معطفي ثم نهض وقرّبني منه وهو يقول: «مرحبًا يا جميلتي! هل أتيتِ كي تُدفئي جسدي المُرتعش؟».

حاولتُ الابتعاد عنه ولكنّه جذبني ناحيته من جديد وقال: «جسدكِ يبدو هزيلًا لكنّكِ قويّة».

رائحة أنفاسه المُختلطة برائحة البيرة كادت تسُدُّ فتحتي أنفي.

قلتُ بصوتٍ خفيض: «دعني وشأني».

«لماذا تودّين الهرب أيّتها الفاتنة؟ بإمكاننا أن نستمتع معًا هذه الليلة!».

«قلتُ دعني وشأني!». ثم دفعته بقوّة.

قهقه ضاحكًا ثم جذبني ناحية الزقاق المُظلم المُجاور للحانة وهو يقول: «لن أتركَكِ الآن؛ أودُّ أن أُريكِ شيئًا».

نقرتُ على معصم يدي فشعرتُ بالمرايا الدقيقة تنزلق بين أصابعي، وسرعان ما انطلقت دفقة ضوءٍ سريعة ومُركّزة أصابت عينيه على الفور. أصدر نخرة عالية ووضع يديه على عينيه. ثم فعلتُ ما علّمني (بوتكن): ضربته بقدمي بقوّة على قوس قدمه ثم ضربته على كاحله وأنا أدفعه في الاتجاه المُعاكس فسقط مُحدثًا زلزالًا عنيفًا.

فُتِح باب الحانة الجانبي في تلك اللحظة، وخرج منه جندي يُمسك بزجاجة كفّاس في يدٍ، ويده الأخرى يضعها على خصر امرأة ترتدي ثوبًا شفافًا. انتابني شعور بالرهبة عندما لاحظتُ أن الجندي كان يرتدي زي الأوبرتشنيكي الأسود الفاحم. وقف يراقب المشهد، حيث كان الرجل الثمِل مُتمدّدًا على الأرض وأنا واقفة أمامه. ضحكت المرأة التي كان يحتضنها وقال هو: «ما الذي يجري هنا؟».

صاح الرَّجُل: «لقد فقدتُ بصري! لقد أعمتني!».

نظر حارس الأوبرتشنيكي إليه ثم صوّب نظره تجاهي، وعندما تقابلت أعيننا، بدا من تعبيرات وجهه أنّه قد تعرّف عليّ. لقد خذلني حظّي؛ فحتّى إذا لم يُرسل مُستحضر الظلام أناسًا لمُلاحقتي، فحرّاسه يبحثون عنّي.

همس الحارس: «إنّكِ...».

فررتُ هاربةً.

ركضتُ في الزقاق المُظلم ثم وجدتني في منتصف متاهةٍ من الشوارع الضيِّقة. أخذ قلبي ينبض بعُنف بينما كنتُ أعدو إلى أطراف المدينة التي تنتشر فيها مبانٍ قذرة. انعطفتُ عن الطريق وألقيتُ بنفسي في أحضان الغابة، وكلّما توغّلتُ أكثر كانت تصفعني غصون الأشجار على خدّيّ وجبهتي.

تعالت من خلفي صيحات من يطاردونني، وسمعتُ وقع أقدامهم الثقيلة على أوراق الشجر الذي يُغطّي أرض الغابة. أردتُ أن أواصل الركض حتّى وإنْ سلبتني الظلمة من ضوء عينيّ، لكنّني أرغمتُ نفسي على التوقُّف لأستمع إلى الأصوات

مـن حـولي.

كانـوا جميعًـا مُتمركزيـن ناحيـة الـشرق، يبحثـون عنّـي بالقـرب مـن الطريـق. لم أسـتطع تحديـد عددهـم.

أدركـتُ عندمـا هـدأت أنفـاسي أن ثمّـة صـوت خريـر مـاء ينبعـث مـن مـكانٍ مـا. لا بـد أن هنـاك مجـرى مـاءٍ قريبًـا، ربمـا هـذا أحـد فـروع النهـر. إذا تمكّنـتُ مـن الوصـول إليـه سـيصعب عليهـم تحديـد مـكاني في الظـلام.

تتبّعـتُ خريـر المـاء، وتوقّفـتُ غـير مـرّة كي أُصحّـح مسـاري. صعـدتُ تـلًّا مُنحـدرًا بصعوبـة حتّـى أنّنـي كِـدتُ أزحـف.

علا صوت من أسفل التل: «هنا!».

رأيـتُ أضـواء تتراقـص في الأسـفل فهممـتُ بالزّحـف إلى قمّـة التـل. كانـت الرمـال تنزلـق مـن تحتـي، وأنفـاسي تحـرق صـدري. وعندمـا وصلـتُ لسـفح التـل، مضيـتُ إلى الحافـة وألقيـت نظـرة عـلى ضـوء القمـر المُتلألـئ الـذي يطفـو عـلى سـطح المـاء، فشـعرتُ بالأمـل يتدفّـق إلى قلبـي.

انزلقـتُ بسرعـة إلى أسـفل التـل مـن الجهـة الأخـرى، مُحاولـةً الحفـاظ عـلى تـوازني قـدر الإمـكان. سـمعتُ صيحـات تشُـق ثنايـا الهـواء فالتفـتُّ ونظـرتُ إلى الأعـلى فوجدتُهـم قـد وصلـوا إلى قمّـة التـل، وقـد بـدوا كالأشـباح في ظلمـة الليـل.

سـيطر الذعـر عـليّ فنهضـتُ لأركـض بأقـصى سرعتـي إلى الأسـفل. تسـاقطت أمطـار مـن الحـصى مـن أسـفل قدمـيّ إلى مجـرى المـاء. كان التـل شـديد الانحـدار وسرعـان مـا فقـدتُ تـوازني وسـقطتُ إلى الأمـام باندفـاع هائـل. امتـلأت يـداي بالجـروح عندمـا اصطدمـتُ

بـالأرض بقـوّة، ولـمّـا فشـلتُ في إيقـاف اندفاعـي، ظللـتُ أتدحـرج إلى أن سـقطتُ في المـاء البـارد.

شعرتُ للحظة أن قلبي قد توقّف.

كان الـبرد مثـل يـد أطبقـت قبضتهـا الفولاذيّـة عـلى جسـدي وجذبتنـي إلى الأعـماق. قاومتُهـا وسـبحتُ إلى السـطح حتّـى تمكّنـتُ مـن استنشـاق مـا يكفـي مـن الهـواء قبـل أن يسـحبني التيّـار إلى الأسـفل مـن جديـد. لا أعلـم مـا هـي المسـافة التـي قطعتهـا إلى القـاع؛ فقـد كنـتُ أُفكّـر في كيفيّـة صعـودي إلى السـطح لألتقـط أنفـاسي مـرّة أخـرى، كـما انشـغلتُ في تخيُّـل مـا سـيحدث لأطـرافي المُتجمّـدة إذا لم أسـتطع الخـروج مـن المـاء في أسرع وقـتٍ مُمكـن. في النهايـة، عندمـا أدركـتُ أنّنـي لـن أسـتطيع مُقاومـة المـاء، لفظنـي التيّـار في بركـة صغـيرة هادئـة، فتشـبّثت بصخـرة قويّـة ودفعـتُ بنفـسي إلى الأعـلى حتّـى احتضـن جسـدي اليابـس. تمالكـتُ نفـسي ونهضـتُ، ثـم سِرتُ بخطـوات ثقيلـة. كـدتُ أنزلـق غـير مـرّة عندمـا وطـأت قدمـاي حجـارة النّهـر الناعمـة، وزاد معطفـي المُحمّـل بالمـاء مـن صعوبـة تحـرُّكاتي.

لا أدري كيـف اسـتطعتُ أن أمـضي إلى الغابـة. ظللـتُ أسـير إلى أن وجـدتُ بقعـةً بهـا شـجيرات مُتكاتفـة الغصـون فألقيـت بنفـسي تحتهـا. كان جسـدي يرتعـش مـن الصقيـع وأخـذتُ أتقيـأ مـاء البحـر مـن فمـي. لا شـك أن تلـك كانـت أسـوأ ليلـة قضيتهـا في حيـاتي. كان معطفـي مُبلّـلًا بالكامـل، ولم أشـعر بأصابـع قدمـي تتحـرّك داخـل حـذائي. وأي صـوتٍ ينبعـث مـن حـولي يُفزعنـي؛ التهمنـي وحـش القلـق وخِفـتُ أن يلفظنـي خـارج معدتـه إذا ظهـر أحدهـم فجـأة. اكتشـفتُ أنّنـي فقـدتُ في النهـر قبّعتـي، وحقيبتـي

المُمتلئة بالطعام، وغطائي الجديد، وبهذا فلم تكُن ثمّة فائدة من رحلتي إلى (رايڤوست). أدركتُ أيضًا أن صُرّة النقود قد ضاعت، لكنّني لحُسن الحظ وجدتُ سكّيني مُستقرّة في غمدها بلا تغيير.

سمحتُ لنفسي قبيل الفجر بأن أستحضر كُرة ضوءٍ صغيرة كي أُجفّف حذائي وأُدفئ يديّ المُرتعشتين. غفوتُ بعد ذلك وحلمتُ بأن (باغرا) تُمسك بسكّيني وتضعها على حلقي، وتتوالى ضحكاتها كحشرجات حلقٍ جافٍ لم تُبلّله الكلمات منذ مُدّة طويلة.

أيقظني نبض قلبي، وأصوات التحرُّكات من حولي. كنتُ مُرتكنة على جذع شجرة عندما تملّك النوم منّي، ومن حولي الأيك يُواريني عن الأنظار. لم ألمح من موقعي أي شخص في الجوار، لكنّني سمعتُ أصواتًا غريبة قادمة من بعيد. تجمّدتُ في مكاني وقد انتابتني الحيرة؛ فإذا تحرّكتُ سيعلمون مكاني، وإذا التزمتُ الصمت وبقيتُ حيث أنا، سيعثرون عليّ عاجلًا أم آجلًا.

تسارعت ضربات قلبي عندما صارت الأصوات أكثر وضوحًا. لمحتُ من بين أوراق الشجر جنديًّا قصيرًا مُلتحيًا، يحمل بندقيّةً في يده. كنتُ أعلم أنّهم لا يسعون لقتلي؛ فأنا ذات قيمة كبيرة بالنسبة لـ(راڤكا) بأكملها. بل وإنّني إذا عزمتُ على إنهاء حياتي، فلّن يمنحوني هذا الحق.

«لن أسمح لهم بأن يُعيدوني إلى القصر، نهائيًّا!».

نقرتُ على معصم يدي اليسرى فانزلقت مرآة صغيرة إلى راحتي، وبيدي الأخرى سحبتُ السكّين من غمدها. شعرتُ

بثقـل معـدن الغريشـا الخـاص. انحنيـتُ بهـدوءٍ وتجمّـدتُ في مـكاني مُنتظـرة سـماع أي صـوت. كان جسـدي يرتعـد خوفًـا، لكنّنـي شـعرتُ ببعـض الحـماس.

راقبـتُ الجنـدي المُلتحـي بينـما كان يتحـرّك جيئـةً وذهابًـا، إلى أن صـار عـلى مقربـة قـدمٍ منّـي. رأيـتُ قطـرة عـرقٍ تنزلـق إلى عنقـه وكأنّهـا جمـرة مُلتهبـة قذفتهـا الشـمس كي تحرقـه، كـما لمحـتُ بندقيتـه تلمـع في ضـوء الصبـاح المُـشرق. ظننـتُ للحظـةٍ أنّ أعيننـا التقـت، ولكـن عندمـا أتـت صيحـة مـن أعـماق الغابـة، أجـاب عليهـا الجنـدي قائـلًا: «نيتشـيقوا!»، أي «لا أحـد». ثـم تفاجـأتُ بـه يلتفـت ويمـضي بعيـدًا.

تلاشـت أصواتهـم تدريجيًـا، وخفـت وقـع أقدامهـم إلى أن اختفـى. تُـرى هـل حالفنـي الحـظ هـذه المـرّة؟ هـل كانـوا يتقفّـون أثـر حيـوانٍ أو مُسـافرٍ آخـر فتتبّعـوني خطـأً؟ أم هـل هـذه خدعـة مـا؟

انتظـرتُ حيـث أنـا، بجسـدٍ مُرتعـد، إلى أن سـاد الصّمـتُ إلّا مـن طنـين الذبـاب، ونعيـق الغربـان، وحفيـف الأشـجار التـي تُهدهدهـا الريـاح.

تنفّسـتُ الصُعـداء وأعـدتُ المـرآة إلى مكانهـا، والسـكّين إلى غمدهـا، واسـتقمتُ في وقفتـي. ثـم التقطـتُ معطفـي الـذي مـا زال مُبلّـلًا مـن بـين بركـة طـينٍ عـلى الأرض.

وفجأة، سمعتُ صوت وقع أقدام خافت آتيًا من خلفي.

التفـتُّ سريعًـا بقلـبٍ يـكاد يتجمّـد مـن الخـوف، فرأيـتُ شـخصًا يختبـئ خلـف غصـونٍ الأشـجار، يبعـد عنّـي ببضـع خطـوات. كان تركيـزي مُنصبًـا عـلى الجنـدي المُلتحـي لدرجـة أنّنـي لم أرَ ذلـك

الشخص الذي يقف خلفه. أمسكتُ بسكّيني على الفور ورفعتُ يدي في تأهّبٍ بينما كان الشخص يتقدّم نحوي.

وقفتُ أُحدّق به، غير مُصدّقة ما رأته عيناي.

إنّه (مال)..

كنتُ على وشك التحدّث معه، لكنّه وضع سبابته على شفتيه كي أصمت. ظلّ مُصوّبًا نظره تجاهي للحظات قصيرة، ودقّق السمع قبل أن يشير إليّ باتّباعه، ثم اختفى في الغابة من جديد. أمسكتُ بمعطفي وركضتُ خلفه مُحاولةً اللّحاق به. كان يمضي بسرعة كظلٍّ يقفز بين الأغصان، وبثقة عالية وكأنّ ثمّة مساراتٍ خفيّة لا يراها أحد غيره. قادني إلى الجدول وعبرنا إلى الجانب الآخر. انزعجتُ عندما امتلأ حذائي بالماء البارد من جديد. وعندما وصلنا، عاد بمفرده ليُخفي آثارنا.

كان رأسي يعجُّ بأسئلةٍ لا أعرف لها إجابات.

تُرى كيف عثر (مال) عليّ؟ هل كان يتتبّعني مع بقية الجنود؟ ولماذا يمد لي يد العون الآن؟

أردتُ أن ألمسه حتّى أتأكّد أنّني لستُ أحلم، أردتُ أن أضمّه إلى صدري وأشكره لإنقاذه لي، وودتُ في الوقت ذاته أن ألكمه لِما قاله لي في تلك الليلة عندما قابلته في القصر.

سِرنا لساعات دون أن ينبس أحدنا بكلمة. اكتفى (مال) بالإشارة لي بين الحين والآخر كي أتوقّف حتّى يذهب هو ليُخفي أي أثر تركناه، ثم يعود إليّ مرّة أخرى. وقبل أن يحلّ المساء، كنّا نمضي في مسارٍ صخريّ. لا أعلم أين قذف بي تيّار الجدول بالتحديد، لكنّني كنتُ واثقة تمام الثقة أنّ (مال) كان

يقـودني إلى (پيـترازوي).

كنـتُ أتعـذّب مـع كل خطـوةٍ أخطوهـا؛ فحـذائي لم يـزل مغمـورًا بالمـاء، وتشـكّلت بثـور جديـدة عـلى أصابـع قدمـي والكعبـين. كـما أن تلـك الليلـة التعيسـة التـي قضيتهـا في الغابـة قـد أصابتنـي بصـداعٍ مُـؤلم، وفقـدتُ طاقتـي مـن شـدّة الجـوع، ولكنّني لم أشـتكِ.

التزمـتُ الصمـت بينـما كان (مـال) يقـودني إلى أعـلى الجبـل، ثـم ينحـرف عـن المسـار الرئيـسي. تألّمـت سـاقاي مـن المـشي فـوق الصخـور وجـفّ حلقـي مـن شـدّة العطـش. وفي النهايـة، توقّـف (مـال) عـن السـير عندمـا وصلنـا إلى سـفح الجبـال حيـث وجدنـا صخـورًا ضخمـة وأشـجار صنوبـر نحيلـة مُتشـابكة.

قـال (مـال): «اجلـسي هنـا»، وألقـى بحقيبتـه عـلى الأرض. ثـم انزلـق بثبـات إلى أسـفل الجبـل كي يُخفـي آثـاري.

جلسـتُ عـلى الأرض وأغمضـتُ عينـيّ. كانـت قدمـاي تُؤلمانـي، لكنّنـي لم أخلـع حـذائي خشـية ألّا أسـتطيع أن أنتعلـه مـرّة أخـرى. سـقط رأسي عـلى صـدري لكنّنـي لم أسـمح لنفـسي أن أنـام؛ فكانـت لـديّ آلاف الأسـئلة. وأردتُ إجابـة عـلى سـؤال مُحـدّد.

عـاد (مـال) قبيـل الغسـق، وجلـس أمامـي ثـم أخـرج مـزادة مـاء مـن حقيبتـه وارتشـف منهـا ثـم مسـح فمـه بأصابعـه ومرّرهـا لي، فشربـتُ وكأنّهـا آخـر مـرّة سـيملأ فيهـا المـاء جـوفي.

«هذا يكفي؛ فيجب أن يكفينا الماء إلى الغد».

«مُتأسّفة». قلتها على استحياء ثم أعدتُ له المزادة.

قـال (مـال) وهـو ينظـر إلى السـماء التـي بـدأت تُمطـر ظلامهـا: «لـن نجـازف بإشـعال النّـار الليلـة.. ربمـا غـدًا».

أومأتُ برأسي.

لقد جفّ معطفي أثناء رحلة الصعود إلى الجبل، ولكنّ الكُمّين لم يزالا مُبلّلين قليلًا. شعرتُ أنني قد انغمستُ في الوسخ، وزاد البرد من مُعاناتي التي ربما لن تنتهي قريبًا. ظللتُ أتأمّل المُعجزة التي تجسّدت أمامي في شخص (مال) إلى أن تشجّعت لأن أسأله سؤالًا أخاف إجابته.

«مال». قلتُ بصوتٍ خفيض ثم انتظرته كي ينظر إليّ قبل أن أضيف: «هل عثرت على القطيع؟ هل أمسكت بأيل موروزوفا؟».

نقر على ركبته وهو يقول: «ولماذا تهتمّين لأمر الأيل إلى هذه الدّرجة؟».

«هذه حكاية طويلة لن أقصها عليك الآن. فقط أجبني، هل توصّل إلى الأيل؟».

«كلّا».

«إذًا لا بد أنّهم على وشك العثور عليه، أليس كذلك؟».

أومأ برأسه وقال: «ولكن...».

«ولكن ماذا؟».

بدت ملامح التردّد على وجهه، ولمحتُ في شذرات ضوء الغسق طيف ابتسامة يتراقص على شفتيه.. إنّها ابتسامة غرور أعرفها جيّدًا.

قال: «لا أظن أنّهم سيتوصّلون لمكان الأيل بدوني».

رفعتُ حاجبيّ وقلتُ: «هل لأنّك بارع إلى هذه الدرجة؟».

ردّ بنبرةٍ جادّة: «كلّا... أو ربما... حاولي أن تفهمي مقصدي. إنّهم مُتعقّبون جيّدون، بل هم صفوة الجيش الأوّل. ولكن.. يتطلّب تتبُّع القطيع حدسًا قويًا؛ فالأيل ليس حيوانًا عاديًا».

«وأنتَ لست مُتعقّبًا عاديًا». قلتها في نفسي ولم أتلفّظ بها.

عندما حدّقتُ في عينيه تذكّرتُ ما قاله لي مُستحضر الظلام ذات يومٍ عن جهلنا بمواهبنا الدفينة. تُرى هل يُمكن أن تتطوّر موهبة (مال) دون أن يُصقلها التدريب أو يُحالفه الحظّ؟ لا شك أنّه لم يُعانِ للحظة من نقص في ثقته بنفسه، ولكنّني لا أظن أن الأمر مُتعلّق بكونه مغرورًا.

تمتمتُ قائلةً: «أتمنّى أن تكون مُحقًّا».

قال بحِدّة غريبة: «والآن، عليكِ أن تجيبي عن هذا السؤال: لماذا هربتِ؟».

أدركتُ لأوّل مرّة أن (مال) لا يعلم سبب هروبي من القصر الصغير، ولماذا يبحث عنّي مُستحضر الظلام. في آخر لقاء بيننا، دفعته كلماتي لأن يرحل من أمامي، ومع ذلك فقد ترك كل شيء ليأتي إليّ. ولذا، فإنّه يستحق إجابةً عن سؤاله، ولكنّني لا أدري من أين أبدأ. تنهّدتُ وفركتُ يديّ ثم قلتُ: «إذا أخبرتك أنّني أحاول أن أنقذ العالم، هل ستصدّقني؟».

رمقني بنظرةٍ حادّة وقال: «أليس هذا شجارًا بين عشيقين سينتهي بأن تلتفتين وتعودين راكضةً إلى حضنه الدافئ؟».

«كلّا! إنّ الأمر... إنّنا لسنا...». فقدتُ القدرة على التعبير للحظاتٍ من أثر الصدمة. ثم تمالكتُ نفسي وقلتُ وأنا أضحك: «ليت الأمر كما وصفته».

سكت (مال) لوقتٍ طويل ثم قال بعدما استجمع أفكاره: «حسنًا».

نهض وعلّق حامل بندقيته على كتفه ثم أخرج بطّانية من الصوف السميك من حقيبته وألقى بها أمامي على الأرض وهو يقول: «خذي قسطًا من الراحة وسأتولّى أنا أمرُ المراقبة».

ثم أولى ظهره لي ووقف ينظر للقمر المُتجلّى فوق الوادي الذي غادرناه.

تمدّدتُ على الأرض الصّلبة ولففتُ البطّانية حولي جيّدًا عسى أن يدفأ جسدي الذي امتصّ البرودة. وعلى الرّغم من عدم ارتياحي، فإنّني أحسستُ بثقل جفنيّ، وبدأ الإرهاق يدفعني للنوم.

«مال»، همستُ له.

«ماذا؟».

«شكرًا لأنّك بحثت عنّي».

لا أدري إذا ما كنتُ أحلم حينما سمعتُه يهمس في ظلام الليل قائلًا: «سأبحث عنكِ دومًا».

ثم تركتُ النوم يلتهمني.



الفصل السابع عشر

لم يُبدِّل (مال) ورديّة المُراقبة معي ليتركني نائمة طوال اللّيل. وعندما استيقظت في الصباح، أعطاني قطعة من اللحم الجاف وقال: «تكلّمي».

لم أدرِ من أين أبدأ، فأخبرته بأسوأ شيء قد يسمعه.

«إن مُستحضر الظلام يُخطِّط لاستخدام الطيّة كسلاح».

لم يبدُ أنّه تفاجأ.

سألني: «كيف؟».

«سيُوسِّع حدودها حتّى تلتهِم مساحاتٍ أكبر من راڤكا وفيردا وأي بلدٍ سيُقاومه. لكنّه لن يستطيع إتمام خطّته من دوني لكي يُسيطر على القولكرا. أخبرني، ماذا تعرف عن أيل موروزوڤا؟».

نظر نحو الوادي وقال: «لا أعلم عنه شيئًا غير أنّه قيِّم وذو أهمّية لكِ. كان من المُفترض أن نُحدّد موقع القطيع ثم نمسك بالأيل دون أن نُحدث له ضررًا».

أومأتُ برأسي وحاولتُ أن أشرح له كيفيّة عمل المُضخّمات، وكيف أن (إيڤان) تعيّن عليه ذبح دب شيربورن، وكذلك قتلت (ماري) فقمة الشمال. قلتُ في النهاية: «يجب على كل فردٍ من الغريشا أن يحظى بمُضخّم قوي. ورغم أنّ الأيل واحد منها، فإنّه لا يناسبني».

«لنُكمِل حديثنا أثناء السّير؛ أريدنا أن نتوغّل أكثر في المنطقة

الجبليّة».

وضع الغطاء في حقيبته وأخفى أي أثر قد يدل على تواجدنا، ثم قادني إلى طريق صخري مُنحدر. لاحظتُ أنّه قد ربط قوسه بحقيبته، لكن بندقيته كانت على أتم استعداد.

قدماي كانتا تأبيان أن أتحرك، لكنّني قاومتهما وتبعتُ (مال). حاولتُ أن أقصص عليه كل الأحداث التي لا يعلم عنها شيئًا. أخبرته عما قالته لي (باغرا)، وحدّثته عن قصّة خلْق الطيّة، والطّوق الذي يريد مُستحضر الظلام أن يضعه حول رقبتي كي يستغل قوّتي، وأخيراً أخبرته بأمر السفينة التي تنتظرني في (أوز كيرفو).

قال (مال) عندما انتهيت: «كان من الأفضل ألّا تستمعي لباغرا».

«لماذا تقول لي هذا؟».

التفت لي فجأة فكِدتُ أصطدم به.

قال: «ماذا سيحدث -في ظنّكِ- إذا وصلتِ إلى الطيّة، ثم صعدتِ على متن السفينة؟ هل تعتقدين أنّه سيفقد قواه على شاطئ البحر الحقيقيّ؟».

«كلّا، ولكن...».

«سيجدكِ وسيضع الطوق حول رقبتكِ.. إنّها مسألة وقت فقط».

مضى وتركني مُتجمّدة من أثر الصدمة. ضاع عقلي في غياهب التيه للحظات، ثم ما لبثت أن استعدتُ تركيزي ومشيتُ على غير هدى كي ألحق به.

قـد تكـون خطّـة (باغـرا) ضعيفـةً حقًّـا، ولكـن هـل كان لـدى كلينـا خيـار آخـر؟ تذكّـرتُ قبضتهـا القويّـة، وذلـك الخـوف الـذي مـلأ عينيهـا المحمومتـين. إنّهـا لم تتوقّـع أن مُسـتحضر الظـلام قـد يصـل إلى قطيـع موروزوفـا. كـم بـدت مذعـورةً حقًّـا ليلـة عيـد الشـتاء! لكـن علـيّ الاعـتراف بأنّهـا حاولـت مُسـاعدتي؛ فـإذا كانـت قاسـية ومُتحجّـرة القلـب مثـل ابنهـا، لتجنّبـت المُخاطـرة وذبحتنـي.

قلـتُ في نفسـي: «وربمـا لـو كان ذلـك قـد حـدث، لكنّـا سـنرتاح جميعًـا».

مضينـا دونمـا كلام لوقـتٍ طويـل. سـلكنا مسـاراتٍ ضيّقـة إلى سـفوح الجبـال، واضطـررتُ في بعـض الأحيـان -مـن شـدّة ضيـق تلـك المسـارات- لأن أتشـبّث بصخـور الجبـل، وكنـتُ أخطـو ببـطءٍ راجيـةً مـن القدّيسـين أن يرأفـوا بحـالي. وعندمـا حلّـت الظهـيرة، نزلنـا مُنحـدرًا تلـو الآخـر، ولسـوء حظّـي، كان المُنحـدر الثـاني أكـثر صعوبـةً.

نظـرتُ إلى الطريـق المُمتـد أمامي، ومشـيتُ بخطى ثابتـة، مُحاولةً التنصُّـل مـن حالـة اليـأس التـي سـيطرت علـيّ. لكنّنـي كلّـما أمعنتُ التفكـير، ازداد قلقـي؛ فمـن المُحتمـل أن يكـون (مـال) مُحقًّـا. لم أسـتطع التخلّـص مـن ذلـك الشـعور بأنّنـي قـد حكمـت عـلى كلينـا بالعـذاب الأبـديّ. فمُسـتحضر الظـلام يريـدني حيّـة، لكـن تُـرى مـاذا سـيفعل بـ(مـال) بعـد ذلك؟

كان تركيـزي مُنصبًّـا بالكامـل عـلى مصـيري المُخيـف، لدرجـة أنّنـي لم ألـقِ بـالًا لمـا تخـلّى عنـه (مـال) مـن أجـلي. فمِـن المُسـتحيل أن يعـود مـرّة أخـرى إلى الجيـش لأنّـه سـيُتّهم بالتهـرُّب مـن الخدمـة العسـكريّة، أو بالخيانـة العظمـى، وسـيُعاقب في الحالتـيْن بالإعـدام.

وهـذا يعنـي أنّـه لـن يعـود لأصدقائـه، ولـن يتلقّـى الحفـاوة المُعتـادة بعـد إنجـاز مُهمّتـه.

عندمـا حـلّ الغسـق، تسـلّقنا جبـلًا شـاهقًا. اختفـت الأشـجار المُتناثـرة مـن حولنـا، وكسـا ثلـج الشـتاء الأرض مـن تحتنـا. تناولنـا قطعًـا صغـيرة مـن الجـبن وشرائـح رفيعـة مـن اللّحـم ولم نشـبع، ولم نسـتزد. ارتـأى (مـال) أن الوضـع ليـس آمنًـا لـكي نُشـعل النـيران، فانزلقنـا أسـفل الغطـاء دون أن ننبـس بكلمـة أخـرى، مُحاولـين حمايـة أجسـادنا مـن الريـاح العاتيـة.

كنـتُ عـلى وشـك الاسـتغراق في النّـوم لمّـا قـال (مـال): «غـدًا، سـنتّجه شـمالًا».

انفتحت عيناي عن آخرهما تلقائيًا. قلتُ: «شمالًا».

«إلى تسيبيا».

قلتُ باندهاش: «هل ما زلت تريد البحث عن الأيل؟».

«وسأجده بلا شك».

«ولكن ربما يكون مُستحضر الظلام قد وجده بالفعل!».

هزّ رأسه وقال: «كلّا، أشعر أنّه ما زال حُرًّا».

ذكّرتنـي كلماتـه بمـا قالـه لي مُسـتحضر الظـلام في الطريـق المُـؤدّي لكـوخ (باغـرا): لـن يعـثر أحـد عـلى القطيـع غـيرك يـا (ألينـا). هـذا مـا يؤكّـده لي إحسـاسي.

سألته: «وماذا إذا عثر مُستحضر الظلام عليه قبلنا؟».

«لا يُمكنـكِ أن تقـضي حياتـكِ هاربـةً يـا (ألينـا). لقـد قلـتِ أنّـكِ إذا عـثرتِ عـلى الأيـل فسـتتضاعف قوّتـكِ، هـل ستسـتطيعين مُحاربتـه وقتهـا؟».

«ربما».

«علينا أن نجد الأيل إذًا».

«لكن إذا أمسك بنا مُستحضر الظلام.. سيقتلك».

«أعلم ذلك».

«لماذا بحثت عنّي يا (مال)؟ فيمَ كنت تفكّر؟».

تنهّد ومسح بيده على شعره القصير وقال: «لم أُفكّر إطلاقًا. بعدما قطعنا نصف المسافة إلى تسيبيا، جاءتنا أوامر بالعودة من نفس الطريق كي نطاردكِ! فبحثتُ عنكِ على الفور. وكان أصعب تحدٍّ واجهته هو أن أُضلّل الباقين حتّى لا يصلوا إليكِ، خاصّةً بعدما أفصحتِ عن هويّتكِ في رايڤوست».

«ولا شك أنّهم اعتبروك هاربًا الآن».

«أجَل».

«وكل هذا بسببي».

«نعم».

غمرَت عينيّ دموع أبيتُ أن أذرفها، وجرحت حلقي كلمات رفضتُ أن ألفظها. سمحتُ للصمت أن يُغلق فمي للحظات، ثم أبعدتُ أصابعه الباردة عنّي وقلتُ: «إنّني لم أُرِد أن أتسبّب في أيٍ ممّا حدث».

قال بنبرةٍ لم أعهدها من قبل: «أنا لا أهاب الموت يا (ألينا). إنّني فقط أريدنا أن نحظى بفرصة لكي نقاتل بشرف، ولذلك علينا أن نعثر على الأيل».

فكّرتُ مليًّا في ما قاله، ثم همستُ في النهاية قائلةً: «حسنًا».

علا شخيره مُنهيًا مُحادثتنا.. لقد غطّ في سباتٍ عميق.

***

تحرّك (مال) بسرعةٍ هائلة خلال الأيّام القليلة التالية، ولكنّ كبريائي -أو ربما خوفي- لم تسمح لي بأن أطلب منه أن يتباطأ.

رأينا في الطريق أكثر من عنزة تنزلق أسفل المُنحدرات، وخيّمنا ذات ليلة على ضفّة بحيرة زرقاء لم أرَ مثلها من قبل، كانت تقع بجانب جبلٍ سفحه يلامس السّماء، ومثل تلك البحيرات نادرة التواجد وسط المناطق الجبليّة الشاسعة التي تمتدُّ من فوقها سماء كئيبة.

صمتُ (مال) لم يُهوِّن عليّ مشقّة السّفر.

أردتُ أن أسأله عن سبب تعقُّبه للأيل لصالح مُستحضر الظلام، وكيف كان حاله خلال الخمسة شهور الماضية، لكنّ أسئلتي كانت تُقابَل بإيماءات أو إجابات من كلمة واحدة، وأحيانًا ما كان يتجاهلها تمامًا. وعندما كنتُ أشعر بالتعب أو الجوع، كنتُ أتأمّل ظهره بامتعاض وأفكّر في تسديد ضربة قويّة على رأسه كي ألفِت انتباهه.

انتابني القلق طوال الوقت؛ خشيتُ أن يندم (مال) لأنّه أتى إليّ، وخِفتُ ألّا نعثر على الأيل في أراضي (تسيبيا) الواسعة، والأهم أنّني توجّستُ خيفة ممّا قد يفعله مُستحضر الظلام بـ(مال) إذا أمسك بنا.

شعرتُ بسعادةٍ عارمة عندما نزلنا إلى أسفل جبلٍ يقع في الجهة الشماليّة الغربيّة، لنغادر (بيترازوي) بجبالها الشاهقة ورياحها العاوية العاتية. استقبلتنا الغابة بنسماتٍ مُحمّلة

برائحة النسغ، وبأصوات الحيوانات المُتجانسة، فقفز قلبي فرحًا. كم هو رائع أن تطأ قدماي أرضًا مفروشة بورق الصنوبر الرفيع الناعم، بعدما اعتادت على صلابة الأراضي القاحلة!

خيّمنا بجانب جدول صغير، وبدأ (مال) يجمع أغصان الشجر كي نشعل النيران. فرحتُ حتى كِدتُ أُغنّي بصوتٍ عالٍ يسمعه الأصم، لكنّني عدِلتُ عن الفكرة واستحضرتُ شعاع ضوءٍ مُركّز كي نشعل النّار في الأغصان. لم تبدُ على وجه (مال) أي ملامح تنم عن اندهاشه. لحظات ونهض واختفى في الغابة، ثم عاد مُحضرًا معه أرنبًا، فذبحناه وشويناه للعشاء. ما أدهش (مال) حقًا كان مظهري وأنا ألتهم قطعتي بنَهَم وكأنّني لم أُطعَم منذ سنوات.

تنهّدتُ طويلًا؛ فالطعام لم يُشبعني.

قال مُحتجًّا: «كان الطعام سيكفيكِ إذا لم تكُن شهيّتكِ مفتوحة»، ثم أنهى وجبته وتمدّد على الأرض، واضعًا ذراعه أسفل رأسه وكأنّها وسادة.

تجاهلته تمامًا؛ فتلك أوّل مرّة أتذوّق فيها لذّة الدفء منذ مُغادرتي للقصر الصغير. ولذا، فلَن أسمح لأي شيء بأن يُفسد سعادتي، بما في ذلك شخير (مال)!

***

أردنا أن نبتاع المزيد من المُؤن قبل أن نتوجّه شمالًا إلى (تسيبيا)، فقطعنا مسيرة يوم ونصف لنصل إلى إحدى القرى التي تقع شمال غرب (بيترازوي). وكلّما كنّا نقترب من مظاهر الحضارة، يزداد توتُّر (مال). كان يختفي لفتراتٍ طويلة ليقوم

بجولات استكشافيّة في المناطق القريبة منّا، ثم عندما يعود، كان يقودني إلى مسارات موازية لطريق القرية الرئيسي.

وذات يومٍ، عاد من إحدى جولاته مُرتديًا معطفًا بُنيًّا بشع المظهر وقبّعة مصنوعة من فراء السنجاب.

سألته: «من أين أتيت بهذه الملابس؟».

ردّ بنبرةٍ يُثقلها الندم: «سرقتهما من بيتٍ وجدتُ بابه مفتوحًا. لكنّني تركتُ بضع عملات على طاولةٍ بالداخل. ثمّة شيء عجيب في هذه القرية، فكُل البيوت خالية من السكّان، كما أنّني لم أرَ أي أحد في الطريق الرئيسي!».

«ربما اليوم يوم الأحد، فذهب الجميع إلى الكنيسة».

لم أعُد أعرف تسلسل الأيّام منذ مُغادرتي للقصر الصغير.

«ربما»، ردّد (مال) وقد بدا عليه الضيق. ثم ألقى بقبّعته ومعطفه القديم على الأرض أسفل شجرة.

كنّا على بُعد نصف ميل من القرية عندما سمعنا قرع الطبول، أخذت الأصوات تعلو وتتّضح كلّما اقتربنا من الطريق الرئيسي، ثم امتزجت بأنغام كمانٍ، ودقّات أجراس، وتصفيق وتهليل. تسلّق (مال) شجرة ليراقب المشهد بوضوح، وعندما نزل إلى الأرض، خفتت ملامح القلق على وجهه.

قال: «إنّهم في كل مكان! ثمّة عربة ضخمة تقف على الطريق الرئيسي، يلتف حولها المئات من الناس».

«إنّه أسبوع الزبدة!».

خلال الأسبوع الذي يسبق صيام الربيع، يركب النبلاء عرباتهم المُحمّلة بالحلوى والأجبان والخبز، ويمضون بها بين

أهالي القرية. ويتحرّك كل موكب من الكنيسة إلى عزبات النبلاء حيث تُفتح أبواب غرف الاستقبال، وتكتظ بالمُزارعين والعبيد فيُطعمون فطائر «بليني» ويُسقوْن أكوابًا من الشاي. وترتدي الفتيات فساتين حمراء ويضعن أزهارًا فوق آذانهن احتفالًا بقدوم الربيع.

عندما كنّا أطفالًا في الميتم، كان أسبوع الزبدة أفضل أوقات العام بالنسبة لنا؛ فدروسنا تصير أقصر من المُعتاد، وكنّا نشارك في نظافة المنزل ونساعد في الخبيز. ودائمًا ما كان الدوق (كيرامزوف) يعود من (أوز ألتا) في ذلك الوقت. كنّا نركب معه العربة ونتوقّف عند كل مزرعة كي نشرب الكڤاس ونُوزّع الكعك والحلوى على الجميع. شعرنا وقتها أنّنا من النبلاء؛ فكنّا نجلس بجانب الدوق ونلوّح بأيدينا إلى أهالي القرى المُبتهجين.

سألتُ (مال): «هل يمكننا أن نذهب لنلقي نظرة؟».

قطّب جبينه. كنتُ أعلم أن ثمّة شعورين يتصارعان بداخله: قلقه الزّائد وحنينه إلى أسعد ذكرياتنا في (كيرامزين).

ابتسم في النهاية وقال: «حسنًا. يُمكننا التخفّي بين الحشد».

انضممنا إلى الموكب الذي يسير على الطريق، وتخفّينا بالفعل بين عازفي الكمان والطبّالين. رأينا فتيات صغيرات يمسكن أغصانًا رفيعة تتدلّى منها أشرطة برّاقة. مضينا إلى شارع القرية الرئيسيّ، وعندها وقف الباعة أمام محالهم وأخذوا يقرعون الأجراس ويُصفّقون على أنغام العازفين. أسرع (مال) إلى أحد المحال ليبتاع فراء وطعامًا. وعندما رأيته يضع في حقيبته قطعةً كبيرة من الجبن، انزلق لساني خارج فمي. والحق أنّني لا أودُّ أن أرى قطعةً أخرى من الجبن؛ كي لا أنهار.

ركضتُ بين جموع الناس -قبل أن يوقفني (مال)- مُتجهة صوب الباب الخلفي للعربة، حيث جلس رجل أحمر الخدّين، يحمل في يده زجاجة ككأس، أخذ يترنّح يمينًا ويسارًا وهو يدندن أنغامًا لا أتبيّن معناها، ويقذف الحشد بأرغفة من الخبز. أسرعتُ نحوه والتقطتُ قطعة حلوى دافئة قذفها لي.

صاح الرَّجل: «هذه لكِ يا فتاة!»، وكاد يسقط على الأرض.

شكرته وأخذتُ أشمُّ رائحة الحلوى المُذهلة، ثم عدتُ إلى (مال) وعلى وجهي ملامح الانتصار.

جذبني من ذراعي وقادني نحو ممشًى مُوحل بين منزلين.

قال: «ماذا فعلتِ للتو؟».

«لم يَرني أحد! لقد ظنّ الرّجُل أنّني فتاة من بين فتيات القرية».

«ليس ثمّة مجال للمُخاطرة!».

«إذًا فأنتَ لا تريد قضمةً من الحلوى، أليس كذلك؟».

ردّ مُتردّدًا: «أنا لم أقُل هذا».

«كنتُ سأسمح لك بأخذ قضمة، لكن بما أنّك لا تريد، سآكلُها بمفردي».

حاول (مال) أن يسرق قطعة الحلوى الصغيرة من بين أصابعي، لكنّني ابتعدتُ عنه بحركة راقصة، وأخذتُ أتمايل يمينًا ويسارًا. لمحتُ على وجهه ملامح الدهشة، وأحببتها؛ فقد أردته أن يعرف أنّني لم أعُد تلك الفتاة الخرقاء التي كنتُها.

صاح وهو يُحاول التقاط قطعة الحلوى من يدي مُجدّدًا: «يا لكِ من حمقاء».

«حسنًا.. أنا حمقاء تملك حلوى لذيذة».

لا أدري مـن منّـا قـد سـمع ذلـك الصـوت أوّلًا، لكنّنـا تجمّدنـا حيـث وقفنـا. أدركنـا عـلى الفـور أن ثمّـة أناسًـا حولنـا. وبالفعـل، ظهـر رجـلان مـن الزقـاق الخـالي مـن خلفنـا، وقبـل أن يلتفـت إليهـما (مـال)، أسرع أحدهـما نحـوه ووضـع سـكّينه العفِنـة عـلى رقبـة (مـال)، بينـما وضـع الآخـر يـده المتّسـخة عـلى فمـي.

قـال مَـن معـه السـكّين: «لا تُصـدِرا أي صـوتٍ وإلّا سـأذبحكما في الحـال»، لاحظـتُ أن شـعره مُجعّـد ووجهـه طويـل بشـكل مُضحـك.

نظـرتُ إلى السـكّين الموضوعـة عـلى رقبـة (مـال) وأومـأتُ بـرأسي، وحينهـا أزال الرجـل أصابعـه مـن فـوق شـفتيّ ولكنّـه أطبـق قبضته عـلى ذراعي.

قال صاحب الوجه الطويل: «أريد كل ما تملكانه من نقود».

صِحتُ قائلةً: «هل تسرقاننا الآن؟».

هزّ الآخر ذراعي بعنفٍ وقال: «هذا صحيح».

شـعرتُ براحـةٍ كبـيرة عندمـا تأكّـدتُ أنّهـما ليسـا مـن رجـال مُسـتحضر الظـلام، لدرجـة أنّنـي لم أسـتطع كبـح ضحكتـي. نظـر الجميـع نحـوي وكأنّنـي مجنونـة.

قـال الرّجُـل المُمسـك بذراعـي لـ(مـال): «إنّهـا معتوهـة، أليـس كذلـك؟».

ردّ (مـال): «أجـل، قليـلًا»، ثـم رمقنـي بنظـرةٍ غاضبـة وكأنّـه يأمـرني أن أصمـت.

قال صاحب الوجه الطويل: «أريد المال.. الآن!».

وضـع (مـال) يـده في جيـب معطفـه وأخـرج منـه صرّة بهـا مـا

يملك من عملات، وأعطاها للرجل الذي نخر لخفّة وزنها.

قال بعد برهةٍ من الصمت: «هل هذا كل ما تملك؟ ماذا يوجد في تلك الحقيبة؟».

«ليس بها إلّا فراء وبعض الطعام».

«أرني ما لديك».

أنزل (مال) حامل حقيبته من على كتفه، وفتحها، كاشفًا عن مُحتوياتها للصّيْن، فظهرت فُوّهة بندقيته الملفوفة بالغطاء الصّوفي.

قال الرجل ذو الوجه الطويل مُندهشًا: «يا لها من بندقيّة رائعة! ألا توافقني الرأي يا (ليڤ)؟».

أمسك (ليڤ) معصم يدي بإحكام وأخرج البندقيّة من الحقيبة بيده الأخرى. قال بعدما تفحّصها: «إنّها رائعة حقًّا. وذلك النّوع من الحقائب يُوزّع على الجنود في الجيش».

انقبض قلبي.

«وما معنى هذا؟».

«أخبرني (ريكوڤ) أن ثمّة جنديًّا قد فرّ من كتيبته المُتمركزة على حدود تشيرناست. وانتشرت إشاعات بأنّه هرب إلى الجنوب ولم يعُد منذ وقتها. يبدو أنّنا قد أمسكنا به».

تفحّص الرّجل وجه (مال) جيّدًا، فعلمتُ حينها أنّه يُفكّر في المُكافأة التي تنتظره.

«ما قولك يا فتى؟ أنت لا تُفكّر في الهرب، أليس كذلك؟».

«هذه حقيبة أخي».

«ربما. سنصطحبك إلى قائد في تشيرناست وسيُخبرنا هو مَن صاحب الحقيبة».

هزّ (مال) كتفه وقال: «حسنًا، حينها سأخبره أنكما حاولتما سرقتي».

قال (ليڤ) وقد بدا أنّه ليس مُرحّبًا بتلك الفكرة: «لنأخذ المال ونتركهما».

ظلّ صاحب الوجه الطويل يُحدّق في وجه (مال) للحظاتٍ، ثم قال: «سواءٌ أكان هاربًا أو قد سرق هذه الحقيبة من شخص أحمق، فالقائد سيدفع لنا المال كي يعرف الحقيقة».

هزّ (ليڤ) جسدي ثانيةً وقال: «وماذا عنها؟».

«يبدو أنّها هاربة أيضًا.. لا أظنّها ستكون مُفيدة في رحلتنا، إلّا إذا قضينا معها وقتًا مُمتعًا. ما رأيكِ يا صغيرتي؟».

صاح (مال)، مُندفعًا للأمام: «لا تلمسها!».

وبحركة سريعة، ضرب الرجل رأس (مال) بمقبض سكّينه فوقع على الأرض وقد التوت قدمه، وسالت الدماء من جبهته.

«لا!»، صرختُ فوضع (ليڤ) يده على فمي، مُحرّرًا ذراعي من قبضته. وهذا ما أردته؛ نقرتُ على معصم يدي فانزلقت مرآة بين أصابعي.

شقّ الرجل الهواء بسكّينه وقال لـ(مال): «تُرى هل سيدفع لنا القائد مالًا إذا تسلّم جُثّتك؟».

اندفع نحوه، فأطلقتُ شعاعًا برّاقًا صوب عينيه. تردّد وصدّ الضّوء بيده، فانتهز (مال) الفرصة ونهض قافزًا ثم دفعه نحو الحائط. وفي تلك الأثناء، أفلت (ليڤ) يدي ليُصوّب البندقيّة

نحـو (مـال)، لكنّنـي دفعتـه وسـدّدتُ دفقـة ضـوء نحـو عينيـه.

«مـا هـذا الـ..»، نخـر وتراجـع إلى الخلـف، وقبـل أن يتمالـك نفسـه، ضربتـه برُكبتـي عـلى مغبنـه فانحنـى بجسـده، أسرعـتُ بجذبـه مـن رأسـه ثـم ضربتـه برُكبتـي ثانيـةً، ولكـن هـذه المـرّة عـلى أنفـه، فانكـسر مُحدثًـا صوتًـا مُفزعًـا. سـقط الرّجُـل عـلى الأرض مُمسـكًا بأنفـه، وسـالت أنهـار مـن الـدم مـن بـين أصابعـه.

«لقد نجحت!»، صِحتُ فرحة وتمنّيتُ أن يراني (بوتكن).

«هيّـا أسرعـي!»، صرخ (مـال) مُفسـدًا ابتهاجـي. التفـتُّ لأرى الرجـل صاحـب الوجـه الطويـل مُسـتلقيًا عـلى الأرض وقـد فقـد وعيـه.

التقـط (مـال) حقيبتـه مـن عـلى الأرض وركـض ناحيـة الجانـب الآخـر مـن الزقـاق، بعيـدًا عـن صخـب الموكـب. كان (ليـڤ) يـئن مـن شـدّة الألم، لكنّـه لم يـزل مُمسـكًا بالبندقيّـة؛ فوجّهـتُ لـه ركلـة قويّـة في بطنـه ثـم أسرعـتُ لألحـق بـ(مـال).

عدوْنـا بـين المنـازل والمتاجـر الخاويـة، إلى أن وصلنـا إلى الطريـق الرئيـسي المُوحِـل، ثـم ألقينـا بأنفسـنا في أحضـان الغابـة مـن جديـد بأشـجارها التـي تبعـث في أنفسـنا الطمأنينـة. كان (مـال) يركـض كالفهـد، عابـرًا إلى الضفّـة الأخـرى مـن الجـدول، ثـم يتّجـه إلى الأوديـة التـي تتخلّـل التـلال فيُجبرنـا أن نركـض فيهـا لأميـال. لم أظـن أن ثمّـة سـببًا لركضنـا؛ فاللّصّـان لم يكونـا في حالـةٍ تُؤهّلهـما لمُطاردتنـا، لكنّنـي لم أتجـادل مـع (مـال). وفي النهايـة، أخـذ يُبطـئ مـن سرعتـه تدريجيًـا، إلى أن توقّـف وانحنـى ووضـع يديـه عـلى ركبتيـه وأخـذ يلهـث كالـكلاب.

استلقيتُ على ظهري على الأرض، وأخذ قلبي ينبض بعنفٍ حتّى كاد يُلامس ضلوعي، وتدفّق الدم إلى أذنيّ فأحسستُ بحرارتي تعلو. وتجرّعتُ ضوء الظهيرة الذي زيّن رؤوس الأشجار، وحاولتُ أخيرًا أن أُنظّم تنفُّسي المُتقطّع.

وعندما وجدتني قادرة على التحدُّث، اتّكأت على مرفقيّ ونهضتُ، ثم قلتُ: «مال، هل أنت بخير؟».

لمس (مال) الجرح الذي في رأسه بحذر. شعرتُ بالراحة عندما وجدت النزيف قد توقّف.

قال بعدما التقط أنفاسه: «أجل، بخير».

«هل تظن أنّهما سيُبلغان عنّا؟».

«بالطبع؛ سيسعيان للحصول على نقود مُقابل إخبار القائد بأمرنا».

«يا لها من مُصيبة!».

«ليس بوسعنا فعل شيء الآن»، قالها ثم فاجأني بابتسامة أردف بعدها: «أين تعلّمتِ القتال هكذا؟».

همستُ قائلةً: «في معسكرات الغريشا. تلك كانت ركلة المغبن التي استُخدِمت قديمًا».

«النتيجة هي ما يهم».

«هذا ما كان يقوله لي (بوتكن) دائمًا: لا تستعرضي قواكِ أمام خصمكِ، بل أوسعيه ضربًا!»، قلتُ مُقلّدة لهجة (بوتكن) الغليظة، ثم قهقهتُ ضاحكةً.

«يا له من رجلٍ ذكي».

«أمّا مُستحضر الظلام فلا يُفضّل أن يستخدم الغريشا قواهم في الدفاع عن أنفسهم».

شعرتُ بالندم بعدما قلت تلك الجملة.. لاحظتُ أن ابتسامة (مال) قد تلاشت.

قال بنبرةٍ باردة وهو ينظر نحو الأشجار: «هذا رجل ذكيّ أيضًا».

صمت هنيهة ثم أضاف: «سيعلم بلا شك أنّكِ لم تتوجّهي إلى الطيّة مُباشرةً، وأنّكِ تخوضين رحلة للبحث عن الأيل».

ألقى بنفسه بجانبي فلاحظتُ ملامحه الغاضبة.

ليس لدينا في هذه المعركة سوى القليل من الميزات، وها قد فقدنا إحداها.

قال بنبرةٍ حزينة: «كان من المُفترض ألّا آتي بكِ إلى القرية».

ضربته على ذراعه ضربة خفيفة وقلتُ: «وكيف كنت ستعرف أنّنا سنتعرّض للسرقة؟ أعني.. إنّ حظّي السّيئ هو ما تسبّب في ما حدث لنا».

«بل كان من الأفضل ألّا أخوض مُجازفة حمقاء كهذه. كان عليّ أن أمعن التفكير قبل أن أتّخذ ذلك القرار».

أمسك بغصنٍ كان قد سقط من إحدى الشجيرات وألقى به في الهواء بغضبٍ.

«ما زالت الحلوى معي»، قلتُ وأنا أُخرجها من جيبي بعدما صارت كُتلة مهروسة مُغلّفة بوَبَر معطفي. عندما حصلتُ عليها، كانت مُشكّلة على هيئة طائر احتفالًا بأسراب طيور الربيع، لكنّها الآن استحالت إلى جورب ملفوف سيئ المنظر.

أسند (مال) رأسه إلى صدره، وغطّى وجهه بكفّيه، ووضع مرفقيه على ركبتيه. ظننته يبكي في البدء لكنّني أدركتُ بعد ذلك أنّه يضحك. اهتز جسده، واضطربت أنفاسه، وسالت دموعه، وقال: «أتمنّى أن تكون حُلوة المذاق بعد ما تعرّضت له من عذاب!».

حدّقتُ في عينيه للحظة؛ توجّستُ خيفة من أن يكون قد فقد عقله، وإذ بي أنفجر ضاحكةً دون توقّف. أغلقتُ فمي بيدي مُحاولةً قمع ضحكاتي، لكن دون فائدة.

وضع (مال) سبابته على شفتيه آمرًا إيّاي بأن أصمُت، وهذا -في الواقع- زاد الأمر سوءًا.

قال: «أظنّكِ كسرتِ أنف ذلك الرّجُل».

«هذا تصرُّف غير لطيف بالمرّة، وأنا لستُ لطيفة».

ضحك وقال مُؤكّدًا: «بالطبع لستِ لطيفة».

«هل تتذكّر ابن المُزارع الذي كسر أنفك في كيرامزين؟ ثم أخفيت ذلك عن الجميع إلى أن نزفت دمًا على غطاء الطاولة المُفضّل لآنا كونيا!».

«لقد اختلقتِ هذه الحكاية».

«كلّا!».

«بلى، لقد اختلقتِها. إنّكِ لستِ بارعة في كسر الأنوف فحسب، بل وتبرعين في الكذب أيضًا!».

ظللنا نضحك حتّى لم نعد نقدر على التنفُّس، وكدنا نفقد عقلينا. لا أتذكّر متى كانت المرّة الأخيرة التي ضحكت فيها لهذه الدرجة.

تناولنا الحلوى بالفعل. أضفى التُّراب المُلتصق بسُكّرها مذاقًا ذكّرني بتلك الحلوى التي كنّا نتناولها في طفولتنا. وعندما انتهينا، قال (مال): «كانت هذه أفضل قطعة حلوى أكلتها في حياتي».

علَت ضحكاتنا من جديد.

تنهّد (مال) في النهاية، ونهض ومدّ يده إليّ.

مشينا معًا حتّى حلّ الغسق، ثم خيّمنا بجانب أنقاض كوخ قديم. ونظرًا لِما حدث لنا، فلَم نُخاطر بإشعال نيران للتدفئة في تلك الليلة. جلسنا نتناول الطعام الذي أحضره (مال) من القرية. وبينما كنتُ آكُل شرائح اللحم المُجفّف وقطع الجبن الصّلبة، سألني عن (بوتكن) وبقيّة المُعلّمين في القصر الصغير. علمتُ مدى اشتياقي لمُشاركة حكاياتي معه عندما بدأتُ حديثي.

لم يضحك بسهولة كما كان يفعل في السابق، لكن بين الحين والآخر كنتُ ألحظ ملامحه الحزينة تستحيل إلى ابتسامة رقيقة تُذكّرني بـ(مال) الذي تربّيتُ معه.

تلك الابتسامة كانت تبعث في نفسي الأمل، وتُؤكّد لي أنّني لن أفقده إلى الأبد.

وعندما حان وقت الإيواء إلى النوم، مشّط (مال) المنطقة بالكامل؛ ليتأكّد من كوننا بأمان، وانتهزتُ فرصة غيابه كي أُعيد الطعام إلى الحقيبة التي صارت فارغة بعدما فقدنا البندقيّة وغطاء الصوف. ولكن لحُسن الحظ أن القوس لم يزل بحوزتنا.

وضعتُ القبّعة المصنوعة من فراء السنجاب أسفل رأسي،

وتركتُ الحقيبة لـ(مال) كي يستخدمها كوسادة عندما يعود، ثم التففتُ بمعطفي لأحتمي من البرد. كنتُ على وشك النوم لمّا رجع (مال) واستلقى بجانبي، مُرتكنًا بظهره على ظهري. وقبل أن يتملّكني النوم، شعرتُ بمذاق السُّكّر على شفتيّ، فقمعتُ ضحكة عالية.

لقد تعرّضنا للسرقة، وكنّا على وشك أن نُقتل. والأسوأ من هذا وذاك، أنّ أقوى رجل في (راقكا) بأكملها يُطاردنا الآن.

ما يهم أنّنا عُدنا أصدقاء، وهذا ما جعلني أنام مُطمئنّةً لأوّل مرّة منذ وقتٍ طويل.

أيقظني شخير (مال) في وقتٍ مُتأخّر من الليل، فضربته على ظهره بمرفقي، وإذا به ينقلب ناحيتي، مُتمتمًا بشيء لم أتبيّنه، ثم ألقى بذراعه عليّ.

مرّت دقيقة وعلَت شخراته بعدها، ولكنّني لم أوقظه هذه المرّة.

الفصل الثامن عشر

شاهدنا في طريقنا مُسطّحات مُمتدّة من العشب حديث الاخضرار، وزهورًا بريّة مُتناثرة هنا وهناك، لكن كُلّما توغّلنا في غابات (تسيبيا) شمالًا، حيث سنجد الأيل بحسْب ما قاله لي (مال)، لم نرَ أي علامات تدل على قدوم الربيع. كانت ثمّة أشجار صنوبر تحرس مداخل غاباتٍ مليئة بشجر البتولا، تمتدُّ خلفها مساحات شاسعة من المراعي.

وعلى الرغم من أن (مال) قد ندم على ذهابنا إلى القرية، فإنّه أدرك فيما بعد أنّها كانت رحلة ضروريّة. ازداد الصقيع ليلًا في الشمال، واضطررنا لإشعال النيران للتدفئة غير مرّة قبل أن نقترب من حدود (تشيرناست). كما أنّنا لم نُرِد إضاعة المزيد من الوقت في الصيد، فاعتمدنا بشكلٍ أساسي على ما نملك من مُؤن، وراقبناها بقلوبٍ مفطورة وهي تنقص كل يومٍ.

ومن الجدير بالذكر أن ذلك الجدار الذي كان قد بُنيَ بيننا في (بيترازوي) قد تحطّم، وصرنا نتحدّث معًا أثناء مشينا. لاحظتُ أنّه مُهتم بمعرفة مظاهر العيش في القصر الصغير، وأسرار ممرّات القصر الكبير الغريبة، وحتّى نظريّات الغريشا. ولم يُصدم على الإطلاق عندما أخبرته بأن مُعظم الغريشا يزدرون الملك. اتضح أن ألسنة المُتعقّبين كانت نصالًا حادّة تنال من سيرته بما يكفي.

قال لي (مال): «إن الفيردانيين يملكون بنادق حديثة تُحشى

مـن إخمصها، وتطلـق ثمـاني وعشريـن طلقـة في الدقيقـة الواحـدة. مـن حـق جنودنـا أن يحظـوا ببنـادق كهـذه! إذا اهتـم الملـك بالجيـش الأوّل، فلـن نعتمـد عـلى الغريشـا. لكـن هـذا لـن يحـدث أبـدًا».

صمـت بُرهـة ثـم أضـاف: «جميعنـا نعلـم مَـن في يـده مقاليـد أمـور بلادنـا».

لم أتلفّـظ بكلمـة؛ فكنـتُ أتجنّـب الحديـث عـن مُسـتحضر الظلام قـدر الإمكان.

عندمـا سـألتُ (مـال) عـن الفـترة التـي قضاهـا في تتبُّـع الأيـل، تهـرّب مـن الإجابـة، فلـم أُلِـح عليـه. علمـتُ منـه أن كتيبتـه قـد عـبرت إلى حـدود (فيـيردا)، وأن معركـةً قـد نشـبت بينهـم وبـين جنـود الحـدود، أصيـب خلالهـا (مـال) بتلـك الندبـة التـي تُشـوّه خـدّه. ثـم لم يسـتطرد لأكـثر مـن ذلـك.

سرنـا بـين أشـجار الصفصـاف الجافـة، مُهشّـمين بأرجلنـا رقائـق الثلـج مـن تحتنـا، وفجـأة أشـار (مـال) نحـو عـشٍ لطائـر الباشـق فتمنّيـتُ أن نمـشي معًـا إلى الأبـد. وعـلى الرّغـم مـن توْقـي الشـديد لوجبـةٍ سـاخنة وسريـر دافـئ بعدمـا ينتهـي ذلـك الكابـوس المُزعـج، فـإنّ الخـوف مـما نحـن مُقبـلان عليـه قـد مـلأ قلبـي.

تُـرى مـاذا سـيحدث إذا وجدنـا الأيـل وحصلـتُ عـلى قرونـه؟ وإلى أي مـدى سـيُغيّر هـذا المُضخّـم حيـاتي؟ وهـل سـيُنقذنا حقًّـا مـن بطـش مُسـتحضر الظـلام؟

ليتنـا نبقـى كـما نحـن الآن، نمـشي جنبًـا إلى جنـب، وعندمـا يُصيبنـا الإرهـاق ننـام تحـت بُسـاطٍ سـماويّ مـن النجـوم. ربمـا

هـذه السـهول والبسـاتين الهادئـة سـتؤوينا مثلـما أوت قطيـع موروزوفـا، وسـتحمينا ممّـن يُطاردوننـا.

أعلـم أن هـذه محـض أفـكار حمقـاء؛ فـ(تسـيبيا) لا تُرحّـب بضيوفهـا، بـل إن كل مَـن يزورهـا تطولـه إمّـا يـد الشـتاء القـارس، وإمـا حـرارة الصيـف المُحرقـة. ونحـن لا نشـبه تلـك المخلوقـات القديمـة التـي كانـت تجـوب الأرض وقـت الشـفق، بـل إنّنـا محـض هاربـيْن، وسـنظلّ هكـذا ربمـا إلى الأبـد.

كان ثمّـة أمـر قـد شـغل تفكـيري لأيّـام، وأخذ يـدور ويـدور داخل رأسي، إلى أن استقر الآن. تنهّـدتُ.. فقَـدْ أردتُ أن أُخبِر (مـال) بتلـك المُشـكلة منـذ وقـتٍ طويـل. ونظـرًا لمـا تعرّضنـا لـه مـن مخاطـر في الفـترة الماضيـة، فقـد قـرّرتُ أن أُفصح لـه عـمّا بداخـلي.

في تلـك الليلـة، كان (مـال) عـلى وشـك الخلـود للنـوم. لحظـات وبـدأ يتنفّـس بُعمـقٍ قبـل حتّـى أن أسـتجمع نفـسي كي أحدّثـه.

قلـتُ بنـبرةٍ خفيضـة: «مـال»، فاسـتيقظ عـلى الفـور، ونهـض وأمسـك بسـكّينه.

وضعـتُ يـدي عـلى ذراعـه وقلـتُ: «لا تخـف؛ كل شيء عـلى مـا يـرام. أودُّ فقـط أن أتكلّـم معـك لبعـض الوقـت».

اسـتلقى عـلى ظهـره مـن جديـد، ولـفّ ذراعيـه حـولي، ثـم قـال: «الآن؟».

تنهّدتُ طويلًا.

كـم أردتُ أن أبقـى حيـث أنـا في الظـلام، أسـتمع إلى حفيـف أوراق الشـجر، وأسـتمتع بـدفء الأمـان، حتّـى وإنْ كان وهميًّـا. ولكنّنـي أعلـم أن هـذا مُسـتحيل.

«أريدك أن تفعل شيئًا من أجلي».

نخـر وقـال: «لقـد تهرّبـتُ مـن الجيـش، وقضيـتُ أيّامًـا أتسـلّق الجبـال في صقيـع الشـتاء، ونِمـتُ عـلى الأرض حتّـى تجمّـدت مُؤخّـرتي! هـل ثمّـة شيء آخـر عـلي القيـام بـه؟».

«أجل».

التزم الصمت، وأخذ يتنفّس بعُمق.

«مـال، إذا لم نسـتطع الوصـول إلى الأيـل، ولحـق رجـال مُسـتحضر الظـلام بنـا، لا تسـمح لهـم بـأن يأخـذوني معهـم».

ظلّ ساكنًا تمامًا. كنتُ أشعر بثِقل ضربات قلبه.

بقـيَ صامتًـا لوقـتٍ طويـل حتّـى ظننتـه قـد غـطّ في سـباتٍ عميـق.

قال في النهاية قاطعًا صمته: «لا يُمكنكِ أن تطلبي هذا منّي».

«لكنّه أمر ضروري».

نهـض وارتكـن عـلى جـذع الشـجرة مُبتعـدًا عنّـي، فنهضـتُ لأجلـس بجانبـه، ولففـتُ الفـراء حـول كتفـي، ثـم أخـذتُ أُحـدّق في عينيـه اللتـين لمعتـا في ضيـاء القمـر.

«لا».

«لا يُمكنك أن ترفض يا (مال)».

«لقد قلتِ لي طلبك، وأنا رفضته، هذا كل ما في الأمر».

ثم وقف ومشى بضع خطواتٍ بعيدًا عنّي.

«أنـتَ تعلـم مـاذا سـيحدث إذا وضـع الطـوق حـول رقبتـي. لـن أسـمح لنفـسي أن أكـون السـبب في مـوت كثـير مـن النـاس».

«كلّا».

«كان مـن المُفـترض أن تتوقـع احتماليّـة حـدوث ذلـك قبـل أن نتّجـه إلى الشـمال يـا مـال».

اسـتدار ومـضى نحـوي، ثـم انحنـى بجسـده حتّـى صـار وجهـه يُقابـل وجهـي، وقـال: «لـن أقتلـكِ يـا ألينـا».

«قد تضطر لفعل هذا».

«لا، لا، هـذا مُسـتحيل!»، صـاح هـازًّا رأسـه، ثـم أشـاح بوجهـه عنّـي.

وضعـتُ يـديّ الباردتـين عـلى خدّيـه، وأدرتُ وجهـه حتّـى تقابلت أعيننـا، ثـم قلـتُ: «بل سـتفعل».

«لن أستطيع يا (ألينا).. لن أستطيع».

«عندمـا تقابلنـا تلـك الليلـة في القـصر الصغـير، لقـد قلـت لي أن مُسـتحضر الظـلام يمتلكنـي».

انتفض فزعًا ثم قال: «لقد كنتُ غاضبًا، ولم أقصد أن...».

«إذا وضـع الطـوق حـول رقبتـي، سـيمتلكني بالفعـل.. سـيمتلكني بالكامـل. وسـيُحوّلني إلى مسـخٍ بشـع. أرجـوك يـا (مـال)، أخـبرني أنّـك لـن تسـمح لـه أن يفعـل هـذا بي».

«كيف لكِ أن تطلبي منّي أن أقتلكِ؟».

«لا أعلم أحدًا غيرك بإمكاني أن أطلب منه ذلك».

نظـر إليّ بوجـهٍ تعتليـه ملامـح اليـأس والغضـب في آنٍ واحـد. ثـم أومـأ برأسـه في النهايـة.

«عِدني يا (مال). عِدني أرجوك».

قطّب جبينه وظلّ صامتًا. كرهتُ أن أُعذّبه بهذه الطريقة، لكن كان عليّ أن أتأكّد.

قال في النهاية بصوتٍ أجش: «أعدكِ». ثم تنهّد طويلًا، فشعرتُ بالراحة تتدفّق إلى قلبي.

أسندتُ جبيني إلى جبينه وأغمضتُ عينيّ ثم قلتُ: «شكرًا لك يا مال».

بقينا هكذا للحظة طويلة، ثم تراجع للخلف. فتحتُ عينيّ فرأيته يُحدّق بي، ووجهانا قريبان لدرجة أنّني أشعر بأنفاسه الدافئة. حرّرتُ خدّيه المُنتفخين من أسْر راحتيّ. ظل مُصوّبًا نظره تجاهي للحظاتٍ ثم وقف فجأة وألقى بنفسه في غياهب الظلمات.

أبى جسدي أن يستسلم للنوم، فظللتُ مُستيقظةً لوقتٍ طويل، جسدي يرتعش من البرد وقلبي كاد يفطره الحزن. لقد مضى (مال) حاملًا ذلك العبء الذي ألقيته على عاتقه. كم أشفقتُ عليه لحظتها، لكنّه كان أمرًا حتميًا. انتظرتُ عودته إلى أن قهرني النوم، فنمتُ بلا رفيق سوى نجمٍ برُق لي في السماء.

***

أمضينا الأيّام القليلة التالية في المناطق المُحيطة بـ(تشيرناست)، قاطعيْن أميالًا طويلة بحثًا عن أي أثر يُشير إلى تواجد قطيع موروزوفا، حتّى أنّنا اقتربنا من حدود (تشيرناست) حيث ترتكز كتيبة (مال). وفي كل يومٍ كان يمُر، يزداد مِزاج (مال) سوءًا؛ فصار يتقلّب كثيرًا أثناء نومه ولا يتناول ما يكفي من الطعام. وأحيانًا ما كنتُ أستيقظ على صيحاته ليلًا وهو يقول:

«أيـن أنـت؟ أيـن أنـت؟».

أثنــاء مشــينا، لفــت نظــر (مــال) غصــون مُنكــسرة، وحجــارة مُتناثــرة، وأشــياء أخــرى لم ألحظهــا إلى أن أراني إيّاهــا. أخــبرني أنّ أناسًــا قـد مـرّوا هنـا، وأن هـذه الآثـار لا تـدل عـلى وجـود القطيـع.

ثم ذات صباح، أيقظني قبيل الفجر.

أزال الفــراء مــن فــوق جســدي ووضعــه في حقيبتــه وقــال: «اســتيقظي، إنّنــي أشــعر أن القطيــع قريــب منّــا».

قلـتُ مُتذمّـرةً: «مهلًا! دعنـي أتنـاول فطـوري أولًا»، ثـم حاولـتُ جـذب الغطـاء مـن بـين يديـه، لكـن دون جـدوى.

ألقـى إليّ قطعـة خبـزٍ صلبـة وقـال: «تنـاولي فطـوركِ في الطريـق. أريـد أن نتّجـه فـورًا إلى الطـرق الفرعيّـة الغربيّـة. إنّنـي أشـعر أنّ الأيـل هنـاك».

«لكنّك قلتَ البارحة أنّنا سنتّجه شرقًا».

وضـع حقيبتـه عـلى كتفـه وقـال بعدمـا مـضى بضـع خطـوات: «كان هــذا البارحــة! هيّــا لنتحــرّك؛ علينــا أن نجــد الأيــل قبــل أن أضطــرّ لفصْــل رقبتــك عــن جســمك قريبًــا!».

فركـتُ عينـي وهممـتُ باللحـاق بـه وأنـا أقـول: «لم أطلـب منـك أن تقطـع رقبتـي قـط!».

«إذًا هــل تودّيــن أن أبقــر بطنــكِ، أم أطلــق عليــكِ وابــلًا مــن الرصــاص؟ لقــد قلــتِ فقــط أنّ عــليّ قتلــكِ، دون أن تذكُــري الطريقــة».

كان موليًـا ظهـره لي، فأخرجـتُ لـه لسـاني. كنـتُ سـعيدةً لكونـه نشـيطًا ذلـك اليـوم، وتضاعفـت سـعادتي حـين صـار يمـزح لأوّل مـرّة

منذ وقتٍ طويل.. أو ربما كنتُ آمل أنّه يمزح.

مررنا ببساتين مليئة بشجر الصنوبر، ومروج مفروشة ببُسطٍ من العشب الطويل. وكالعادة، كان (مال) يركض بسرعة وثبات غير عابئٍ ببرودة الجو. لمحته ينظر مهمومًا إلى السماء الملبّدة بالغيوم غير مرّة، لكنّه لم يتوقّف.

وصلنا في وقتٍ مُتأخّر من الظهيرة إلى تلٍ مُنخفض تفترش أمامه رقعة واسعة من العشب الباهت. قادني (مال) إلى القمّة، ثم اتجهنا شرقًا، ثم غربًا، ثم نزلنا التلّ، ثم صعدناه مُجدّدًا، ثم نزلناه، إلى أن كِدتُ أصرخ من الإرهاق والملل. وفي النهاية، اتجهنا صوب مجموعة من الصخور الضّخمة، مُرتصّة بعضها بجانب بعض، وجلسنا عكس اتجاه الريح. فرشتُ فراء من تحتي كي أحتمي من برودة الأرض، ووضع (مال) حقيبته بجانبي، وذهب ليستكشف المكان، ثم عاد أخيرًا وألقى بنفسه بجانبي، واضعًا يده على قوسه، ومُصوّبًا نظره نحو هضبةٍ خفيضة أمامنا.

علمتُ أنّه يتخيّل الآن أجساد الآيائل البيضاء وهي تولد من بطن الأفق، نافثين من أنوفهم سُحُبًا من الدُّخّان في الصقيع، ويتوهّجون كالأقمار على الأرض أثناء حلول الغسق. إن (مال) يريدهم أن يظهروا أمامه الآن؛ فهذا أفضل مسرحٍ ليتجلّوا عليه، حيث العشب زاهي الخُضرة، مُرقّط ببحيراتٍ زرقاء صغيرة تُشبه عُملاتٍ معدنيّة تلمع في ضوء شمس المغارب.

انصهرت الشمس. راقبنا الغسق وهو يصبغ الهضبة بزُرقة الليل، وانتظرنا طويلًا، مُصغين إلى أصوات أنفاسنا، وأنين الرياح التي أُرهقت من الطيران فوق مُسطّحات (تسيبيا) الشّاسعة.

وعندما كسا الظلام كل شيء حولنا، ظلّت الهضبة بلا حِراك.

صارع القمر السّحاب وارتقى إلى أعلى منازله. بقي (مال) ثابتًا كتلك الصخرة التي نرتكن عليها، وعيناه الزرقاوان تُحدّقان في الأفق البعيد. أخرجتُ من الحقيبة فراء آخر ووضعته على أكتافنا. ورغم أن تلك الصخرة حَمَتنا من مهب الريح، فإن البرد قد تسلّل إلى أجسادنا.

تنهّد (مال) طويلًا ونظر إلى سماء الليل ثم قال: «سيَهل الثلج عمّا قريب. كان من المُفترض أن أذهب بكِ إلى الغابة، لكنّني ظننتُ...».

سكت برهة ثم أضاف هازًّا رأسه: «كنتُ مُتأكّدًا من إحساسي».

أسندتُ رأسي إلى كتفه وقلتُ: «لا بأس، لنذهب غدًا».

«لن يكفينا ما لدينا من طعام. وفي كل يوم سيمُر علينا هنا، ستكون فرصة الإمساك بنا أكبر».

كرّرتُ قولي: «لنذهب غدًا».

«أعتقد أنّه وجد الأيل وقتله بالفعل، وربما قد تفرّغ هو ورجاله لمُلاحقتنا الآن».

«لا أظن ذلك».

لم ينبس بكلمة.

رفعتُ الغطاء للأعلى قليلًا واستحضرتُ شعاع ضوءٍ مُتناهي الصغر.

«ماذا تفعلين؟».

«أشعر بالبرد».

«لكنّنا لسنا بأمان الآن»، قالها ثم رفع الغطاء إلى الأعلى ليُخفي الضوء الذي صبغ وجهه باللون الذهبي.

«إنّنا لم نرَ أي كائن حي منذ أكثر من أسبوع. وتخفّينا لن يجدي نفعًا إذا تجمّدنا حتّى الموت!».

عبس وجهه، لكنّه مدّ أصابعه بعد لحظات وأخذ يلمس الضوء.

قال في النهاية: «هذا رائع حقًّا».

ابتسمتُ وقلتُ: «شكرًا».

«لقد مات ميخائيل».

ارتجف الضوء في يدي.

«ماذا؟».

«قُتِل في فيردا، ومعه دوبروف».

فشل الضوء في تدفئة جسدي الذي جمّدته الصدمة.

والحق أنّني لم أُحب (ميخائيل) و(دوبروف) على الإطلاق، لكنّ هذا لا يهم الآن.

قلتُ مُتردّدة: «لم أُدرك أنّهما... ولكن، كيف قُتلا؟».

لم أدرِ إذا كان سيُجيب عن سؤالي أم لا، ولم أدرِ إذا كان من حقّي أن أُوجّه له سؤالًا كهذا من الأساس. ظلّ يُحدّق في الضوء الذي يبرُق في يدي، وأظنّه شرد بذهنه بعيدًا.

قال بعد ذلك بهدوء: «كنّا في الشمال بالقرب من الأراضي المُتجمّدة، ومررنا بتشيرناست مُتتبّعين الأيل إلى أن اقتربنا من

حدود فيردا. خطرت على بال القائد فكرة غريبة، وهي أن تعبر مجموعة منّا الحدود مُتنكّرين كفيردانيين، ويستمرّون في تتبُّع القطيع. كانت فكرة حمقاء بلا شك؛ فماذا سنفعل لو استطعنا العبور دون أن يكشف أمرنا أحد، واستطعنا بالفعل صيد الأيل؟ كما أُمِرنا ألّا نقتله، بل علينا أن نعبر به الحدود إلى رافكا. كانت خطّة غير منطقيّة على الإطلاق!».

أومأتُ برأسي مُوافقةً.

أردف: «جلستُ مع (ميخائيل) و(دوبروف) في تلك الليلة، وأخذنا نضحك ونتحدّث عن تلك المُهمّة الانتحاريّة، وعن غباء القائد. ثم شربنا نخب المساكين الذين وُكِّلت لهم تلك المُهمّة. ثم في صباح اليوم التالي.. تطوّعت».

«لماذا؟»، سألته مُندهشة.

سكت هُنيهة ثم قال في النهاية: «لقد أنقذتِ حياتي عندما كُنّا في طيّة الظل يا ألينا».

«وأنت أيضًا أنقذت حياتي!».

لا أعلم ما علاقة هذا بمُهمّة (فيردا) الانتحاريّة، لكنّ (مال) استطرد قائلًا: «لقد أنقذتِ حياتي، ولم أستطع أن أفعل لكِ شيئًا عندما فرّقوا بيننا في خيمة الغريشا».

«وماذا كان بوسعك أن تفعل يا (مال)؟».

«أي شيء، أي شيء، ولا أقف مكتوف الأيدي!».

«لكن يا (مال)...».

«أعلم جيّدًا أنّه ليس منطقيًّا، لكن هذا ما شعرتُ به. أبَت عيناي أن تذوقا طعم النوم، ورفضت معدتي أن تزورها قطعة

خبز. وظللتُ أحلم بكِ وأنتِ تذهبين بعيدًا، وبلا رجعة».

تذكرّتُ تلك الليالي التي لم أنم فيها في القصر الصغير، حينما تردّد مشهد تفرُّقنا في ذهني. في كل مرّة كان يختفي وجه (مال) بين الحشد، ويأخذني حرّاس مُستحضر الظلام بعيدًا، وأظل أتساءل إذا ما كنتُ سأراه ثانيةً.

لقد اشتقتُ لـ(مال) بشدّة، لكنّني لم أظن يومًا أنّه سيشتاق إليّ لهذه الدرجة.

قال مُستطردًا: «كنتُ أعلم أنّنا نبحث عن الأيل لصالح مُستحضر الظلام، لكنّني ظننتُ أنّني إذا وجدتُه فسيصُبُّ ذلك في مصلحتكِ أيضًا».

نظر إليّ آسفًا وأكمل: «ميخائيل لم يعلم أي شيء عن فكرتي. ولأنّه صديقي، تطوّع مثل الأحمق من أجلي، وبالطبع انضم (دوبروف) إلينا. ألححتُ عليهما أن يتراجعا، لكن (ميخائيل) ضحك وأخبرني أنّه لن يدعني أحظى بالمجد وحدي».

«وماذا حدث بعد ذلك؟».

«عبر تسعة منّا الحدود: ستّة جنود وثلاثة مُتعقّبين. نجا منهم اثنان فقط».

علقت كلماته في الهواء أمامي، فاهتزّ لها كياني.

لقد مات سبعة رجال أثناء رحلة البحث عن الأيل. تُرى كم عدد باقي الموتى الذين لا نعرفهم؟ أمعنتُ التفكير فراودني سؤال بعث في نفسي القلق: تُرى كم عدد الأرواح التي قد تنقذها قوّة الأيل؟

كنتُ أنا و(مال) لاجئين، وُلدنا أثناء الحروب التي اندلعت

علـى حـدود (راڤـكا) منـذ سـنوات. تُـرى هـل سـيتمكّن مُسـتحضر الظـلام مـن إخمادهـا مُسـتعينًا بقـوّة طيّـة الظـل الرهيبـة؟ تُـرى هـل سيسـتطيع الإطاحـة بأعدائنـا ويُعيـد لـ(راڤـكا) الأمـان الـذي افتقـرت إليـه؟

ردّ صـوت انبعـث في نفـسي: «بـل إنّ مُسـتحضر الظـلام سـيُطيح بـكُل مـن يقـف أمامـه، سـواءً أكان مـن أعـداء راڤـكا أم لا».

مسـح (مـال) عـلى وجهـه وقـال: «لقـد بـاءت مُهمّتنـا بالفشـل في النهايـة؛ فعندمـا تغـيّر الجـو، عـاد القطيـع إلى راڤـكا مـن جديـد. كان مـن المُفـترض ألّا نُخاطـر، وأن ننتظـر عودتـه».

نظـرتُ في عينيـه الشـاردتين، ثـم إلى الندبـة عـلى خـدّه. لم يبـدُ كذلـك الصبـي الـذي عرفتـه يومًـا. لقـد حـاول مُسـاعدتي بالبحـث عـن الأيـل، وهـذا يعنـي أنّنـي تسـبّبتُ في ذلـك التغـيُّر الـذي حـدث لـه. مُجـرّد التفكـير في هـذا الأمـر فطـر قلبـي.

«أعتذر لك يا (مال).. أعتذر من كل قلبي».

«هـذا ليـس خطـأكِ يـا (أليـنا)؛ فأنـا مسـؤول عـن قـراراتي. ولكن.. ولكـن تلـك القـرارات أردَت بحيـاة أصدقائي».

أردتُ أن ألقـي ذراعـيّ حولـه وأضمُّـه إلى صـدري بقـوّة، لكنّنـي لم أسـتطع مُعانقـة (مـال) الـذي لا أعرفـه.. وأظنّنـي لـن أُعانقـه حتّـى لـو عـاد (مـال) الـذي تربّيـتُ معـه. فكلانـا لم يعـد طفـلًا، وصـار مـن الصّعـب أن نتعامـل بحميميّـة الأطفـال. اكتفيـتُ بوضـع يـدي عـلى ذراعـه.

«إذا لم أكُـن مُخطئـة، فأنـت لم تُخطـئ أيضًا يا (مـال)؛ فـ(ميخائيل) و(دوبـروڤ) كانا مسـئولَين عـن قرارهما».

صمـتُ بُرهـةً ثـم ما لبثـتُ أن أضفـتُ: «أعلـم أن (ميخائيـل) كان صديقًـا مُقرّبًـا لـك، لكنّـه تطـوّع لمُلاحقـة القطيـع لأسـبابٍ مُعيّنـة. إنّـه لم يكُـن طفـلًا يـا (مـال)، ولـن يتذكّـر أحـد أنّـه عـاش طفـلًا!».

لم ينظـر (مـال) إليّ. وبعـد لحظـة وضـع يـده فـوق يـدي، وبقينـا جالسـيْن كـما نحـن إلى أن بـدأت رقائـق الثلـج تتسـاقط فـوق رأسـينا.

الفصل التاسع عشر

أبقى الضوء جسدينا دافئين طوال الليل. غفوتُ أكثر من مرّة، لكن (مال) كان يوقظني كي أستحضر ضوء الشمس ليُضيء المساحات التي أخفقت النجوم أن تُبدِّد ظُلمتها. وعندما استيقظنا صباح اليوم التالي، وجدنا الشمس قد سطعت فوق عالمٍ مكسوٍّ ببياض الثلج. عادةً ما يُشير سقوط الثلج هنا في أقصى الشمال إلى قدوم الربيع، لكن -في الواقع- كان الجو عائقًا لنا طوال رحلتنا.

ألقى (مال) نظرةً على المرج المُمتد أمامنا فبدَت عليه ملامح الضيق. لم أسأله عما يدور في رأسه؛ لأن القطيع كان سيُخلِّف آثارًا فوق الثلج في حال مروره بهذه البقعة من الأرض. أمّا نحن، فسنترك آثار أقدامٍ تشي بمرورنا بهذه الرقعة الواسعة.

نزعنا الفراء من فوق جسدينا دون أن نتفوّه بكلمة، وربط (مال) قوسه بحقيبته، ثم بدأنا رحلتنا إلى الهضبة. سِرنا ببطءٍ في البداية، وبذل (مال) ما في وسعه لكي يُواري آثارنا، لكنّه فشل في كثيرٍ من الأحيان. وعلى الرغم من علمي بأنّه يلوم نفسه باستمرار لأنّه لم يعثر على الأيل، فإنّني لم أدرِ كيف بوسعي أن أُهوِّن عليه. لقد صارت (تسيبيا) أكبر مساحةً من اليوم الفائت، أو ربما أصبحتُ أنا في أحضانها ضئيلة كالفراشة.

قادنا المرج في النهاية إلى بساتين تحرسها أشجار البتولا الفضّية الشّاهقة الارتفاع، تتخلّلها صفوف من أشجار الصنوبر

التـي استحوذ الثلـج عـلى أغصانهـا. مـضى (مـال) بسرعـة أبطـأ وقـد سـيطر عليـه الإرهـاق، لدرجـة أنّنـي لاحظـتُ ظـلالًا سـوداء قـد تشـكّلت أسـفل عينيـه الزرقاويـن. وجدتنـي أُمسـك بيـده فجـأة. ظننتُـه سـيُبعدها ولكنّـه عـصَر أصابعـي بقـوّة، ومضينـا طـوال وقـت الظهـيرة عـلى هـذا الحـال، أسـفل مظلّـة مـن أغصـان الصنوبـر المُتشـابكة، طاعنـين قلـب الغابـة.

وقبـل أن تُودّعنـا الشـمس وتـأوى إلى فراشـها، تسـلّلنا مـن بـين الأشـجار إلى فَسـحة صغـيرة مفروشـة برقائـق ثلـجٍ ثقيلـة يُهدهدهـا ضـوء الشـمس الخافـت قبـل أن يتـلاشى. حفّنـا الصمـتُ مـن كل جانـب، وتوقّفنـا لنُريـح أقدامنـا التـي أثقلهـا الجليـد. كان ذلـك الوقـتُ الأنسـب لـكي نجـد بُقعـة آمنـة لنُخيّـم فيهـا، لكنّنـا وقفنـا صامتـيْن، يُمسـك كل منّـا بيـد الآخـر، ونراقـب النهـار وهـو ينجـلي رويـدًا رويـدًا.

قـال (مـال) بهـدوء: «أعتـذر لـكِ يـا (ألينـا) عـمّا قلتـه في تلـك الليلـة في القـصر».

نظـرتُ لـه مُندهشـة، وكأن أعوامًـا كانـت تفصـل بيننـا وبـين ليلـة عيد الشـتاء.

قلتُ: «وأنا أيضًا آسفة».

«أعتذر عن كل ما حدث».

ضغطـتُ عـلى يـده برفـقٍ وقلـت: «كنـتُ أعلـم أن عثورنـا عـلى الأيـل أمـر شـبه مُسـتحيل».

أشـاح بوجهـه عنّـي وقـال: «لا، لا، لا أقصـد هـذا. فعندمـا قـرّرتُ أن أبحـث عنـكِ، ظننـتُ أنّنـي بهـذا أرُدُّ لـكِ الجميـل لأنّـكِ أنقـذتِ

حياتي.. لأنّني مدين لكِ بحياتي!».

شعرتُ بغُصّة في قلبي؛ لم أدرِ أنّ (مال) كان يبحث عنّي فقط ليُسدّد مثل هذا الدّيْن الخياليّ.

«والآن؟».

«لا أعلم فيما عليّ أن أُفكّر.. ما أنا مُتأكّد منه أن كل شيء قد تغيّر».

آلمني قلبي مرّة أخرى. همستُ قائلةً: «أعلم ذلك».

«حقًّا؟ أتعلمين أيضًا أنّكِ بدوْتِ سعيدةً في تلك الليلة عندما تقابلنا وكأنّكِ تنتمين له؟ ذلك المشهد لا يغيب عن ذهني أبدًا».

«أجل، كنتُ سعيدة.. سعيدة في تلك اللحظة فقط. لكنّني يا (مال) لستُ مثلك؛ أنا لا أنسجم مع الجميع، ولا أملك صفاتك. والأهم أنّني لا أشعر بأنّني أنتمي إلى أي مكان».

قال بهدوء: «لكن قلبكِ ينتمي إليّ».

«كلّا يا (مال)؛ لم أشعر بذلك منذ وقتٍ طويل».

نظر إليّ بعينيه الزرقاوين اللّتين تلمعان في ضوءِ الغسق الخافت، وقال: «هل اشتقتِ إليّ يا (ألينا)؟ هل اشتقتِ إليّ عندما رحلتِ؟».

قلتُ مُعترفةً: «كلّ يومٍ».

«أمّا أنا فاشتقتُ إليكِ كلّ ساعة. وأسوأ ما في الأمر أنّني لم أتوقّع ذلك. كنتُ أمشي لمسافاتٍ طويلة باحثًا عنكِ كالعادة، فقط لأنّني رأيتُ شيئًا أريد أن أخبركِ به، أو لأنّني أردتُ أن أسمع صوتكِ. وفي كل مرّة أُدرك أنّك لستِ معي. وفي كل مرّة

كنتُ أشعر وكأن روحي قد سُلِبت منّي».

استطرد بعد لحظةٍ من الصمت وقال مُنفعلًا: «لقد جازفتُ بحياتي من أجلكِ، وجُبتُ راقكا سيرًا على قدميّ من أجلكِ. وبإمكاني أن أُكرّر ذلك مئات المرّات كي أبقى بجانبكِ، لأتضوّر جوعًا معكِ، وأتجمّد من البرد معكِ، وأستمع إليكِ كلّ يومٍ وأنتِ تتذمّرين من أكل الجبن. فلا تخبريني أنّ قلبكِ لا ينتمي إليّ!».

اقترب منّي، فتسارعت ضربات قلبي.

قال في النهاية بصوتٍ خفيض: «أعتذر لأنّني تأخّرتُ كثيرًا عن رؤيتكِ يا (ألينا). لكنّني معكِ الآن».

ثم أخفض رأسه ولم أشعر بأي شيء سوى بشفاهنا تتلاقى. ساد الصّمتُ في العالم من حولنا. وجذبني (مال) من يدي كي أقترب منه، فأحسستُ بدفء أنفاسه.

لقد ظننتُ أنّني تناسيتُ (مال)، وأن حبّي له صار جزءًا من ماضي تلك الفتاة الحمقاء التي كُنتها، والتي لا أريدها أن تُبعث من جديد. لقد حاولتُ كثيرًا أن أُواريها تحت التراب، وألقي حُبّها معها في نفس النّعش، تمامًا مثلما أردتُ أن أدفن قواي. لكنّني لن أكرّر خطئي؛ فقلبانا الآن مُشتعلان بنارٍ جليّة للكفيف قبل البصير.

في اللحظة التي التقت فيها شفتانا، تأكّدتُ أنّني كنتُ سأنتظره للأبد.

تراجع عنّي، ففتحتُ عينيّ. وعندما وضع يده على خدّي، لمحتُ حركة حولنا.

التفتُّ وتنفّستُ بهدوء، ثم قلتُ: «انظر يا مال».

ظهرت من بين الأشجار مجموعة من الأجساد البيضاء، لها أعناق رشيقة قد انحنت لتأكل الحشائش على حافّة الفسحة المفروشة بالثلج. وقف في مُنتصف قطيع موروزوفا أيل أبيض ضخم، نظر نحونا بعينيه القاتمتيْن الكبيرتين، وقرونه الفضّيّة تلمع بوضوح رغم اقتراب الليل.

سحب (مال) قوسه بخفّة وقال: «سأصيبه كي يسهل عليكِ قتله».

وضعتُ يدي على ذراعه وقلت: «انتظر قليلًا».

مضى الأيل ببطءٍ نحونا ووقف على بُعد مسافة قصيرة منّا. رأيتُ جانبيه يرتفعان وينخفضان، وفتحتي أنفه تلمعان، وفمه ينفث ضبابًا في صقيع الهواء.

ظلّ الأيل مُصوّبًا نظره نحونا، فمضيتُ إليه.

همس (مال): «ألينا!».

لم يتحرّك الأيل عندما اقتربتُ منه ولامستُ وجهه الدّافئ. ارتعشت أذناه قليلًا، ولمع فراؤه الأبيض في الظلمة التي بدأت تشتد. تذكّرتُ كل التنازلات التي قدّمتُها أنا و(مال)، تذكّرتُ تلك الأسابيع التي قضيناها في تتبُّع القطيع وكلّ الأيّام البائسة التي سِرنا فيها إلى ما لا نهاية. وشعرتُ أنّني مُمتنّة لتلك المُغامرة، وسعدتُ أنّني -في هذه الليلة الباردة- ما زلتُ حيّة، وصار (مال) بجانبي، وسيظل إلى الأبد. نظرتُ في عينيّ الأيل الدّاكنتين، وأحسستُ بملمس الأرض تحت حوافره، وشممتُ رائحة الصنوبر تنبعث من أنفه، وشعرتُ بنبضات قلبه.

فعلمتُ وقتها أنني لن أستطيع إنهاء حياته.

قال (مال) بإلحاح: «هيّا يا (ألينا)، ليس لدينا ما يكفي من الوقت لنُضيعه. أنتِ تعلمين جيّدًا ما عليكِ فعله».

هززتُ رأسي، وقلتُ دون أن ألتفت: «كلّا يا (مال). علينا أن نجد طريقة أخرى».

شقّ الهواء صوت صافرة قصيرة خافتة، تبعها صوت اختراقٍ مُختنق مُعلنًا عن استقرار السّهم في هدفه. شبَّ الأيل فجأةً وأخذ يترنّح، والسّهم يهتزّ في صدره، ثم هوى على قدميّه الأماميّتين. تراجعتُ إلى الخلف سريعًا بينما فرّ باقي القطيع، وتفرّقوا في جميع أنحاء الغابة. وجدتُ (مال) بجانبي، مُمسكًا بقوسه ومُتأهّبًا للتصويب في أي لحظة. وفي لمح البصر، تجمّع حولنا عدد هائل من حرّاس الأوبرتشنيكي بأزيائهم الفاحمة، وكثير من الغريشا ممّن يرتدون أزياء زرقاء وحمراء.

علا صوتٌ واضح ينبعث من بين الظلال يقول: «كان عليكِ أن تُنفّذي الأمر يا ألينا»، وإذا بمُستحضر الظلام يمضي إلى الفَسحة مُبتسمًا بخبثٍ، ومن خلفه رداؤه الأسود يرفرف كطيرٍ يستعد للتحليق .

سقط الأيل على جنبه فوق بُساطٍ من الثلج، وأخذ يلفظه أنفاسه الأخيرة بعينين جاحظتين من فرط الذعر.

لم أشعر بأن (مال) قد مضى بعيدًا عنّي إلّا بعدما رأيته يُطلق سهمًا باتجاه الأيل، ولكنّ مُستحضر رياحٍ تقدّم سريعًا وحرك يديه في الهواء، فانحرف السّهم عن مساره إلى اليسار، ووقع بجانب الأيل دون أن يخدشه.

أمسك (مال) بسهمٍ آخر، وفي اللحظة ذاتها، رفع مُستحضر الظلام يديه إلى السماء فزحفت نحونا شرائط سوداء من الظلال، رفعتُ يديّ فانفجر الضوء منها مُبدّدًا الظلام بسهولة. لكنّ هذه كانت مُجرّد حيلة لتشتيتنا؛ فقد انقضّ مُستحضر الظلام على الأيل ورفع يديه بحركةٍ أعلمها جيّدًا.

«لا!»، صرختُ وألقيتُ بنفسي دون أن أفكّر للحظة كي أفدي الأيل. أغلقتُ عينيّ هيأتُ نفسي كي أنقسم إلى نصفين عندما يُنفّذ مُستحضر الظلام مهارته المُفضّلة: القطع. ولكنّني تفاجأتُ أنّه استدار في آخر لحظة، وشطر شجرة كانت مُنتصبةً خلفي إلى نصفين، مُحدثًا صوتًا عاليًا، فتصاعدت منها خيوط من الظلام وامتزجت بثنايا الهواء.

لقد عتق الأيل.. وعتقني أيضًا.

تلاشت ابتسامة مُستحضر الظلام الخبيثة، وأطبق يديه بقوّة فاندفع نحونا جدار هائل من الظلام الحالك حتّى عزلنا عن العالم. استحضرتُ -دونما تفكير- كرة ضوء ضخمة مُتوهّجة، غلّفتني أنا و(مال) حاجبةً عنّا الظلام، وأعمّت أعداءنا. تجمّد كلّ منّا في مكانه؛ لم نستطع رؤية رجال مُستحضر الظلام، ولم يستطيعوا هم رؤيتنا. ومن حولنا التفّ الظلام حول كرة الضوء النابضة وحاول اختراقها دون جدوى.

صاح مُستحضر الظلام من بعيدٍ: «مُذهل! يبدو أن (باغرا) قد درّبتكِ جيّدًا، لكنّكِ لستِ قويّة بما يكفي كي تهزميني يا ألينا».

تجاهلته؛ لأنّني كنتُ أعلم أنّه يُحاول تشتيت تركيزي.

صاح مُجدَّدًا: «وأنت أيُّها المُتعقِّب، هل أنت مُستعد للتضحية بروحك من أجلها؟».

لم تتبدّل ملامح (مال)، بل ظلّ واقفًا كما هو، ومُستعدًّا للتصويب على أي هدف يظهر أمامه. لحظات وأخذ يدور في مكانه باحثًا عن مُستحضر الظلام، لكنّه لم يرَه.

علا صوت مُستحضر الظلام من جديد، قائلًا: «لقد شاهدنا ذلك المشهد المُؤثّر، ولكن هل قصصتِ عليه ما حدث بيننا يا (ألينا)؟ هل أخبرتِه أنّكِ كنتِ على وشك أن تهبي نفسك لي؟ هل يعلم ما رأيته في الظلام؟».

شعرتُ بالخزي والخجل، فتذبذب الضوء المُتوهّج وضحك مُستحضر الظلام.

نظرتُ إلى (مال) الذي اعتلت وجهه ملامح الغضب الشديد، تمامًا مثل ليلة عيد الشتاء. أحسستُ أنّ الضوء سيفلت من قبضتي فجاهدتُ كي أمنعه من الهرب، وحاولتُ أن أستجمع قواي من جديد. ضُخّ المزيد من الضوء في الكرة اللّامعة، لكنّني شعرتُ أنّني أقترب من حدود قوّتي بالفعل. بدأ الظلام يتخلّل الكُرة كحبرٍ أسود سقط من دواة خفيّة.

علمتُ ما علينا فعله..

كان مُستحضر الظلام على حق؛ فأنا لستُ قويّة بما فيه الكفاية. ولذلك، لن أحظى بفرصة أخرى إذا فشلت.

همستُ قائلةً: «هيّا يا (مال)، نفِّذ اتّفاقنا».

نظر إليّ بعينين مذعورتين وهزّ رأسه. دفع الظلام الكرة فكِدتُ أهوي على الأرض.

صِحتُ: «أسرع يا (مال) قبل أن يفوت الأوان!».

ألقى (مال) قوسه على الأرض في لمح البصر، وأمسك بسكّينه.

«افعلها يا (مال)! الآن!».

ارتجفت يداه، وكادت قواي تخور. همس مُتألّمًا: «لا أستطيع.. لا أستطيع»، ثم رمى سكّينه على الأرض فلَم تُحدث صوتًا فوق الجليد.

لحظات وعمّ الظلام، مُبتلعًا كل شيء حولنا. اختفى (مال)، واختفت الغابة، وألقى بي في غياهب الظلام الخانق.

سمعتُ صراخ (مال)، فركضتُ ناحية الصوت. وفجأة، أمسكت بي ذراعان قويّتان، فأخذتُ أصارعهما وأركلهما بقدمي.

تبدّد الظلام، وعندما اتضحت لي الرؤية، أدركتُ أنّها النهاية.

اثنان من حُرّاس مُستحضر الظلام كانا مُمسكين بي، واثنان آخران أمسكا بـ(مال).

صرخ (إيڤان) في وجهه قائلًا: «لا تتحرّك وإلّا سأقتلك في الحال!».

صِحتُ قائلةً: «دعه وشأنه!».

مضى مُستحضر الظلام نحوي، واضعًا سبّابته على شفتيه المُتبسمتين وقال: «صمتًا، وإلّا سأدع (إيڤان) يقتله.. ببطءٍ».

انهمرت دموع على خدّيّ جفّفتها في لحظات برودة الليل.

«أريد مشاعل!».

نفّذ الحرس أمر مُستحضر الظلام، وضربوا أحجار الصوان فتوهّجت النيران في المشاعل، فأضيئت الفسحة بأكملها. رأيتُ

الجنـود مُلتفّـين حولنـا، والأيـل مُسـتلقيًا عـلى الأرض بـلا حـراك. أخـرج مُسـتحضر الظـلام سـكّينًا ثقيلـة مـن الغمـد المُثبّـت بحزامـه، فلمـع فـولاذ الغريشـا في وهـج اللهيـب.

قال مُستحضر الظلام: «لقد أضعنا ما يكفي من الوقت».

تقـدّم للأمـام وذبـح الأيـل بـلا تـردّد، فتدفّـق نهـرٌ مـن الدمـاء فـوق الجليـد، واسـتحال إلى بركـة تجمّعـت حـول جسـده. راقبـتُ الأيـل بينـما تُسـلب منـه حياتـه، وعينـاه الدّاكنتـان تفقـدان رونقهـما. بكيـتُ حتّـى كاد صـدري ينشـق.

حـدّث مُسـتحضر الظـلام أحـد الحـرّاس قائـلًا: «اسـتخرج قرونـه وقطّعهـا».

تقـدّم حـارس الأوبرتشـنيكي نحـو جثّـة الأيـل وجثـا عـلى ركبتيـه، مُمسـكًا بسـكّين مُسـنّنة. أشـحتُ بنظـري بعيـدًا.. تألّمـت معـدتي مـن صـوت النّشر الـذي أجـبر الصّمـت أن يرتحـل بعيـدًا عـن تلـك الرقعـة المشـؤومة. وقفـتُ مذهولـة بينـما أخـذ الصّـوت يعلـو ويتّضـح، وتثاقلـت أنفـاسي مـن فـرط الرُّعـب والصقيـع. وحتّـى عندمـا تـلاشى الصّـوت، بقيـتُ مذعـورة لبعـض الوقـت.

عـاد الحـارس إلى مُسـتحضر الظـلام حامـلًا قطعتـين شـبه مُتطابقتـين مـن قـرون الأيـل، كلاهـما لـه رأس مُـزدوج مُدبّـب. أمسـكهما مُسـتحضر الظـلام، ومـرّر إبهامـه عـلى العظـام الفضّيـة الخشـنة، ثـم أشـار للحـرّاس، ففوجئـتُ بـ(ديڤيـد) يظهـر مـن بـين الظـلال مُرتديًـا زيّـه الأرجـوانيّ.

أراد مُسـتحضر الظـلام بالطبـع أن يُضفـي أفضـل المُصنّعـين لمسـاته السّحريّة عـلى الطـوق. لم ينظـر (ديڤيـد) إليّ.. تسـاءلتُ حينهـا إذا

كانت (جينيا) تعرف أنّه سيأتي إلى هنا، وما السبب وراء ذلك. ربما هي فخورة به الآن.. وربما هي أيضًا تظنّني خائنة مثل الآخرين.

قلتُ بصوتٍ خفيض: «ديفيد، لا تفعل هذا».

نظر إليّ ثم أشاح بوجهه.

قال مُستحضر الظلام بنبرة وعيدٍ: «إنّ (ديفيد) يعرف جيّدًا ما سيحدث في المُستقبل، ولن يستطيع مُقاومته».

وقف (ديفيد) خلف كتفي الأيمن، وراقبني مُستحضر الظلام في ضوء المشاعل. عمّ الصمت للحظة نظرتُ فيها إلى السماء فوجدتُ القمر الوضّاح المُكتمل قد ارتقى إلى منزلته.

قال مُستحضر الظلام: «قومي بفك أزرار معطفكِ الآن».

لم أُحرك ساكنًا.

أومأ لـ(إيفان)، فصرخ (مال) وسقط على الأرض واضعًا يده على صدره.

«لا!»، صِحتُ بأعلى صوتي وحاولتُ الرّكض إلى جانب (مال)، لكنّ الحارسيْن جذباني من ذراعيّ وشلّا حركتي.

قلتُ لمُستحضر الظلام مُتوسّلةً: «أرجوك، مُرهم أن يتوقّفوا!».

أومأ لـ(إيفان) مُجددًا، فكفّ (مال) عن الصراخ، واستلقى فوق الثلج، وأخذ يتنفّس بصعوبة، ونظره لا ينفكّ عن (إيفان) الذي رمقه بنظرةٍ مُتعجرفة بغيضة.

راقبني مُستحضر الظلام وقد بدت ملامح الترقُّب على وجهه. أبعدتُ الحارسيْن عنّي، وبأصابع ترتعش، مسحتُ دموعي وبدأتُ أفُكُّ أزرار معطفي حتّى انزلق أسفل كتفي، فتسرّب

بـرد الليـل إلى جلـدي.

كنـتُ أعلـم أنّنـي محـطّ أنظـار جميـع الجنـود والغريشـا؛ فـإنّ مصـيري المُخيـف قـد صـار بـين يـدي مُسـتحضر الظـلام.

تمتم: «ارفعي شعركِ للأعلى»، ففعلتُ كما أُمرتُ.

تقـدّم مُسـتحضر الظـلام نحـوي وباعـد طـرفي سُـترتي عـن بعضهما بأصابعـه. ارتجفـتُ عندمـا لامـس بـشرتي، فاشـتعلت ألسـنة الغضب في عينيـه. وضـع قـرون الأيـل حـول رقبتـي وأراحهـا بعنايـة شـديدة عـلى عظمتـيّ ترقـوتي. ثـم أومـأ لـ(ديفيـد) الـذي أمسـك القـرون عـلى الفـور. ولأنّنـي لم ألتفـت إلى (ديفيـد) فتخيّلـتُ ملامـح التركيـز الشـديد تعتـلي وجهـه، تمامًـا مثـل أوّل مـرّة رأيتـه فيهـا. شـاهدتُ قطعتـي العظـام تنصهـران ويُجمـع طرفيهـما، بـلا مفصـل أو إبزيـم.

وهـا قـد صـار طـوق العظـام جـزءًا مـن جسـدي سيبقى معـي إلى الأبـد.

همـس (ديفيـد): «لقـد انتهيـت»، تـاركًا الطـوق، فأحسسـتُ بثقلـه يسـتقر فـوق عنقـي. أطبقـتُ قبضتي يـديّ ووقفـتُ منتظرة.

لم يحدث أي شيء.

شـعرتُ بأملٍ يائـس يُصـوّر لي أن مُسـتحضر الظـلام مـن المُحتمـل أن يكـون قـد أخطـأ.

ماذا لو كان ذلك الطوق بلا فائدة؟

ضغـط مُسـتحضر الظـلام بأصابعـه عـلى كتفـي، فـدَوَت صيحـة بداخـلي تقـول: «ضـوء!»، وكأنّ يـد مُسـتحضر الظـلام قـد اخترقتنـي وصـارت تتلاعـب بي.

تدفّـق منّـي شـلّالٌ مـن الضـوء الذهبـي غمـر البقعـة بأكملهـا.

حدّق بي مُستحضر الظلام بعينين تملؤهما بهجة الانتصار.

حاولتُ أن أتخلّص من ذلك الضوء، لكن يد مُستحضر الظلام الخفيّة ألقت بتلك الفكرة خارج رأسي.

تردّدت صيحة أخرى تأمرني بضخّ المزيد من الضوء، فاندفعت موجة أخرى من القوّة بداخلي، مُركّزة وعاتية كما لم أشعر بها من قبل، ولم يبدُ أنّها ستنتهي. أطاحت تلك الموجة بكُل ما تعلّمته عن التحكُّم بقوّتي. شيّدتُ بداخلي بنايات ومنازل علّها تصدُّ ذلك التيار، إلّا أنّ قوّة الأيل دمّرتها بلا رحمة، وشقّت طريقها إلى خارج جسدي كفيضانٍ لامع طمس سماء اللّيل المُظلمة، فاستحال إلى سماء نهار.

لم أشعر بأي بهجة أو نشوة على عكس ما كان يحدث لي عند استخدامي لقوّتي؛ فإنّها لم تعُد قوّتي، وتلك اليد الخفيّة صارت تتحكّم فيّ، وتُغرقني في بحرٍ من العجز.

لا أعرف كم استغرق مُستحضر الظلام من الوقت في اختبار قوّتي الجديدة؛ فقد علمتُ أنّه انتهى عندما حُرِّرتُ من تلك اليد الخفيّة.

عمّ الظلام مُجدّدًا. شهقتُ مُحاولةً ملء صدري بالهواء، مُحاولةً تجميع تلك الشظايا التي انكسرت منّي. بدت الوجوه المُشدوهة للغريشا والجنود واضحةً في ضوء المشاعل المُتراقص. وكان (مال) لا يزال على الأرض، مُستلقيًا بوجهٍ يائس وعينين يملؤهما الندم.

نظرتُ إلى مُستحضر الظلام الذي كان يُراقبني بتركيزٍ بالغ. وإذا بوجهه يشيح عنّي وينظر إلى (مال)، ثم يلتفت نحو

رجالــه ويقــول: «قيّــدوه بالسلاســل».

كنتُ علـى وشـك الاعـتراض، لكـنّ نظـرة مـن (مـال) كانـت كفيلة بإجبـاري عـلى الصمت.

قــال مُســتحضر الظـلام: «ســنُخيّم الليلــة هنــا، ثــم سنســافر إلى الطيّــة عندمــا يغــزل الصبــاح خيطــه الأوّل. أخــبروا المُستشــار الروحــاني كي يســتعد»، ثــم التفــت لي وقــال: «إذا حاولــتِ إيــذاء نفســكِ، ســيدفع المُتعقّــب الثمــن».

سأله (إيڤان): «وماذا عن الأيل؟».

«أحرقوه».

رفـع أحـد الإثيريالـكي ذراعـه أمـام مشـعلٍ، فانطلـق منـه لسـان لهـبٍ باتجـاه جثّـة الأيـل.

خرجنـا مـن تلـك الرقعـة سريعًـا. لم نسـمع أي شيءٍ سـوى وقـع أقدامنـا وقيـظ اللهيـب مـن خلفنـا. تـلاشى حفيـف الأشـجار، وغنـاء الطيـور، وكأنّ الغابـة بأكملهـا قـد صـارت في حالـة حـداد.

الفصل العشرون

مشينا صامتين لأكثر من ساعة.

ظللتُ أحدّق في حذائي بحماقة، وأُفكّر في الأيل، وفي الثمن الذي دفعته وسأدفعه مُقابل ضعفي. وفجأة، رأيتُ أضواء نيران تومض خلف الأشجار، فوجدتنا قد وصلنا أخيرًا إلى رقعة أرضٍ خالية من الأشجار في مُنتصفها، حيث نُصبت بعض الخيم حول دائرة من حطبٍ تتراقص فوقه النيران، جلس عندها اثنان من حرّاس الأوبرتشنيكي يتناولان طعامهما. لاحظتُ أن ثمّة مجموعة خيول قد رُبِطت بجذوع الشجر على الأطراف. قاد الحرس (مال) إلى إحدى الخيم، أردتُ أن أنظر في عينيه لكنّه اختفى سريعًا.

جذبني (إيڤان) من ذراعي ومضى بي إلى خيمة بالجانب الآخر، ثم دفعني إلى الداخل. وقع نظري على العديد من الأغطية المفروشة على الأرض، لحظات ودفعني (إيڤان) إلى الأمام مُجددًا مُشيرًا إلى عمودٍ من الخشب في مُنتصف الخيمة.

قال بلهجةٍ آمرة: «اجلسي هناك»، فجلستُ على الأرض، مُرتكنة بظهري إلى العمود، فوضع (إيڤان) يديّ خلف ظهري، وقيّدهما، وربط الحبل حول العمود، وفعل الشيء ذاته بقدميّ.

«هل يُريحك هذا؟».

«أنت تعلم خططه القادمة يا إيڤان».

«إنّه سيُعيد لنا السّلام بعدما سُلِب منا».

قلتُ بيأسٍ: «وماذا سيكون ثمن ذلك؟ أنت تعرف جيدًا أنّها خُطّة جنونيّة!».

«كان لي أخوان يومًا ما، أتعلمين هذا؟».

هربت الابتسامة المألوفة من وجهه الحسن. ثم ما لبث أن أضاف: «بالطبع لا؛ فلَم يكن الاثنان من الغريشا، بل كانا جُنديّين، ولقي الاثنان حتفهما في حروب الملك. وكذلك مات أبي وعمّي!».

«أنا آسفة لك».

«بالطبع يشعر الجميع بالأسف تجاهي، بما في ذلك الملك والملكة، وحتّى أنا! لكن مُستحضر الظلام هو الوحيد الذي سيثأر لي!».

«لكن هذه ليست الطريقة الصحيحة يا (إيفان)! فقوّتي قد تُستخدم لتدمير الطيّة!».

هزّ رأسه وقال: «إنّ مُستحضر الظلام يعلم ما عليه فعله».

«لكنّه لن يكتفي أبدًا عندما يتذوّق حلاوة تلك القوّة الهائلة، وأنت مُتيقّن من هذا مثلي تمامًا! اعلم أنّ الطوق قد وُضِع حول رقبتي الآن، وستصيرون جميعًا مثلي يومًا ما. وحينها، لن يكون ثمّة مَن يستطيع الوقوف في طريقه».

برزت العظام في خدّي (إيفان). قال قبل أن يتركني ويرحل: «إذا كررتِ كلام الخونة هذا، سأُسكتكِ إلى الأبد!».

بعد لحظات، دلف إلى داخل الخيمة أحد المُستحضرين، ومُتلاعب بالقلوب. لم أتعرّف على أحدٍ منهما، ولم ينظرا إليّ.

انزلقا أسـفل غطائيهـما وأطفـأ القنديـل.

ظللـتُ مُسـتيقظةً في الظـلام، أُراقـب ظـلال نـيران المُخيّـم تتراقـص عـلى قـماش الخيمـة. شـعرتُ بثِقَـل الطـوق حـول رقبتـي، وودتُ أن ينفـك قيـدي كي أزيلـه وأُلقـي بـه بعيـدًا.

وفكّـرت في (مـال) الـذي يقبـع داخـل خيمـة أخـرى تقـع عـلى بُعـد أمتـار قليلـة مـن خيمتـي.

أنا مَن تسبّبتُ فيما حدث لنا..

ليتنـي قتلـتُ الأيـل؛ فكنـتُ سـأحظى بقوّتـه لي وحـدي. لقـد أدركـتُ الآن أن الرّحمـة أحيانًـا تُكلّفنـا أعـز مـا نملـك، وهـا قـد كلّفتنـي حُريتـي، وجعلـت حيـاة (مـال) مُهـدّدة بالخطـر، وسـتُردي بحيـاة الكثيريـن.

وعـلى الرّغـم مـن كل مـا مـررتُ بـه، فإنّنـي مـا زلـتُ ضعيفـة كـما أنـا، وأفتقـر إلى الشـجاعة اللازمـة لاتّخـاذ القـرارات الصعبـة.

زارني الأيـل في المنـام تلـك الليلـة. رأيـتُ مُسـتحضر الظـلام يذبحـه مُجـدّدًا، وشـاهدتُ روحـه وهـي تُغـادر عينيـه الدّاكنتـين. لكنّنـي عندمـا نظـرتُ إلى الأرض مـن تحتـي، وجدتنـي أنـزف حتّـى تكوّنـت بركـة مـن الدمـاء حـولي.

أيقظتنـي الأصـوات المُنبعثـة مـن الخـارج. دلفـت مُتلاعبـة بالقلـوب إلى داخـل الخيمـة وحـرّرت وثاقـي وسـاعدتني كي أقـف عـلى قدمـيّ. كان جسـدي مُتصلّبًـا مـن أثـر جلـوسي طـوال اللّيـل في هـذه الوضعيّـة غـير المُريحـة بالمـرّة.

قادتنـي إلى حيـث وقـف مُسـتحضر الظـلام يتحـدّث بصـوتٍ خفيـض مـع (إيڤـان)، وأفـراد آخريـن مـن الغريشـا، ومـن حولـه

تجمّعت الخيول وقد وُضِعت على ظهورها السروج. انقبض قلبي عندما لم أرَ (مال) في أي مكانٍ قريب. ولكن بعد لحظات رأيتُ أحد الأوبرتشنيكي يُخرجه من الخيمة ويجرُّه نحونا.

سأل الحارس (إيفان): «ماذا سنفعل به؟».

فرَدّ: «سيسير على قدميه بجانبنا. وعندما يصيبه التعب، سنربطه بأحد الخيول ليقطع ما تبقّى من الطريق جرًّا».

وقبل أن أتفوّه بكلمة اعتراض، قال مُستحضر الظلام: «كلّا؛ أريده حيًّا إلى أن نصِل إلى طيّة الظل»، ثم ارتقى على صهوة جواده.

استجاب الحُرّاس وساعدوا (مال) على ركوب أحد الخيول، وقيّدوا يديه بالسّرج. لم يدُم شعوري بالراحة طويلًا؛ فسرعان ما انتابني خوف شديد ممّا نحن مُقبلان عليه. تُرى هل يريد مُستحضر الظلام أن يُحاكم (مال)؟ أم أنّه يُدبِّر له مكيدة أفظع؟

قلتُ لنفسي: «إنّه لم يزل حيًّا، وهذا يعني أنّ ثمّة فرصة لإنقاذه».

قال مُستحضر الظلام لـ(إيفان): «ستركب (ألينا) الجواد معك. لا تسمح لها بأن تقوم بتصرُّف أبله».

ثم مضى بعيدًا دون أن ينظر إليّ.

سافرنا لساعاتٍ إلى خارج الغابة. مررنا بالهضبة التي ترقبنا فيها ظهور القطيع، ورأيتُ الصّخرة الضخمة التي لُذنا بها، وتساءلتُ إذا كان الضوء الذي استحضرته ليحمينا من عاصفة الثلج هو ما دلّ مُستحضر الظلام على مكاننا.

كنتُ أعلم أنّنا في طريقنا إلى (كريبيرسك)، وحاولتُ جاهدةً ألّا أفكّر في مصيري المشؤوم الذي يلوح لي في الأفق البعيد. لكن كان ثمّة الكثير من الأسئلة التي عجّ بها رأسي.

تُرى أي بلدٍ سيُهاجمه مُستحضر الظلام أوّلًا؟ هل سيُطلق أسطولًا من السفن الرمليّة شمالًا إلى فيردا؟ أم أنّه ينوي الزّحف بالطيّة جنوبًا إلى شو هان؟ أي من هذيْن البلديْن ستتلطّخ يدي بدماء شعبه؟

استغرق وصولنا إلى الطرق الواسعة التي تؤدّي إلى طريق (ڤاي) يومًا كاملًا. وقابلنا عند مُفترق الطرق مجموعة كبيرة من الرجال المُسلّحين، يرتدي مُعظمهم زي الأوبرتشنيكي الرماديّ الدّاكن. أحضروا لنا خيولًا نشيطة، وكانت معهم عربة مُستحضر الظلام. ألقى بي (إيڤان) داخل العربة فوق المقاعد المخمليّة بغلظة، ثم صعد بعْدي. شُدّ الزمام فاستأنفنا رحلتنا من جديد.

أصرّ (إيڤان) أن نُسدّل جميع الستائر، لكنّني ألقيتُ نظرة خاطفة على المشهد بالخارج، فوجدتنا مُحاطين بفرسان مُدجّجين بالسلاح. تذكّرتُ على الفور رحلتي الأولى مع (إيڤان).

نصب الجنود خيامهم في الليل وجلسوا يأكلون ويتسامرون. أمّا أنا فعُزِلتُ عنهم، وبقيتُ في عربة مُستحضر الظلام. أحضر لي (إيڤان) وجباتي، ووَشَت تعبيرات وجهه بمدى كرهه للعب دور الخادم. كما أنّه رفض أن يتحدّث معي أثناء ارتحالنا، وهدّدني بإبطاء ضربات قلبي إلى أن أفقد وعيي إذا سألتُ عن (مال) مُجدّدًا، لكنّني كنتُ كلّ يومٍ غير عابئةٍ بما قد يفعله، وأبقيتُ نظري مُصوّبًا عبر الثغرة المُتناهية الصغر الواقعة

بجانب النافذة، آملةً أن ألمح طيف (مال).

كنتُ بالكاد أنام.. وفي كل ليلة، عندما يغمض لي جفن لفترةٍ قصيرة، كنتُ أحلم بالأيل وهو ينظر إليّ بعينيه الداكنتين. بدا وكأنّ ذلك الحُلم المُتكرّر يُذكّرني بمدى فشلي، وكيف أن الرّحمة قد جلبت لي المتاعب. لقد مات الأيل على أيّ حال، وحُكم عليّ وعلى (مال) بالشقاء الأبديّ.

وفي كل صباح، يتجدّد شعوري بالذنب والخزي، وأُضيف إليهما إحساس بالإحباط لعدم فهمي لبعض العلامات التي رأيتها في الحلم، وأخذت تحوم خارج نطاق فهمي إلى أن استيقظت.

لم أرَ مُستحضر الظلام ثانيةً إلى أن وصلنا إلى حدود (كريبيرسك). فُتِح باب العربة فجأة، وصعد ليجلس بجانبي، فاختفى (إيفان) دون أن ينبس بكلمة.

سألته عندما أُغلِق الباب: «أين (مال)؟».

لاحظتُ أصابعه ترتجف قليلًا، لكنّه ردّ بنبرته الباردة المعهودة: «سندخل كريبيرسك الآن. وعندما يأتي الغريشا لتحيّتنا، لا تذكري حرفًا عن مُغامرتكِ الصغيرة تلك».

انفتح ثغري عن آخره من فرط الصدمة، وقلتُ: «أيُعقل أنّهم لا يعلمون شيئًا؟».

«كل ما يعرفونه أنّكِ انعزلتِ، لتستعدّي لعبور الطيّة بالصلاة والاستراحة لأطول وقتٍ ممكن».

ضحكتُ وقلتُ: «أجل.. تبدو الراحة على ملامحي حقًّا».

«سأخبرهم أنّكِ صُمْتِ لفترة طويلة».

«لهذا السبب لم يبحث عنّي جنود رايفوست؛ فأنتَ لم تُخبر

الملـك».

«لـو كانـت قـد تسرّبـت أخبـار عـن اختفائـك، لطـاردكِ مُرتزقـة فيـردا وقتلـوكِ في غضـون أيّـام».

«وحينهـا، كان سـيلومك الجميـع لأنّـك أضعـت مُسـتحضرة النـور الوحيـدة في المملكـة».

حـدّق بي طويـلًا ثـم قـال: «أي حيـاةٍ تلـك التـي ستعيشـينها معـه يـا (ألينـا)؟ إنّـه مـن الأوتكازاتسـيا؛ ولذلـك فلَـن يفهـم أهميّـة قوّتـكِ. وإذا فهمهـا، سـيهابكِ. اعلمـي أنّ مَـن مثلنـا لا يعيشـون حيـاة عاديّـة».

«لكنّني لستُ مثلك، ولن أكون مثلك أبدًا».

ارتسـمت عـلى شـفتيه ابتسـامة خافتـة، وقـال: «بالطبـع»، ثـم طـرق عـلى سـقف العربـة فتوقّفـت عـلى الفـور.

أضـاف قبـل أن يرحـل: «عندمـا نصِـل، ألقـي التحيّـة عـلى الجميـع، ثـم تصنّعـي التّعـب واذهبـي إلى خيمتـكِ. وتذكّـري أنّـكِ إذا قُمـتِ بـأي تـصرّف طائـش، فسـأُعذّب المُتعقّـب إلى أن يتوسّـل إليّ كي أقتلـه».

قضيـتُ مـا تبقّـى مـن الطريـق إلى (كريبيرسـك) وحـدي في العربـة، مُحاولـةً السيطرة عـلى جسـدي المُرتعـش. قلـتُ في نفسي: «لم يـزل (مـال) حيًّـا، وهـذا مـا يهـم».

لكـنّ صوتًـا انبعـث مـن داخـلي يقـول: «وربمـا هـذا مـا يوهمـكِ بـه مُسـتحضر الظـلام كي لا تحيديـن عـن المسـار الـذي خطّـط لـه».

احتضنتُ نفسي وتمنّيتُ ألّا تكون هذه الحقيقة.

باعـدتُ بـين السـتائر بأناملي وألقيـتُ نظـرة خـارج النافـذة،

انتابني شعور بالحزن الشديد لأنني تذكّرتُ سيْري في الطريق نفسه منذ أشهر طويلة. كادت حينها هذه العربة التي أجلس فيها تدهسني، لكنّ (مال) أنقذ حياتي، وفي تلك اللحظة، ظلّت (زويا) تُحدّق في وجه (مال) من نافذة عربة المُستحضرين.

تمنّيتُ وقتها أن أكون فتاة حسناء مثلها ترتدي زي الكِفتا الأزرق.

عندما وصلنا أخيرًا إلى الخيمة السوداء الضخمة، احتشد كثير من الغريشا حول العربة. وأسرع نحوي كلّ من (أيڤو) و(سيرجي) و(ماري) ليُحيّوني. تفاجأتُ بالسعادة تغمرني فور رؤيتهم. لكنّ حماستهم استحالت إلى ملامح قلق وتوتُّر عندما دقّقوا النظر في وجهي؛ فلقد كانوا يتوقون لرؤية مُستحضرة نورٍ لها هيئة المُنتصرين، ترتدي أعظم مُضخّم قوى عُرِف في التاريخ، وتشِعُّ قوّةً وثقة، إلّا أنّهم وجدوا أمامهم فتاة مُتعبة، وجهها شاحب وتعتليه ملامح اليأس.

همست لي (ماري) وهي تحتضنني: «هل أنتِ بخير؟».

«أجل، إنّني فقط مُرهقة من السفر».

بذلتُ ما بوسعي كي أحافظ على ابتسامتي وحماسي، وحاولتُ أن أُطمئنهم قدر الإمكان. وقفوا جميعًا بوجوه مشدوهة يُحدّقون في الطوق الموضوع حول رقبتي، ولامسه بعضهم بأصابعهم.

كان مُستحضر الظلام يقف قريبًا منّي، وفي عينيه نظرة تحذير. تجاهلته وسِرتُ بين الحشد، بابتسامةٍ لا تُفارق شفتيّ، إلى أن تألّمت وجنتاي.

لمحتُ (زويا) داخل خيمة الغريشا تجلس مُتّكئة على كومةٍ من الوسائد، وترمق الطوق بنظرة حقدٍ. قلتُ في نفسي: «خذيه إذا أردتِ»، ثم أسرعتُ الخطى مُبتعدةً عنها.

قادني (إيڤان) بعد ذلك إلى خيمة مُجهّزة لي، تقع بالقرب من خيمة مُستحضر الظلام. وجدتُ بالداخل حوض استحمام مملوءًا بالماء السّاخن، وعلى السرير كانت ثمّة ملابس جديدة تنتظرني بجانبه زيّي الأزرق. ورغم أنّني ارتديتُ الزي الأسود لأسابيع قليلة، فإنّ شعورًا غريبًا انتابني عندما علمتُ أنّني سأرتدي زي المُستحضرين مرّة أخرى.

تمركز حرّاس مُستحضر الظلام حول خيمتي ليُوفّروا لي الحماية اللّازمة، وليُراقبوني أيضًا. تجوّلتُ داخل الخيمة لأتفقّد مُحتوياتها، فوجدتُ أغطية من الفراء مُتناثرة هنا وهناك، وكانت ثمّة طاولة مُزخرفة أمامها كرسيّ صغير، ورأيتُ في أحد الأركان مرآة زجاجها صافٍ إطارها مُطعّم بالذّهب. تمنّيتُ في تلك اللحظة أن أُضحّي بكل هذا الترف لأنام بجانب (مال) تحت غطاءٍ رثٍّ لا يحمي من البرد.

لم يزُرني أحد.. قضيتُ أيّامًا أتجوّل داخل الخيمة حتّى سيطر عليّ القلق ولم أعُد أتخيّل سوى مُستقبل بائس يفتح لي ذراعيه. لم أكُن أعرف سبب تأجيل مُستحضر الظلام لدخول الطيّة، ولا أعلم شيئًا عن خططه القادمة، وبالطبع أبى حرّاسه أن يُجيبوا عن أسئلتي.

وفي الليلة الرابعة من وصولي، تفاجأتُ بـ(جينيا) تقتحم الخيمة، حاملةً عشائي. كِدتُ أسقط من سريري من فرط الصدمة، لكنّني تمالكتُ نفسي واعتدلتُ في جلستي، ونظرتُ إلى

وجهها الـذي لم أرَ وجهًا يُضاهيـه جـمالًا مـن قبـل.

وضعـت الطبـق فـوق الطاولـة ووقفـت بجانبـي ثـم قالـت: «لا يجـدر بي القـدوم إلى هنـا».

«أجل، ربما.. أنا لا أعلم إذا كان من حقّي استقبال زوّار».

«لا، أقصـد أنّنـي لا يجـدر بي القـدوم إلى هـذه الخيمـة؛ إنّهـا قـذرة حقًّـا!».

قهقهـتُ ضاحكـةً، وشـعرتُ بالسـعادة لأنّنـي رأيتهـا أخـيرًا. ابتسـمَت وجلسـت عـلى الكـرسي برشـاقةٍ، ثـم قالـت: «يقولـون أنّـكِ كنـتِ في عزلـة، لتسـتعدّي لِمأسـاتكِ القادمـة».

تفحّصتُ وجهها وتساءلتُ إذا كانت قد علمت بالحقيقة.

قلتُ بحذر: «لم أحظَ بفرصةٍ لتوديعكِ قبل أن... أرحل».

«كنتُ سأمنعكِ حينها».

إذًا (جينيا) كانت تعرف أنّني سأهرب.

قلتُ مُحاولةً تضليلها: «كيف حال (باغرا)؟».

«لم يرَهـا أحـد منـذ رحيلـكِ. يبـدو أنّهـا قـد لجـأت إلى العزلـة مثلـكِ».

ارتعد جسدي خوفًا.

تمنّيـتُ أن تكـون (باغـرا) قـد هربـت، لكنّنـي أعلـم أنّـه احتـمال ضعيـف. تُـرى مـا الثمـن الـذي أرغمهـا مُسـتحضر الظـلام عـلى دفعـه بسـبب خيانتهـا؟

تـردّدتُ قليـلًا قبـل أن أُقـرّر أن أنتهـز آخـر فرصـةٍ لي لإنقـاذ الموقـف. تشـجّعتُ في النهايـة وقلـتُ: «أودُّ أن أتحـدّث إلى الملـك

يـا (جينيـا).. إنّـي واثقـة تمـام الثقـة أنّ مُسـتحضر الظـلام لم يُخبـره بخططـه. إنّـه...».

قاطعتنـي قائلـةً: «إنّ الملـك مريـض يـا (ألينـا)، ومُستشـاره الروحـاني يحكـم المملكـة بالنيابـة عنـه حاليًـا».

كاد قلبي ينفطر.

تذكّـرتُ مـا قالـه لي مُسـتحضر الظـلام عندمـا سـألته عـن رأيـه فيـه.

قال لي حينها: «أرى أن له دوره الخاص».

لم يتحـدّث الكاهـن معـي عـن الإطاحـة بالملـوك فحسـب، بـل ذكَـرَ مُسـتحضري الظـلام أيضًـا. تُـرى هـل كان يُحـاول تحذيـري؟

ليتني كنتُ أكثر شجاعة.. ليتني استمعتُ إليه.

هـا أنـا أنـدم ثانيـةً، وأضـع الخيبـة فـوق الخيبـة حتّـى يـأتي يـومٌ وأكتشـف أنّـي قـد شـيّدتُ بُرجًـا مـن الخيبـات.

لا أعلـم هـل كان المُستشـار الروحـاني مُخلصًـا للملـك حقًـا، أم إنّـه يُدبّـر لـه مكيـدةً مـا، ويبـدو أنّـي لـن أعـرف الحقيقـة أبـدًا.

ظننـتُ أنّ الملـك قـد يسـتطيع مُواجهـة مُسـتحضر الظـلام. وعلـى الرغـم مـن كونهـا فكـرة حمقـاء، فإنّهـا بعثـت في نفسـي الأمـل خـلال الأيّـام القليلـة الماضيـة.

وها قد انطفأت شُعلة الأمل، وبلا رجعة.

سألتُ (جينيا): «وماذا عن الملكة؟».

زار شـفتيها طيـف ابتسـامة. قالـت: «لقـد لزِمـت غرفتهـا ولا تبرحهـا قـط. وهـذا أفضـل.. لسـلامتها؛ حتّـى لا يُصيبهـا الوبـاء».

لاحظتُ وقتها ما كنتُ غافلةً عنه.. عندما جاءت (جينيا)، صُدِمتُ لدرجة أنّني لم أُدقّق النظر في تفاصيل زيّها، كما أن عقلي كان يعجّ بالأفكار. أمّا الآن فقد لفت نظري لون زيّها الأحمر.. إنّه زي الكوربورالكي، باختلاف أن الكُمّين مُطرّزان باللّون الأزرق، وهذا ما لم أرَ مثله من قبل.

حاولتُ السّيطرة على جسدي الذي ارتجف من الصدمة.

تُرى هل (جينيا) مَن دبّرت لمرض الملك؟ وماذا كان ثمن ارتدائها لهذا الزي؟

قلتُ بهدوء: «مفهوم».

فقالت بنبرةٍ يملؤها الأسى: «لقد حاولتُ تحذيركِ من قبل».

«وهل تعلمين ما يُخطّط له مُستحضر الظلام؟».

بدا عليها الانزعاج لكنّها ردّت قائلةً: «وصلتني بعض الإشاعات».

«كُلّها حقيقيّة».

«إذًا يجب أن تكتمل الخطّة».

حدّقتُ بها للحظة، فطأطأت رأسها وصوّبت نظرها إلى الأرض، وأخذت تطوي بأصابعها طرف زيّها ثم تبسطه بعصبيّة. ثم ما لبثت أن همست لي قائلةً: «إن (ديڤيد) يتألّم من الحزن؛ فهو يظن أنّه دمّر راڤكا بأكملها».

ضحكتُ وقلتُ: «هذا ليس خطؤه؛ فجميعنا ساهمنا في القضاء على العالم».

نظرت إليّ بجِدّة وقالت: «لكنّكِ لا تُصدّقين هذا، أليس كذلك؟».

بدا الضيق على وجهها.

تُرى هل كانت تُحذّرني مُجدّدًا؟

تذكّرتُ تهديد مُستحضر الظلام بإيذاء (مال)، فقلتُ: «بالطبع لا».

كنتُ أعلم أنّها لا تُصدّقني؛ لأنّني رأيتُ شفتيها تتّسعان بابتسامةٍ رائعة أعرفها جيّدًا. بدَت وكأنّها لوحة فنّية مُتحرّكة لقدّيسة حسناء تلتف حول شعرها البرونزيّ هالة مصقولة من الضوء.

نهضت من الكُرسيّ فمشيتُ معها إلى باب الخيمة، وإذا بي أتذكّر عيني الأيل الداكنتين اللتين تزورانني في المنام كل ليلة.

قلتُ لها: «لا أعلم إذا كان هذا مُفيدًا أم لا، ولكن أخبري (ديڤيد) أنّني سامحته».

وأضفتُ في نفسي: «وسامحتكِ أيضًا».

وكنتُ أعنيها بصدقٍ؛ فأنا أعلم جيّدًا مدى احتياج المرء للإحساس بالانتماء لشيء، أو لمكانٍ، أو لأحد.

قالت بهدوء: «سأخبره بذلك»، ثم استدارت ومَضَت إلى أحضان الليل وقد اغرورقت عيناها الرّائعتان بالدموع.

الفصل الحادي والعشرون

تناولتُ عشائي وجلستُ على سريري مُجدّدًا، أفكّر في ما قالته (جينيا).

لقد أمضت (جينيا) مُعظم حياتها مُنعزلةً في (أوز ألتا)، وانخرطت في عالم الغريشا المليء بالمُفاجآت، وأحاطت علمًا بكثير من المؤامرات التي تتم داخل البلاط الملكي. ولذلك فقَدْ وضعها مُستحضر الظلام في ذلك المركز كي يستغل وجودها لمصلحته، ولكنّه الآن قد استغنى عنها، فلَن تُضطر للاستجابة لرغبات الملك والملكة، ولن تُجبَر على ارتداء زي الخدم. أمّا (ديڤيد) فيشعُر حاليًا بالندم، وربما ليس وحده من يشعر بالندم. وعندما يُسخّر مُستحضر الظلام قوّة الطيّة، سيندم الكثيرون حين لا ينفع الندم.

اقتحم (إيڤان) الخيمة فجأة فقطع سيل أفكاري. قال بلهجةٍ آمرة: «انهضي؛ فإنّه يودُّ رؤيتكِ».

تقلّصت معدتي، لكنّني قاومتُ الألم وقمتُ لأتبعه. وفور خروجنا من الخيمة، التفّت حولنا مجموعة من الحرّاس، رافقونا إلى خيمة مُستحضر الظلام رغم قِصَر المسافة.

وعندما رأى حرّاس الأوبرتشنيكي (إيڤان) يقترب من المدخل، أفسحوا له الطريق، فأومأ لهم وتوقّف ثم قال لي بثغرٍ مُبتسم: «هيّا أسرعي».

أردتُ حينها أن أصفع وجهه وأنزع عنه ملامح الغطرسة.

لكنّنـي رفعـتُ رأسي وأسرعـتُ الخُطـى إلى الداخـل.

أسـدِل خلفـي الغطـاء الحريـري الثقيـل. تقدّمـتُ بضـع خطـوات إلى الأمـام ثـم توقّفـتُ لألقـي نظـرة حـولي. كانـت الخيمـة ضخمـة وواسـعة، مُضـاءة بقناديـل تنبعـث منهـا أنـوار خافتـة. فُرِشَـت عـلى الأرض بُسـط وأغطيـة مـن فـراء، وفي المُنتصـف اشـتعلت النـيران في مـا بـدا لي أنّـه طبـق فـضّي كبـير. في السّـقف كانـت ثمّـة فتحـة يهـرب منهـا الدخّـان إلى الخـارج وتسـمح لنجـوم الليـل أن تلقـي بنورهـا عـلى الخيمـة.

جلـس مُسـتحضر الظـلام عـلى مقعـدٍ كبـير، مـادًّا سـاقيه الطويلتين أمامـه، يُحـدّق في النـار المُشـتعلة حامـلًا في يـده كأسًـا، وبجانبـه فـوق المائـدة زجاجـة كڤـاس. أشـار إلى المقعـد المُقابـل لـه دون أن ينظـر لي، فمضيـتُ نحـوه ولكنّنـي لم أجلـس. فنظـر إليّ غاضبًـا ثـم عـاد يُحـدّق بألسـنة اللّهـب المُشـتعلة.

«اجلسي يا ألينا».

جلستُ على حافة المقعد وأنا أُراقبه بحذر.

«تكلّمي».

لا أدري لماذا شعرتُ حينها أنّني كلبة عليّ إطاعته.

«ليس عندي ما أقوله».

«بل أظن أنّ لديكِ الكثير».

«كلّا؛ فـإذا طلبـتُ منـك أن تُطيـح بخطّتـك، فلـن تسـتمع إليّ. وإذا أخبرتـك أنّـك مجنـون، فلَـن تُصدّقنـي. لمـاذا سـأتحدّث معـك إذن؟».

«ربما لأنّكِ تُريدين ذلك الفتى حيًّا».



زفرتُ طويلًا، وكِدتُ أبكي لولا أنّني استطعتُ تمالُك نفسي. لم يزل (مال) حيًّا، رغم أن مُستحضر الظلام قد يكون كاذبًا، لكنّني لا أظن ذلك؛ فهو يعشق التحكُّم، وبما أن حياة (مال) في يده، فهذا يجعله يتحكّم فيّ بكُل سهولة.

انحنيتُ للأمام وهمستُ: «أخبرني بما تريدني أن أقوله كي أنقذه. أخبرني بأي شيء وسأقوله في الحال!».

«إنّه خائن وهارب».

«بل هو أفضل مُتعقّب لديك، ولن يأتي مَن هو أفضل منه».

«ربما»، قال بنبرة لا مبالاة. لكنّني صِرتُ أعرفه بشكلٍ أفضل الآن، وأعلم جيّدًا أنّه ليس من السّهل عليه أن يُضحّي بشيءٍ قد يستخدمه لمصلحته، وهذا ما استغللته لصالحي. رأيتُ وميض الخبث في عينيه وهو يميل برأسه إلى الخلف ليُفرِغ ما تبقّى من الكأس في جوفه.

قلتُ: «بإمكانك أن تنفيه إلى الأراضي المُتجمّدة مثلًا ريثما تحتاجه».

«أتريدينه أن يقضي ما تبقّى من عمره في معسكر تدريب أو سجن؟».

ابتلعتُ ريقي بصعوبة وقلتُ: «أجل».

فقال مُندهشًا: «إنّكِ تظنّين أنّك ستستطيعين الوصول إليه ما دام حيًّا، أليس كذلك؟».

هزّ رأسه وضحك وقال: «لقد منحتكِ قوّة لا يحلم أحد بأن يُعطَى مثلها. ومع ذلك، فإنّكِ مُستعدّة للتضحية بها في سبيل

البقاء بجانب ذلك المُتعقّب!».

كان من المُفترض أن ألتزم الصمت، ثم أتحدّث بلباقة الدبلوماسيين، لكنّني لم أستطع السيطرة على نفسي وقلتُ: «إنّك لم تمنحني أي شيء، بل جعلتني كالعبيد!».

«أنا لم أقصد ذلك قط».

وضع يده على خدِّه وقد بدا عليه الإرهاق والإحباط، وتلك مشاعر إنسانيّة لا تنتابه عادةً. ولكن إلى أيّ مدى كانت حقيقيّة؟

أردف: «لم يكن بإمكاني أن أجازف بقوّة الأيل بينما مُستقبل راقكا على المحك».

«لا تتظاهر بأن ما فعلته كان لمصلحة راقكا. لقد كذبت عليّ.. منذ أن قابلتك وأنت تتحرّى الكذب».

أطبق قبضته على كأسه حتّى كاد يكسرها، لكنّه تحدّث بهدوء قائلًا: «هل تظنّين أنّكِ تستحقّين ثقتي؟ لقد أقنعتكِ (باغرا) بالانقلاب عليّ، فاستمعتِ لها وهربتِ على الفور. ولكن هل سألتِ نفسك ماذا سيحدث لي، ولراقكا بأكملها، عندما ترحلين؟».

«لم يكُن لديّ خيار آخر».

«هذا غير صحيح، ولكنّك اخترتِ أن تغُضّي الطّرف عن مصلحة بلدكِ، وتخلّيتِ عن كل شيء».

«هذا ليس عدلًا!».

ضحك وقال: «عدل! أي عدلٍ هذا الذي تتحدّثين عنه؟ إنّ الناس يسبّونني عندما يسمعون اسمي، ويصلّون لكِ رغم أنّك

كنتِ مُستعدّة للتخلّي عنهم! أمّا أنا فسأمنحهم القوّة اللازمة ليفتكوا بأعدائهم، وسأحرّرهم من قبضة الملك الطاغية».

«وستذيقهم مرارة طغيانك في المُقابل».

«يجب أن يقود أحد هذه المملكة، ويُخلّصها من شقائها. كنتُ أتمنّى أن تكون هناك طريقة أخرى لتحقيق السلام.. صدّقيني».

كان يتحدّث بصدقٍ وعقلانيّة، وتحوّل من وحشٍ ذي طموح جامح لرجلٍ يُؤمن بأن ما يقوم به يصُب في مصلحة وطنه. وعلى الرغم من كل ما فَعَله، وكل ما انتوى فِعْله، فإنني كنتُ على وشك تصديقه.

هززتُ رأسي مرّة واحدة، فتراجع إلى الخلف في مقعده وقال هازًّا كتفيه: «حسنًا، لأكُن عدوّك إذن»، ثم وضع كأسه الفارغة على الطاولة ووقف ثم قال: «تعالي إلى هنا».

ارتعد جسدي خوفًا، لكنّني نهضتُ واقتربتُ منه. تفحّص وجهي الذي أضاءته نيران الموقد، ثم لامس عظام طوق موروزوفا الخشنة بأصابعه الطويلة، ثم تحسّس رقبتي واحتضنت راحته خدّي. شعرتُ حينها بالاشمئزاز، لكن في الوقت ذاته تدفّقت قوّته المُخدِّرة بداخلي. كم كرهتُ أنّه لم يزل يُؤثّر فيّ.

قال بهدوء: «لقد خنتِني».

فأردتُ أن أضحك بصوتٍ عالٍ.

بعدما استغلّني، وأغواني، وعاملني كخادمة له، ينعتني الآن بالخائنة. لكنّني فكّرتُ في (مال)، فتلاشى غضبي وقُمِعتْ

كبريـائي.

«أجل، وأنا مدينة لك بالاعتذار على هذا».

ضحـك وقـال: «بـل إنّـك لا تشـعرين بالأسـف تجـاه أي أحـد؛ لأن كل مـا يهمّـك الآن هـو ذلـك الفتـى البائـس».

لم أنبس بكلمة.

ضغـط بأطـراف أصابعـه عـلى جلـدي بقـوّة وقـال: «أخبرينـي عـن مـدى حُبّـكِ لـه. توسّـلي إليّ كي أدعـه يعيـش».

همستُ: «أرجوك.. أرجوك اعتق روحه».

«لماذا؟».

رددتُ بتهوّر: «لأن الطوق لن يمنحك ما تريده».

لم يتبقَ لي سوى خيار واحد وهو أن أفاوضه.

أضفـتُ: «إنّنـي مُجـبرة عـلى خدمتـك، لكـن إذا أُصيـب (مـال) بمكـروه، فلَـن أُسـامحك قـط، وسـأبذل مـا بوسـعي لمُحاربتـك. وإذا فشـلتُ، سـأقضي كُل دقيقـة مـن حيـاتي بحثًـا عـن طريقـة للانتحـار، وسـأنجح في النهايـة. أمّـا إذا رحِمتـه وتركتـه يعيـش، سـأُنفّذ جميـع مطالبـك، وسـأثبت لـك امتنـاني.. إلى آخـر العمـر».

وددتُ لو أنّ لساني لم يلفظ تلك الجملة الأخيرة.

مـالَ برأسـه إلى جانـبٍ وابتسـم رغـم أنّ ملامـح الرِّيبـة قـد بـدت عـلى وجهـه. وسرعـان مـا تلاشـت تلـك الابتسـامة، وتبدّلـت ملامحـه حتّـى لم أعُـد أتبـيّن في مـا يُفكّـر. ربمـا كانـت تلـك ملامـح الشـوق.

«الرّحمة! ربما بإمكاني أن أكون رحيمًا».

قالها وكأنّ لسانه لم ينطق تلك الكلمة من قبل.

رفع يده الأخرى ووضعها على خدّي حتّى صار وجهي كاملًا بين يديه، ثم طبع قبلة حانية على شفتيّ. ورغم أنّ كل جزء منّي كان ثائرًا على تلك القبلة، فإنّني لم أمنعه.

إنّني حقًّا أكرهه، وأهابه، لكنّ قوّته الغريبة قد سيطرت عليّ، ولم أستطع قمع رغبة قلبي الخائن.

نادى على (إيڤان) وعيناه لا تزالان تُحدّقان في عينيّ. وعندما أتى (إيڤان) ووقف أمام المدخل، قال له: «اصطحبها إلى السجن لترى المُتعقّب».

غمر الأمل قلبي حينها.

«نعم يا (ألينا)، بإمكاني أن أكون رحيمًا»، قالها ثم اقترب منّي حتّى لامست شفتاه أذني وهمس قائلًا: «سندخل الطيّة غدًا، وعندها سأُطعم صديقكِ إلى الڤولكرا، وستشاهدينه يموت أمام عينيكِ ولن تستطيعي إنقاذه».

«لا!»، صِحتُ وقد أصابني الرّعب، وحاولتُ أن أبتعد عنه لكنّه كان يُمسك برأسي بقبضةٍ من فولاذ، وأصابعه كادت تخترق وجهي.

صرختُ: «ولكنّك قلتَ...».

فقاطعني قائلًا: «بإمكانكِ أن تودّعيه الليلة. فهذا أقصى ما قد يناله الخونة من رحمة».

هجمتُ عليه، وشققتُ وجهه بأظافري، وصرختُ مُعلنةً كُرهي له. لحظاتٌ وكان (إيڤان) مُقيّدًا جسدي بذراعيه بقوّة فأخذت أنتفِض وأُقاوم.

«أنت قاتل! أنت مسخ!».

«أنا كل هذا وأكثر».

«أنا أكرهك!».

«سوف تسأمين الكراهية، وكل شيء، قريبًا».

وعندما ابتسم، لمحتُ في عينيه تلك الهاوية حالكة الظلمة التي رأيتها في عيني (باغرا).

أضاف: «سيظل ذلك الطوق حول رقبتك لبقيّة حياتك الطويلة جدًّا يا (ألينا). ولذا، فحاربيني بكل ما أوتيتِ من قوّة وستكتشفين أنّني تجرّعتُ من الخلود كؤوسًا».

ثم أشار لنا بالانصراف، فجذبني (إيڤان) وحملني إلى خارج الخيمة. بكيتُ وانهمرت الدموع التي كبتُّها أثناء حديثي مع مُستحضر الظلام.

همس (إيڤان) بغضبٍ: «كُفّي عن البكاء! سيراكِ أحدهم».

«لا يهم!».

إنّ مُستحضر الظلام سيقتل (مال) في النهاية، ولذا فلا يهم إذا شاهدني أحدهم أنتحب. كان عليّ أن أواجه قسوته، وحقيقة أن حياة (مال) مُعرّضة للخطر. والحق أنّني رأيتُ مُستقبلًا مشؤومًا يلوح لي في الأفق.

أعادني (إيڤان) إلى خيمتي وقال هازًّا جسدي بقوّة: «هل تريدين أن تري المُتعقّب أم لا؟ أنا لن أمضي مع فتاةٍ باكية داخل المُخيّم!».

مسحتُ دموعي وتوقّفتُ عن البكاء.

«هذا أفضل.. والآن، ارتدي هذه».

قذف إليّ عباءة بُنيّة طويلة، فارتديتها فوق زي الكِفتا. وضع قلنسوتها على رأسي وقال: «أبقي رأسك مُنخفضًا والتزمي الصّمت. وإلّا، أُقسم أنّني سأُعيدكِ إلى هنا مُجدّدًا، ويُمكنكِ أن تودّعيه غدًا في الطيّة. هل تفهمين؟».

أومأتُ برأسي.

سِرنا في ممرٍ مُظلم يلتف حول مُحيط المُخيّم. رأيتُ حُرّاسي يمشون بعيدًا عنّا، سواء من الجهة الأماميّة أو الخلفيّة، فأدركتُ أن (إيڤان) لا يريد أن يتعرّف عليّ أحد، أو يُدرك أنّني في طريقي إلى السجن. وبينما كنّا نمضي بين الخيَم، شعرتُ بموجة توتُّر غريبة قد اخترقت المُخيّم، وبدا الغضب على وجوه الجنود الذين مررنا بهم، وكان من بينهم جنديّ يرمق (إيڤان) بنظرات تشي بحقده وحنقه. تساءلتُ حينها عن شعور جنود الجيش الأوّل تجاه صعود المُستشار الروحاني إلى السلطة.

يقع السجن على الجانب الآخر من المُخيّم. كان المبنى قديمًا، وبدا أنّه أقدم من جميع الثكنات المُحيطة به. اصطفّ عند المدخل حرّاس يبدو على وجوههم الملل.

سأل أحدهم (إيڤان): «هل هذا سجين جديد؟».

«بل زائر».

«منذ متى وأنت تصطحب الزوّار إلى السجن؟».

ردّ (إيڤان) بحِدّة: «منذ اللّيلة».

تبادل الحرّاس النظرات ثم تنحّوا جانبًا، وقال أحدهم: «لا داعي لأن تغضب يا مُريق الدماء».

قادني (إيڤان) إلى ممر على جانبيه كثير من الزنازين الفارغة.

رأيتُ رجالًا يرتدون ثيابًا رثّة يجلسون على الأرض، ومن بينهم رجل ينخر بصوتٍ عالٍ بلا سبب. وفي نهاية الردهة، فتح (إيڤان) بوّابة، فنزلنا سُلّمًا مُتهالكًا قادنا إلى غرفة مُظلمة بلا نوافذ، بها قنديل يتيم يرتعش ضوؤه من البرد. رأيتُ زنزانة وحيدة في الغرفة، لها قضبان حديديّة صلبة وثقيلة، يجلس مُرتكنًا على حائطها الأقصى سجينها الوحيد.

همستُ قائلةً: «مال».

وفي غضون ثوانٍ، نهض وأقبل نحوي، ثم مدّ يديه بين القضبان وأمسك بيديّ بقوّة. لم أستطع كبْت نحيبي.

«اهدئي يا (ألينا). أنا بخير».

قال (إيڤان): «لديكم اللّيل كلّه»، ثم صعد السُّلّم واختفى.

التفت (مال) نحوي عندما أُغلقت البوّابة وظلّ يتفحّص وجهي لبعض الوقت ثم قال: «لا أُصدّق أنه سمح لكِ بالمجيء إلى هنا».

تدفّقت شلّالات من الدموع على خدّي.

قلتُ: «لقد سمح لي بالقدوم لأنه...».

قاطعني قائلًا: «متى؟».

«غدًا.. في طيّة الظل».

ابتلع ريقه.. لمحتُ في وجهه ملامح الضيق، لكنّني تفاجأتُ به يقول: «حسنًا».

انبثقت ضحكة من رحِم بُكائي وقلتُ: «تقف على أعتاب الموت وتقول حسنًا!».

ابتسم وانتزع بعضًا من خصل شعري من بين بِرَك الدموع التي لطّخت وجهي، وقال: «ما رأيكِ إذا صِحتُ قائلًا كلّا؟».

«لكن يا (مال)، لو كنتُ قد تحلّيتُ بالشجاعة الكافية، لـ...».

«لو كنتُ أنا قد تحلّيتُ بالشجاعة الكافية، لكنتُ طعنتُك بالسكّين في قلبكِ».

«ليتكَ فعلت».

«لم أستطع».

نظرتُ إلى أيدينا المُتشابكة وقلتُ: «مال، عليك أن تعلم أنّ ما قاله مُستحضر الظلام عنّا لم يكُن... أننا لم...».

«لا يهم».

نظرتُ إليه وقلتُ: «حقًّا؟».

قال بقليلٍ من الانفعال: «أجل».

«لا أظنّني أصدّقك».

«وأنا لا أُصدِّق ما قلته.. بالكامل. لكن... لكنّ هذه الحقيقة».

ثم ضغط على يديّ وقرّبهما من قلبي وأضاف: «لا أظنّني سأهتم إذا رقصتِ معه عاريةً فوق سطح القصر الصغير. إنّي أُحبّكِ كاملةً.. حتّى ذلك الجزء الذي بداخلك أحبّه، أُحِبُّه».

أردتُ أن أنكر ذلك.. أردتُ أن أمحو تلك الفترة من ذاكرتي، لكنّني لم أستطع.

أجهشتُ بالبكاء وقلتُ: «كم أكره أنّني... فكّرتُ يومًا ما أن...».

فقاطعني قائلًا: «هل ستلومينني على كل خطأ ارتكبته، وكل

فتـاة وطأتهـا، وكل قـولٍ أحمـق تفوّهـتُ بـه؟ لأنّنـا إذا أحصينـا أخطـاء كل منّـا، فأنـتِ تعلمـين بـلا شـك مـن سـيفوق الآخـر».

تمالكتُ نفسي وابتسمتُ، ثم قلتُ: «كلّا، لن ألومك.. كثيرًا».

ابتسم فخفق قلبي كالعادة.

«لقد صِرنا معًا مرّة أخرى.. وهذا ما يهم».

ثم قبّلني من وراء القضبان التي جمّدت خدّيّ.

***

قضينـا معًـا تلـك اللّيلـة الأخـيرة. تحدّثنـا عـن الميتـم، وصـوتُ (آنا كونيـا) الرخيـم حينـما تغضـب، ومـذاق الكـرز الـذي كنّـا نسرقـه دون عِلـم أحـد، ورائحـة العشـب في مرْجِنـا بعدمـا يُهـذّب كلِحـى الرجـال، وكيـف كنّـا نهـرب مـن عـذاب شـمس الصّيـف ونلـوذ بغرفـة الموسـيقى ذات الأرضيّـة الرخاميـة البـاردة. كـما تحدّثنـا عـن رحلتنـا معًـا إلى مُعسـكر الجيـش، وأصـوات كَـمان الـ«سـولي» التـي سـمعناها في اللّيلـة التـي غادرنـا فيهـا البيـت الوحيـد الـذي نتذكّـر أنـه آوانـا.

قصصـتُ عليـه حكايـة اليـوم الـذي وقفـتُ فيـه مـع خادمـة في مطبـخ الميتـم، أحـاول مُسـاعدتها في إصـلاح كـوبٍ مكسـور مـن الفخّـار، وأنتظـر عودتـه مـن إحـدى رحـلات الصّيـد التـي أبعدتـه عـن المنـزل لفـترةٍ ليسـت بالقصـيرة. كنـتُ وقتهـا في الخامسـة عـشر مـن عمـري، أقـف أمـام الطاولـة، أحـاول يائسـةً أن ألصـق القطـع التـي انكـسرت مـن الكـوب الأزرق الـذي كان يبـدو جميـلًا يومًـا مـا. وعندمـا رأيتـه مـن بعيـدٍ يعـبر الحقـل، ركضـتُ إلى المدخـل ولوّحـتُ لـه، فـرآني وركـض نحـوي. فأسرعـتُ عـلى غـير هـدى إلى

الحقل، مُراقبةً إيّاه وهو يقترب منّي، وكان قلبي يركض معي، إلى أن احتضنني ورفعني في الهواء وأخذ يدور بي بسرعة. تشبّثتُ جيّدًا به، وتنفستُ رائحته العذبة التي لا تُنسى. تعجّبتُ وقتها من مدى اشتياقه لي.. وعندما أفقتُ من نشوتي، أدركتُ أنّ ثمّة كسرة من الكوب الفخاريّ لم تزل في يدي، وقد انغرست فيها بقوّة، لكنّني لم أرِد أن أفلت يده. وعندما أنزلني أخيرًا وذهب إلى المطبخ كي يتناول غداءه، وقفتُ حيث أنا، بيدٍ تقطر دمًا، ورأسٍ يدور بلا هوادة. أدركتُ حينها أن كل شيء قد تغيّر.

وبّختني (آنا كونيا) لأنّني لطّختُ أرضيّة المطبخ النظيفة بالدماء، ثم لفّت ضمادة حول الجرح وأخبرتني أنّه سيُشفى، لكنّني كنتُ أعلم أنّه سيظل يؤلمني.

في صمت الزنزانة المُوحِش، قبّل (مال) جرحي الذي أُصبتُ به منذ مدّة طويلة، والذي لا أظنّه سيلتئم يومًا.

ظللنا مُستلقييْن على الأرض، خدّانا مُتعانقان من بين القضبان، ويدانا لا تنفكّان عن بعضهما، إلى أن خلدنا إلى النوم.. لم أرِد وقتها أن أنام؛ لأستمتع معه بكُل لحظةٍ قد لا تتكرّر. لكنّني غفوتُ لأحلم بالأيل مُجدّدًا، وهذا المرّة كان دم (مال) يقطر فوق الثلج.

استيقظتُ على صوت البوّابة وهي تنفتح بالأعلى وخُطى (إيڤان) وهو ينزل السُّلّم.

أجبرني (مال) أن أعِده بألّا أبكي؛ لأن هذا سيزيد من آلامه، فقمعتُ دموعي، وقبّلته لآخر مرّة، ثم تركتُ (إيڤان) يقودني بعيدًا.

الفصل الثاني والعشرون

كان الفجـر يزحـف فـوق (كريبيرسـك) عندمـا أعـادني (إيڤـان) إلى خيمتــي.

جلسـتُ فـوق سريـري وحدّقـتُ في الظـلام. شـعرتُ بثقـل غريـبٍ في أطـرافي، وعقـلي فـارغ ومُظلـم. بقيـتُ كـما أنـا حتّـى جـاءت (جينيـا).

سـاعدتني عـلى غسـل وجهـي وارتـداء زي الكِفتـا الأسـود الـذي ظهـرتُ بـه أمـام الحشـد ليلـة عيـد الشـتاء. نظـرتُ إليـه وأردتُ أن أمزقـه، لكنّنـي لم أسـتطع، وأبقيـتُ يـدي مغلولـة إلى جانبـي. قادتنـي (جينيـا) بعـد ذلـك إلى الكـرسي المُلـوّن، فجلسـتُ بينـما أخـذت هـي تلـف خصلـه وتثبّتهـا بدبابيـس ذهبيّـة، حتّـى ظهـر طـوق موروزوڤـا جليًّـا حـول رقبتـي. وعندمـا انتهـت، احتضنـت خـدّي بخدّهـا ثـم اصطحبتنـي إلى (إيڤـان)، ووضعـت يـدي عـلى ذراعـه وكأنّنـي عـروسٌ تُـزَف. قـادني دونمـا كلام إلى خيمـة الغريشـا، حيـث جلسـتُ بجانـب مُسـتحضر الظـلام. راقبنـي جميـع أصدقـائي، وأخـذوا يتهامسـون ويتسـاءلون مـاذا بي. لقـد ظنّـوا أنّنـي مُتوتّـرة مـن دخـول الطيّـة، لكنّهـم كانـوا مُخطئـين؛ فأنـا لم أكُـن مُتوتّـرة ولا خائفـة.. ولم أعُـد أشـعر بـشيء عـلى الإطـلاق.

تبعنـا الغريشـا في موكـبٍ مُنظّـم طـوال الطريـق إلى المرفـأ الجاف، واختـير مـن بينهـم عـددٌ قليـل ليصعـدوا عـلى مـتن السـفينة الرمليّة ذات الأشرع الثلاثـة المرسـوم عليهـا رمـز مُسـتحضر الظـلام، التـي لم

أرَ سفينة تضاهيها حجمًا. جُلتُ ببصري باحثةً عن (مال) بين الجنود والغريشا، لكنّني لم أرَه رغم تأكّدي من أنّه يقف في مكانٍ ما.

رافقنا الغريشا إلى مُقدّمة السفينة حيث عرّفوني على مجموعة من الرجال يرتدون أزياء أنيقة، لهم لحى شقراء وعيون زرقاء. أدركتُ بعد ذلك أنّهم سفراء قادمون من (فيردا). ووقف بجانبهم وفد من (شو هان) يرتدون أزياء قرمزيّة من الحرير، ومجموعة من تجّار (كيرتش) الذين يرتدون معاطف قصيرة لها أكمام غريبة واسعة، وبالقرب منهم وقف مبعوث الملك بزيّه العسكري الكامل، على وجهه ملامح صارمة، يرتدي وشاحًا لونه أزرق خافِت مُطرّز عليه عُقاب الملك المزدوج ذهبي اللون.

دفعني الفضول للتحديق في وجوههم. علمتُ أن مُستحضر الظلام قد أجّل رحلتنا إلى الطيّة حتّى تتسنّى له فرصة لاستدعاء تلك الشخصيّات المُهمّة ممّن سيشهدون تكشّف قواه المُستحدثة. ولكن إلى أي مدى سيستعرض تلك القوى؟

تسلّل الخوف إلى قلبي بعدما كان خاليًا من المشاعر منذ الصباح.

اهتزّت السفينة وبدأت تنزلق فوق العشب مُتجهةً نحو ضباب الطيّة حالك السواد. رفع ثلاثةٌ من المُستحضرين أذرعهم فدفعت الرياح الأشرع الضخمة للأمام. في المرّة الأولى التي دخلتُ فيها الطيّة، كنتُ خائفة من الظلام، ومن الموت. لكنّني لا أهاب الظلام الآن، وأعلم أن الموت سيصير هِبةً أودُّ الحصول عليها.

كنتُ أعلم أنّني سيتعيّن عليّ العودة إلى اللا بحر يومًا ما؛

هـذا مـا أكّـده لي حـدسي. أردتُ -في وقـتٍ مـا- أن أسـتغل فرصـةً لإرضـاء مُسـتحضر الظـلام. كنـتُ أحلـم بلحظـةٍ كهـذه.. بـأن أقـف بجانبـه، وأؤمـن بالمصير الـذي حـدّده لي. وعندمـا تُغيّر العـالم تلـك اليتيمـة المنبـوذة، سيعشـقها الجميـع.

ظـلّ مُسـتحضر الظـلام ينظـر أمامـه، ووجهـه يشـع ثقـة وارتياحًـا. ومضـت الشـمس مـرّة وحيـدة، ثـم تـوارت عـن الأنظـار، وبعـد لحظـة عمّـت ظلمـة حالكـة. دفـع مُسـتحضرو الريـاح السـفينة للأمـام، فمضينـا لفـترةٍ طويلـة بـين ثنايـا الظـلال، ثـم صـاح مُسـتحضر الظـلام فجـأة قائـلًا: «فليقـذف المُسـتحضرون نيرانهـم في الهـواء».

أطلـق مُسـتحضرو النـيران، المُتمركـزون عـلى جانبـي السـفينة، كُـرات لهـب ضخمـة أضـاءت الهـواء للحظـات ثـم تلاشـت. ارتجفت أجسـاد السـفراء، وحتّـى الحـرّاس، رعبًـا.

أراد مُستحضر أن يُعلِم كائنات الفولكرا بموقعنا.. وقد نجح.

لبّـت الكائنـات النـداء. ارتعـش جسـدي عندمـا سـمعتُها تصفـق أجنحتهـا. ولم أكُـن الوحيـدة التـي اعتراهـا الخـوف؛ فجميـع مَـن عـلى السـفينة أصابهـم الذعـر، حتّـى أنّ الفيردانيـين بـدأوا يتمتمون ببعـض الصلـوات بلُغتهـم الغريبـة.

رأيـتُ في وهـج نـيران الغريشـا، أجسـاد الفولكـرا الدّاكنـة وهـي تخفـق بأجنحتهـا نحونـا، وتشـق صرخاتهـا ثنايـا الهـواء.

لقـد أخبرتنـي (باغـرا) أن كائنـات الفولكـرا كانـت يومًـا مـن البـشر، وقـد وقعـوا ضحايـا لجشـع مُسـتحضر الظـلام الـذي آذاهـم بقوّتـه غـير العاديّـة. والحـق أنّ صرخاتهـم المُريعـة كانـت تُشـبه

صرخات البشر، أو ربما هذا ما صوّره لي عقلي.

عندما اقتربوا منّا حتّى صاروا فوق رؤوسنا، أمسك مُستحضر الظلام ذراعي بقوّة وقال: «الآن!».

اخترقتني يده الخفيّة واستحوذت على قوّتي، فشعرتُ بها تتمدّد وتغادرني بقوّة وسرعةٍ ودفء لم أعهد مثلهم من قبل، حتّى كِدتُ أقع على الأرض. أضيئت الطيّة بأكملها، وكأنّ شمس الظهيرة قد بزغت بداخلها، مُبدّدةً الظلمة كما لو لم تكُن هناك من الأساس. ورأيتُ حُطام سفن مغروزة في الرمال البيضاء الميّتة من تحتنا، وفي الجو حلّق سرب من كائنات الفولكرا، وقد أصابها الرّعب وأخذت تصرخ عاليًا. بدت أجسادها بشعة المظهر في ضوء الشمس السّاطع.

قلتُ في نفسي: «هذه حقيقته.. فكل شيء يستدعي ما يشابهه».

استدعت روحه تلك الكائنات.. وظهرت حقيقته في كرة الشمس الحارقة التي خلقتها.. تلك هي الحقيقة وراء وجهه الوسيم وقواه الخارقة: فضاء ميّت وفارغ بين النجوم، أرض خراب تسكنها وحوش مرعبة.

«اخلقي مسارًا».

لا أدري إذا كان قد أمرني بذلك بالفعل أم هذا صوت نابع من داخلي. تركتُ ظلام الطيّة يقترب منّا من الجانبيْن بينما ركّزتُ الضوء لأصنع قناة لتمُر السفينة داخلها. هربت الفولكرا لتختبئ بين ثنايا الظلام، وعلّت صرخاتها الغاضبة في الأرجاء وكأنّها تشق ذلك الستار المُظلم.

انطلقنا فوق الرمال الشفّافة، واندفع ضوء الشمس في موجات مُتلألئة أمامنا. لمحتُ ضوءًا أخضر في الأفق، فأدركتُ أنّه ينبعث من الجانب الآخر من الطيّة. أطلتُ التحديق أمامي فرأيتُ (راڤكا الغربية). وعندما اقتربنا أكثر رأيتُ مرجهم، ومرفأهم الجاف، وخلفه قرية (نوڤوكريبيرسك)، كما لمعت أمامي -من بعيدٍ- أبراج (أوز كيرڤو).

شممتُ حينها رائحة البحر الحقيقيّ التي عبّأت الهواء من حولنا، وتمنّيتُ ألّا يكون هذا حلمًا.

احتشد الكثير من أهل القرية في المرفأ، وأشاروا جميعًا نحو نفق الضوء الذي خَرق الطيّة أمام أعينهم. دقّقتُ النظر فرأيتُ أطفالًا يلعبون في المرج، كما سمعتُ نداءات العاملين بالمرفأ.

أشار مُستحضر الظلام فبطأت سرعة السفينة، ثم رفع يديه. أصابني الرعب لعِلمي بما سيفعله.

صرختُ بيأسٍ قائلةً: «هؤلاء أناسك!».

تجاهلني وصفّق بيده مرّة واحدة فصدر صوتٌ أشبه بصوت الرّعد هزّ الأرجاء.

حدث كل شيء ببطء: انبثق الظلام من بين يديه وامتزج بظلام الطيّة، وعلى صوت صريرٍ من الرمال الميّتة. نبض جدار الظلام الذي أحاط بالنفق الذي صنعته، وأخذ يتضخّم ويعلو.

قلتُ في نفسي وقد أصابني الذعر: «إنّ الظلام يتنفّس!».

استحال الصرير إلى زئير، واهتزّت الطيّة بعنفٍ، ثم اندفعت كموجة هائلة إلى الأمام.

صرخ جميع مَن في المرفأ مذعورين وفرّوا هاربين. رأيتُ الخوف قد سكن وجوههم، وسمعت صرخاتهم تعلو عندما أحاطت الموجة النابضة المرفأ والقرية، واندفعت الڤولكرا نحو فرائسها.

كانت ثمّة امرأة تحمل طفلًا صغيرًا، تعثّرت أثناء مُحاولتها للهروب من الظلام البشع الذي ظلّ يُلاحقها، إلى أن ابتلعها هي وطفلها.

حاولتُ يائسةً أن أوسّع نطاق الضوء حتّى أبعد الڤولكرا عنهم وأوفّر لهم الحماية الكافية، لكنّني فشلت؛ فتلك اليد الخفيّة قد سرقت قوّتي مُستهزئةً بي. تمنّيتُ وقتها أن أطعن مُستحضر الظلام في قلبه، ثم أطعن نفسي، لعلّ هذا يوقف تلك المذبحة.

نظر مُستحضر الظلام إلى السفراء ومبعوث الملك الذين ارتدت وجوههم أقنعة الخوف والصدمة. أظنّه كان يشعر وقتها بشيء من الرضا؛ لأنّه باعد يديه فتوقّف الظلام عن التدفّق للأمام، وتلاشى الصرير الذي ارتجف له الجو.

سمعت نحيب من ابتلعهم الظلام، وصرخات الڤولكرا الجائعة، وأصوات طلقات البنادق. ونظرتُ نحو المرفأ فوجدته قد مُحيَ تمامًا من على سطح الأرض، وكذلك لم أجد قرية (نوڤوكريبيرسك) وكأنّها لم تكُن هناك. لم تتبقَ أمامنا سوى مساحات ممتدّة من الطيّة.

كانت رسالة مُستحضر الظلام واضحة: اليوم (راڤكا الغربيّة)، وغدًا قد يُوسّع الطيّة شمالًا إلى (فيردا) أو جنوبًا إلى (شو هان)، ما يعني أنّ الظلام سيبتلع بلادًا بأكملها، وسيدفع الأعداء إلى

جهة البحر.

تُرى كم بلدًا سيفنى بسببي؟

انبعث صوت مُستحضر الظلام بداخلي آمرًا إيّاي بإغلاق نفق النور. لم يكن لديّ خيار آخر سوى إطاعته، فقلّصتُ دائرة الضوء حتّى صارت كقبّة تعتلي السفينة.

همس مبعوث الملك قائلًا بصوت مُرتجف: «ماذا فعلت للتو؟»

التفت إليه مُستحضر الظلام وقال: «أتريد رؤية المزيد؟».

«كان من المُفترض أن تقضي على هذه الطيّة بدلًا من أن تُوسّعها! لقد ذبحت أهل راقكا! ولن يتهاون الملك عن...».

«بل سيفعل ما آمره به، وإلّا سأذهب بالطيّة حتّى أسوار أوز ألتا!».

لم يتفوّه مبعوث الملك بكلمة.

التفت مُستحضر الظلام نحو السفراء وقال: «أعتقد أنّ كل شيء قد اتضح الآن. لن تكون ثمّة أسماء للبلاد مثل راقكا، أو فيردا، أو كيرتش، أو شو هان؛ سأزيل كل الحدود وستتوقّف كل الحروب. من الآن فصاعدًا، ستكون هناك أرض خارج الطيّة، وأرض بداخلها. وسيعم السلام».

قال عضو من وفد شو هان بغضب: «أخبرنا بشروطك لتحقيق السلام».

صاح سفير من فيردا قائلًا: «لن نرضى بأي شرط!».

نظر إليهم مُستحضر الظلام وقال بهدوء: «سأملي شروطي وإلّا سأنسف جبالكم القيّمة، وسأعيث فسادًا في سهولكم

الجليديّـة التـي نبذهـا القدّيسـون في القِـدَم».

كنـتُ أعلـم أنّـه يعنـي كل كلمـة تفـوّه بهـا. قـد يظـن السـفراء أنّ كلماتـه مـا هـي إلّا تهديـد شـديد اللّهجـة، وأن ثمّـة حـدًّا لـشرّه، لكنّهـم سـيعلمون أنّهـم مُخطئـون قريبًـا؛ فمُسـتحضر الظـلام لـن يـتردّد لحظـة في الإطاحـة بهـم، ولـن يـذرف مـن عينـه دمعـة. سـيبتلع ظلامـه العـالم بأكملـه ولـن يبـالي.

أولاهـم ظهـره، تـاركًا الصدمـة تعتـلي وجوههـم، وقـال للجنـود والغريشـا المُنتشريـن عـلى مـتن السـفينة: «أخـبروا الجميـع بمـا رأيتمـوه اليـوم.. أخبروهـم أن أيّـام الخـوف والقتـال الـذي لا ينتهـي قـد ولّـت، وأنّ ثمّـة عـصرًا جديـدًا يـدق أبوابنـا».

هتـف الجميـع فرحـين إلّا مـن بعـض الجنـود الذيـن همسـوا في آذان بعضهـم، وبـدا التوتّـر عـلى بعـض الغريشـا. لكـن السّـواد الأعظـم منهـم قـد لمعـت وجوههـم ببريـق الانتصـار.

قلتُ في نفسي: «كان أغلبهم مُتعطّشين للحظةٍ كهذه».

ولم يعبـأ أحـد بمـا فعلـه مُسـتحضر الظـلام، وكـم روحًـا زُهِقـت بـلا رحمـة.

لقـد وعدهـم بإنهـاء الحـروب، والأهـم أنّـه سـيُخلّصهم مـن ضعفهـم، وسـيمنحهم شـعورًا بالانتصـار الـذي فقـدوه منـذ سـنوات طويلـة مـن الذعـر والمُعانـاة، وظنّـوا أنهـم لـن يسـتعيدوه إلى الأبـد. وعـلى الرغـم مـن خوفهـم منـه، فإنّهـم أحبّـوه لهـذا.

أشـار مُسـتحضر الظـلام إلى (إيڤـان)، فوقـف خلفـه مُنتظـرًا الأوامـر.

«أحضر المسجون إليّ».

نظـرتُ إليـه بحِـدّة، وقـد سـيطر الخـوف عـليّ عندمـا رأيـتُ (مـال) يمُـر بـين الحشـد والقيـود في يديـه، وبجانبـه (إيفـان) يقـوده نحـو حافـة السـفينة.

قـال مُسـتحضر الظـلام: «سـنعود إلى رافـكا، أمّـا هـذا الخائـن.. فسـيبقى هنـا».

وقبـل أن أدرك مـاذا يحـدث، ألقـى (إيفـان) بـ(مـال) مـن فـوق السـفينة، فصرخـت الفولكـرا وخفقـت أجنحتهـا. ركضـتُ إلى الحافة ونظـرت إلى الأسـفل فرأيـتُ (مـال) مُسـتلقيًا عـلى جنبـه فـوق رمـال دائـرة النّـور الواقيـة التـي صنعتهـا. كان يبصـق رمـالًا مـن فمـه ويُحـاول النهـوض مُسـتندًا عـلى يديـه المُقيّدتـين.

- «مال!»، صِحتُ بأعلى صوتي.

ودون أن أفكّـر، اسـتدرتُ إلى (إيفـان) ولكمتـه بقـوّة عـلى خـدّه، فتعـثّر وكاد يسـقط مـن الحافـة، لكنّـه تمالـك نفسـه ووقـف مذهولًا للحظـة ثـم اندفـع نحـوي وأمسـك بذراعـي بعنـف.

قلتُ في نفسي: «جيّد، ألقِ بي لأكون معه».

صاح مُستحضر الظلام بنبرةٍ حادّة: «توقّف!».

قطّـب (إيفـان) جبينـه وقـد احمـرّ وجهـه مـن فـرط الخجـل والغضـب. في النهايـة، أرخـى قبضتـه لكنّـه لم يفلـت ذراعـي.

اعتلـت الحـيرة وجـوه كل مَـن عـلى مـتن السـفينة؛ فلَـم يعلـم أحـد مـا السـبب وراء انزعـاج مُسـتحضر الظـلام مـن أحد المسـاجين، ولمـاذا لكَمَـت الغريشـا المُفضّلـة لديـه وجـه أهـم رجـل مـن رجاله.

انبعث أمر داخلي يقول: «قلّصي قبّة الضوء».

نظـرتُ إلى مُسـتحضر الظـلام بعينـين يملؤهـما الرعـب ثـم قلـتُ:

«كلّا!».

لكنّني لم أستطع المُقاومة.

بـدأت قبّـة الضـوء تنكمـش، مُقتربـةً مـن السـفينة. رمقنـي (مـال) حينهـا بنظـرةٍ كلّهـا نـدم وحـب، ولـولا أن (إيڤـان) كان مُمسـكًا بذراعـي لجثـوتُ عـلى ركبتـي. حاربـتُ كل المعـارك التـي تـدور بداخـلي آملـةً أن أنتـصر. قاومـتُ بـكل مـا تبقّـى مـن قـوّتي، وحاولـتُ أن أنفّـذ كل مـا علّمتنـي إيّـاه (باغـرا)، لكـن قـوّة مُسـتحضر الظـلام كانـت لهـا اليـد العليـا.. وظـلّ الضـوء يتقلّـص ويزحـف نحـو السـفينة.

أمسـكتُ بحاجـز السـفينة وصرخـتُ بغضـبٍ، بيـأسٍ، حتّـى مـلأت الدمـوع بركـةً مـن تحتـي. صـار (مـال) يقـف عنـد حافّـة القبّـة الآن. اسـتطعتُ رؤيـة الڤولكـرا وهـي تُحلّـق في الظـلام، وشـعرتُ بنبـض أجنحتهـا. كان بإمـكان (مـال) أن يركـض، أو يبـكي، أو يتشـبّث بحافّـة السـفينة إلى أن يبتلعـه الظـلام، لكنّـه لم يفعـل أيًّـا مـن هـذا، ووقـف ثابتًـا، صامـدًا، في وجـه الظلمـة المُوحِشـة التـي تتجمّـع مـن حولـه لتهجـم عليـه.

لا يُمكـن لأي قـوّة أن تنقـذه سـوى قـوّتي، ومـع ذلـك فلَـم أسـتطع فعـل أي شيء. تنفّـس مُسـتحضر الظـلام بعُمـقٍ عندمـا اختفـى (مـال) وكأنّـه قـد ابتلعـه. سـمعته يبـكي، فوجدتنـي أسـتحضر صـورة الأيـل أمامـي، كاملـةً وحيّـة، لدرجـة أنّنـي تخيّلتنـي أقـف فـوق مُسـطّح ثلـجٍ، وفي الظـلام الحالـك أمامـي تـراءى لي الأيـل مرفـوع الـرأس. شـممتُ رائحـة الصنوبـر، وشـعرتُ بالهـواء البـارد يُلامـس خـدّي.

تذكّـرتُ عينـي الأيـل الداكنتـين، وأنفـه الـذي ينفـث دخّانًـا في

الصقيع. لقد عتقته، ولهذا السبب كان يراودني كل ليلة في الأحلام. ظننتُ أنّه كان يطاردني ليُذكّرني بفشلي ومدى ضعفي الذي سيُكلّفني الكثير، لكنّني كنتُ مُخطئة؛ فقد كان الأيل يُرشدني إلى معرفة مدى قوّتي. ومثلما يُخطرني بالثمن الذي سأدفعه لأنّني قد تحلّيتُ بالرحمة، فقد كان يدلّني على القوّة التي ستمنحها لي.. والرحمة شيء لن يفهمه مُستحضر الظلام.

إنّني لم أقتل الأيل، ولذلك فقوّته تنتمي إليّ تمامًا مثلما تنتمي لمن قتله.

تنفّست الصعداء؛ فها قد فهمتُ أخيرًا! شعرتُ بتلك اليد الخفيّة ترخي بقبضتها داخلي. عُدتُ أتحكّم في قواي، وتخيّلتني أقف مرّة أخرى في كوخ (باغرا)، أستحضر النور وكأنّها المرّة الأولى، شاعرةً به يتدفّق بين أوصالي، مُستحوذًا على كل جزء منّي.

هذا ما خُلِقتُ لأجله، ولن أسمح لشيء أن يحول بيني وبينه.

انفجر الضوء منّي، نقيًّا وواضحًا، وتدفّق بسرعة نحو البقعة التي كان يقف فيها (مال) منذ لحظات. صرخت الڤولكرا التي كانت تمسك به، وتركته وهربت، فهوى على ركبتيه وظلّت جروحه تنزف دمًا. أحاطه ضوئي، ففرّت الڤولكرا هاربة.

بدت الحيرة على وجه مُستحضر الظلام. دقّق النظر في وجهي فشعرتُ بقبضته الخفيّة تُحاول السيطرة عليّ، فأبعدتها.

إنّه لا شيء.. إنّه لا شيء!

«ما هذا؟»، همس مُستحضر الظلام، ثم رفع يديه فاندفعت

نحوي حبال من الظلام. لكنني، بإشارة من إصبعي، أحرقتها.

تقدّم نحوي مُستحضر الظلام، وقد استحالت ملامحه الوسيمة إلى ملامح غضب. كان عقلي يعج بالأفكار؛ إنّه يريد بالطبع أن يقتلني، لكنّه لن يستطيع، على الأقل لأن الفولكرا تحوم حول دائرة الضوء التي صنعتها.

صاح مُخاطبًا الحرس: «اقبضوا عليها!».

فأسرع (إيفان) نحوي.

شعرتُ في تلك اللحظة بثقل الطوق حول رقبتي، وبنبضات الأيل الثابتة التي تُطابق نبضات قلبي. ازدادت قوّتي، وصارت أكثر صلابة وكأنها سيف في يدي. رفعتُ ذراعي وضربتُ الهواء بهذا السيف، فانقسم أحد صواري السفينة إلى قسمين. تفرّق الناس من حوله مذعورين فسقط على سطح السفينة، وتلألأ الخشب في الضوء المُتوهّج.

صُدِم مُستحضر الظلام.

قال (إيفان) مُتراجعًا: «القطع!».

فقلتُ مُحذّرةً: «ارجع للخلف».

قال مُستحضر الظلام: «أنتِ لستِ قاتلة يا ألينا».

«أظن أن أهل راڤكا الذين ساعدتك على قتلهم سيكون لهم رأي آخر».

انتشر الخوف على وجوه كل مَن في السفينة، بما في ذلك حُرّاس الأوبرتشنيكي الذين أحاطوا بي.

صِحتُ إلى الحرّاس والغريشا من حولي قائلةً: «أرأيتم ما حدث لهؤلاء الناس؟ هل هذا هو المُستقبل الذي تريدونه؟

أتـودّون للعـالم أن يتحـوّل إلى ظـلام، أي إلى صـورة لمُسـتحضر الظـلام نفسـه؟».

رأيتُ في وجوههم الحيرة والرعب والغضب.

أردفــتُ: «بإمكاننــا أن نمنعــه؛ لم يفُــت الأوان بعــد! أرجوكــم ســاعدوني».

لم يُحـرّك أحدهـم سـاكنًا. تجمّـد الجنـود والغريشـا في أماكنهـم، وقـد غمـر الخـوف قلوبهـم.. خـوف مـن مُسـتحضر الظـلام، ومـن العـالم دون حمايتـه.

اقـترب حـرّاس الأوبرتشـنيكي وكان عـليّ أن أتّخـذ قـرارًا؛ فلَـن تكـون ثمّـة فرصـة أخـرى لي ولـ(مـال).

قلتُ في نفسي: «ليكن».

نظـرتُ خلفـي، وتمنّيـت أن يفهـم (مـال) مـا سـأفعله، ثـم ركضـتُ نحـو حافّة السـفينة.

صاح مُستحضر الظلام: «لا تسمحوا لها أن تصل إلى الحافّة!».

ركض الحرّاس نحوي، فتخلّصتُ من الضوء.

انغمسـنا في الظـلام، فـصرخ النـاس وسـمعتُ صيحـات الڤولكـرا تنبعـث مـن فوقنـا. أمسـكتُ بحاجـز السـفينة وتدحرجـتُ مـن تحتـه، وألقيـتُ بنفسـي في أحضـان الرمـال. ثـم ركضـت نحـو (مـال) قاذفـةً قوسًـا مـن الضـوء أمامـي.

دارت معركـة شرسـة في السـفينة مـن خلفـي. ذُبـحِ الكثـيرون أثناء هجـمات الڤولكـرا، وحـاول مُسـتحضرو النـيران إبعادهـا بإرسـال دفقـاتٍ مـن النـيران في الظـلام. لكنّنـي لم أتوقّـف عـن الركـض، وتركتهـم لمصيرهـم.

طار قوس الضوء الذي أرسلته باتجاه (مال)، فجثا على ركبتيه، وصرخت القولكرا وتوارت بين ثنايا الظلام. أسرعتُ نحوه على غير هدى، وساعدته كي يقف من جديد.

اخترقت طلقةٌ الرمالَ بجانبنا فتوارينا في الظلام مُجدّدًا.

صاح مُستحضر الظلام ناظرًا نحو الفوضى التي تملأ السفينة: «لا تطلقوا النار! أريدها حيّة».

قذفتُ بقوس ضوء آخر لأشتّت سرب القولكرا الذي كان يُحلّق حولنا.

صاح مُستحضر الظلام مُجدّدًا قائلًا: «لن تستطيعي الهرب منّي يا ألينا».

لم أستطع أن أتركه ليلحق بنا.. لم أستطع أن أمنحه فرصة ليبقى على قيد الحياة. وكم أكره ما عليّ فعله! ولكن بما أن جميع مَن على السفينة قد رفضوا مُعاونتي، فأظن أنّهم يستحقّون أن أتركهم مع القولكرا.

قال مُستحضر الظلام: «لا يُمكنك أن تتركينا هنا لنواجه الموت يا (ألينا). وإذا قرّرتِ ذلك، فأنتِ تعلمين جيّدًا ماذا سيترتّب على ذلك».

أردتُ أن أضحك حتّى يتألّم صدري.

كنتُ أعلم أنّني سأصير مثله.

علا صوته فوق صرخات الرعب التي ملأت الجو قائلًا: «لقد توسّلتِ إليّ من قبل كي أرأف بالمُتعقّب، هل تُسمّين هذه رحمة؟».

أُطلِقَت طلقة أخرى كادت تُصيبنا.

قلتُ في نفسي: «أجل، تلك هي الرحمة التي علّمتني إيّاها».

استجمعتُ قواي ورفعتُ يدي ثم قذفتُ قوسًا وهّاجًا من الضوء، فشقّ الهواء وشطَر السفينة إلى نصفين مُحدِثًا ضجيجًا تردّد في أرجاء الطيّة. وسرعان ما علَت صرخات ركّاب السفينة والڤولكرا من حولنا.

تشبّثتُ بذراع (مال) وصنعتُ قبّة من الضوء لتحمينا، ثم ركضنا شاقّين الظلام، إلى أن تلاشت أصوات المعركة من خلفنا.

***

خرجنا من الطيّة إلى مكانٍ ما يقع في جنوب (نوڤوكريبيرسك)، وسِرنا في (راڤكا الغربيّة) لأوّل مرّة. كانت شمس الظهيرة بازغةً، والمروج حولنا خضراء تسرُّ النّاظرين، لكنّنا لم نتوقّف لنستمتع بأي من تلك المشاهد. أصبنا بجروح، وكنّا مُرهقيْن جائعيْن نشحذ قسطًا من الراحة، لكنّنا لن نرتاح الآن.. مثلما لم يرتَح أعداؤنا.

مضينا إلى أن وجدنا بستانًا آوانا حتّى المساء، آمليْن ألّا يرانا أحد ويتذكّر وجوهنا. كان الهواء مُعبّأً برائحة أزهار التفّاح، لكنّ الثمرات كانت صغيرة للغاية ولم تنضج بعد. وبجانبنا تحت الشجرة، كان ثمّة دلو مُمتلئ بماء المطر الراكد، استخدمناه لغسل البقع من قميص (مال) المُلطّخ بالدماء. حاول (مال) ألّا يُظهر تألّمه بينما كان يخلع قميصه المُمزّق، لكنّه لم يستطع مُواراة الجروح الغائرة التي أصابته بها مخالب الڤولكرا في ظهره وكتفه.

وعندما حلّ المساء، ارتحلنا إلى الساحل. خِفتُ في البدء أن

نضل في هذا البلد الغريب، لكنّني تفاجأتُ بأن (مال) يعرف الطريق.

صعدنا تلًّا قبيل الفجر وشاهدنا امتداد خليج (ألخِم)، ومن تحتنا ومضت أضواء (أوز كيرڤو). كان علينا أن نمضي إلى الطريق الرئيسي سريعًا قبل أن يكتظ بالمسافرين والتجّار الذين لا شك سيلحظون مُتعقّبًا مُمزّق الملابس وفتاة ترتدي زي الكِفتا الأسود. لكنّنا لم نستطع مُقاومة النظر نحو البحر الحقيقيّ لأوّل مرّة.

أشرقت الشمس من خلفنا، قاذفةً ضوءًا ورديًا خافتًا فوق أبراج المدينة النحيلة، ثم تبزغ منه أشعَة ذهبيّة تتراقص على سطح البحر الحقيقيّ. شاهدنا معًا امتداد الميناء، والسفن الضخمة التي تتمايل في المياه حيث الزرقة تمتدُّ بعيدًا نحو الأفق الذي لا ينتهي.

من خلال معرفتي بالكثير من الخرائط، كنتُ أعلم أن ثمّة يابسًا في مكان، ربما سنجده بعد السفر لأسابيع طويلة وبعدما نقطع أميالًا طويلة في البحر. لكنّني ما زلتُ أشعر أنّنا نقف على حافَة العالم، حيث الهواء مُحمّل برائحة الملح، وطيور النورس تنعق بصوتٍ عالٍ.

قلتُ في النهاية: «ما زال أمامنا الكثير».

أومأ (مال) برأسه ثم التفت إليّ وقال بثغرٍ مُتبسّم: «نحتاج إلى مكانٍ جيّد لنختبئ فيه»، ثم تخلّلت أصابعه شعري وسحب إحدى الدبابيس الذهبيّة، فتحرّرت خصلة مُتموّجة وانزلقت إلى عنقي.

وضع الدبّوس في جيبه وقال: «سأستخدمه».

تلك الدبابيس قد ثبّتتها (جينيا) في شعري البارحة، وها أنا لن أراها ثانيةً، ولن أرى أي أحد. انقبض قلبي.. لا أعلم إذا كانت (جينيا) صديقةً لي حقًّا أم لا، لكنّني سأشتاق إليها رغم أي شيء.

تركني (مال) بالقرب من الطريق الرئيسي، مُختبئةً خلف ساتر من الأشجار. ارتأينا أنّه من الأفضل أن يدخل (أوز كيرڤو) بمفرده، لكنّ قلبي لم يُرِده لأن يذهب. أخبرني أنّني عليّ أن أستريح، والحق أنّني لم أذُق طعم الراحة منذ رحيله. ما زلتُ أشعر بالقوّة تتدفّق داخلي.. ربما هذا بسبب ما قمتُ به في طيّة الظل. وضعتُ يدي على الطوق المُستقر حول رقبتي، فخالجني شعور غريب عنّي، وثمّة جزء منّي أراد ذلك الشعور أن يتكرّر.

انبعث صوت في رأسي يقول: «وماذا عن هؤلاء الذين تركتِهم هناك؟».

أردتُ أن أتجاهل ذلك السؤال..

كل السفراء والجنود والغريشا قد لقوا حتفهم بسببي، دون حتّى أن أتأكّد من موت مُستحضر الظلام. تُرى هل مزّقت أوصاله الڤولكرا؟ هل انتقم رجال ونساء وادي تولا من المُهرطق الأسود؟ أم إنّه -في هذه اللحظة- يزحف بالطيّة نحوي لكي يظفر بانتقامه؟

كل صوتٍ كنتُ أسمعه حولي كان يُرعبني.

ظننتُ أن (مال) قد تعرّف عليه أحدهم وقبض عليه عندما

قـاربَ المسـاء عـلى الحلـول دون أن يـأتي. لكنّنـي سـمعتُ وقـع خطواتـه في النهايـة، وظهـر لي مـن بـين الأشـجار. كِـدتُ أبـكي فـور رؤيتـه.

سألته مُحاولةً إخفاء توتّري: «هل واجهت أي متاعب؟».

«إطلاقًا؛ لم أرَ في حيـاتي مدينـة مُزدحمـة إلى هـذه الدرجـة. مررتُ بالكثـير مـن النـاس ولم ينظـر إليّ أحـد مرّتين!».

كان يرتـدي قميصًـا جديـدًا ومعطفًـا لا يُناسـب حجمـه، وحمـل عـلى ذراعيـه ملابـس لي: فسـتانًا سـيئ المظهـر يُشـبه شـوالًا، لونـه أحمـر خافـت أقـرب إلى اللـون البرتقـالي، ومعطفًـا قصـيرًا لونـه كلـون الخـردل. اسـتدار فـور أن أعطـاني الملابـس كي أرتديهـا.

قضيـتُ وقتًـا طويـلًا في فـك أزرار الكِفتـا الصغـيرة لدرجـة أنّنـي تخيّلـتُ أن ثمّـة الآلاف منهـا. وعندمـا انزلـق الـزي الحريـري عـلى كتفـيّ، ثـم إلى الأرض، شـعرتُ وكأن حِمـلًا ثقيـلًا قـد زال مـن فـوق ظهـري. وخـز هـواء الربيـع البـارد جلـدي العـاري، ولأوّل مـرّة شـعرتُ أنّنـا صِرنـا حُرّيْـن. ولكنّنـي أطحـتُ بذلـك الشـعور؛ فلَـن أزفـر زفـرة المُنتصريـن إلّا عندمـا أتأكّـد مـن مـوت مُسـتحضر الظـلام.

ارتديتُ الفستان المصنوع من الصوف، ثم المعطف الأصفر.

قلـتُ لـ(مـال): «هـل تعمّـدتَ شراء أفظـع الملابـس التـي وجدتهـا أمامك؟».

اسـتدار نحـوي وابتسـم قائـلًا: «بـل ابتعـتُ أوّل مـا وقـع عليـه نظـري».

ثـم تلاشـت ابتسـامته، ولامـس خـدّي بأصابعـه بلطـفٍ. وعندمـا

تحـدّث ثانيـةً، خفـض صوتـه وقـال بهـدوء: «لا أريـد أن أراكِ مُرتديـةً اللـون الأسـود مـرّة أخـرى».

نظرتُ في عينيه وهمستُ: «لن أرتديه أبدًا».

وضـع يـده في جيـب معطفـه وأخـرج منـه وشـاحًا طويـلًا أحمـر اللـون، لفّـه حـول عنقـي برِقّـة مُخفيًـا طـوق موروزوفـا.

ابتسم عندما انتهى وقال: «ممتاز».

ضحكتُ وقلتُ: «وماذا سأفعل عندما يحل الصيف؟».

«سنكون قد وجدنا طريقةً للتخلّص منه».

«لا!»، قلتُ بحِدّة مُفاجئة.

بـدا الاندهـاش عـلى وجـه (مـال) فأردفـتُ: «لا يمكننـا التخلّـص منـه؛ لأنّـه أمـل راڤـكا الأوحـد للتخلّـص مـن الطيّـة».

وهــذه كانــت حقيقــة.. لكنّهــا ليســت كاملــة. فنحــن نحتــاج بالفعـل للطـوق حتّـى نقـدر عـلى مواجهـة قـوى مُسـتحضر الظـلام، ونعــود لإصــلاح مــا أُفسِــد في (راڤــكا). أمّــا الجانــب الآخــر مــن الحقيقـة فلـم أسـتطع إخبـار (مـال) بـه، وهـو أن الطـوق ينتمـي إليّ الآن، وقــوّة الأيــل أضحَــت جــزءًا منّــي الآن، ولا أظنّنــي أودّ الاسـتغناء عنهــا.

حـدّق (مـال) بي بجبـينٍ مُقطّـب. تذكّـرتُ تحذيـرات مُسـتحضر الظـلام، ونظرتـه القاتمـة.. ونظـرة (باغـرا) أيضًـا.

«ألينا...».

ابتســمتُ كي أطمئنــه وقلــتُ: «ســنتخلّص منــه في الوقــت المُناســب».

صمت برهةً ثم قال في النهاية: «حسنًا».

دفَع زي الكِفتا المُكوّم على الأرض، وقال وعلى وجهه نفس التعبيرات الحادّة: «ماذا سنفعل بهذا؟».

نظرتُ إلى الحرير المُهترئ وشعرتُ بالغضب والزي يتملّكان منّي، فقلتُ: «سنحرقه».

وقد فعلنا..

وبينما كان اللهيب يلتهم الحرير، أزال (مال) ما تبقّى من الدبابيس في شعري، واحدًا تلو الآخر، حتّى انسدل شعري على كتفيّ، ثم أبعد شعري بلطفٍ وقبّل عنقي، في موضعٍ يعتلي الطوق مُباشرةً. وعندما انهمرت دموعي، لفّ ذراعيه حول خصري وقرّبني منه، إلى أن استحال الحرير إلى رماد.



الخاتمة

يقف الصبي والصبيّة عند حافّة السفينة، وتلك سفينة حقيقيّة لم يريا مثلها من قبل، أخذت تتمايل وتتهدهد فوق سطح البحر الحقيقي.

يمُرّ بهما أحد أفراد الطاقم، يحمل على كتفيه حبالًا غليظة، ويصيح: «جويد مورجين، فينتومن!».

أيْ «صباح الخير أيّها الشبحان» بلغة أهل (كيرتش)، وهذا ما ينعتهما به طاقم السفينة كلّه.

وعندما تسأل الفتاة ضابط الإمداد والتموين عن السبب، يقهقه ضاحكًا ويقول أنّ لهما وجهين شاحبيْن، كما أنّهما يقفان دائمًا في المكان ذاته دون أن يتفوّها بكلمة، يُحدّقان في البحر لساعاتٍ وكأنّهما لم يريا مياهًا من قبل. تبتسم الفتاة وتخفي عنه الحقيقة، وهي أنّهما لا يستطيعان غضّ طرفيهما عن الأفق، حيث أبحرت سفينة ذات أشرع سوداء.

لقد رحلت سفينة (ڤيرلورين) بعيدًا منذ مُدّة طويلة، وهذا ما دفعهما إلى الاختباء في أحياء (أوز كيرڤو) الفقيرة إلى أن استطاع الصبي أن يبتاع بأحد الدبابيس الذهبيّة تذكرتين لرحلة على متن سفينة أخرى.

ساد الخوف في المدينة بأكملها بعد ما حدث من أهوالٍ في (نوڤوكريبيرسك). ألقى البعض اللّوم على مُستحضر الظلام، ورأى آخرون أن شعب (شو هان) أو (فيردا) هم من تسبّبوا في ذلك، كما ظنّت فئة قليلة أن (راڤكا) قد حلّ عليها غضب

القدّيسين.

انتشرت بعض الإشاعات عمّا يحدث في (راڤكا)، تحدّث البعض عن اختفاء المُستشار الروحاني، واحتشاد قوّات عسكريّة أجنبيّة على الحدود، واحتماليّة اندلاع حرب بين الجيشين الأوّل والثاني، وموت مُستحضرة النور. ترّقب الصبي والصبيّة أي أنباء عن مقتل مُستحضر الظلام ولكنّ لم يذكر أحد الأمر.

وعندما يسدل الليل ستاره على الأرجاء، تنام الصبيّة بين ذراعي الصبي، وعندما يُوقظها كابوس مقيت، ترتجف شفتاها من فرط الخوف، وتدوي في أذنيها صيحات الرجال والنساء الذين خلّفتهم وراءها في السفينة المشطورة، وينتفض جسدها مُتمرّدًا على قواها المكبوتة، فتجد الصبي يحتضنها ليُطمئنها.. دائمًا.

يهمس في الظلمات قائلًا: «لا بأس.. لا بأس. كل شيء سيكون على ما يرام».

يحثّها شعور بداخلها على تصديقه.

تخاف أن تُغمض عينيها، فتُبقيهما مُنفتحتيْن.

تدفع الرياح أشرعة السفينة، فتهتزّ وكأنّها تتنهّد.

لقد عادا وحيديْن من جديد، كما كانا في الصغر. يسترجعان الذكريات عندما كانا يفرّان من الأطفال الذين يكبرونهما سنًا، ومن (آنا كونيا) ذات المزاج المُتعكّر دائمًا، ومن الأشياء التي تخيّلا أنّها تتحرك في الظلام.

عادا يتيميْن، بلا مأوى ولا بيت سوى حُضنهما الدافئ، يأملان أن يبدآ حياة جديدة على الجانب الآخر من البحر.



الظلال والعظام
SHADOW AND BONE

حاوط الأعداء مملكة (رافكا) العظيمة بعدما قسمتها "طيّة الظل" إلى نصفين، وهي رقعة من الظلام الدّامس الذي يصعب اختراقه، حيث تقطن وحوش تتغذى على لحوم البشر. وسرعان ما يلقى مصير (رافكا) على عاتق لاجئة يتيمة. لم يكن ثمّة ما يميّز «ألينا ستاركوف» عن غيرها من رسّامي الخرائط، لكن عندما تعرّضت كتيبتها لهجوم شرس أثناء عبورهم "الطيّة"، وأصيب صديقها المقرّب بجروح غائرة، اكتشفت «ألينا» أنّ لديها قوّة كامنة استطاعت أن تنقذ بها حياة صديقها. وتلك القوّة من شأنها أن تخلص بلدها من أهوال الحرب التي مزقتها لسنين طويلة. وسرعان ما تنتقل «ألينا» إلى البلاط الملكي، حيث ستتدرّب كفرد من أفراد "الغريشا"، وهم نخبة الجنود ممّن لديهم قوى خارقة، يقودهم رجل غامض يدعى «مستحضر الظلام». ومع ذلك، تواجه «ألينا» عدّة صعوبات في حياتها الجديدة. وتزداد خطورة "الطيّة"، ويزداد معها اعتماد المملكة بأكملها على قوتها غير المروضة. فيتعيّن عليها في النهاية أن تواجه أسرار الغريشا... وأسرار قلبها.




9 789778 201123

